



# كتاب العروج

عرض مفصل لرحلة القرآن الحضارية

راشد شاز



كتاب العروج عرض مفصل لرحلة القرآن الحضارية

راشد شاز

MILLI

واليوم من يصدق أن القالب العلمي للحضـارة الذي هو سـبب رونق وبهاء وضـياء الدنيا الجديدة هو في الواقع نتاج أسـلوب وتراض فكرنا الاسـتكشـافي وجذوره لا تنتمي إلي مكان آخر بل توجد في طيات صـفحات الوحي الرباني نفسـه. في القرن الثامن عشـر حينما اسـتخدم "إمانويل كانت" مصـطلح "ويلتانشـاونج" لأول مرة لم يكن لأحد أن يخطيء في فهم أن أهل الغرب لم تكن لديهم أي معرفة عن فلسـفة الحياة من قبل لكن العجب العجاب أن "ويليام ويول" عندما وضـع في عام ١٨٣٢م مصـطلح العلوم للخبراء الاسـتكشـافيين لأول مرة حينها سـادت فكرة وجود عالم غربي المنشـأ نتاج الحضـارة العلمية الحديثة للغرب. ولغاية ما أن كان يسـتخدم مصطلح العلوم العربية للعلوم الاستكشافية كان الطابع العام أن الحضارة العلمية لها صـلة وثيقة بالمسـلمين لكن عندما بدأ يسـود مصـطلح "العلوم" للعلماء الطبيعيين أصـبح الأمر صـعبا علينا أن نؤمن أن هذا المخلوق الجديد "عالم" هل كان له أي علاقة بفكرنا وحضارتنا في يوم من الأيام؟

www.rashidshaz.com

ISBN: 978-93-81461-29-7

milli publications

إن هذا الكتاب ليس آتاب تاريخ عقلاني وفكري وإن آان من الممكن أن يجتاح شعور ملح لتصنيف آتاب جديد للتاريخ مبني علي العقل والحكمة وفي بيئة متخصصة في فن من الفنون هذه حيث يكون جل ترآيز الحكماء والعلماء محصورا علي نوع من الفنون فيزداد الإحساس بأننا في حاجة إلي آتاب للتاريخ يحوي علي جملة أبعاد الحضارة بأسرها من بعد نزول القرآن الكريم. ولكن الأمر ليس سهلا. إن هذا العمل هام للغاية ويستطيع أن يفتح عيون علمائنا التقليديين ذوي القداسة وآذلك علمائنا المحدثين ففي هذا الكتاب حاولنا أن نطلعكم بالحقائق المختلفة والمصادر والمراجع التاريخية من عصر إلي عصر أننا حينما آنا أصحاب أسلوب الفكر الاستكشافي ظلت سيادة وقيادة أقوام وشعوب العالم في أيدينا دون منازع لنا في تلك السيادة لكن حينما داهمتنا وأخذتنا الأساليب الفكرية المبنية علي الأساطير والخزعبلات فما عاد ممكنا الحفاظ علي هذا التكريم وتلك الفضيلة لمدة أطول.

القرآن الكريم موجود بين أظهرنا لا ريب فيه لكن تحت ستار القداسة والتكريم قمنا نحن بتدبير محكم لتعطيل أحكامه وقد زُينت الحياة الدنيا بشكل اختزل فكرة نفي الدين ورفض القرآن الكريم عمليا في صورة ملف الدين أو المذهب الفقهي وهذا هو السبب في أن الفجر الجديد لا يبزغ عندنا علي الرغم من وجود بهرجة دينية وهتافات تشق عنان السماء لأن تقويم جهة الرحلة يتطلب منا أن يكون لدينا حماس آاف لبدء آل شيء من جديد ولبداية جديدة لا بد من محاآمة الدين السائد بيننا من جديد. وهذه المهمة العلمية لن تتم بإتقان ودقة ما لم نسلم لجام المناقشات الحكيمة هذه إلي القرآن الكريم نفسه.

إن السيد راشد شاز من أولئك المثقفين والمفكرين الذين وفقوا لدراسة العلوم الشرقية والغربية ، وحظوا بفرصة وافرة للتعامل مع أصحاب مختلف الحضارات والثقافات.

حصل السيد راشد شازعلي درجة الدكتوراه في الأدب الإنجليزي من الجامعة الإسلامية بعليكره بالهند ثم ذهب إلي السودان لدراسة العلوم العربية والإسلامية حيث التحق بالمعهد العالي للغة العربية بالخرطوم (الجامعة الإفريقية الدولية حالياً).

في عام 1987م وأثناء دراسته أصدر كتيبا لإحياء الإسلام في الهند والذي أحدث حراكا في الوسط الفكري المتجمد لمسلمي الهند. وفي عام 1991م عقد مؤتمرا عاما لمسلمي الهند كخطوة عملية اجرائية لتنفيذ ماورد في هذا الكتيب من توصيات . وفي عام 1993م قام بوضع حجر الأساس لبرلمان ملي وعقد تحت لوائه عددا من المؤتمرات والاجتماعات العامة التي منحت المسلمين نوعا من الثقة ودلتهم إلي سبل التعامل مع الفكر السياسي الجديد. وفي عام 1994م أصدر مجلة إنجليزية باسم "ملي تايمز انتارناشونال"، ومنذ ذلك اليوم يشرف عليها حتي الآن. وفي عام 2004م أصدر مجلة الكترونية أخري تصدر كل شهرين باسم "فيوتشر اسلام"، وذلك لإحياء الفكر الإسلامي. تصدر هذه المجلة باللغتين العربية والإنجليزية في آن واحد. وفي عام 2005م عقد مؤتمرا في مدينة لندن لدراسة ومناقشة الظروف الراهنة علي مستوي العالم، ودعا من خلال هذا المؤتمر الأحزاب الثورية لمحاسبة نفسها وفتح صفحة جديدة.

ولإقامة عالم جديد مبني علي العدل والمساواة ظل راشد شاز فعالا ومتعاونا مع الآخرين في مختلف المحافل الدولية والمنتديات العالمية، وفي هذا الصدد قام بالسفر لمعظم دول العالم.

فى عام ٢٠١٣م عين سيادته أستاذا بجامعة عليكره الإسلامية بطلب من الجامعة ذاتها كما تولى منصب السفير لمنظمة ايسيسكو فى العام نفسه.

قدم راشد مئات المقالات ما بين قصيرة وطويلة عن الفكر الإسلامي والقضايا الخاصة بالأمة الإسلامية باللغات الأردية والإنجليزية والعربية. كذلك صدر له والي أربعين كتابا بأحجام مختلفة من مطابع دلهي وبيروت ولندن والرياض.



# كتاب العروج

عرض مفصل لرحلة القرآن الحضارية





# كتاب العروج

## عرض مفصل لرحلة القرآن الحضارية

راشد شاز

معهد شؤون الأمة الإسلامية

**الطبعة الأولى**

**2022**





**الترقيم الدولي:** 978-93-81461-29-7





اسم الكتاب : كتاب العروج

المؤلف : راشد شاز

الطبعة الأولى : 2022م

الثمن :

الطباعة : جمن للطباعة، دلهي الجديدة-2

**دار المِلّی**

**Milli Publications**



Milli Times Building, Abul Fazl Enclave,

Jamia Nagar, New Delhi –110025, India

Tel: +91-11-26945499 :هاتف

Fax: +91-571-2400182 :فاكس

Email: millitimes@gmail.com البريد الإلكتروني:

Mobile/Whatsapp: +91 7017615883 :موبايل/ واتس ايب

www.millipublications.com


Binding Side

# الفهرس

"البداية الجديدة تحتاج لمبادرات ثورية حتما لأنه ما لم تتغير القوالب القديمة للتفكير والتأمل فإنه لا يمكن بأي حال من الأحوال بناء قالب جديد. ويمكن القول اليوم بعبارة أخري أنه يكاد يكون قد مر علي التباساتنا الفكرية وانحرافاتنا المنهجية حوالي ألف عام، ولقيام مبادرات جديدة هناك شرط واحد علي الأقل لا بد من قبوله وهو إعداد وتهيئة عقل جديد ولا يمكن أن يكون هذا من خلال دراسة الكتب القديمة بكل تأكيد لأن هذا العقل الجديد ينبغي أن يكون مؤهلا للتعامل مع القرآن الكريم كمعلم من معالم الطريق بدلا من الاعتماد علي طرق الشرح والتفسير البالية بحيث تنبثق من تجليات الوحي طرق شتي للحياة الفردية والاجتماعية. وسيكون محور توجهاته مع دلائل الأحكام والاستكشاف أيضا أي سيتُخذ كتاب الهداية بأكمله كوحدة واحدة للرسالة وبذلك سينتهي الموقف الحالي تماما لـ"جعلوا القرآن عضين". "

Binding Side

# مقدمة الكتاب

إن الحياة بحر زاخر بالإمكانيات وفي هذه الحالة يرجع الأمر إلي الشخص نفسه في قدرته علي كيفية إضفاء إمكانيات لا حدود لها في حياته المحدودة. في داخل كل شخص ملك محتمل لكن ينال الملك أولئك الذين تكشفت عليهم هذه الحقيقة. أما الذين لم تنكشف لهم هذه الحقيقة فإنهم يقضون حياتهم بأن يظلوا رهن إشارة الملك ويعتقدون أن مصاحبته معراج لحياتهم. وهناك أمثلة كثيرة في تاريخ البشرية حينما أدرك أبناء الجنود والمماليك وجود الملك الكامن في داخلهم فتحولوا إلي ملوك في لمح البصر وبمعني آخر فإن التغيير مهما كان كبيرا وسواء كان علي مستوي الفرد أو الشعوب والملل فإنه يكون رهنا لتفكيرنا في الأساس. ففي كل عصر من عصور التاريخ اهتم الحكام بهذا الأمر اهتماما شديدا وهو أن يحكموا قبضتهم علي قلب وفكر كل شخص بحيث يظل جاهلا بقدره وقوته الحقيقيتين. إن الملكية التقليدية تتمثل في كونها تنتمي إلي عائلة الشمس والقمر أو ادعاء الألوهية فالكنيسة سعت إلي وضع رقابة صارمة علي قلوب وعقول البشر علي أساس أنها ممثلة للرب. ونفس العمل قامت به المشيخة مرة بدعوي أنها من آل البيت ومرة بدعوي رؤية الحق مباشرة والحق أن دعوة الإسلام بالأساس هي دعوة لتحرير العقل والفكر وبعثة رسول الله صلي الله عليه وسلم عبارة عن حرية فكر وقد عبر عنها القرآن الكريم بقوله "ويضع عنهم إثرهم والأغلال التي كانت عليهم".

إن الفكرة كنز لا حدود له فأول بذرة للثورة وأول رسم ملهم للاختراع والإبداع يظهر أولا في عالم الفكر والخيال. والشخص السارح بخياله باحثا عن حيل جديدة يستطيع بصمته إحداث تموج وتغيير لا يستطيع إحداثه المتظاهرون الغوغائيون الرافعون لهتاف الثورة ولا غرابة بأن يصبح اختراع استراتيجية جديدة أو بناء فكر جديد عنوانا لفجر جديد ولعل هذا هو السبب أن النظام الحالي السائد قليلا ما يمنح الفرد أو يأذن له بالاستمتاع بفكر جديد. لقد كان هذا الكلام عبارة عن خيال محض يجعل المملوك يجلس علي كرسي الملك بشيء من التصرف. وهناك أمر آخر أكبر من هذا الفكر وهو ما نسميه بحلقة الرأي والفكر أي قالب الفكر والتأمل الذي يمنح الإنسان مكانة معنوية في الكون، فحلقة الفكر هذه بقدر ما تقوي بالعلم والمعرفة فإنه بنفس القدر تُفتح لها إمكانيات النمو

والتقدم. وقد استخدم القرآن الكريم مصطلح الدين لهذا القالب من التفكير والتدبر ووضح لمعتنقيه أن من يختار طريقا لحياته غير الإسلام الذي هو بمعني الاستسلام الكامل بكل حب وغير مشروط لن يُقبل منه ويمكنك أيها القاريء أن تسميه الدين الحق أو الدين القيم، طالما بقي هذا الدين علي حالته الأصلية سيظل أتباع محمد صلي الله عليه وسلم فرحين بهذه الثقة وهي بكونهم أمة النبي الخاتم سيظلون في منصب سيادة أقوام العالم وأمناء الكون حتي آخر لحظة من التاريخ وقد كانوا يشعرون بكل وضوح أن لجام التاريخ قد أُسند إليهم والنهضة الربانية للوحي ترشدهم باستمرار في هذه الرحلة. الدائرة الفكرية التي كان قد شكلها نزول القرآن الكريم كان لزاما ومنطقيا بأن تدوي علي إثرها الحضارة الإنسانية من أثر الجلبة في الأيام التي تلت الاستكشاف والإبداع وخلال فترة وجيزة احتضنت حضارتي الفرس والروم والعلوم القديمة للهند واليونان بل تستطيع أن تقول أن كل إرث الحضارة الإنسانية قد وُضع علي طاولة النقد والتحليل. وعلي مرأي من الناس أشرقت وتلألأت المساحات الشاسعة للعالم الإسلامي بأنوار التمدن والاستكشاف. إن المدنية الاستكشافية قد ألقت بحبالها في الحرفة والزراعة والسفر والحضر والبحر والبر بل علي السماوات الممتلئة بالأسرار وفي أعماق البحار المظلمة والساكنة بشكل جعل الحضارة الإنسانية جامحة في خيلائها بسعادة وسرور. وفي هذه الأثناء تعرض العالم الإسلامي لتفكك سياسي داخلي وكذلك واجه النزاعات الفقهية والحروب الأهلية المذهبية لكن القافلة الاستكشافية التي كانت قد تحركت مع قيام الحلقة الفكرية القرآنية لم تتوقف. ذهبت وانتهت السلطنة الأموية وكذلك العباسية وانقسمت الوحدة السياسية للمسلمين ما بين عباسيي بغداد وفاطميي القاهرة وأمويي الأندلس وفيما بعد قسم الأتراك والصفويين والمغول العالم الإسلامي فيما بينهم واستولي هؤلاء علي المناطق التي كانت تحت سيطرتهم لكن وعلي الرغم من هذا ظل ذلك المصباح الصامت مضيئا تنظر إليه الدنيا لأن الضوء الذي ينبعث منه حقيقي. بل كان الموقف حتي أواخر القرن السابع عشر هو أن المسلمين علي الرغم من وجود جميع أنواع الالتباس الفكري والنظري كانوا يطرقون أبواب فيينا وألمانيا والمجر والإمارات الأوروبية الأخري كانت ترتجف خوفا من هيبة الأتراك. من جانب كانت كل هذه الآثار المجيدة والمهيبة لانحطاط نظام سياسي آيل للسقوط وفي جانب آخر كانت تحاصرنا ببطء في حلقة فكرية غير قرآنية مبنية علي الأساطير واللا عقلانية. وفي عام ١٥٨٠م حينما كان يتم هدم المرصد العالمي الكبير باسطنبول بناء علي فتاوي علماء الإسلام وعلي مطالبة الشعب بذلك بكل إصرار فكأن ذلك كان بمثابة إعلان وفاة للعقل الاستكشافي في العالم الإسلامي.

كانت هذه هي اللحظة الفارقة حينما غفلنا عن إدراك التوازن بين الله والأنفس والآفاق وكان القرآن قد بني العقل المسلم علي هذا الأساس وبسبب هذا كان يبدو لنا وجود الكون تحت تخطيط مدروس ومألوف بدلا من خلق باطل غير مفهوم وهنا كان الواجب علينا أن نحفظه ورجوعنا وتقهقرنا بالعقل الاستكشافي إلي العقل الأساطيري ثم عن وأد الخطي حيث لم يشعر بهذا التقهقر حتي كبارنا. وحين كان يتم انتخاب ما بين مائة وخمسين وخمسمائة آية من القرآن الكريم للتعليم والتعلم كآيات للأحكام بحجة العلوم الشرعية وكان يتم في نفس الوقت عزل القرآن المتبقي من محور اهتمامنا فيما يخص آيات الاكتشاف فربما لم يكن يدرك أحد في ذاك الوقت أن الأيام القادمة في حال عزل وتعطيل آيات الأحكام ستفتح بابا ذا فكر وأسلوب غير عقلاني ورجعي محض. إن تصور العلم الشرعي نفسه كان نتاج أزمة تاريخية ومن كان يعرف أن ثنائية العلم ستحصل في الأيام القادمة علي مكانة خالدة ذات قداسة ففي عصره لم يكن المذهب الشافعي أو المذهب المالكي مختلفا عن مذاهب الأوزاعي والثوري والطبري، فكيف كان يطرأ في ذهن أحد أن حلقات الأئمة الآخرين ستتلاشي في صفحات التاريخ وأن مخيمات الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ستصبح مراجع فقهية دائمة وسيكتب لها البقاء. كذلك أولئك الذين كانوا يضعون القيود علي رسالة القرآن الأساسية وعلي جلالتها عن طريق قوارع القرآن والآيات المجربة فإنه لم يكن الأمر سهلا لشناعة هذه الأعمال في الوقت الذي كانت رحلة العقل الاستكشافي مستمرة علي الرغم من كل هذه المقاومات وفيما بعد أصبح إدراك شناعتها صعبا إذ لوثت حرفة التمائم والتعاويذ طريقة وتفكير عقولنا وجعل الخلفاء العثمانيون تطريز ملابسهم بالآيات القرآنية واجب ديني لرفع البلايا وللحفاظ علي أنفسهم. ولم تبق أي منطقة في العالم الإسلامي إلا وذاعت فيها خواص وطلاسم الآيات الإسلامية ولاقت قبولا عاما لكن عندما فشل كل احتفال ختمة البخاري من دفع وهزيمة حملات الأعداء فوقتئذ أدركنا أن الأرض قد سُحبت من تحت أقدامنا وقد أحكم أسلوب التفكير الخرافي في قبضته علينا بشدة فكان أمرا طبيعيا أن يتم عزلنا من منصب السيادة بعد ارتكاب هذه الجريمة الشنيعة وهي رفض رسالة القرآن الحقيقية من جانب حامليها.

وعلي الجانب الآخر بدأت أشعة الأسلوب الفكري الابتكاري القادمة من منافذ صقلية والأندلس تجعل أوروبا المسيحية في حالة سعادة وفرحة غامرة. فمن القرن العاشر الميلادي إلي القرن السادس عشر كانت تتم ترجمة العلوم العربية أي كتب العلوم الابتكارية إلي اللاتينية واللغات الأوروبية الأخري. إن علوم وحضارة المسلمين قد قامت بتغيير أوروبا المسيحية بشكل لم ينحصر علي الاستفادة من العلوم العقلية فحسب بل تتطرق إلي تغيير نظرة أوروبا نحو الدين ودراسته أيضا. ونتيجة

للحركة البروتستانتية اضطرت الكنيسة أن تبدأ عملية الإصلاح في هيكلها فطالما ظهرت علامة استفهام علي القالب القديم للفكر والرأي مرة ففي الأيام القادمة بدأت تسمح لمختلف الحركات السياسية والفكرية بالمزيد من الحركة حتي وصل الأمر أن سمح للناس أن يدرسوا الإنجيل دراسة نقدية كما يدرس الطالب ويمكنك أن تقول أيها القاريء العزيز أن القافلة الاستكشافية حينما أصابها الكسل في العالم الإسلامي في نفس الفترة كان الغرب يشعر بسعادة غامرة بسبب ترجمة الكتب العربية إلي اللاتينية وبعد الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر أصبح الحال غير الحال وكأن صوت كن فيكون بدأ يدوي من كل صوب. وهذا هو العصر الذي تم عزلنا فيه وبأيدينا من منصب السيادة واستغل الغرب غيابنا أسوأ استغلال وقام بنحت أسطورته المفروضة وذلك لعظمتها التاريخية وسطوتها وتفوقها العرقي وهذا هو العهد الذي بدأ فيه استغلال الحركة الاكتشافية بأيدي الرأسمالية وفُرضت النية الاستعمارية البغيضة كتابة تاريخ جديد للغرب. ووضعت علوم جديدة للاجتماع والعمران وكان هدفها الوحيد هو إيجاد سند وإثبات للتفوق الحضاري للشعوب الأوروبية ذات العرق الأبيض وتوسيع الأعمال التبشيرية لصالحها وقد كانت هذه الدعاية قوية وذات ضجة كبيرة حيث لم تكن هناك فرصة لسماع وفهم وجهة نظر متبادلة. ومن هند المغول إلي الخلافة العثمانية الشاسعة كانت عرضة لتلك الأمواج العاتية وأصحاب السيوف الذين جاءوا لمقاومة هذا لم تكن لديهم فرصة لإشعال مصابيح الأدلة والبراهين العلمية وكانت النتيجة أن المفكرين المتغربين من العالم الإسلامي قد بدأوا يفهمون بسرعة أن الدنيا الجديدة من صنع الغرب وأنه هو الإمام الأزلي والطبيعي للحضارة وفي تقليده واتباعه يكمن سر فلاح ونجاح شعوب الشرق. ومع قدوم القرن العشرين كانت الخلافة العثمانية الرمزية قد اختفت من علي خريطة العالم الإسلامي بل أن جامعات الغرب قد أحدثت في كل جانب من الشرق والغرب حالة يمكن أن نسميها بالعمي المعرفي. وفيما بعد استحكمت هذه الحالة بيد الإعلام الشعبي حيث سادت في الشرق والغرب حالة عامة من عدم المعرفة. وعن طريق العمي الإعلامي صارت الدنيا بأسرها الآن في قبضة الرأسمالية. حتي السكان الأصليون للغرب الذين لم يكونوا علي علم بالحقيقة الصحيحة كانوا يحسبون الموقف الوضعي الذي أحدثه الرأسماليون والشركات أنه وجهان لعملة واحدة حتي بدأ عامة الناس في بداية القرن الواحد والعشرين عن طريق التواصل الاجتماعي يتعرفون علي الوجه الحقيقي المكروه للنظام الرأسمالي.

منذ قرن ونصف من الزمان أي بعدما سيطر الغرب علي الدنيا واحتكرها احتكارا كاملا فُرض علينا نوع من عدم المعرفة. فعلماؤنا المتجددون والمغربون لا يتعبون من ترديد القول بأن رونق الحضارة الجديدة – بل يمكنك أن تسميه بروز علم الطبيعة- مرهون بالغرب. والعلماء التقليديون

أيضا ليسوا في موقف التحدي لتلك الفرضية لأن محور تفكيرهم وعملهم موجه منذ مدة تجاه عدد من القضايا الفرعية والنزاعية. ثم أنه من أين لهم أن يدركوا الحقيقة الأصلية لهذه العلوم المبنية علي الادعاء والجهل.

إن الشخص الغربي نفسه يعاني باستمرار بسبب سطوة القبضة الحديدية للرأسمالية حيث أصبحت مناقشات حرية الفكر والرأي وحلم الحياة المفعمة بالنشاط والحيوية في خبر كان. أصبحت الحياة بلا مشاعر بشكل جعل أهل الغرب معه مضطرين للحياة تحت وطأة إحساس وشعور دائم بالتساؤل "ثم ماذا بعد؟" وهنا يتولد الإحساس بأن كل شيء قد انتهي. والحضارة التي كانت استقرت هنا في يوم من الأيام قد رحلت ولم ننل منها غير الخراب.

وهذا العصر المظلم الذي نعيشه لأننا مضطرون لهذا لا نستطيع أن نتهم الغرب فقط ونكتفي بالقول أن السبب هو أن الغرب قطع مسيرة التاريخ من القرن العاشر الميلادي إلي القرن السادس عشر تابعا لنا. وفي القرن السادس عشر ظهر الغرب ندا لنا إلي أن جاء القرن الثامن عشر واستمرت قوة التوازن بيننا إلي حد ما. لكن في القرن التاسع عشر وبسبب تقهقرنا وتركنا منصب السيادة لم يبق لأهل الغرب السند الفكري والنظري الذي كان سببا في تحديد وتعيين جهة مسيرة التاريخ فكانت النتيجة أن الدنيا بأسرها قد تعرضت لزلزلة عشوائية بسبب انحطاطنا وغيابنا من علي الخريطة. واليوم من يصدق أن القالب العلمي للحضارة الذي هو سبب رونق وبهاء وضياء الدنيا الجديدة هو في الواقع نتاج أسلوب وتراض فكرنا الاستكشافي وجذوره لا تنتمي إلي مكان آخر بل توجد في طيات صفحات الوحي الرباني نفسه. في القرن الثامن عشر حينما استخدم "إمانويل كانت" مصطلح "ويلتانشاونج" لأول مرة لم يكن لأحد أن يخطيء في فهم أن أهل الغرب لم تكن لديهم أي معرفة عن فلسفة الحياة من قبل لكن العجب العجاب أن "ويليام ويول" عندما وضع في عام ١٨٣٢م مصطلح العلوم للخبراء الاستكشافيين لأول مرة حينها سادت فكرة وجود عالم غربي المنشأ نتاج الحضارة العلمية الحديثة للغرب. ولغاية ما أن كان يستخدم مصطلح العلوم العربية للعلوم الاستكشافية كان الطابع العام أن الحضارة العلمية لها صلة وثيقة بالمسلمين لكن عندما بدأ يسود مصطلح "العلوم" للعلماء الطبيعيين أصبح الأمر صعبا علينا أن نؤمن أن هذا المخلوق الجديد "عالم" هل كان له أي علاقة بفكرنا وحضارتنا في يوم من الأيام؟

إن هذا الكتاب ليس كتاب تاريخ عقلاني وفكري وإن كان من الممكن أن يجتاح شعور ملح لتصنيف كتاب جديد للتاريخ مبني علي العقل والحكمة وفي بيئة متخصصة في فن من الفنون هذه حيث يكون جل تركيز الحكماء والعلماء محصورا علي نوع من الفنون فيزداد الإحساس بأننا في حاجة

إلي كتاب للتاريخ يحوي علي جملة أبعاد الحضارة بأسرها من بعد نزول القرآن الكريم. ولكن الأمر ليس سهلا. إن هذا العمل هام للغاية ويستطيع أن يفتح عيون علمائنا التقليديين ذوي القداسة وكذلك علمائنا المحدثين ففي هذا الكتاب حاولنا أن نطلعكم بالحقائق المختلفة والمصادر والمراجع التاريخية من عصر إلي عصر أننا حينما كنا أصحاب أسلوب الفكر الاستكشافي ظلت سيادة وقيادة أقوام وشعوب العالم في أيدينا دون منازع لنا في تلك السيادة لكن حينما داهمتنا وأخذتنا الأساليب الفكرية المبنية علي الأساطير والخزعبلات فما عاد ممكنا الحفاظ علي هذا التكريم وتلك الفضيلة لمدة أطول.

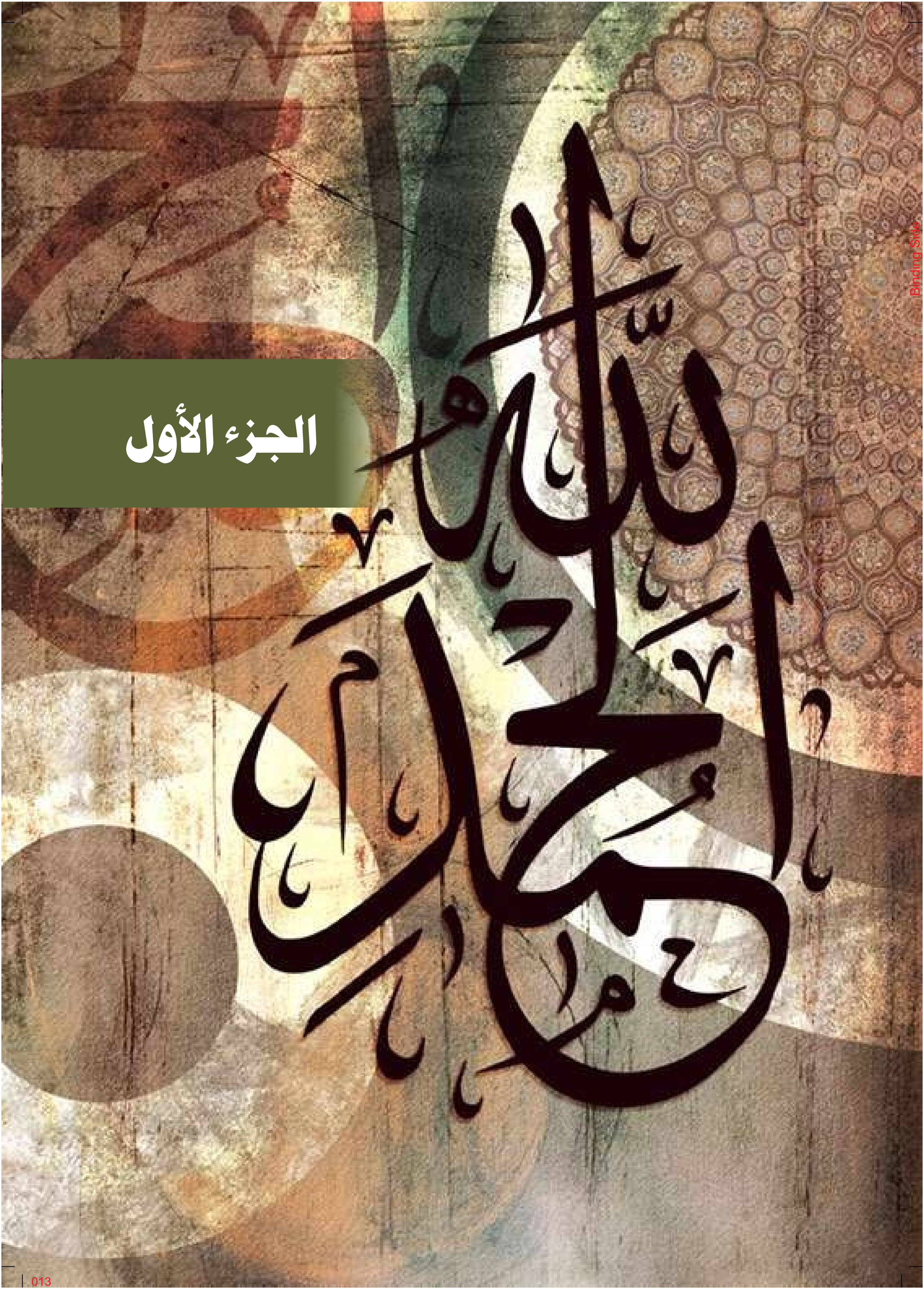
القرآن الكريم موجود بين أظهرنا لا ريب فيه لكن تحت ستار القداسة والتكريم قمنا نحن بتدبير محكم لتعطيل أحكامه وقد زُينت الحياة الدنيا بشكل اختزل فكرة نفي الدين ورفض القرآن الكريم عمليا في صورة ملف الدين أو المذهب الفقهي وهذا هو السبب في أن الفجر الجديد لا يبزغ عندنا علي الرغم من وجود بهرجة دينية وهتافات تشق عنان السماء لأن تقويم جهة الرحلة يتطلب منا أن يكون لدينا حماس كاف لبدء كل شيء من جديد ولبداية جديدة لا بد من محاكمة الدين السائد بيننا من جديد. وهذه المهمة العلمية لن تتم بإتقان ودقة ما لم نسلم لجام المناقشات الحكيمة هذه إلي القرآن الكريم نفسه.

**راشد شاز**

ملحوظة:

الباب الأول من هذا الكتاب مأخوذ من المجلد الثاني لكتاب الإدراك لأن فهم الحملة الاستكشافية وما لها وما عليها لم يكن ممكنا بدونه وكذلك كان من الضروري الاستفادة بهذا الكتاب لما فيه من لوحات ووثائق يحتاج للبحث والنقاش والتي لا يمكن أداء إدراكها بشكل جيد دون إلقاء النظر عليها وكذلك لاكتساب ثقة القاريء لا بد أن يلاحظ هو بنفسه هذه الوثائق ويلقي عليها نظرة ولو عابرة.

# الجزء الأول





القرآن الكريم ليس كتاب أوامر ونواه فحسب بل هو المفتاح الملكي الذي يجعل العقل الإنساني نفسه متصفا بالثقة ومعتمدا علي الله سبحانه وتعالي وبهذا يمكن فتح جميع أبواب الإمكانيات بهذا المفتاح. وما نشاهده في الغرب اليوم بل في الدنيا كلها من مظاهر العلم والفن أساسه موجود في الحلقة الفكرية القرآنية هذه. وهذا الفكر القرآني هو الذي جعل التفكر والتدبر في الكون واجبا شرعيا وعلم الإنسان فن الاكتساب من العلوم الراهنة والسابقة. ودعوة التفكر هذه في الأنفس والآفاق عبارة عن اتخاذ أسلوب عقلي منبعه الوحي الذي يرشد ويهدي الإنسان حتي في عدم وجود صاحب الرسالة عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم إلي أن تقوم الساعة.

# في ضوء تصور الحياة الملهمة

"وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا"

علي مسافة ميلين من مكة المكرمة كان محمد ابن عبد الله صلي الله عليه وسلم يواجه التساؤلات العظيمة التي ظلت محور ومركز النفوس القدسية منذ الأزل في خلوة غار حراء. ما هي الذات الإلهية؟ كيف بدأ هذا الكون؟ ومن هي الذات التي بوجودها جاء خلق المكان واللامكان؟ وما نوعية هذا السر الذي تزداد سريته بانكشافه. وإن كانت تجربة البحث عن ذات الرب إبداعية فإنها تشجع الإنسان علي أداء مهمة تسخير الكون وإن كانت تقليدية فإن العقل الإنساني في هذه الحالة يتعرض للأوهام "وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ". وإن كانت نفس التجربة مزيج من الكبر والغرور فينتج عنها البغي والتمرد والعصيان. لو فكرنا مليا فإن كل أشكال الصعود والهبوط في التاريخ مقتصر علي شرح وتوضيح هذه النقطة. وكذلك بداية نهاية جميع الفرضيات الإنسانية فيما يختص بالحياة والكون يرتكز علي هذه النقطة فقط.

محمد ابن عبد الله عليه الصلاة والسلام كان شخصا فريدا ومتميزا من الفرع الهاشمي للعائلة الإبراهيمية وكانت قبيلته وهي قريش حائزة علي منصب الزعامة الروحية من حيث رعاية الكعبة. وبسبب هذه العناية بالكعبة وبتنظيم شئونها علي أعلي مستوي كانت قد تحولت إلي سوق تجاري وبسبب التقاء السياحة الروحانية والتجارية في مكان واحد بدأت ثروة أطراف وأكناف مكة تنجذب نحوها والآن سواء كان الله جزءا من تجربة أهل مكة الحسية أم لم يكن كذلك لكن كان قد اتضح هذا الأمر للخاص والعام أن التجارة بالدين الإبراهيمي والترغيب إليه بكل مهارة وحرص قد وفرت لسكان هذا الوادي غير ذي الزرع كل إمكانيات وسبل الراحة والرغد.

إن محمدا صلي الله عليه وسلم كان مستاء جدا من تجارة أهل مكة البغيضة بالدين هذه حيث كان هناك سلسلة كبيرة من الأوهام والعادات والتقاليد البعيدة كل البعد عن الروح باسم باقيات الدين الابراهيمي. وكان هذا الرأي سائدا آنذاك وهو أن أساس الدين الابراهيمي قد فُقد وكل تلك البهرجة في مكة باسم الدين ليست إلا متاجرة بالدين. يُقال أن زيد ابن عمرو الذي كان ذات يوم متكئا علي لعبادتك لعبدتك بنفس الطريقة لكن كل الأسف أنني لست علي دراية بتلك الطريقة(١).

بعد أن تقهقرت فكرة التوحيد إلي الوراء كان أهل مكة والقبائل العربية الأخري عرضة لضلالات غاية في السوء. ففي قضية التعامل فيما بينهم كانوا يهتدون بالأصنام التي نحتوها بأيديهم من الخشب والحجر بدلا من استخدام عقولهم وقلوبهم وكانوا يتعاملون في ضوء الإشارات جدران الكعبة قد خاطب أهل قريش قائلا: يا قريش! والله الذي نفسي بيده ليس هناك شخص واحد متبعا لدين ابراهيم سواي أو غيري ثم قال مبديا أسفه: يا إلهي لو كنت أعلم الطريق الصحيح التي كانت تأتيهم منها(٢).

عبودية هذه الأوهام والخرافات كانت قد أوصلت أهل مكة إلي طريق مسدود حيث لم يكن هناك سبيل للخروج وأصداء "وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ" التي جمدت قوتهم الإبداعية والتحليلية.

حينما يتحول الدين إلي مذهب أو تجارة ويتم استغلال التدين لمنافع مادية فإن المقياس المتعارف عليه للحق والباطل أيضا يبدأ في التمايل يمنة ويسرة. وأهل مكة كانت لديهم براعة كبيرة في التحليل والتحريم. كلما أرادوا أعلنوا عن تقديم أو تأخير الأشهر الحرم تبعا لمنافعهم المادية وكذلك قاموا بتحريك حجر الأساس من التدين التقليدي والسنن المعروفة. وكانت رأسمالية مكة وزعامتها قد وصلت إلي أسوأ مراحل استغلالها حيث وُضع السيف علي رقبتها وهي لا تدري، وسواء كانت الزعامة

الروحانية أو الاستغلال الرأسمالي فكلاهما جعلوا منها كشخص تزداد مطالبه حتي اضطر أن يجعل نفسه فريسة سهلة من أجل البقاء وكان هذا هو الطريق المسدود الذي وقعت فيه القافلة الإنسانية قبل مجيء الإسلام.

والشعور العام بالسبيل المسدود كان قد أضاء عالما جديدا من الإشارات والاحتمالات لمقتفي الأثر والمنجمين والمتنبئين وكانت النبوءة المثيرة هي أن بعثة النبي الجديد قد اقتربت. وبعض الناس ظلوا يصيحون في مختلف الأماكن من العالم باحثين عن النبي الموعود ثم رجعوا إلي مكة علي أمل أن تكون بعثة هذا النبي هناك. وكان واحد من هؤلاء زيد ابن عمرو الذي توفي قبل البعثة المحمدية علي صاحبها أفضل الصلاة والسلام. وبالإضافة إلي هذا الشخص كان عثمان ابن حريص وعبيد وورقة ابن نوفل معروفين في مكة أنهم يبحثون عن الدين الحنيف بشدة. وكأن هذا القلق العام كان بمثابة إشارة بأن تلك اللحظة قد حانت إذ يحدث من وراء الحجاب الغيبي الأمر الذي كان أهل الفكر والرأي يتهامسون ويتناجون بشأنه منذ فترة طويلة.

كانت هذه هي تلك الأيام التي كان فيها محمد ابن عبد الله صلي الله عليه وسلم يفكر في غار حراء في هذه الأسئلة التي كانت في يوم من الأيام موضوع مناجاة أبي الأنبياء ابراهيم عليه السلام إذ كان النبي ابراهيم عندما كان يشاهد طلوع وغروب الشمس وقوتها وحرارتها وسريتها فكان يفكر ويجول بباله القوي غير المرئية التي منحت هذا الكون المهيب اللون والرائحة ثم أزاحت مناجاة ابراهيم ومساعيه الباحثة عن الحق الستار عن هذا السر وهو أن السجود أمام هذه العلامات والرموز هو في الواقع موت للفكر والرأي وفاجأت خلوة محمد بفرحة غامرة وتجربة مثيرة كما فعلت مناجاة ابراهيم وما حدث في غار حراء قام بتغيير تاريخ الدنيا في الأيام التي تلت هذه الواقعة.

يروي أن محمدا صلي الله عليه وسلم كان نائما ذات ليلة في غار حراء فتعرض لتجربة مثيرة ولم تكن حلما من الأحلام ولا إلهام في عالم اليقظة بل كانت تجربة يعجز اللسان عن سردها في واقع الأمر. وعلي لسان النبي محمد صلي الله عليه وسلم نفسه: "كنت نائما إذ جاء جبريل إلي بكتاب مغلف بالحرير وقال لي اقرأ". وبقدوم جبرائيل عليه السلام عليه فجأة خاف حضرته صلي الله عليه وسلم فوضع جبريل يده الأولي علي صدره والأخري علي ظهره ودعا: "اللهم احطط وزره واشرح صدره وطهر قلبه" ثم قام بتبشيره قائلا: يا محمد مبارك لك، إنك نبي هذهk, الأمة. لا تخف يا محمد جبريل رسول الله إلي أنبيائه ورسله فأيقن بكرامة الله فإنك رسول الله (٣). ثم أقرأه هذه الآيات:

ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣
ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ (سورة العلق: ١-٤)

فهذه الآيات من سورة العلق وإن كان جانبا منها مهدئا ويدخل الطمأنينة إلي قلبه بأن ربه الأكرم قد منح الإنسان استعارة القلم وعلمه ما لم يكن يعلم فإنها من جانب آخر كانت هناك إشارة بأن أيام لذة الخلوة قد ولت.

إن جبريل عليه السلام قد عاد من حيث جاء ولكنه ترك علي محمد صلي الله عليه وسلم آثارا أبدية لهذه الفرحة الغامرة والتجربة المهيبة. أحس حضرته صلي الله عليه وسلم وكأن جبريل قد نقش هذه الكتابة علي صدره(٤). وبتجربة حراء تولي محمد ابن عبد الله إبلاغ الرسالة التي قد ألقيت علي عاتقه مسئولية هداية وإرشاد الأمم الآن. ويُقال أنه صلي الله عليه وسلم بعد هذه التجربة لم يعد إلي غار حراء مطلقا.

## تشكيل دائرة الفكر الإلهامي

إن مجيء الوحي الجديد كان عبارة عن حلقة فكر جديد وأصبح الحوار المباشر حول جميع الأسئلة بشأن الإنسان والرب والكون وبدايته ونهايته مرتبطة الآن بالوحي الذي استمر لمدة ثلاثة وعشرين عاما والقرآن الكريم أزاح الستار بالكامل عن سرية هذه الأسئلة الغامضة والمهيبة لكنه حددها وكيفها بما يتوافق مع هذه السرية المهيبة. والآن لم يعد الكون عبارة عن خوف واندهاش مليء بالأسرار حين يشعر الإنسان بضرورة السجود أمام ظواهره بل كان يظن كل هذا من علامات الصنعة العظيمة للخالق بمعني آخر أن أولئك الذين وقعوا في عبادة ظواهر الطبيعة هم الذين بدأوا السعي للتدبر والتعامل مع هذا الكون المليء بالأسرار كإبداع الخالق الواحد لأن هذا الكون لم يعد لغزا بل كان من صنع الخالق في شكل زمان ومكان. وكان علي حاملي الوحي أن يقوموا بملء الفراغ كمطلب أساسي.

## تشكيل العقل الاستكشافي

إن العقل المسلم الجديد لم يُبن علي العقل المحض ولم يُعد علي أسلوب الفكر المبني علي الأساطير بل إن أردت الصدق فقد سُلم كتاب الوحي بيد هذا العقل وفي هذه الحالة وفي ضوء الوحي الرباني ظهر علم جديد للعلم والمعرفة من خلال دراسة الطبيعة. والمسلمون الأوائل (مسلمو الجيل الأول) بعد الكشف عن سر الوحي أو سر الكون أصبحوا فرحين بالثقة غير العادية وقد استشعروا في الأصل بأن القرآن الكريم سلمهم قيادة وسيادة المستقبل وكذلك بأنهم مؤهلون في غياب الرسول أيضا لإرشاد وهداية القافلة الإنسانية القادمة.

إن وضع أساس وبناء الدائرة الفكرية الجديدة علي الأعمدة الثلاثة وهي الوحي والأنفس والآفاق وإن لم يكن الهدف من هذا الثلاثي هو رفع الستار عن الأسرار فقط بل كان الهدف أيضا أن يتعرف الإنسان علي مكانته في هذا الكون الفسيح. وكذلك إخباره أيضا أن فهم أسرار الكون ليس مستحيلا أبدا وأبعاد العقل القرآني لا يمكن تكوينه وتشكيله علي طراز الفكر العلمي البحت فما تراه العين هو بعد لماهية الأشياء فقط. ففي المكان الذي لا تساعد الإنسان مشاهدته فهناك إشارات الوحي الرباني التي تستطيع أن تعيننا في البحث عن نفس الأمر لكن حذار أن يسيء الظن أحد بأننا نستطيع إدراك حقيقة الأمر بجميع أبعاده وإن كانت الحقيقة أن حاملي الأبعاد الأربعة لا يمكن لهم بأي حال من الأحوال الوصول إلي حقائق ما وراء هذه الأبعاد. لكن كل ما نستطيع أن نفعله هو أن نقرأ من خلال الآيات الكونية الاستعارات الإبداعية العظيمة. وهذه القراءة غير متاحة لأصحاب العقول الجامدة لأن الذين هم عاجزون عن التدبر والتفكر في هذا الكون المهيب والواسع ولا يدركون برؤيتهم ووجدانهم وطأة معركة "كن فيكون" الدائرة في كل لحظة في هذا الكون فهؤلاء في الأساس هم الذين قيل عنهم:

لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٧٩ (الأعراف 179)

إن الوحي الرباني قد دعا الناس جهارا نهارا لإعمال القلب والفكر والذين يقصرون في أداء هذا الواجب نبههم بمصير أليم:

وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ٥١ (الحج ٥١).

والهدف من هذا أيضا أن الذين يعيشون في هذه الدنيا غافلين عن أسرار ورموز الكون فهم في الواقع يرون هذه الدنيا كواد مظلم وضيق، والبعد عن فهم آيات الله هو في حقيقة الأمر حرمان من مواهب التفكر والاستكشاف، والأمة التي تجعل هذه الطريقة الجاحدة شعارا لها فعليها أن تتحمل عذاب الخزي والذل في هذه الدنيا وفي الآخرة يكون من نصيبها الخسران المبين:

وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ (الإسراء ٧٢)

لم يعد الكون للعقل المسلم الجديد عقدة لا تُحل بل هو عبارة عن عمل إبداعي دقيق ومدبر، والوحي الرباني يخاطب أولي الألباب وأصحاب العقول الذين كان لزاما عليهم أن يشاهدوا عظمة آيات ربهم في الأنفس والآفاق واستخدام صيغ الأفعال مثل ينظرون ويفكرون ويسمعون ويتدبرون ويتذكرون ويعقلون ويفقهون ويعلمون مرة تلو الأخري والإصرار عليها جعل الأمر مؤكدا بأن المجتمع الإنساني لن يكرر بعد اليوم جملة:

وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ. (الشعراء ٧٤)

فقد خُتم علي الانغلاق الذهني بلا رجعة والعقل في دائرة الفكر الجديدة ما لم يكن في دائرة الوحي بل كان معينا ومستشارا وقائدا له لذلك جاءت البشارة أن العقل بقدر ما يرتقي ويتقدم فإنه بنفس القدر يزداد الإيمان بأن الوحي من عند الله وكذلك يصبح اليقين علي صدقه مؤكدا:

سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ. (فصلت ٥٣)

واستخدام صيغة المستقبل في هذه الآية إشارة صريحة بأن حل أسرار آيات الله عقليا سيزداد بالتدريج أكثر فأكثر في المستقبل مقارنة بالماضي والحاضر فالأشياء التي لا نراها نحن بالعين المجردة ما العجب أن تجعل الوسائل الحديثة مشاهدتها ممكنة في الأيام القادمة فكأن نزول القرآن الكريم كان إعلانا لهذا الأمر وهو أن المنهج الثوري للتفكير والتدبر هو في يد الإنسان. فالتعامل معه من جانب يمثل نقلة في تشكيل المنهج العقلي ومن جانب آخر يكون سببا في ازدياد الإيمان واليقين. في أحقية وصدق هذا الكتاب كما جاء في قوله تعالي:

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ٢٩ (ص ٢٩)

## حلقة الفكر القرآني والكتاب

بعد دعاء تمهيدي موجز يبدأ القرآن بالدعوة إلي التأمل والتفكر في كتاب الطبيعة ويضمن أن كل من يدرس كتاب الكون بقلب صادق وخالي الذهن فإن الهداية تكون من نصيبه لأن الهداية في الأصل للمتقين وهؤلاء المتقون لا يؤمنون بعقائد صماء وعمياء بل يتصفون بالإحساس العميق بآيات الكون. هؤلاء يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله فهؤلاء هم الذين خاطبهم القرآن الكريم بقوله "أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ". وبعد هذه الآيات التمهيدية كل ما يأتي من أمور هي في الواقع مفتاح لكتاب الفطرة. ولكن من يظن أو يعتقد بأن القرآن الكريم يُعد كتاب إشارات علمية محضة فهو مخطيء في تحديد حيثيته ومكانته لأن القرآن الكريم قبل أن يكون كتاب تفكير واستكشاف فهو في الأساس سبب نيل السعادة الأبدية التي لا يمكن تقديرها دون الدخول في الأبدية التي لا حدود لها ويعبر القرآن الكريم عنها باحتمالية نيل السعادة والفرحة الغامرة التي تتحقق بلقاء الرب سبحانه وتعالي. وإن كان تمكننا في علم الكتاب أو معرفة الأسرار يساعدنا في فهم الإنسان والرب والكون وكذلك كثيرا من الأسرار والرموز علي هذا النحو. فإن معرفة قوانين ونواميس الفطرة وتسخيرها ممكنة للإنسان العادي مثلما كانت مسخرة لصاحب علم الكتاب في بلاط سليمان عليه السلام الذي جاء بعرش ملكة سبأ عن طريق طي الأرض قبل أن يرتد إلي سليمان طرفه. وباختصار

فإنه من الممكن أن نقول بأن العلم الطبيعي أو علم الكتاب نتيجة منطقية لسلوك عقلي ينظر إلي الكون كآيات عظيمة الشأن لله سبحانه وتعالي ويحسب نفسه مؤهلا للتعامل معها بكامل الشكر والدقة والحزم وهو أيضا في نفس الوقت ليس بجاهل عن هذه النقطة.

وكما قال شاعر الإسلام محمد إقبال فيما معناه:

لا تنشغل بتلك الأيام والليالي لأن هناك المزيد لك من الوقت والمكان.

إن القرآن الكريم ليس بكتاب أوامر ونواه فحسب بل إنه بالأساس مفتاح ملكي يجعل العقل الإنساني متصفا بالثقة بنفسه والاعتماد علي الله سبحانه وتعالي ويمكن فتح جميع الأبواب المحتملة به. وطالب علم القرآن الكريم حينما يمر بهذه الآيات القرآنية:

وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣ (الجاثية ١٣)

أو

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ (ابراهيم ٣٣)

أو

إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ٧ (الكهف ٧)

تتملكه فرحة غامرة لا يمكن إخفاؤها. وهؤلاء هم الذين تحدث عنهم القرآن الكريم قائلا:

ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَاخَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ (آل عمران ١٩١)

و

إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤ (البقرة ١٦٤)

إن دعوة التفكر في الأرض والسماوات وما بينهما في الأصل وسيلة لمعرفة سر الأسرار. لو ظل الإنسان يقظا ولم يتلوث قلبه وعقله بالتعصب والعصبيات فإن تجليات الوحي الرباني تظل كافية في غياب النبي محمد صلي الله عليه وسلم أيضا وذلك لأن آيات الله المنبثة في الأنفس والآفاق ستظل تقول للقلوب السليمة:

أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨ (فاطر ٢٧-٢٨).

إن دعوة التفكر والتدبر في الأنفس والآفاق عبارة عن سلوك مخلوط بالوحي وسيستمر التعامل معه للحصول علي الرشد والهداية في حال عدم وجود الرسول صلي الله عليه وسلم فيما بيننا إلي أن تقوم الساعة.

### ارتقاء العلوم الاستكشافية

الوحي الرباني حينما قام بوضع الأساس للتفكر والتدبر في كتاب الطبيعة فقد جعل العقل المسلم يسلك طريق التفكر والاستكشاف بسرعة. وإلي الآن كان يحسب المنهج الاستقرائي معراجا للعلوم الإنسانية والقرآن الكريم لذا أعطي أهمية أساسية للتجارب والمشاهدات وهكذا أصبح منهج العلم إلي حد كبير استنتاجيا وقد كان ذلك تغييرا كبيرا في قالب الفكر والتدبر حيث غيَر في فترة وجيزة هيئة الحضارة الإنسانية والنشأة الفطرية للدين المبين الذي كان مبنيا علي خطوط لم يكن ممكنا لأتباع محمد صلي الله عليه وسلم أن يغضوا النظر عن كتاب الفطرة. ومنذ اليوم الأول كان أتباع محمد علي علم ومعرفة أن الكعبة المشرفة ليست قبلتهم فقط بل هي رمز لوحدة الملة أيضا فأصبح هذا السؤال ذا أهمية وهو ما هي الطريقة المثلي والسليمة لتعيين القبلة في مختلف البلاد والأمصار؟ أصبح العلم الدقيق للفلكيات ضرورة دينية للمسلمين في أولي مراحلهم ثم لم يكن الأمر سهلا لتحديد مواعيد الصلوات في مختلف البلاد من غير أن تكون هناك معلومات واسعة عن الجغرافيا ومهارة فائقة في وضع الخرائط والرسوم والمواضيع التي تم تحديدها بدوران الشمس والقمر خلالها:

لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ (يونس ٥)

فكأن أتباع محمد صلي الله عليه وسلم تم تكليفهم بأن يستعينوا في وضع ترتيب تقويم لهم بواسطة دوران الشمس والقمر هذا. وفي تلك الخلفية جاءت قضايا عاجلة وعملية كتحديد أوقات الصلوات الخمس وتعيين جهة القبلة ووضع تقويم قمري لصوم رمضان وجهت المسلمين علي الفور للتفكر في الكون.

وكانت من متطلبات وحدة القبلة أن يتوجه المسلمون في صلواتهم الخمسة إلي الكعبة المشرفة أينما كان موقعهم في الكرة الأرضية. لكن المشكلة التي كانت تواجههم هي كيف يتم حل مشكلة التحديد المعقد للقبلة؟ ففي الأيام الأولي كان السعي لتحديد جهة القبلة من خلال النجوم وأحيانا



**صفحة من كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي**

يتم بالاستعانة بشروق الشمس لتقدير ومعرفة جهة القبلة وبعض علماء الفلك وصلوا بعد دراسة عميقة ودقيقة إلي نتيجة وهي أنه بعد اعتبار الكعبة مركزا يمكن تقسيم البلاد إلي اثنتي عشرة خانة جغرافية(٥). لكن كل هذه التقديرات والتخمينات كانت عارية عن التأكيد وحينما وقع المسلمون في ورطة النزاع الفقهي شكل اختلاف القبلة حيثية نزاعية مستمرة. حيث كان يقول بعض الناس أن الرسول صلي الله عليه وسلم حينما جاء من مكة إلي المدينة صلي متوجها إلي الجنوب وكان قد اتبع هذه السنة أوائل أهل الأندلس ووسط آسيا وبناء علي هذا وجب علينا أن نصلي في المناطق البعيدة متوجهين نحو الجنوب بدلا من أن نقع في جدليات تحديد وتعيين القبلة، والبعض الآخر كان يقول أن هذا الموقف معارض للعقل والمنطق لأن الرسول صلي الله عليه وسلم عندما صلي في المدينة متوجها نحو الجنوب ففي الأصل كانت مكة تقع في جنوب المدينة فلا يمكن أن تؤخذ هذه السنة كدليل لتعيين القبلة. وهناك أناس كانوا يقولون أن قوافل الحج المتجهة نحو مكة تسلك نفس الجهة التي تعتبر قبلة. وهناك قائل يقول بأن الجهة التي بنيت فيها المساجد القديمة هي القبلة لكن ظهر هناك أشخاص كانوا يؤيدون بقوة دراسات علماء الفلك ويطلبون الاستفادة منها بل حدث في بعض الأحيان أن أدي التصادم بين فهم المقلدين وغير المقلدين إلي تحديد قبلتين للصلاة في مسجد واحد(٦). في هذه الحالة المزرية اضطر علماء الفلك أن يبحثوا عن حل قطعي لهذه المعضلة. استمر التفكر والتدبر إلي أن جاء كتاب البيروني الشهير "كتاب تحديد الأماكن" الذي حكم في هذه القضية حكما قاطعا أبديا(٧). إنه بالاستعانة بعلم المثلثات الكروي قامت في مدينة من مدن دولة أفغانستان محاولة ناجحة(٨) لتحديد القبلة. وعلي هذه الأسس التي وضعها البيروني لم تعد هناك مشكلة في تحديد القبلة من أي مكان في الكرة الأرضية.

في عهد الرسول (ص) عندما تم تفويض مسئولية رفع الأذان إلي سيدنا بلال رضي الله عنه فكان سبب هذا التفويض هو صوته الجهوري ووجود طرب وعذوبة في أسلوبه. لكن فيما بعد وبصفة خاصة في البلاد البعيدة والنائية بدأ الأخذ في الاعتبار عند تعيين المؤذن في أن يكون لديه فهم صحيح

لمواقيت الصلاة وأن يكون علي علم أيضا بمختلف منازل دوران القمر كي يستطيع تقدير الوقت الصحيح في ظلمة الليل(٩). وبمرور الوقت ارتقي المؤذنون بأداء رسالتهم حتي اخترعوا الآلات الفلكية لتحديد المواقيت وصنفوا مؤلفات في علم التقويم ووضعوا جداول مواقيت الصلاة لمختلف المدن(١٠). وضروريات تعيين جهة القبلة وتحديد مواقيت الصلاة أوجدت علما فلكيا جديدا عُرف باسم علم الميقات(١١). وجدول مواقيت الصلاة المعلق علي جدران مساجدنا اليوم تمتد جذوره إلي هذا العلم وهو علم الميقات. ففي ذات الوقت لم تكن هناك الساعات الذرية الشائعة الآن وكانت عملية تحديد الوقت معقدة جدا(١٢) وأي خلل فيها كان يؤدي إلي تعطيل كل جداول الحسابات فلو لم يكن للفلك ضرورة دينية ولو لم يؤد المسلمون هذا الواجب كفرض عين فلعل الدنيا الجديدة التي نشاهدها الآن لم يكن لها وجود اليوم.

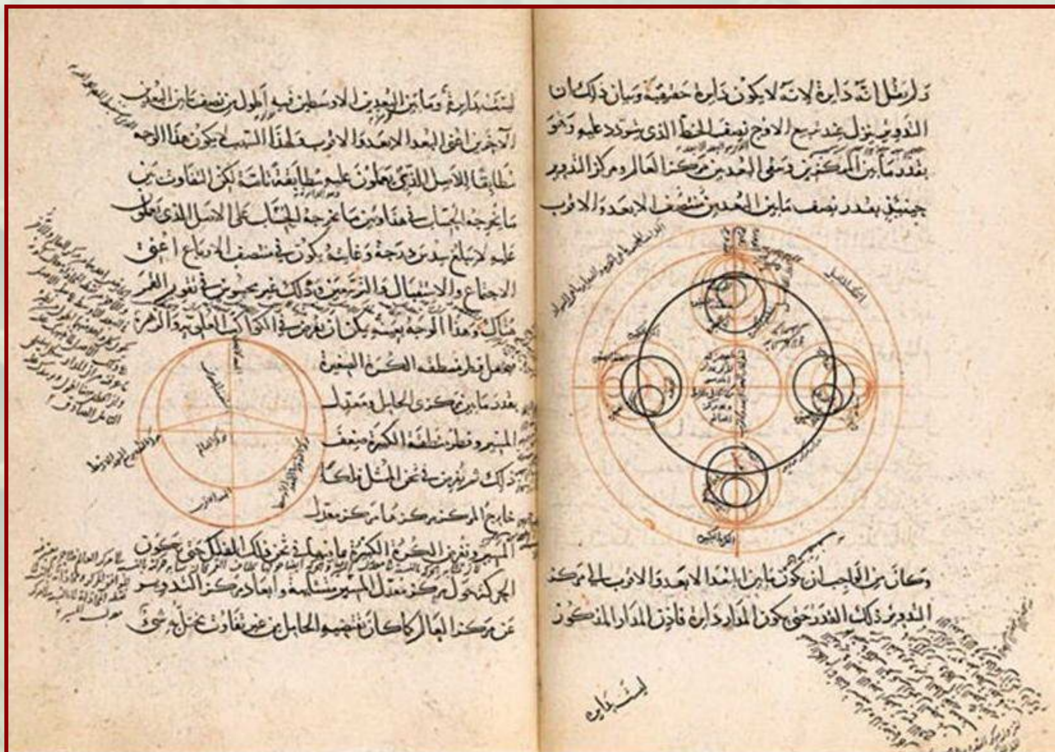
الخوارزمي حينما صنف كتابه الجبر والمقابلة فكان نصب عينيه أداء فرض عين، والجوانب المطلقة لآية الميراث كان ينتج عنها أحيانا تعقيدات دقيقة ولم تكن هناك سعة في فن الرياضيات لحلها. يقال أن خليفة ذلك الوقت كان قد طلب منه أن يصنف كتابا لحل التعقيدات المتعلقة بتوزيع الميراث ويكون معينا ومفيدا لهذه المعضلة المعقدة بشكل عادل. وقد أبدي الخوارزمي أمله في مقدمة كتابه هذا أنه من خلال تصنيف هذا الكتاب سيصبح توزيع الميراث بل وحتي قياس الأراضي وحفر القنوات وأشياء أخري شبيهة لها وكذلك عملية هندسة التقويم أمرا ميسورا، فجزاه الله خيرا علي هذا الجهد(١٣). وقد أبدي نفس الإحساس والشعور البتاني في مقدمة كتابه "الزيج الصابيء". يقول البتاني أن علم الفلك يتفوق علي جميع العلوم فالروح تحصل من خلاله علي الحيوية والقلب يحصل له البهجة والعقل جلاء وثقلا وتزداد كذلك أهلية التدبر والتفكر وتتابع الليل والنهار والمنازل المتغيرة للشمس والقمر والكسوف والخسوف ورحلة كل منهما في فلكهما يجعل العقل الإنسبباني يشعر بوحدانية الله وعظمته وحكمته وجلاله وجبروته بشدة. (١٥)

بظهور الإسلام انطلق أصحاب كل فن أو مهارة باحثين بحيرة وترقب لإقامة عالم جديد من الابتكار والاستكشاف. كان جميعهم تملأهم الفرحة لأنهم كانوا يشعرون بأنهم يؤدون واجبا دينيا والفريق الآخر منهم كانوا يتولون مناصب دينية بصورة أساسية ويُحسبون في المجتمع كأتقياء وظلت هذه الحالة مستمرة إلي النهاية. خذ علي سبيل المثال ابن النفيس (المتوفي ١٢٨٨م) الذي كتب نقدا لاذعا لكتاب "القانون في الطب" لابن سيناء، وابن النفيس هذا قد جاء باكتشافات مدهشة في عالم الطب عن الدورة الدموية وكان في نفس الوقت من أساطين الأئمة في الفقه الشافعي كذلك كان أمر نصير الدين الطوسي (المتوفي ١٢٧٤م) ونموذج ثنائية الطوسي (الدائرة الصغري والكبري) الذي

يُعتبر حجر الزاوية في الرد علي النظريات البطليموسية والذي مهد طريق التخيل لنظام متبادل للكون في الأيام القادمة وكان الطوسي هذا من كبار علماء الإسماعيلية في عصره(١٦). وكان هذا هو حال تلميذه الرشيد قطب الدين الشيرازي (المتوفي ١٣١١م) والذي كان منتميا لفلكيي مرصد مراغة والذي لم يكتف بالشرح والتعليق علي كتاب التذكرة في علم الهيئة للطوسي بل أضاف عليه بتأليف عدد من الكتب المعتبرة في هذا الفن والشيرازي هذا مع كل هذه الأنشطة العلمية كان يتولي منصب القضاء في عدد من المحاكم المحلية كما جاد قلمه وظهرت في حيز الوجود مثل هذه الكتب القيمة: جامع أصول الحديث وشرح السنة وفتح المنان في تفسير القرآن. ونظام الدين النيسابوري (المتوفي ١٣٢٨م) الذي اشتهر بمؤلفاته التي شرح فيها كتاب "التذكرة" وكتاب "شرح تحرير المجسطي" للطوسي هو في نفس الوقت صاحب "غرائب القرآن ورغائب الفرقان". أما ابن شاطر الذي كانت كتاباته سببا للبحث عن نظام الكون الجديد في الغرب وكان قد سرق "كوبرنيكوس" مؤلفاته وأبحاثه ومن ثم اشتهر في الغرب أنه هو الذي يُعتبر مؤسس العالم الجديد. ومعروف عن ابن شاطر أنه كان يتولي أعمال التوقيت بالمسجد الأموي بدمشق. حتي أولئك الذين يتحدث الناس عن التباسهم الفكري وآراءهم الحرة وعلي رأسهم "ابن رشد" فقد تولوا مناصب بالقضاء في إشبيلية وقرطبة ويمكننا القول أن حركة الابتكار والاستكشاف منذ ظهور الإسلام حتي القرن السادس عشر الميلادي كانت بالأساس حركة دينية وقادها أصحاب المذاهب الفقهية وعلي الرغم من جميع الالتباسات الفكرية والتي بسببها قد بدأت التيارات الفكرية المسلمة تتجه إلي جوانب مختلفة لم تمس المكانة الدينية للعلوم الاستكشافية بأي شائبة من الشك وإن كان قد بدأ الشعور في أواخر القرن السابع عشر الميلادي أن الجو بدأ يتمهد لانقلاب جذري لا شعوري في القلب والبصر وعن الدلائل التفصيلية لهذه العوامل فسيتم الحديث عنها في الباب القادم لكن هنا نكتفي بعدد من الإشارات الضرورية.

## سياسات عبد الملك الإصلاحية

في عهد الخليفة عبد الملك عندما بدأت الإمارة الإسلامية تتشكل في صورة الامبراطورية العربية وقعت أحداث أثارت ضبابا من الالتباسات الفكرية علي رحلتنا الحضارية وإن كان عبد الملك نفسه حاكما منازعا ولم تقم حكومته لفترة طويلة في أرض الحجاز حيث كان ابن الزبير رضي الله عنه متوليا منصب الخلافة لكن فيما بعد نال قبولا عاما في كتب التاريخ(١٧). والمبادرات المختلفة التي قام بها عبد الملك لتدعيم وتحسين حكومته كانت منها المبادرة التي قام بها أنه أصدر أمرا بأن يتم نقل الحسابات الحكومية أو تسجيل الحسابات الحكومية والسجلات لشئون البلاد إلي اللغة العربية(١٨).



التذكرة في علم الهيئة لنصير الدين الطوسي



وهكذا مُهد الطريق للمكاتب الملكية العربية البيروقراطية. والحادث الآخر الكبير الذي حدث في هذا العهد هو أن الحاكم البيزنطي (جستناين الثاني) الذي كان داعية مسيحي متشدد وصعُب عليه أن تكتب الإمارة الإسلامية علي رأس رسائلها الرسمية الحكومية (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) لذا هدد هذا الحاكم البيزنطي الخليفة عبد الملك بأنه لو أصر علي موقفه في هذا الأمر فسيقوم بصك كلمات جارحة لشعور المسلمين عن رسول الله علي العملات (١٦). يُقال أن العملات الفضية والذهبية في عهد عبد الملك كانت تقوم بصكها إما الدار البيزنطي لصك العملات أو دار الساساني كما هو متعارف عليه. حيث كانت تعتبر ذات قيمة باعتبارها مختومة بختمها وكان يتم التداول اليومي علي هذه العملات. ولكن التهديد البيزنطي أقنع عبد الملك أن يقوم بمبادرة فورية وتقرر أن تقوم الإمارة الإسلامية بإنشاء دار لنفسها لصك العملات والنقود. وهذا المجال كان جديدا تماما علي العرب فتم استدعاء السيد خالد بن يزيد للمشورة وهو الذي كان معروفا باهتمامه بالكيمياء(٢٠) ومن ثم بدأ العمل للحصول علي المهارة الكافية في هذا الفن وكانت هذه هي العوامل التي مهدت الطريق لترجمة الكتب التقنية من المراجع والمصادر الأجنبية.

إقامة دار لصك النقود والعملات للإمارة الإسلامية كانت تجربة جديدة تماما ولذلك كان أمرا طبيعيا أن تهتم الدولة بتجميع وتحليل المعلومات المتوفرة بهذا الشأن. وعلي جانب آخر حينما تحول

ديوان الحسابات إلي قالب عربي احتاج الموظفون العرب الجدد أن يقوموا بتكليف الناس بترجمة الكتب السائدة والمروجة لهذا الفن إلي اللغة العربية كي يقوموا بإعداد وتنظيم نظام الماليات والضرائب وهكذا اقتضت الضرورة بشدة لترجمة جميع الكتب العلمية والفنية التي وُجدت في المناطق المفتوحة وكان من عادة وسلوك المسلمين من البداية أنهم كانوا يحبذون إصلاح هيكل النظام بدلا من القضاء علي المناطق التي يفتحونها. وفي بعض الأحيان كانوا يقررون الإبقاء علي الولاة والموظفين الكبار المحليين في وظائفهم بشرط أن يكونوا أوفياء للدولة الإسلامية وكان الشعور السائد أن الفكر وكذلك الفن ليس حكرا علي قوم دون آخرين بل إنه رأس المال المشترك للبشرية ولذلك لا يصح أن يكون هناك أي حرج في قبوله. وفي هذا الجو من أن الحكمة ضالة المؤمن كان ينظر إلي الترجمة من المصادر والمراجع الأجنبية نظرة استحسان وأصحاب الفكر الواسع كانوا في صف إباحة هذا العمل. لو اكتفي المترجمون علي الترجمة فقط لما واجهتنا أية مشكلة في ترسيخ تقليد صحي للاستفادة والاكتساب حيث أن تلك المصنفات التي مر علي تصنيفها خمسة أو سبعة قرون من الزمن كانت أخطاء هذه الكتب واضحة كل الوضوح للخاصة والعامة فكان الأمر سهلا أن يتم رفض هذه الأخطاء علي أساس أنها تافهة ومهملة لكن الذي حدث أن كتب الفنون اليونانية التي قام المترجمون بترجمتها لم يكتفوا بترجمتها فقط بل قرروا في ضوء المعلومات السائدة آنذاك أنها مؤهلة للتصحيح والتحديث وكانت النتيجة أن المكانة الصحيحة لهذه الكتب البالية لم يتم تحديدها وبدأ الناس ينظرون إليها أنها مصادر أبدية غير فانية للعلم والفن وخير مثال من هذا القبيل هو ترجمة (المجسطي) التي تمت علي يد الحجاج ابن مطر فالمترجم لم يكتف هنا بالترجمة بل حاول أن يحسن هذا الكتاب لبطليموس بمعلومات جديدة تعتمد علي قدر علمه(٢١). وعملية التجديد والتحديث للكتب الفنية قامت بدور أساسي في بناء أسطورة العظمة العلمية لأهل يونان وفيما بعد وبالتحديد في العصر العباسي البغدادي حينما أخذت حركة الترجمة شكلا علميا ووُضع كل رطب ويابس علي طاولة الترجمة والتي كان منها كتب الفلسفة والفلك فأصبح الأمر صعبا بالنسبة للطالب غير المتخصص أن يفصل من مكتب العلوم البالية هذا بين الأفكار المفيدة وما هي الأمور المسلم بها لأهل اليونان ليعتبرها صحيحة وبين ما هي الأمور المضللة كي يبتعد عنها. والحق أحق أن يُقال أن نظام فكر (أرسطا طاليسي) جعل العقل المسلم يعاني لفترة طويلة بسبب فكره المشتت وضاعت قرون في الرد والقبول والتحليل والتأويل وبحمد الله نجا العقل المسلم من الالتباسات اليونانية الخاصة بالفلك والعلوم ولكن الفكر المسلم إلي يومنا هذا مازال يعاني أشد المعاناة بسبب العقليات الكلامية في منهج التفسير والتأويل وسوف يُقيم هذا الموقف المؤلم في الباب القادم لهذا الكتاب. ولكن نكتفي هنا بأن



صفحة من شرح التذكرة لبرجندي

نقول فقط بأن كل ما صدر من المترجمين زهاء ثلاثة قرون من الزمن في العهدين الأموي والعباسي لم يكن عملا محضا للترجمة كما هو متعارف عليه لدي الغرب بأن المسلمين أضاءوا مصابيح الحضارة معتمدين علي ترجمة أهل اليونان(٢٢). وحينما انتقل النور إلي أوروبا غربت شمس العلم والحكمة في الشرق. في رأينا أن حركة الترجمة بابٌ من تاريخنا الفكري وهو عبارة عن أزمة فكرية كبيرة وعقل مشتت وفي نفس الوقت معركة علمية نادرة لا يمكن الفصل فيها بين الغالب والمغلوب.

في ظاهر الأمر يبدو أن نظام فكر أرسطا طاليسي لم يتمكن أبدا في أي وقت من الأوقات من الحصول علي القبول التام. أقول هذا الكلام لأن المعروف أن تقليد الترجمة لم يكن قد استحكم جيدا إذ بدأت إثارة الشبهات حول كتب المفكرين اليونانيين بأقلام العلماء المسلمين حتي قام تقليد جديد لكتب الشبهات في فترة وجيزة. علي سبيل المثال ألف أبوبكر الرازي كتابا باسم (كتاب الشكوك علي جالينوس) وكتب ابن الهيثم "الشكوك علي بطليموس"(٢٣). وهناك كتاب آخر من هذا القبيل وهو (الاستدراك علي بطليموس) وكل ما نعرفه عن هذا الكتاب أنه من تصنيف مؤلف أندلسي(٢٤) وكذلك جعل أبو عبيد عبد الواحد الجوزجاني (المتوفي ١٠٧٠م) هدفه النقد اللاذع لمفهوم بطليموس المسمي (تصور الفلك معدل المسار)(٢٥). في ضوء هذا يمكننا أن نقول أنه كل ما قد جاء من كتب الهند واليونان وفارس في صورة ترجمة لم يقبله المسلمون كما هو بل وُضع علي قيد التحليل والتأويل. وهذه أيضا حقيقة تاريخية أن أبا البركات البغدادي (المتوفي ١٠٢٣م) وفخر الدين الرازي (المتوفي ١٢٠٩م) إن كانا لم يقدرا أي تقدير للمتكلمين من أمثال أرسطو (٢٦) ففي نفس الوقت لم

يهتم مطلقا العلماء الكبار من أمثال أبي بكر الرازي والبيروني أدني اهتمام بتصور خلق الكون ونظرية التغير والتبدل لأرسطو. وفي بداية القرن الثاني عشر الميلادي لم يهدم كتاب (ميزان الحكمة) لأبي الفتح الخازني نظرية أرسطا طاليسي عن الكون بل قدم لأول مرة أمام العالم نظرية جاذبية ثقل المركز التي فتحت للأجيال القادمة أبواب الفتوحات العلمية لكن هناك جانب مؤلم لهذه الفتوحات العلمية وهو أن الخلاص من طلاسم العظمة العلمية لأهل اليونان أخذت من المسلمين عدة قرون من الزمن وكانت أكبر خسارة هي أن المسلمين في القرون الأولي كانوا منشغلين بكتب أهل اليونان وظلت هذه الكتب علي الرغم من تفاهة معلوماتها مصادر ومراجع للمناقشات العلمية ولم يتم في هذه الفترة الطويلة إدلاء أي دلو لأي استكشاف صحيح في دائرة الفكر القرآني. أما هذه الدنيا المُكتشفة التي كان ينبغي أن تظهر في حيز الوجود بسبب نزول القرآن ظلت عين السماء محرومة من مشاهدتها.

وماذا جري للمفكرين المسلمين وقت شق الطلاسم العلمية اليونانية وكيف عانوا من التشتت الذهني لعدة قرون يمكن تقديره إلي حد ما من خلال هذا الأسلوب النقدي لابن الهيثم والذي قام باحتجاج شديد ضد (المجسطي وكتاب المنثورات) إذ يقول "إما كان البطليموس مقدرا لهذا الأمر أن الفرضيات التي يضع عليها أساس كليته وهي مستحيلة إما لم يكن لديه أي علم بشأنها البتة وإن كان مؤيدا لهذا الرأي فهو يعلم تماما أنه أمر مستحيل فبكل تأكيد هذا دليل دامغ علي أن علمه كان ناشئا وغير ناضج وجميع أفكاره وافتراضاته كانت مضللة ولذلك لا يمكن اتهامه بطريقة مؤكدة لكنه إن كان قد اختار هذه الفرضيات علي الرغم من إدراكه لنتائج أسرارها وعاقبتها كما هو واضح كل الوضوح لأنه لم يكن يملك حلا آخر لهذه المشكلة وبصرف النظر عن أخطائه مع العلم بها فبكل تأكيد قد ارتكب خطأ مزدوجا في المرة الأولي عندما اختار هذه الفرضيات وكان واضحا لديه أن العمل بها غير ممكن بل مستحيل. والمرة الثانية أخطأ عندما غض النظرعن هذا الخطأ مع إدراكه أنه واقع في الخطأ. ولا يوجد أدني شك في هذا الأمر أن حركة الكواكب موجودة في طوالعها ولا يوجد فيما بينها أي تعارض وتضاد وليس هناك مجال لاستحالتها لكن هذا مختلف تماما عن الخطوط التي أقرها بطليموس ولم تكن قد اتضحت هذه الحقيقة لبطليموس وكذلك لم يكن مدركا كنه هذه القضية(٢٧).

وهذا ليس وقفا علي ابن الهيثم بل كان واضحا لمترجمي الجيل الأول أيضا أن التصورات الفلكية لأهل اليونان بعيدة كل البعد عن القياس لكن حركة الترجمة كانت قد أحاطت الحكمة اليونانية بهالة من الهيبة والعظمة ففي هذه الحالة لم يكن الأمر سهلا أن يتم إلغاء هذه التصورات علي الفور. خاصة وبعدما اتضح قدمها لكن وعلي الرغم من هذا كان يُعقد منتدي الحديث العلمي

معتمدا علي أفكار هؤلاء القدماء وعلي الرغم من أن محفل أهل العلم والفن كان علي معرفة جيدة بأن تحديد وتعيين أوج الشمس من الممكن أن يتم بطرق مختلفة جيدة أيضا كما حدث في عهد المأمون إذ أوضح هذا الأمر بعض المتخصصين بالاستناد علي الفصول من خلال ترتيب وتصنيف "زيج الممتحن". لكن وعلي الرغم من كل تلك العيوب والنقائص الواضحة لم يكن قلة في المجتمع من أولئك الذين لم يكونوا يملون من ترديد أنه مادام في كتب بطليموس وجالينوس وأرسطو منصوص هكذا فهو اليقين والحقيقة وذلك علي الرغم من مشاهداتهم الشخصية وكأن جزءا غالبا من المجتمع كان يشعر بالدونية في العقل والحكمة وكانت هذه هي نفس الحالة التي يمكننا أن نطلق عليها مصطلح "كانت" المستعار بعدم النضج الذاتي. إن المنتديات التي عقدتها وروجت لها مدينة الحكمة كان يظهر من خلالها بوضوح أن لمعاني كتاب الحكمة التي أنزلها الله سبحانه وتعالي قد اضمحلت أيضا وشلال الثقة بالنفس والإبداع الفكري قد جف وبالتالي كانت غضبة وثورة ابن الهيثم علي حق.



صفحة من كتاب الكافي في الكحل
لخليفة بن أبي المحاسن
(القرن الثالث عشر الميلادي). في هذه الصفحة
جاء الحديث عن العلاقة البينية بين المخ والعيون.

إن النظام الوهمي للكواكب الخمسة الذي قدمه بطليموس لهو نظام خيالي ومهمل وعبثي وإن كان عبثه واضحا له أيضا لكنه لم يكن يستطيع أن يقدم أكثر من هذا. إن حركة الكواكب جارية علي محاورها الأصلية وإن هذا لا يحدث في عالم وهمي بل جاء في عالم حقيقي وعملي لكن بطليموس كان عاجزا عن فهم هذا الأمر(٢٩).

ابن الهيثم كان أكثر إدراكا مقارنة بالمفكرين الآخرين المعاصرين له بأن الفلك البطليموسية في حقيقتها لا أصل لها وهي مبنية علي أسس غير علمية ولا يمكن إقامة منهج علمي وتقني بدون أن نقارنها وأبو إسحاق البطروجي الذي قام بهدم النظام البطليموسي تماما وكان مقدرا بشكل جيد كيف أن التراجم المهيبة اليونانية ظلت جاثمة علي طريق النمو المحتمل للحركة العلمية في دائرة الفكر القرآني الخالص زهاء قرون. وحسب قول البطروجي أن الأنموذج البطليموسي لا يتطابق أبدا مع المشاهد الحسية والرصدية وأنه كل ما كتب في هذا الشأن مبني علي التوهم ولا علاقة له بالحقيقة(٣٠).

## سنة الله باسم الحكمة اليونانية

علي الرغم من المقاومة المستمرة للحكمة اليونانية وعلو نغمة حركة الترجمة لم يكن قد مر علي

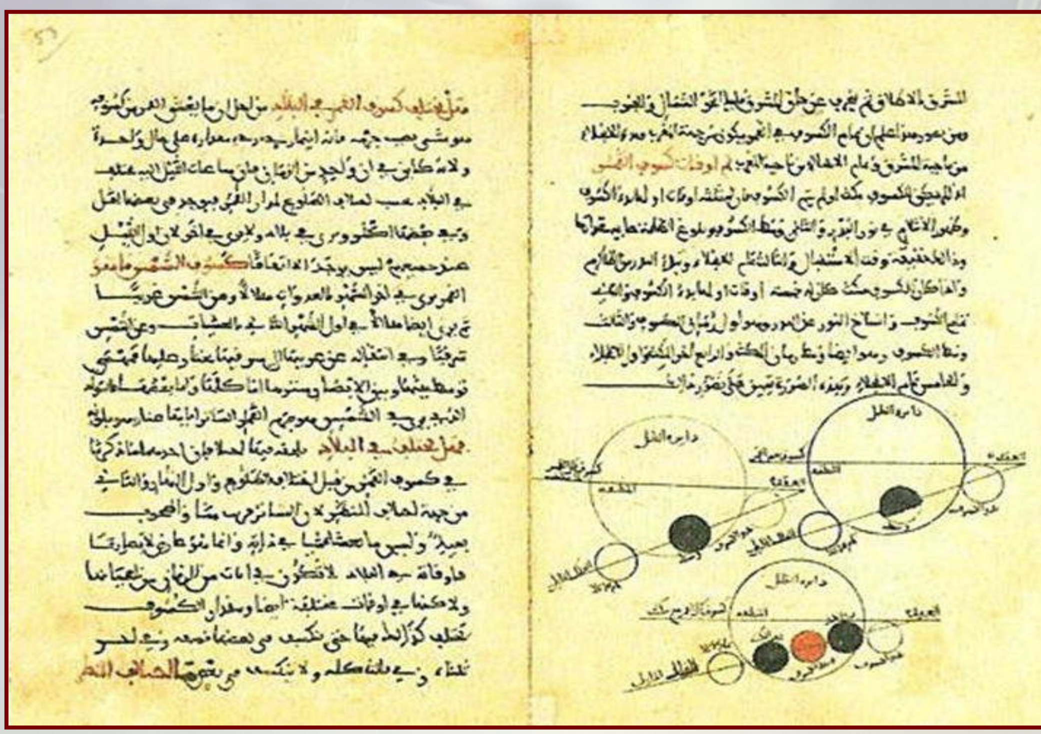
نزول الوحي ما بين مائتين ومائتين وخمسين سنة إذ أحاط المسلمون بجميع العلوم السائدة والرائجة وتم تقديم وطرح كل تقدم للحضارة الإنسانية لكي يتم تناوله علي مائدة التحليل والنقد. وكذلك علي الرغم من الهيبة العلمية وعظمة أهل اليونان توالت الموجات الخفية للحكمة المسلمة وواصلت عملها الدؤوب والذهن المسلم في القرون الأولي الذي كان عليه طابع الحكمة البالغة(٣١) واضحا وجليا إلي الآن كان يعبر عن هذا الكون بنظام منطقي ومترابط. وكان لديه شعور عميق بهذا الأمر وهو أن دوران الشمس والقمر وتقدم وانحطاط الأقوام والسعي المستمر في الكون الذي لا نهاية له، كل هذا وذاك مرهون بقوانين وسنن منظمة ومترابطة. إن الله سبحانه وتعالي قد وضع قانونا لكل شيء في التغير والتبدل والنهوض والانحطاط والماهية والنسبة ففي هذه الحالة يجب علي أهل الابتكار والاستكشاف ألا يكونوا علي دراية تامة لسنن الطبيعة هذه فقط بل لا بد أن تكون لديهم المقدرة واللياقة لاستخدامه بكل حذر وحيطة. إن سنن الطبيعة هذه حقائق ومسلمات للتقدم والانحطاط وغير متحيزة ولا بديل لها فلو أن كل قوم يكيفون أنفسهم مع هذه القوانين فسينكشف لهم سر الكون وينفتح عليهم عالم الابتكار والاستكشاف ويصبح منصب السيادة والقيادة محفوظا لهم وسنة الله هذه التي يمكنك أن تسميها قوانين الطبيعة ليست حكرا علي شخص أو قوم أو عصر "ولن تجد لسنة الله تبديلا".

إن الإيمان العميق بسنة الله والتشتت الفكري لمعرفة الحكمة البالغة ظل يدفع المسلمين باستمرار في تلك القرون أيضا علي أن يقوموا بكشف سر الكون وكان رسول الله محمد ابن عبد الله (ص) قد جعل أتباعه متصفين مع تعاليم الكتاب بالحكمة أيضا "وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ". وإنه صلي الله عليه وسلم قد شكل دائرة الفكر العقلي في ضوء الوحي الرباني التي تستطيع أن تقنع الإنسان بمشاهدة الكون وتسخيره واستكشافه وصولا به إلي البلوغ الذهني ليس خارجا من حكمة القرآن الكريم فقط بل من الوحي المأمول الناتج عن التزكية الربانية لذا أصبح مسلكا عقليا ويمكنك القول بأسلوب آخر أن كل من يدرس الوحي الرباني بقلب سليم وبعقل خال من الشوائب سيكون متصفا بنعمة الحكمة ثم بعد ذلك يلقي هذا الشخص نفسه المتصف بالحكمة النظر علي الكتاب والكون ففي هذه الحالة سينكشف له الفهم الصحيح للكتاب وسر أسرار الكون وهذا الفهم لسنة الله وهذا الشعور بالحكمة البالغة قد غمر أهل الفكر المسلم بفرحة الإيمان واليقين بأن العلم والاستكشاف بحر زاخر لا شاطيء له وعلي الإنسان أن يحاول استكشاف جميع أسرار الكون والأسرار التي ما وراء هذا الكون وقد مُنح الإنسان موهبة لاستكشافها جميعا. إن السلوك العقلي المفعم بالكتاب والحكمة قد أنتج منهجا علميا جديدا وُضع حجر أساسه علي المشاهدات والتجارب المؤكدة

بدلا من الاستخراج والأوهام مع الفارق بدلا من الذكر بأن أفلاطون أو بطليموس قال. إن المنهج الذي اختاره وسلكه العقل المسلم الجديد يمكن إلقاء النظر عليه بنظرة خاطفة في نص البيروني الآتي: "إن كل ما قمت به هو ما كان واجبا علي كل إنسان بأن يكسب مهارة في فنه أي الفن الذي سبقه إليه الآخرون من قبل ويقبل اجتهاداتهم وإن وُجد فيها أي خلل فبدون تردد يقوم بإصلاح كل ما يراه ويصل إليه يعد كإرث لمن يأتي من بعده(٣٣)."

إن هذا المنهج العلمي الاستنتاجي للتعقل والمشاهدة والتفكر والتدبر قد عرف الحضارة الجديدة بوجهة جديدة وشهرة جديدة. وبدا الإحساس وكأن كتاب الكون كله قد وُضع مفتوحا





ورقة من كتاب البيروني حيث يدور الحديث عن خسوف القمر

للاطلاع عليه ودراسته وهناك عالم جديد للإمكانيات أُجبر علي الظهور وعندما يكون الإنسان مغمورا بهذا اليقين الواثق بأن الدنيا في الأصل قائمة علي قوانين الرياضيات والتوجيه العددي الذي يمكن أن يكون بعينه في عالم الموجودات كما أبدي هذا الرأي جابر ابن حيان بأنه لو تيسر التأويل العددي لخواص الأشياء فسيصبح في الإمكان إقامة أصول الميزان لحتمية الرياضيات أو دعواه بأن هذه الأصول توضح نظام الأشياء وتشير إلي التنسيق الداخلي فيما بينها وهو ظاهر في كل شيء. وهذا هو المفهوم(٣٥) الأساسي المجرد للدنيا فيمكنك أن تعرف أنه قام بكشف السر الأساسي لهذه الدنيا المبنية علي الأسباب والعلل للأجيال القادمة.

وكان قد بُني هذا المنهج العلمي الجديد علي طلب الحقيقة والبحث عنها وكان العلماء المسلمون علي معرفة تامة بهذا الأمر وهو أن دعوة القرآن الكريم للاستكشاف قد ألقت عليهم مسئولية كبيرة وحسب قول ابن الهيثم أن الحقائق غارقة في الشبهات وفي هذه الحالة فإن الباحث عن الحقيقة ليس هو من يدرس كتب المتقدمين ويفيض بحسن الظن بها مع ميوله الفطرية بل الباحث عن الحقيقة هو من يشك في ظنه أيضا. فلو استطاع اختيار هذا السلوك فمن الممكن أن تنكشف له الحقائق والتقصير المحتمل أو الاشتباه الذي كان لدي المتقدمين يمكنه أن يراه جليا(٣٦). وهذا المنهج العلمي الجديد الذي كان قد استمر بعد نزول الوحي في مختلف البلاد والأمصار قد أدي دورا رئيسا في تحليل رحلتنا الحضارية وتنظيم وترتيب القافلة الإنسانية علي خطوط جديدة. والحضارة الإنسانية وبالرغم من وجود ذكر للسلب والنهب والأباطرة والملوك الجبارين وقصص ذات عبرة لقوم عاد وثمود وذكر داود وسليمان ذوي المهابة والجلال وكذلك ذكر موصول بحكمة لقمان كانت تائهة بسبب عدم معرفتها بكتاب الفطرة ثم بدأت علي مرأي من الناس تزين عالما جديدا للتسخير والاستكشاف.

## العقل الجديد: الإمكانيات الجديدة

هذا المنهج العلمي الجديد الذي كان قد أسس علي المشاهدات والتجارب بدلا من الظن والتخمين فقد نتج عنه فيما بعد إقامة المراصد وظلت عملية بناء المراصد والمختبرات في مختلف البلاد والأمصار زهاء ألف عام وهي الفترة التي ظلت فيها المثل العليا للتفكير والتدبر في العالم الإسلامي علي قيد الحياة(٣٧).

فللعيون المترقبة التي رفعت إلي السماء مرة مثل هذه الأسئلة تكون طبيعية. هذا الفضاء وهذا الفلك وهذا اللون الأزرق للسماء ما حقيقته(٣٨)؟ لماذا تهب الرياح؟ ولماذا في غالب الأمر تكون رياح فصل الصيف شمالية ومعظم أيام فصل الشتاء تكون جنوبية؟ الأجوبة التي قدمها الكندي لكل هذه الأسئلة هي نفس الإجابة التي تُنسب إلي جورج هادلي أو إيمانويل كانت في القرن الثامن عشر(٣٩). إن النيريزي قام بقياس السحب وارتفاع الأبخرة وحاول أبو سهل الكوهي معرفة المسافة ما بين الشهب. في القرون الأولي جعلت حركة التسخير والاستكشاف هذه العالم الإسلامي يشعر بفرحة غامرة باستمرار، ولتقديم صورة صحيحة لهذه الحالة لا بد أن نذكر بقدر من التفصيل بعض اللحظات الغامرة لهذه الحركة الاستكشافية بدلا من البيان الإجمالي.

إننا نعلم أن أول مرصد مستقل كان قد أقيم في الشماسية ببغداد وضواحي دمشق علي جبل قاسيون. وأول ثمرة جناها المسلمون من هذا المنهج العلمي كانت قياس طول خط الاستواء. كما قام

علماء الاستكشاف بقياس مسافة طول ما بين تدمر والرقة ومن خلال هذا القياس اكتشفوا أن طول خط الاستواء هو ٤٠,٢٥٣ كم والذي كان مثالا لقياس دقيق ومحدد غير عادي ثم قاموا علي الفور بإعداد جداول لعلوم الفلك باسم (الزيج الممتحن) وبدأت المحاولة بأن يتم رسم العالم كما هو علي أسس علمية بحتة في شكل خريطة.



ورقة من تحفة الشاهية في الهيئة لقطب الدين الشيرازي

وفيما بعد اكتشف كتاب البيروني الشهير (تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن) طريقة جديدة لقياس محيط الكرة الأرضية وأبدي البيروني رأيه في أنه لو استخدمت الآلة (الجذر الرباعي) فلن نحتاج للقياس بمثل هذه الرحلة المتعبة. وهناك أمر آخر أن آلة (الجذر الرباعي) تُعتبر من اختراع (تيخو براهي) وبهذه المناسبة سميت الآلة باسم (تايكوس)(٤٠). وبعيدا عن هذا النقد من جانب البيروني فقد كان أمام أصحاب الاكتشافات في عهد المأمون تحديد عالم لم يكن له نظير في التاريخ الإنساني (رسم خريطة للكون يظهر فيه الكون بحدوده الأربعة مع الكواكب والأرض والبحار والمناطق المأهولة بالسكان وغير المسكونة والمدن والغابات والصحراء مع أبعاده جميعا(٤١). ومما لا شك فيه أنه كان مشروعا عظيما من نوعه. وفي القرن الثاني عشر الميلادي ألف الإدريسي كتاب (نزهة

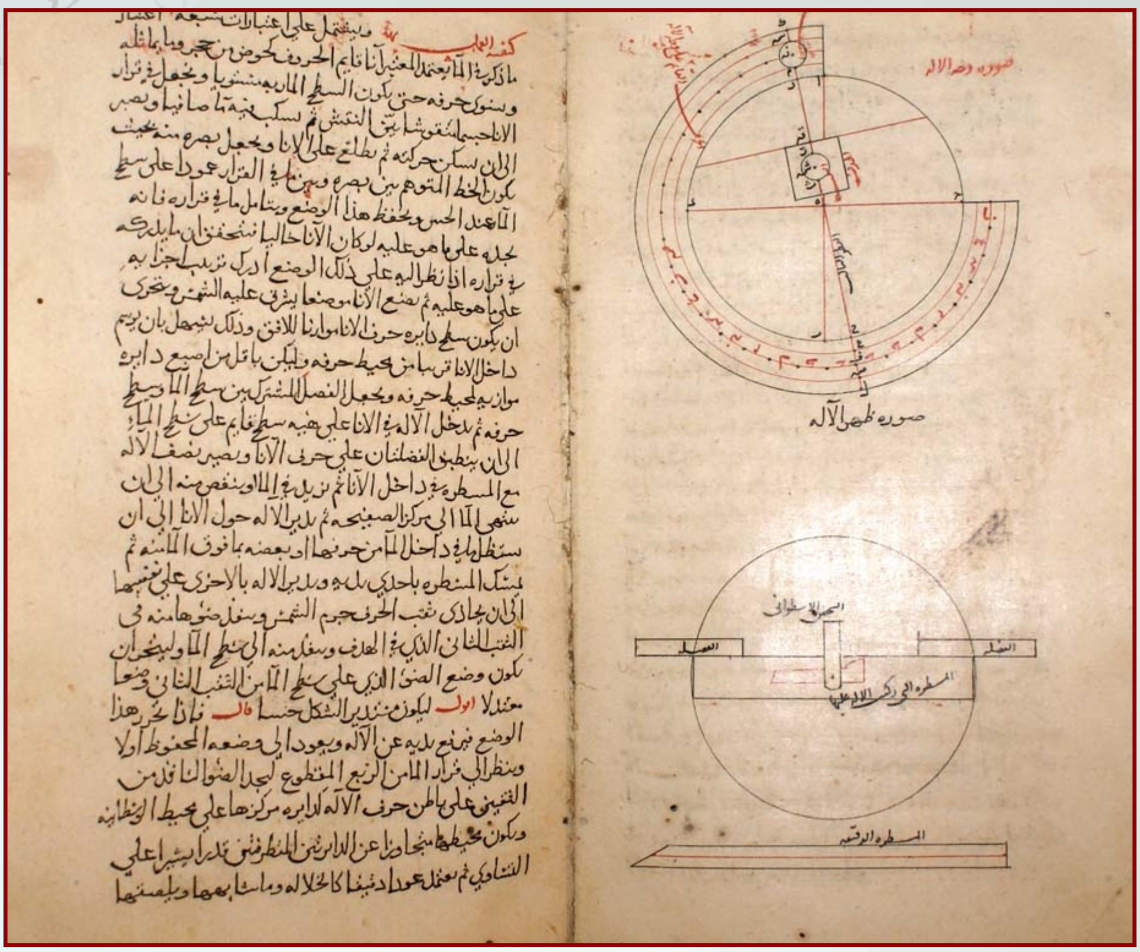
المشتاق في اختراق الآفاق) الذي يعرف في اللاتينية باسم (تابيولا روجريانا) مع إعداد خريطة للعالم بناء علي طلب من ملك صقلية النصراني (روجر الثاني). وفي هذا الكتاب تم حصر وجمع جميع المعلومات عن الدنيا علي وجه التقريب مع ظهور خريطة العالم هذه في حيز الوجود.

وبسبب مهارات المسلمين الاستكشافية في هذا الفن بدأت تنحسر القصص الخيالية والمليئة بالأسرار إلي حد كبير وكل ما كان قد كُتب حتي الآن بواسطة علماء الجغرافيا من الساسانيين والفرس والهنود في عداد المشاهدات الشخصية والتجارب والخبرات(٤٢). ويوم الرابع والعشرين من مايو لعام ٩٩٧م قام أبو الوفاء (المتوفي ٩٩٨م) وأبو الريحان البيروني بقياس طول المسافة ما بين كات وبغداد لأول مرة. وعلي ساحل نهر آموداريا حيث كان البيروني ينتظر خسوف القمر في الجانب الآخر كان أبو الوفا في بغداد مشغولا بالبحث عن كيفية قياس المسافة الطولية بين المنطقتين بمراقبة خسوف القمر. والقياس الصحيح لهذه المسافة غمر هؤلاء بفرحة لا توصف. ولأول مرة انكشفت هذه الحقيقة وهي أن ماهية الأرض والسماوات يمكن أن يحيط بها الإدراك الإنساني لدرجة أن الإنسان يستطيع معرفة طول وعرض هذا الكون بمجرد دوران الشمس والقمر. وهذا الانكشاف للبيروني وأبي الوفا أحدث ضجة كبيرة في الفكر الإنساني(٤٣).

وفي أواخر القرن الحادي عشر بدأ القياس الدقيق لليل والنهار في مدينة أصفهان تحت إشراف عمر الخيام من جديد والأنظار المترقبة قد انشغلت مرة أخري بتعقب السماوات وفي آخر الأمر وبعد جهود مضنية استمرت لسنوات افترض عمر الخيام في عام ١٠٧٩م طول السنة ب ٣٦٢.٢٤٢١٩٨ وهو قريب بشكل مدهش من الدراسة الجديدة. وفي عصرنا هذا عصر الآلات الالكترونية والساعات الذرية يُحسب طول السنة ب٣٦٥.٢٤٢١٩٠. إن عمر الخيام الذي يعرف في الغرب بشاعر الرباعيات قد قدم لأول مرة دليلا دامغا غير مردود بأن الأرض تدور حول نفسها. يُقال أن عمر الخيام قدم البراهين الرياضية علي دوران الأرض مستعينا بالشمعة ومجسم الكرة الأرضية في مجمع عام. وكان أبو حامد الغزالي الذي حصل فيما بعد علي مكانة حجة الإسلام كان موجودا بنفسه في هذا الجمع الغفير.

وقد سبق لنا ذكر افتراضية بطليموس وهي "معدل المسار" وابن الهيثم لم يكتف بالرد ورفض هذه الفرضية فقط بل قام لأول مرة بتقديم توجيه مقبول بشأن حركة الكواكب(٤٤). وكان موقف ابن الهيثم هو أنه لا يمكن القبول بأي حال من الأحوال بأن هناك دائرة في الكون تدور علي مدارها باستمرار دون أن تمر بمركزها. والبيروني أضاف قائلا عن كتاب بطليموس الشهير في عصره بأن مثل هذه الكتابات لا علاقة لها بعلم الهيئة أو الفلك(٤٥). هذا هو النقص الواضح للنظام البطليموسي الذي دفع علماء الفلك للبحث عن الحقائق وأقنعهم بتشكيل أنموذج جديد للكون. ففي المغرب

الأقصي ظل البطروجي (المتوفي ١٢٠٠م) وابن رشد (المتوفي ١١٩٨م) وجابر ابن أفلح (المتوفي ١٢٠٠م) باحثين عن هذا الأنموذج الجديد.



ورقة من كتاب تنقيح المناظر لذوي الأبصار والبصائر لكمال الدين الفارسي

والحق أن النظام البطليموسي كان قد دخل في دوائر الشك في أوائل القرن التاسع الميلادي لكن تشكيل النظام المتبادل كان من نصيب علماء المراغة. فنصير الدين الطوسي (المتوفي ١٢٧٤م) قدم مبادرة نوعية في هذا الاتجاه. لقد أعد جدولا شاملا باسم (الزيج الإلخاني) ووضع أساسه مستندا علي علم هندسة المثلثات وعن طريقه تم قياس طول السماوات وتحديد أبعادها. وقد قام الطوسي بإنقاذ الناس من زوبعة تحقيق نظرية معدل المسار للأبد. بعد ما منح الدراسة الجديدة كل التفاصيل الصغيرة والكبيرة. إن الطوسي لم يكتف بالرد فقط علي بطليموس في كتابه "تحرير المجسطي" (المطبوع في عام ١٢٤٧م) بل في تأليف وتصنيف آخر له وهو التذكرة (المطبوعة في عام ١٢٦٠م) أشار إلي بديل جديد وفي النهاية غيرت المساعي الحميدة مجتمعة لكل من نصير الدين الطوسي (المتوفي

١٢٧٤م) وقطب الدين الشيرازي (المتوفي ١٣١١م) وابن شاطر (المتوفي ١٣٧٥م) تصورنا ورأينا بشأن الكون للأبد. ابن شاطر(المتوفي ١٣٧٥م) الذي طرح رسما للنظام البديل في كتابه (نهاية السول في تصحيح الأصول) كان أساسه مبنيا علي المشاهدات الموثقة. وهذا النموذج الجديد لابن شاطر جعل الفكر الإنساني فيما بعد يتعرض لثورة علمية جديدة(٤٦). وبعد تعديل وتغيير طفيف في هذا النموذج نسبه (كوبرنيكوس) إلي نفسه وهو ما يعد تدليسا أو سرقة علمية. ثم رُوج له بكل قوة في العصور الاستعمارية حتي بدأنا نعد (كوبرنيكوس) من البنائين والمؤسسين للعالم الجديد(٤٧).

وبسبب شيوع وانتشار حلقة الفكر القرآني تغيرت هيئة الحضارة الإنسانية في مرأي ومسمع من الناس، فجميع العلوم المسلم بها منذ قديم الزمان والتي كانت تعطي الناس إحساسا بأن سرية الكون عقدة لا تنحل بدأت تفقد اعتبارها.

ولم تدخل في دائرة الشك علوم الرمل والنجوم والكهانة والعلوم السفلية فقط بل طالت أيضا الهواية المحببة "الكيمي" وفيما بعد وُضع حجر أساس لعلم الكيمياء بدلا من "الكيمي"، وجابر ابن حيان الذي كان يُعتبر مؤسسا ورائدا لذلك العلم جعل جميع الظواهر الكيميائية تابعة لقانون الأسباب وأبدي رأيه في هذا أن البحث عن هذه الأسباب ممكن بالعين المجردة وحسب ما جاء علي





الزهراوي بين عدد من طلابه أثناء العلاج وهو يعلمهم. هذه الصورة ملتقطة من مكتبة "ويلكم" بلندن.

والاختلاف الذي يحدث في الزوايا بسبب انكسار الأشعة هذا تتولد منه الألوان. وهذا التفسير لألوان الطيف هو نفس الاكتشاف الذي تُوج به العالم الفرنسي ديكارت في القرن السابع عشر الميلادي.



صورة لمخطوط عربي يرجع إلي القرن الخامس عشر الميلادي ويتعلق بعلم النباتات وترجمت نصوصه إلي اللاتينية بسرعة شديدة.

لسان جابر أن خواص الأشياء محصورة علي نسبة الأجزاء المختلفة الموجودة في داخلها وفيما بعد اشتهرت قاعدة جابر هذه باسم (قانون الأبعاد) وجاء هذا القانون علي أساس أصل من أصول نظام الكون المجردة بحيث استنارت في ضوءه احتمالات توجيه الرياضيات للكون(٤٨). وجابر هذا يُعرف بأبي الكيمياء إلي يومنا هذا. فهو الذي قرر أن تكون التجارب أساس علم الكيمياء وهو الذي صنع لأول مرة من المعادن حمضا. علي سبيل المثال حامض الكبريت وحامض النيتريك وحامض الهيدروكلوريك وهو الذي اكتُشفت فيه خاصية إذابة معدن مثل معدن الصلب. ولإزالة أثر الحامض اخترع جابر نفسه أيضا "القلويات". وبالإضافة إلي ذلك أعد مجموعة من الأحماض وأسماها بالماء الملكي (أكوا ريجيا) وهذا الماء جعل الذهب والبلاتينيوم أيضا يذوب. وهذه الاكتشافات الكيميائية كان لها دورا كبيرا فيما بعد في إنتاج السماد الصناعي وأدوات البلاستيك بل يمكنك أن تقول في صنع أدوات صناعية. يُقال أن الكيميائي جابر كان بارعا في فهم خواص الكون الكيميائية والرياضية حتي بدأ يحلم بصنع كائن صناعي بل إنسان اصطناعي عن طريق كشف سر الكون. وهذا السبق العلمي لجابر سواء كان قد أثر علي دراسات الاستنساخ في العصر الحديث أم لا لكنه بكل تأكيد يمكن مشاهدة آثاره في العالم الغربي في بعض روائع الأدب(٤٩). وحتي القرن التاسع الميلادي حينما كانت الغلبة لعلم البصريات للعلماء الأقدمين مثل إقليدس (٢٩٥ ق.م) وجالينوس حيث كان معروفا أن عملية رؤية الأشياء تتم من خلال أشعة الضوء الت تنبعث من العين وتتجه ناحية الأشياء. والرازي

(٣٠٠هـ) أثبت أن الأمر عكس ذلك تماما ولعله كان أول طبيب أثبت هذا الرأي وهو أن إنسان العين هو الذي يتمدد أو ينكمش بسبب مرور الضوء أو النور فيه. وابن الهيثم الذي يحصل علي براءة الكشف عن قانون الانعطاف وقانون الانعكاس قدم لهذا الأمر دلائل وشواهد مجربة وهو أن الشعاع لا ينبثق من العيون لرؤية شيء ما بل يدخل هذا الشعاع من الخارج وبه تتكون صورة هذا الشيء داخل العين وهكذا نكون قادرين علي الرؤية والمشاهدة. وتوجيهات وأسس وأصول الإبصار هي التي عرفتنا بالتكوين الأصلي للعين بل فيما بعد ساعدت هذه الأسس في وضع قوانين البصريات وكذلك ساعدت في اختراع المنظار. والمعاصر الثاني لابن الهيثم وهو البيروني أخبر الدنيا لأول مرة بهذه الحقيقة وهي أن سرعة الضوء محدودة ولا يمكن تسميتها بأنها خارج الزمن. والدراسات التي أجريت فيما بعد مرهونة بهذه النظريات الأساسية لابن الهيثم الذي يعتبر إلي الآن أبا للبصريات أو أبا للطبيعة. وفي القرن السابع الهجري قام كمال الدين الفارسي بكشف أسرار ألوان الطيف(٥٠) وهو الذي أخبرنا بأن تكون ألوان الطيف في الجو هو بسبب انكسار الأشعة في قطرات المياه في الفضاء

في القرن الأول الهجري كان استخدام الدرجات الأبجدية سائدا عند الإغريق مثل المسلمين وعندما أثبتت الطريقة التقليدية للأعداد والإحصاء عدم كفايتها في مجال المعرفة والتقدير الرياضي للكون فحاول المسلمون الاستفادة من الطريقة الهندية للأعداد والإحصاءات وسعي الكندي لترويج الأعداد الهندية لكن بسبب بعض التعقيدات العملية لم ينل القبول. والخوارزمي هو أول شخص أوجد عالما جديدا للإمكانيات من العمليات الحسابية المختلفة مهما كانت كبيرة هندسيا بواسطة الأرقام من صفر إلي تسعة. وعن طريق كتاب الخوارزمي (الجبر والمقابلة) حدثت ثورة عظيمة غير عادية في عالم الرياضيات. والقضية سواء كانت خاصة بالميراث أو تتعلق بقياس مساحة الأرض جعل هذا الكتاب كل تلك القضايا الحسابية سهلة ومفهومة لعامة الناس مهما كانت معقدة. وفي الأيام التالية احتل هذا الكتاب للخوارزمي في عالم الرياضيات أهمية كبري حيث أصبح فرعا مستقلا في علم الرياضيات عُرف باسم الجبر. وعندما وصل اسم الخوارزمي إلي أوروبا نُسب إليه الإجوريسم(٥١) والذي بفضله مازال عالم الحاسوب محافظا علي رونقه إلي الآن.

كتاب الخوارزمي قام بالتعريف بالأرقام الهندية والصفر فمما لا شك فيه أنه كان قد ساهم مساهمة كبيرة في العمليات الحسابية لكن لم يكن قد مر قرن من الزمان إذ ألف أبو الحسن الإقليدسي (المتوفي ٩٨٠م) كتابا باسم (الفصول في الحساب الهندي) واخترع منه طريقة الجمع والطرح للكسور العشرية(٥٢). وظل الغرب يعتقد لعدة قرون أنها من إنجازات سيمون ستيفن (١٦٢٠ – ١٥٧٨م). وفي القرن الثالث الهجري توسع علم الرياضيات بحيث شاع استخدام المعادلة

التفاضلية والتكاملية. يُقال أن هذه هي نفس العمليات الحسابية التي طبقها (يوهانس كيبلر) في أوائل القرن السابع عشر علي حساب حركات النجوم(٥٣)...page 41..

وحينما أُسست الرياضيات لأول مرة علي مبدأ أن كل شيء في هذا الكون المهيب المليء بالأسرار قائم علي نظام حسابي دقيق جدا فحينها أصبح علم الرياضيات إثر رفعه النقاب عن سر الكون ليس بعلم جزئي بل أساس العلوم. وصرف العلماء المسلمون مواهبهم العقلية الفذة في العمليات الحسابية الدقيقة وكل ما كان يُخيل آنذاك مستحيلا بدأ يظهر ممكنا عمليا. خذ علي سبيل المثال "ألما" والذي قام بوضع المعادلات الجبرية من الدرجة الثالثة لأول مرة في تاريخ الرياضيات والذي لم يستطع حلها بنفسه بل قام أبو جعفر الخازن بحلها فيما بعد. وفي القرن الخامس الهجري قام عمر الخيام بتقديم أسس المعادلات التكعيبية وحلها لأول مرة لكنه رحل عن الدنيا ولم يستطع الوصول إلي حل العدد المطلق. وما العجب أن يتمكن شخص من حل هذه العملية الحسابية. يُقال أن شرف الدين الطوسي كان قد عرف الحل العددي في القرن السادس الهجري(٥٤). والحكاية لم تنته هنا بل في الأيام التي تلت اخترع يحيي المغربي (المتوفي ١٢٨٣م) جذور الأرقام. وبعد قرن ونصف من الزمان أحدث غياث الدين جمشيد الكاشي (المتوفي ١٤٢٩م) ضجة كبيرة في عالم الرياضيات بالوصول إلي العلاقة بين قطر الدائرة وعرضها(٥٥). هذه الحركة النشطة للعقل والاستكشاف جعلت التصورات الطبية القديمة تتعرض للتعديل والتبديل من الناحية الفكرية والنظرية ففي البداية كانت العلوم الطبية لأهل اليونان تحتل المكانة الأخيرة في مجالها والنظام الطبي لجالينوس الذي كان في الأصل تابعا لأبقراط كان مبنيا علي الفرضية بأن الصحة في الواقع عبارة عن مجموعة متناسبة ومتوازنة من مواد أربعة سائلة موجودة في الجسم. وهذه المواد والعناصر الأربعة الرقيقة أو السائلة كانت تسمي في مصطلح الطب الجليانوسي(هيومر) حيث كانت انعكاسا للهواء والماء والنار والأرض. وكان هذا الرأي سائدا بأنه لو فسد توازنها فإن الجسم يمرض. وعلي الجانب الآخر كان العالم المسيحي الذي كان تابعا للكنيسة معترفا بهذا الرأي وهو أن المرض في الواقع نوع من الانتقام الإلهي. ففي هذا الجو من الالتباسات والفنية التخصصية والأوهام الدينية أشعل علماء الاستكشافات المسلمين في مجال الطب أيضا مصابيح التجارب والمشاهدات. يُقال بأنه حينما ظهر في حيز الوجود مشروع المستشفي المركزي في بغداد فإن أهل التخصص علقوا في أماكن مختلفة قطعا من اللحم ثم قاموا باختيار المكان الذي ظهرت فيه أقل نسبة فساد لقطعة اللحم لبناء المستشفي. ويبدو من خلال هذه الواقعة علي الأقل أنه في بداية الأمر حينما كان تحليل واختيار الكتب الطبية السائدة جاريا وبدأ يوضع حجر الأساس لهذا الفن عندئذ اتضح للأطباء المسلمين عالم الجراثيم التي كان قد رُفع الستارعنها أو علي الأقل كانوا

قد عرفوا مضرة الجرثومة. وهذا أمر آخر أنهم كانوا يواجهون العديد من المصاعب في كثير من الأوقات في سبيل إقناع علماء الفقه بهذه الحقيقة(٥٦).

في بداية القرن التاسع الميلادي كان قد تكهن حنين ابن اسحاق المترجم العربي الأول لجالينوس علي عدد من الأخطاء الفادحة لجالينوس لكنه لم يتجرأ بأكثر من أن يدخل بعض التعديلات العادية. وكان شرح جالينوس مقصورا علي أنه لو كان قد ظهرت بعض النقائص والأخطاء علي أهل التخصص فإنه حتي في هذه الحالة لم يكن أحد منهم يجرؤ علي الاعتراض. وكان السلوك المتبع أنه مادام قد كتب جالينوس علي هذا النحو فهو في كل الأحوال صحيح وصادق حتي لو كان مخالفا للملاحظة والمشاهدة. ولكن الرازي المولود في عام ٨٦٥م هو أول شخص قام بتحطيم صنم جالينوس للأبد عن طريق كتابه "الشكوك علي جالينوس"(٥٧). الرازي هو أول من أوضح الفرق بين الجدري والحصبة وألف في هذا الموضوع عددا من الكتب الأساسية وبالإضافة إلي ذلك ألف كتاب الحاوي في الطب عن جميع الأمراض وطرق علاجها والذي يشتمل علي ٢٣ مجلدا وبهذا ألف الرازي كنزا في عالم الطب لا يوجد مثيل له من قبل في التاريخ الإنساني. وفي القرن الرابع الهجري أخبر أبو الحسن الطبري الدنيا لأول مرة بأسباب الحكة والجرب والجرثومة المسببة لها(٥٩). وفي القرن نفسه قام أبو القاسم الزهراوي بالكشف عن أمراض الدم(٦٠). وفي القرن الخامس الهجري قام عبد الملك بن زهر بتعريف العالم بالأورام التي تصيب الغشاء المحيط بالقلب(٦١).

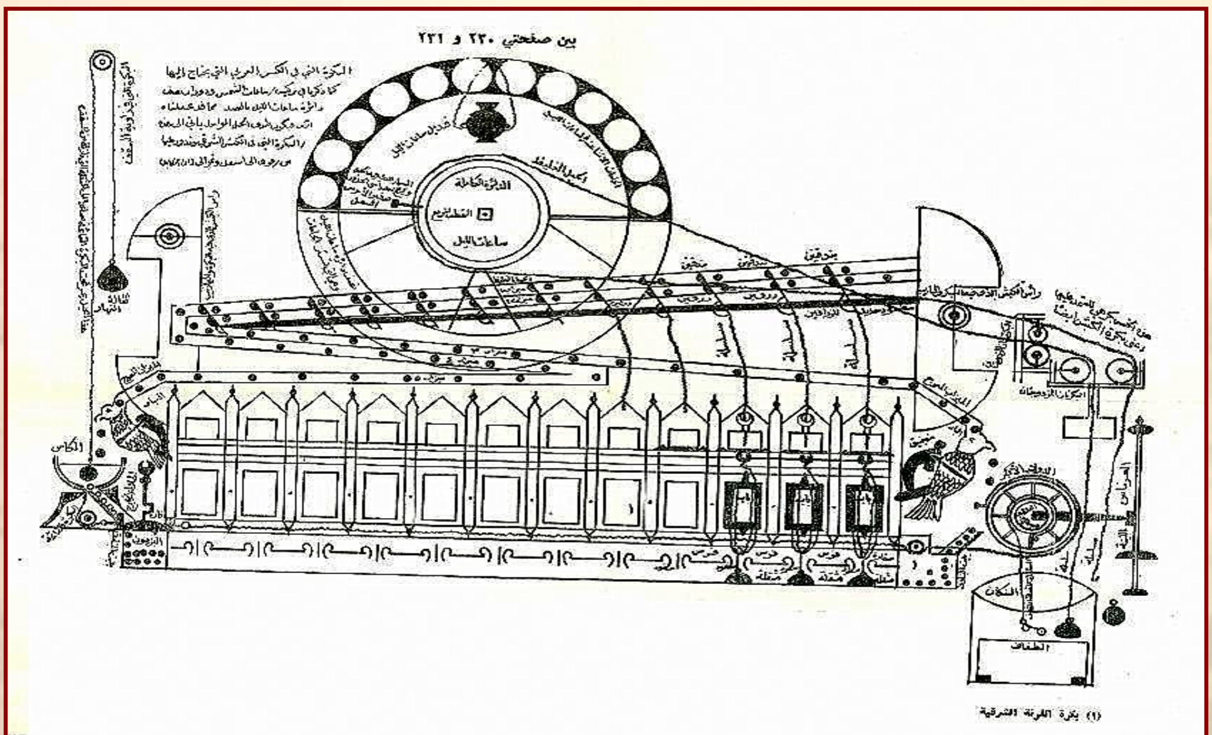
لم يكن قد مر علي طباعة الحاوي قرن ونصف من الزمان إذ طبع ابن سينا كتابه الأكثر شهرة علي المستوي العالمي والكنز الطبي (القانون في الطب) وقد استمر كتاب ابن سينا هذا يرشد المتخصصين في الشرق والغرب لقرون وظل المصدر لكل المراجع الطبية في مدارس الغرب زهاء خمسمائة أو ستمائة سنة. وهناك شاب معاصر لابن سينا أيضا وهو أبو القاسم الزهراوي (المتوفي ١٠١٣م) والذي ألف كتابا باسم التصريف لمن عجز عن التأليف من ثلاثين مجلدا. ويعد هذا الكتاب كنزا لفن الطب وهو بهذا كأنه كان قد عصر عطر العالم الطبي وهذا الإنجاز للزهراوي كان قد جاء في أرض الأندلس ولذلك وقع أثره علي العالم الغربي مباشرة. يُقال أن حلول مسائل العمليات الجراحية التي تُنسب إلي متخصصي الغرب في الطب هي في الواقع كانت موجودة في كتاب الزهراوي. علي سبيل المثال منع ووقف سيلان الدم من الشرايين والذي يعد من إنجازات الجراح الفرنسي (أمبرواز باريه) من القرن السادس عشر الميلادي أو في تخصص التوليد يُنسب "وضع فلتشر" إلي الجراح الألماني (فلتشر) المتوفي ١٩٣٥م أو لتضميد الجروح طريقة فريدريك تيندلينبورج (المتوفي ١٩٣٥م)، كل هذه الطرق كانت معروفة لدي أبي القاسم الزهراوي(٦٢).

في القرن الثالث عشر الميلادي أُثيرت الشكوك والشبهات علي بعض التصورات الطبية لابن سينا ولم يكتف ابن النفيس المولود في ١٢١٣م بنفي بعض الآراء والتصورات لنبض الإنسان بل أعد كتابا دراسيا جديدا لعلم الطب بدلا من القانون الذي اتخذ في العالم الإسلامي مكان القانون حيث لم يرفض ابن النفيس هذا في كتابه شرح تشريح قانون ابن سينا رأي جالينوس بأن الدم في القلب ينتقل من جانب إلي آخر من خلال ثقب موجود في وسطه فقط بل عرف الدنيا بحقيقة أن الدم حينما ينتقل من الجانب الأيمن للقلب إلي الجانب الأيسر ليس له طريق غير الرئة ويطلق علي هذا الاكتشاف لابن النفيس بالدورة الدموية الرئوية ولو جئنا إلي الحق فإن الكشف عن الدورة الدموية الصغري يرجع إلي ابن النفيس في القرن الثالث عشر الميلادي بدلا من ويليام هارفي ١٦٢٨م.

## إقامة تمدن استكشافي

دراسات العقل المسلم الجديد قامت بحركة ثورية استكشافية جديدة وهي التي قلبت جميع الموازين وحسب هذا الفهم الجديد للكون أصبحت عالم أهل الفكر والرأي هواية محببة وحيث بدأ يعم هذا الإحساس والشعور:

إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ٦
(سورة يونس ٦)




رسم بياني للساعة المائية الشهيرة لرضوان الساعاتي بالمسجد الأموي بدمشق

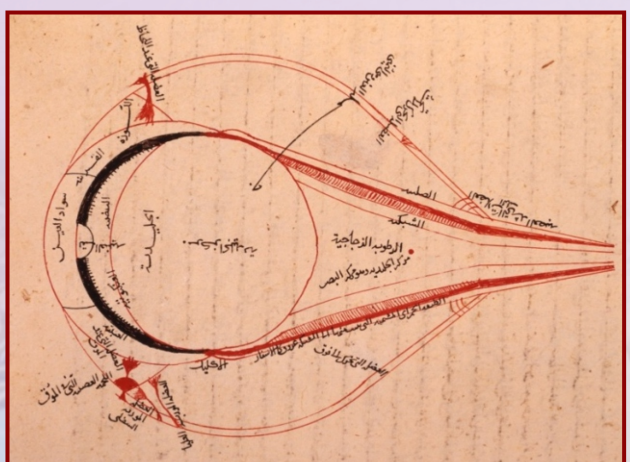
ونتيجة لهذا التفكير تولدت ثقافة بدأت تتغذي علي الإيمان واليقين والمشاهدة بدلا من الظن والتخمين، فمشاهدة هذا الكون المهيب المليء بالأسرار والتأمل والتفكر في آياته الإبداعية وتحصيل المعرفة إلي حد ما بأسرار سنة الله والدعوة القرآنية "سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ" جعل العقل المسلم يشعر كل لحظة أن عمل التسخير والاستكشاف هذا رحلة ممتعة لا نهاية لها لأن صوت كلمة "كُن فَيَكُونُ" وصداها مسموع باستمرار.

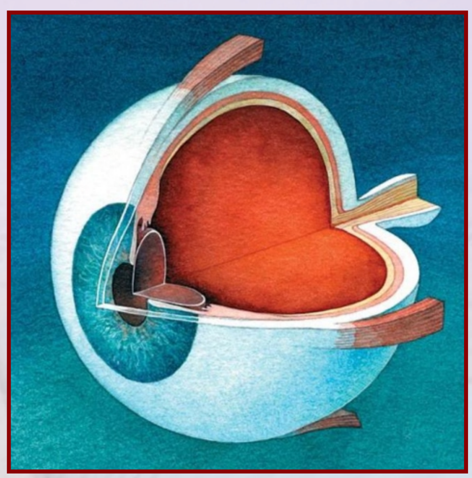
في الصفحات الماضية حاولنا أن نريكم كيف تم هدم مسلمات العلماء المتقدمين وتغيير المنهج العلمي من الاستنباطي إلي الاستقرائي وحينما وُضعت العلوم الساسانية والهندية واليونانية علي مقياس التجربة والمشاهدة أذهبت اعتبار أساطين الوقت الكبار سواء كان هؤلاء أمثال بطليموس أو جالينوس أو أرسطو أو إقليدس الذين كانت هيبة وعظمة علومهم بمثابة سد في طريق البحث عن الحق وظلت هذه السدود والحواجز باقية لقرون. لكن ومع مجيء هذا المنهج العلمي الاستنباطي لم تستطع هيبتهم الصمود أمامه وظلت نيران هذه المشاهدة والتجربة تزداد اشتعالا حتي جعلت الدعوة القرآنية "سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ" بعض الشباب أصحاب الهمم يتحركوا كي يشاهدوا دنيا الله هذه كما هي ويروها بأعينهم المجردة. في هذا الإطار جاء ابن جبير (المتوفي ١٢١٧م) وابن بطوطة (المتوفي ١٣٧٧م) والذين إلي يومنا هذا يعدان من عمالقة العلماء فيقال بشأن الرحالة ابن بطوطة أنه في عام ١٣٢٥م حينما كان شابا ذا واحد وعشرين ربيعا سافر لأداء فريضة الحج وبعد أربع وعشرين سنة عندما عاد إلي البيت كان قد زار العالم العربي ومصر وبلاد الشام والعراق والهند وروسيا والقارة الأفريقية السمراء والصين وسقطري. ورحلات ابن جبير وابن بطوطة قدمت صورة حية لعالم المرح والهوايات وهكذا عرفت الدنيا لأول مرة أحوال مختلف الملل والنحل والحضارات عن طريق تجربة شخصية موثوقة ومصدقة. واكتشف أبو الفداء (المتوفي ١٣٣١م) لأول مرة أن المسافر عندما يتجه من وجهة لأخري فأثناء قيامه بالرحلة الممتعة عندئذ قد يشعر بنقص وازدياد الأيام وأحيانا يشعر فجأة بأن الوقت قد توقف. وياقوت الحموي (المتوفي ١٢٢٩م) بتأليفه كتاب (معجم البلدان) قدم للعالم بوصلة يستطيع من خلالها معرفة ماذا يحدث في مدن العالم الشهيرة وكيف يعيش الناس في مختلف بقاع الأرض، وهكذا وبنظرة واحدة علي هذا الكتاب كان يستطيع الإنسان أن يعرف عن أقوام العالم بمآثرها.

المعرفة العملية للعالم المعاصر والتشوق لخوض الرحلات ونشر كنوز العلم والأكثر من هذا كله تلك الموجة العارمة للاستفادة والاكتساب التي كانت سائدة في العالم الإسلامي حيث كان الجزء الأكبر من العالم المتحضر قد وفر للحضارة الإنسانية حقلا خصبا للتجارب حيث كان مركزا لعلوم مختلف

المناطق وما نتج من مختلف الثقافات. علي سبيل المثال فإن تقنية الزراعة قد أهلت الأندلس بأن تزرع المحاصيل عدة مرات في عام واحد ومنح أهل العراق أيضا فرصة الاستفادة من تلك التقنية وكذلك أهل إيران الذين كانت لديهم تقنية الري متقدمة جدا حيث كان يتم رفع المياه من الأراضي المنخفضة إلي الأراضي المرتفعة واستفاد من هذه التقنية أيضا أهل العراق وبلاد الشام. كذلك شاعت المعرفة بالفواكه المختلفة من منطقة تلو الأخري وهكذا أخذت الثورة الزراعية العالم الإسلامي في أحضانها الدافئة الغامرة بالسعادة. ولقد وفرت هذه البيئة الثرية التي بدأ الناس يشعرون بها الظروف المواتية لأهل الاستكشاف بعد أن سادت في القرن الثامن الميلادي. وفي أجواء الترف هذه قدم أهل الفن عددا من الاختراعات التي كان غرضها في الواقع أن يتحير العقل في ظاهر الأمر ولكن في حقيقة الأمر فإن هذه الاختراعات كانت تدعو إلي التفكر في أن قيام عالم جديد من الطلاسم ليس مستحيلا من خلال فهم أساسي لبعض قوانين الكون فبنو موسي الذين يتصدرون المصادر التاريخية كخبراء في صنع الآليات يُقال عنهم أنهم كانوا قد أنشأوا دنيا اللعب التي كانت تعمل ذاتيا وفيها النافورات يتغير ألوان مياهها ذاتيا والمزامير التي تعطي ألحانا عزبة حتي أنه وصل إلي صنع روبوت صغير في شكل فتاة صغيرة تستطيع أن تقدم لك الشاي(٦٣). وفي القرن الحادي عشر الميلادي اخترع في مدينة طليطلة بإسبانيا شخص يُدعي الزرقالي ساعة مائية كانت تخبر عن دوران القمر مع تحديد الوقت. يُقال أن هذه الساعة ظلت لقرون عديدة تُعد من عجائب طليطلة إلي أن فكها خبير فني لمعرفة أسرارها لكنه لم يستطع إعادتها إلي حالتها الأصلية(٦٤)







رسم بياني لماهية العين في كتاب تنقيح المناظر لذوي الأبصار والبصائر والذي يتسق تماما بصورة مذهلة مع الدراسات الجديدة في هذا الشأن.

إن عالم الاستكشاف هذا الذي نشأ بعد نزول الوحي والذي جعل العقول تعتمد علي اليقين يمكن تقديره إلي حد ما من خلال الأنشطة التي ظلت مستمرة في مختلف البلاد والأمصار في تلك

القرون. وكان هذا الشعور سائدا بأن في كون الله هذا الذي سخره للإنسان فبمعرفة قوانين ونواميس الطبيعة يمكن جعل المستحيل ممكنا. إن مناظر البرد والبحر وسير الإنسان في البر والبحر أمور اعتاد البشر علي مشاهدتها كثيرا لكن في القرن التاسع الميلادي خطط عباس ابن فرناس لأول مرة في التاريخ الإنساني لرحلة جوية. يقال أنه قفز فجأة من مئذنة جامع قرطبة وكان يرتدي شيئا يشبه المظلة وهذه التجربة جعلته أكثر جموحا فصنع مرة أخري من الخشب جناحا كجناح الصقر وتجمع عدد كبير من الناس لمشاهدة هذه التجربة في الوقت المحدد وقام ابن فرناس بالطيران من مكان مرتفع واستمر لمدة عشر دقائق في الجو ثم سقطت طائرته علي الأرض وأُصيب في ظهره وبعدها لم يستطع هذا المغامر البالغ من العمر سبعين عاما أن يخوض تجربة أخري.



**ورقة من دراسة عمر الخيام (١٠٤٨م-١١٣١م) في كتاب الجبر والمقابلة.**

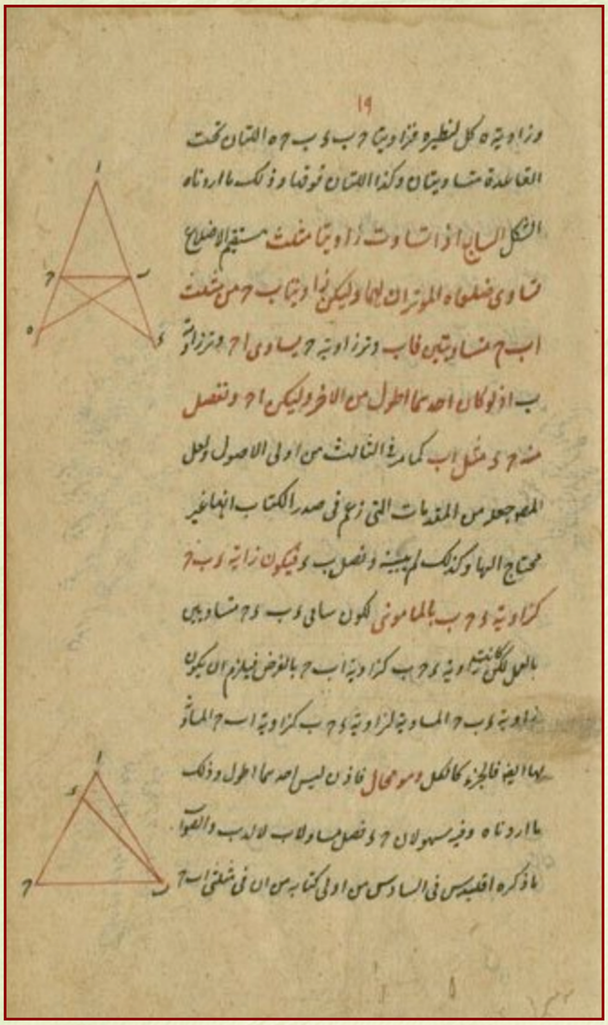
الموجة العارمة للحركة الاستكشافية لم تؤثر علي العقل المسلم فقط بل أصبح علماء ومفكرو غير المسلمين أيضا جزءا من هذه الحركة. ففي القرون الأولي حينما كانت تتوسع حدود الدولة الإسلامية بشكل مستمر وكان المسلمون من حيث الكثافة السكانية أقلية ولكن أسلوب فكرهم الاستكشافي هذا كان قد أثر علي المجتمع كله علي المستويين الفكري والعلمي، فالمجتمع كله كان شريكا في هذه الحركة بغض النظر عن اللون والعرق واللغة والزمان والمكان والدين والملل والنحل لكن قيادة هذه المهمة العظيمة كانت لأهل الإيمان ووقتئذ كان أتباع محمد صلي الله عليه وسلم مؤمنين إيمانا تاما أنهم هم المسئولون عن سيادة وقيادة شعوب وأقوام الدنيا في غياب النبي صلي الله عليه وسلم

وألقيت عليهم مسئولية "شهداء علي الناس" ولذلك رفع الستار عن سر الكون والتخطيط الكامل لهذا الأمر جزء من مرسومهم الملي. أما الذين لا يملون من ترديد أن تقدم العلوم في الإسلام معدوم علي الرغم من أن الحركة الاستكشافية ذات الألفية للمسلمين هي التي أضاءت الغرب في عهدهم المظلم وبفضلها مازال مصباح الحضارة العلمية مضيئا. فهؤلاء في الواقع مصابون بالتعصب الأعمي والجهل المطبق(٦٧).

في الصفحات الماضية بينا بشيء من التفصيل أن الذين حملوا لواء الثورة الاستكشافية في العالم الإسلامي في كل عصر من العصور في الواقع كان لديهم شعور عميق بالوحي الرباني والكثير منهم صنفوا كتبا بطريقة منظمة عن العلوم الدينية التقليدية مثل التفسير والتأويل والفقه وعلم الكلام حتي تلك الكتب الاستكشافية المهمة التي تُعد حجر زاوية في علوم الاستكشاف والتي بطبعها ونشرها أصبحت حضارتنا تعج بالفكر والنظر فصفحاتها الأولي تشهد بكل وضوح أن مصنفي هذه الكتب قد حرروها بعاطفة دينية بحتة وكانوا يطلبون من ورائها الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالي فلو لم يعد المسلم هذا العمل واجبا دينيا لما نالت هذه الحركة تأييدا شعبيا وبالتالي ما كانت قد ظهرت المؤسسة الرمزية لبيت الحكمة في بغداد العباسية ولم تكن قد أقيمت المراصد والمختبرات علي هذا المستوي الكبير في مختلف العصور من التاريخ. حتي في هذا العهد المتخبط من الالتباسات الفقهية عندما كان وجود الأمة ملطخا بالدماء بسبب مجادلات الفقه الكلامي وعندما كان فريق فقهي يستبيح لنفسه سفك دم الفريق الآخر لا نجد أي نوع من النقد والتذمر الشعبي بشأن المراصد والمختبرات بل الحق أن الحكام كانوا يعتقدون أن الأنشطة العلمية والاستكشافية سببا مهما لوجودهم السياسي وخير دليل علي ذلك إقامة بيت الحكمة في العصر العباسي نفسه.

إن المؤرخين عندنا يذكرون بيت الحكمة بشكل غير معتاد ولعل سببا من أسباب ذلك أن الأنشطة العلمية في الجامع الأموي بدمشق قد توقفت وتنحت جانبا بسبب زوال وسقوط دولة بني أمية ففي نفس الوقت استمرت حكومة مؤسسي دار الحكمة نحو خمسة قرون من الزمان فكان طبيعيا أن تحدث تأثيرا علي فن كتابة التاريخ. إن الموجة العاتية من التسخير والاستكشاف والتي كانت قد بدأت بعد نزول الوحي قد نشرت شبكة من المراصد والمكتبات والمجالس العلمية في مختلف البلاد والأمصار. ولم تكن هناك مدينة جديرة بالذكر في العالم الإسلامي لم يكن موجودا فيها كوكبة من العلماء والمفكرين علي قدر عال من العلم. وجود هذا العدد المهول لأهل الفن قد حرك ياقوت الحموي (١١٧٩-١٢٢٩م) أن يرتب تراجم ومعاجم مختلفة مثل معجم الأدباء ومعجم الشعراء وأخبار الشعراء وغيرها من المعاجم.

يُقال أن أول مكتبة مستقلة ومنظمة أقامها حكام بني أمية في دمشق كان الغرض منها وضع جل رأس المال العلمي لعهدهم فيها من طب وكيمياء ومخطوطات مختلف العلوم في اللغات الأجنبية كي يستفيد منها الخاص والعام. وفيما بعد وحينما أسس الفاطميون في مصر خلافة جديدة لهم كان بناء المكتبات يحتل مكانة بارزة في تخطيطهم. يقال أنه في عهد الخليفة الفاطمي العزيز كان قد تم تخصيص أربعين غرفة لوضع الكتب العلمية التي ترجع إلي العصور القديمة(٦٨). وكيف نالت الكتب أهمية كبيرة في حياة الناس العامة والتي نستطيع معرفتها من خلال هذه القصة التي وقعت في عام ١٢٣٤م وهي أنه عندما أقيمت في بغداد المدرسة المستنصرية وهب الخليفة ثمانين ألف كتاب من مكتبته الخاصة والجامع الذي يحتل مكانا كبيرا في حياة المسلمين الاجتماعية لم يكن مكتملا بدون المكتبة حيث تستمر المناقشات العلمية حول مختلف الأمور. وبذكر دمشق وبغداد والقاهرة لا ينبغي أن يفهم أحدنا خطأ بأن توافر المكتبات كان منحصرا علي دار الخلافة أو المدن الكبيرة فحسب. ففي القرن العاشر الميلادي نجد ذكر المكتبة في مدينة شيراز والتي كانت تحوي علي ثلاثمائة وستين غرفة وكانت تحيط بها الأنهار والحدائق الغناء(٦٩). وكذلك في مدينة مرو كانت توجد عشرة مكتبات رفيعة المستوي في القرن الثالث عشر الميلادي كما أشار إليها ياقوت الحموي. ومدينة بغداد التي كانت تعد مدينة المدارس فكان فيها آنذاك ثلاثون مدرسة وكل مدرسة منها توجد بها مكتبة مستقلة(٧٠). يُقال أن القاضي الفاضل حينما أقام مدرسة في مصر في القرن الثالث عشر الميلادي وهبها مائة ألف كتاب من عنده(٧١). فلو قارنا هذه الحالة بحال مكتبات أخري في ذاك الوقت لعرفنا أهمية الثقافة من خلال هذه المكتبات. يُقال



صفحة من كتاب ملخص في الهندسة لقاضي زاده الرومي (١٣٦٤م-١٤٣٦م).

أن جامعة السوربون الشهيرة بباريس كان يوجد بمكتبتها في القرن الرابع عشر الميلادي ألفي كتاب لا غير وكذلك مكتبة الفاتيكان في القرن الخامس عشر الميلادي لم يكن بها سوي ألفين ومائتين وسبعة وخمسين كتابا(٧٢).

ومما لا شك فيه أن صناعة الورق كان لها دور كبير في الحياة الاجتماعية وفي هذا الجو العام للتعليم والتعلم وانتشار المكتبات بعدما تم إلحاقها بالمساجد نالت أهمية مركزية. في بدء الإسلام كان الرق المنشور (البرديات) سائدا ولهذا السبب كانت الكتب قاصرة علي حلقات الخواص. وفي القرن الثامن الميلادي أقيم أول مصنع للورق في وسط بغداد(٧٣) وتقدمت هذه الصناعة تقدما كبيرا حتي امتلأت أسواق بغداد ببائعي الأوراق والأدوات المكتبية(٧٤). يُقال أنه قد أنشيء سوق كامل في بغداد خاص بالأدوات المكتبية وكان يطلق عليه سوق الوراقين وهذه الوفرة كانت بمثابة إعلان بأن العلم والفن اللذين كانا يخصان النخبة فقط فُتحت أبوابهما الآن لعامة الناس.

## ملخص البحث

إن الحركة العامة للعلم والتي كانت نتاج الدعوة القرآنية للتسخير والاستكشاف قد أصبحت جزءا لا يتجزأ من المجتمع الإسلامي فكريا واجتماعيا بحيث لم يكن يؤثر عليها الصراع السياسي إلا في نطاق ضيق. الخلافات كانت تتلاشي والحكام يتغيرون لكن شعلة العلم والفن تظل مضيئة فالرحلة السياسية للخلافة الراشدة وبغداد المبتلاة بالتقهقر ومصر الفاطمية والأندلس الأموية، كل هذه وتلك



نظرة عابرة علي كتاب قانون المسعودي للبيروني.

تعرضت للفوضي والانحلال لكن لمعان العقل المسلم الوقاد ظل مشغولا في النقد والتنقيح للعلوم الأجنبية ورفع الحجاب عن أسرار الكون لأن الحضارة الإسلامية آنذاك كانت قد تعلمت فن الحياة فصار واضحا مثل وضوح الشمس. فحينما تعرضت بغداد للسقوط بدأت قرطبة تتلألأ وعندما انطفأ مصباح الأمويين في الأندلس أصبحت دمشق واسطنبول وطشقند وبخاري وكابول والقاهرة ودلهي ومدن أخري علامات بارزة لفتوحاتنا الحضارية.

إن دعوة التفكر والتأمل للقرآن الكريم أدت في نهاية الأمر إلي رفع الحجاب عن أسرار الكون. ففي بداية الأمر حاول المسلمون الاستفادة من المراجع الساسانية واليونانية والهندية لكن حينما قدروا كم أن هذا العلم والحكمة ضيق فاختاروا عند ذلك طريق المشاهدات والاختبارات والتجارب والفرضيات العلمية التي لم يكن ليثبت صدقها إلا علي مقياس التجارب والمشاهدات التي لم تكن لتنال أي اعتبار أو اهتمام. فالنظام البطليموسي والحكمة اليونانية والتي كانت تحتل مكانة عند النصرانية وظلت تزاحم تقدم الفكر الإنساني لقرون بحيث تم رفضها رفضا قاطعا مع رد وكد وبحث ودراية. وفي اليوم الذي اعترض فيه ابن الهيثم علي النظام البطليموسي فاعلم أنه هو اليوم الذي كان قد وضع حجر الأساس للعلم الجديد. وبعد ذلك حينما قرر علماء الفلك المنهمكين في مراغة أن الملاحظات والمشاهدات هي أساس علم الكون فنتيجة لهذا القرار جاء تصنيف ابن شاطر (نهاية السول في تنقيح الأصول) إلي حيز الوجود. فعلماء الفن قد فرحوا فرحة غامرة بأنهم أنجزوا إنجازا كبيرا في وضع أساس علمي للمستقبل. وهناك أمر آخر أن إنجاز ابن الشاطر هذا عندما شاع في الغرب عن طريق (كوبرنيكوس) والدراسات التي أجريت فيما بعد فقد أقيم علي هذا الأساس عالما جديدا بحيث ظل الغرب غافلا بسبب شيء من التعصب وقدر من الغفلة عن أن بداية رفع الستار عن أسرار الكون يكمن في دائرة فكر القرآن التي وضعت التفكر والتدبر في الكون في درجة أداء الواجب الديني وإن كانت ترجمة كتب أرسطو قد أدخلت العقل المسلم لبعض الوقت في مأزق. وهذا لأن تصور العلوم اليونانية كان محدودا للغاية والفلسفة الطبيعية التي كانت تسمي في معظم الوقت أيضا بالفيزياء فبالإضافة لذلك كان تحصيل جميع العلوم يتم عن طريق الميتافيزيقا والرياضيات. ومن جانب آخر كانت الدنيا بأسرها تقر بأن تصور أرسطا طاليس للكون حقيقة أبدية وأزلية. ومع الله سبحانه وتعالي تصور الكون في الزمن القديم مغايرا عن دائرة الفكر القرآني ففي بداية الأمر كان للمفكرين المسلمين حرية قبول هذه النظرية أو رفضها أمرا صعبا لكن حينما بدأت تتمكن وتترسخ الأسس العقلية والعلمية للتدبر والتفكر في الكون بدأت التصورات اليونانية عن الكون تتراجع إلي الوراء. بل إن التقسيم التقليدي اليوناني للعلوم بدا غير كاف للعمل الاستكشافي.

علي سبيل المثال عندما ألف ابن الهيثم كتاب (المناظر) أو البيروني حينما صنف كتاب (تحديد نهاية الأماكن) فلم يكن في حسبانهما مطلقا بأنهما في حقيقة الأمر يضعان الأسس لفروع حديثة من العلوم. لو ألقيت نظرة عابرة علي كتب ذلك العهد فستصاب بالدهشة بعد أن تعرف بأن السرد العام للأمور التي كانت تُحسب معراجا للعقل بدأ يخصص لها كتبا بشكل منظم في فترة قصيرة فتجد هناك من يكتب ويؤلف كتابا في علم الهندسة وآخر مشغول في تصنيف كتاب الجبر والمقابلة وثالث أوصلته هوايته إلي تأليف كتاب عن النجوم. وفي نفس الوقت لا شك في أن بعض علماء المسلمين ظلوا متأثرين بأرسطو(٧٦). لكن البيئة العامة للعالم الإسلامي ظل مسيطرا عليها التصور القرآني للكون وشغف العاطفة الدينية وإن وضعت رؤيا الخليفة المأمون التي رآها عن أرسطو في هذا الإطار لن يصعب فهم هذا الأمر بأن العلوم والحكم اليونانية نُظر إليها في الأيام الأولي كمعاون أساسي لدائرة الفكر المسلم.






الصفحتان الأولي والثانية من كتاب الأدوية المعروفة المستعملة لنجيب الدين محمد علي السمرقندي (المتوفي ١٢٢٢م).



بعض المفكرين مصابون بهذا الفهم الخاطيء وهو أن العلم الجديد اختراع غربي محض(٧٨) وهم يبدون حيرة واستغرابا من أن العالم الإسلامي في القرون الوسطي ظل غائبا عن إنتاج العلم

الجديد علي الرغم من تقدمه العلمي والفكري. وفي اعتقاد هؤلاء أن تكوين الإسلام نفسه لا يسمح لزرع بذور الفكر والتدبر والاختبار والاختراع، ففي قرون الانحطاط لم تكن مثل هذه الأحاديث الجارحة والاتهامات الباطلة البعيدة عن الحقائق أمرا جديدا. ويمكن توجيه السؤال إلي هؤلاء المعترضين أولا لو لم تكن الكتب القديمة اليونانية مترجمة إلي العربية من اللاتينية فهل كان من الممكن أن ينجحوا في وضع أساس للعلم الجديد هذا وثانيا أن الكتب المترجمة إلي العربية لعلماء اليونان تكفي كدليل وإثبات علي أن سعة العلم والحكمة موجودة في الحضارة الإسلامية بشكل جيد. ثالثا إن هذه الكتب القديمة لأهل اليونان لو كانت كافية لإحداث ثورة علمية فلم لم يحدث أي انقلاب علمي حينما كانت موجودة بنسختها الأصلية في الامبراطورية الرومانية؟ رابعا ماذا كان السبب وراء أن المراجع الساسانية والرومانية والهندية الخاصة بالعلوم والفنون لم تستطع أن تؤتي ثمارها في مواطنها الأصلية. لكن حينما صار هذا الإرث العلمي للحضارة الإنسانية موضوعا للتحليل والنقد في دائرة الفكر القرآني حدثت حالة من الثورة؟ خامسا إن المسلمين حاولوا باستمرار فض الالتباسات اليونانية في ضوء الوحي الرباني عن طريق تجاربهم ومشاهداتهم وفي محاولاتهم هذه تعرضوا هم أنفسهم في بعض الأحيان للالتباسات وانتابهم شعور في وقت من الأوقات أن هناك تعارض بين الفكر القرآني والفكر الإنساني القائم علي الحكمة. لكن في نهاية الأمر ساعدهم الوحي الرباني وظل المسلمون يتقدمون في طريق الاستكشاف والتسخير. وفي القرون الوسطي حينما كان ضيق الأفق للكنيسة مسيطرا علي العقل الغربي والذهن الإنساني أصبح أسيرا لالتباساته وافتراضاته ولم يكن يُري أي سبيل للخروج من هذا الحصار المحكم بالقوة ففي ذاك الوقت كانت التراجم اللاتينية للكتب العربية بمثابة آخر منارة نور لأهل الغرب والضوء الصادر منها هو الذي كان يمنح مجالسهم العلمية بهاء ورونقا. وخلاصة الأمر أن مظاهر العلم والفن التي نشاهدها في الغرب بل في الدنيا بأسرها مرجعها وأساسها هذه الدائرة الفكرية القرآنية لأنها هي التي جعلت التفكر والتدبر في الكون واجبا دينيا وعلمت جميع العلوم الحديثة والمتقدمة فن الاكتساب من العلوم.

## التعليقات والحواشي

(١) محمد بن اسحاق بن يسار، سيرة ابن اسحاق، تحقيق وتعليق محمد حميد الله، ترجمه المحامي نور إلهي، دلهي الجديدة ٢٠٠٠م، ص١٥٠.

(٢) وإن كان هناك سعيٌ لمنح النظام الاجتماعي شيئا من القداسة عن طريق عبادة الأصنام لكن كان يوجد هناك شعور بالنقص وهو أن عبادة الأصنام كفلسفة للحياة عاجزة عن الرد الشافي للأسئلة الوجودية عن الكون والطبيعة، ثم إن الاحترام والتقدير للأصنام والالتزام بالعرف السائد كان يستمر لحين وجود احتمال تحقيق المطالب والأغراض. يُقال أن امرأ القيس استأذن من صنمه ثلاث مرات للثأر ممن قتل أباه لكن عندما لم يجد أي إيماءة مطلوبة في هذه المرات الثلاث اختار طريقه قائلا: لو كانت القضية تخص هذا الصنم فلم يكن ليبدي تلك المعاملة القاسية في شأن عبادة الأصنام. لماذا كان هذا السلوك غير جاد. فربما يرجع سبب من ضمن الأسباب إلي خلفية الدين الابراهيمي والبحث عن آثاره الباقية كان أمرا مستحسنا والسبب الثاني أن الوثنية لم تكن جزءا من الثقافة التاريخية بمكة والتي قد جلبها فيما بعد زعماء مكة من بلاد الشام حيث كان هذا الرأي سائدا بأن وجودها يكون سببا لنزول المطر ويصبح النصر علي الأعداء أمرا سهلا. "ابن الكلبي، كتاب الأصنام، تعليق أحمد عبيد ومحمد أحمد، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٨"

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، ص١٢١٤.

(٤) بصفة عامة جعل كتاب السيرة فيما يتعلق بتحليل وتأويل الوحي محورهم ومنها رواية البخاري الخاصة ببداية الوحي. وفي رأينا أن بعض التفاصيل في هذه الرواية من قبيل الإضافة للقصة. علي سبيل المثال أنه صلي الله عليه وسلم خشي علي نفسه: "لقد خشيت علي نفسي". وردا علي هذا قامت السيدة خديجة رضي الله عنها بمواساته وتسليته قائلة: كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتُكسب المعدوم وتقريء الضيف وتعين علي نوائب الحق "رواه البخاري".

بل حسب هذه الرواية لم يكن صلي الله عليه وسلم مقدرا وعارفا بالماهية الصحيحة لهذه التجربة ويجزي الله السيدة خديجة رضي الله عنها خيرا إذ أخذته وذهبت به إلي ابن عمها ورقة ابن نوفل الذي بعدما سمع منه صلي الله عليه وسلم القصة بالتفصيل أكد له أنه هذا هو الناموس الذي نزل علي موسي. في رأينا أن تصديق ورقة ابن نوفل كسند لنبوة رسول الله محمد صلي الله عليه وسلم ليس أكثر من تأكيد وإضافة مشوقة للقصة. ففي كتب التاريخ والحديث الأخري التي أوردت تفاصيل هذه الواقعة تؤيد رأينا فقد كتب الحافظ ابن عساكر عن سليمان ابن طرخان التيمي أن رسول الله صلي الله عليه وسلم بعد حادثة غار حراء جاء إلي السيدة خديجة وقال: "يا خديجة أرأيت الذي كنت أري في المنام والصوت الذي كنت أسمع في

اليقظة وأهال منه فإنه جبريل قد استعلن لي وكلمني، وأقرأني كلاما فزعت منه ثم عاد إلي فأخبرني أني نبي هذه الأمة.

بالنسبة لنسج أجواء أسطورية لحادثة نزول الوحي فإن هناك تداخل كبير للروايات التي ذكرها أصحاب السير في كتبهم بدون تحقيق وتحليل والتي حصلت مع مرور الأيام علي درجة الإسناد في مراحل النقل. ولو تم الاعتماد علي مثل هذه الروايات بشأن الوحي وتفويض النبوة الحتمي والقطعي فمن المحتمل أن يُعد هذا من قبيل الهلوسة. وبكل تأكيد نحن لسنا علي معرفة بأحوال هؤلاء الكتاب للسيرة ولكن الذي نستطيع أن نؤكده بكل ثقة هو أن تضارب هذه الروايات يقع مباشرة علي موضوع النبوة الحتمي والقطعي. وعلي سبيل المثال فإن التفاصيل التي بينها محمد بن اسحاق علي لسان عبيد الله ابن عمرو لا تتفق أبدا مع مقام الرسالة. وحسب قول الراوي عندما سار النبي صلي الله عليه وسلم نحو المنزل فسمع في الطريق صوتا سماويا وهو: يا محمد أنت رسول الله أنا جبريل. وعندما التفت الرسول صلي الله عليه وسلم يمينا وشمالا ولم ير شيئا فرفع نظره إلي السماء فرأي أنه جبريل وهو يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل. وبعدما وصل الرسول صلي الله عليه وسلم إلي البيت وحكي تلك القصة لخديجة رضي الله عنها فكان ردها الفوري: "إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة." وتعطي مثل هذه الروايات انطباعا بأن النبوة منصب والزوجان يسعيان معا لنيله. وابن اسحاق قد أعطي أيضا مساحة للروايات التي ظهرت في حيز الوجود نتيجة الغلو في ذاته الأقدس في الظاهر وفي نفس الوقت تكونت بيئة أسطورية مبنية علي هذه الروايات حيث تصبح النبوة القطعية محض تجربة نفسية وروحية. علي سبيل المثال كتب ابن اسحاق عن أحمد عن يونس أن الرسول صلي الله عليه وسلم



صفحة من تشريح الأفلاك للعاملي.

قبل بعثته بسنوات حينما كان يمر بشجر أو حجر فالكل كان يسلم عليه والرسول صلي الله عليه وسلم كان يسمعه وكان ينظر هنا وهناك لكن لم يكن يري إلا الأشجار والأوراق وكل ما كان يسمعه هو صوت: السلام عليك يا رسول الله. فهل النبي محمد كان قبل نزول الوحي مستشعرا أنه سينال هذا المقام الرفيع؟ في رأينا لو كان الأمر كذلك لما استوحش الرسول صلي الله عليه وسلم بهذا القدر من مجيء جبريل إليه فجأة.

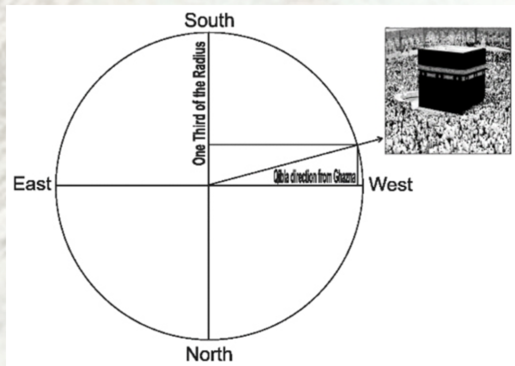
أثناء دراسة التاريخ والرواية علينا ألا نغض النظر عن هذه الحقيقة وهي أن كتاب الرواية الذين جمعوا الروايات من مختلف المصادر والمراجع يمكننا تصور الخلفية التاريخية من خلال دراستها فقط إلي حد ما بشرط أن نهتدي في عملنا هذا بالقرآن الكريم ونفتح آفاقا للفكر غير التقليدي وإلا فمن خلال تصديق مختلف الروايات الكاذبة كل ما نستطيع تشكيله هو تصور مجهول وقبيح جدا. تأمل معي قليلا هل العقل السليم يسمح لنفسه أن يشهد أن رسول الله محمد صلي الله عليه وسلم الذي تم تشريفه من مهبط الوحي والذي عُهدت إليه مسئولية النبوة العظيمة فهل من المحتمل أن يُشك بشأن نبوته ومن ثم ورقة ابن نوفل وخديجة بنت خويلد يؤكدان له قائلين يا محمد تأكد أن الله شرفك بالنبوة والرسول الذي يأتي إليك فهو ليس سوي الناموس الأكبر الذي كان يرسل إلي سيدنا موسي عليه السلام. وفي رواية أخري عن أحمد عن أنس كتب ابن اسحاق أنه صلي الله عليه وسلم كان مرتابا بشكل كبير بشأن الحقيقة المؤكدة لجبريل فقالت السيدة خديجة لتثبيت قلبه صلي الله عليه وسلم: حينما يأتي إليك أخبرني. ذات يوم جاء جبريل فجأة فقال حضرته يا خديجة إنه قد جاء إليَ. فقالت خديجة هل تراه؟ فقال نعم. فقالت خديجة فلتأت إلي شمالي فجاء وجلس إلي شمالها. سألت: هل تراه الآن؟ قال: نعم. قالت له خديجة: تعال إلي يميني فقام وجاء وجلس إلي يمينها. سألت: هل مازلت تراه؟ قال: نعم. فقالت: تعال واجلس في حجري فجلس رسول الله (ص) في حجرها وحينها سألت خديجة: هل مازلت تراه إلي الآن؟ قال: نعم. يقول الراوي: ثم كشفت خديجة وجهها وألقت خمارها وظل الرسول جالسا في حجرها. سألت خديجة: هل تراه؟ فقال: لا. هنا قالت خديجة يا ابن عم إنه ليس بشيطان إنه ملك فأبشر. "ابن اسحاق المرجع السابق ص١٧٣". في رواية أخري لأحمد نفسه أن السيدة خديجة حينما أدخلت الرسول صلي الله عليه وسلم في جلبابها أو قميصها رجع جبريل واستنبطت هنا السيدة خديجة أنه بكل تأكيد ملك وليس شيطانا. "المرجع السابق ص١٧٤".

في رأينا أن رواية كاذبة كهذه لا يؤمن بها إلا من لا يكون مدركا في الأصل لعظمة مقام النبوة لكن المصيبة أن ابن اسحاق الذي يحتل المركز الأول في فن السيرة هو الذي أعطي مساحة لمثل هذه الخزعبلات وتصديق ورقة ابن نوفل لنبوة محمد صلي الله عليه وسلم قد ذكره أجل المحدثين مثل البخاري ومسلم تحت باب "كيف بدأ الوحي".

(٥) A.J Wensinck, “Kibla,” in The Encyclopedia of Islam vol. 5 Leiden, E.J. Brill, 1960, pp. 189-93.

(6) Suliman Bashaer, “Qibla Musharriqa and Early Muslim Prayer in Churches”, The Muslim World, 81, no. 3-4 (1991) :268>

(7)




(8) David A. King, Astronomy in the Service of Islam (Brookfield, 1993), p.257.

(9) David A. King, In Synchrony with the Heavens: Studies in Astronomical Timekeeping and Instrumentation in Medieval Islamic Civilization (Leiden, Netherlands: E.J. Brill, 2004), p.215.

(١٠) الخوارزمي (المتوفي ٨٤٧م) والبتاني (المتوفي ٩٢٩م) اللذين قاما بوضع جداول لتحديد القبلة تم وضعها فيما بعد بمزيد من الدقة الفنية علي أيدي حبش الحصيب (المتوفي ٨٦٤م)، ابن الهيثم (المتوفي ١٠٤٠م) والبيروني (المتوفي ١٠٥٠م) حتي وصل الأمر في القرن الثالث عشر أن أعد الخليلي الذي عمل كموقت في دمشق جدولا مدهشا لتحديد القبلة لمختلف الجهات علي أساس دراسة جديدة وقاعدة حديثة لأبي علي المراكشي.

Samso, Julio. “Astronomical Tables and Theory.” in The Different Aspects of Islamic Culture. Vol. 4: Science and Technology in Islam. (Ed. A.Y. Al-Hassan) Part 1: The Exact Sciences, Paris: UNESCO, pp. 209-234.

(11) بشأن علم الميقات انظر مزيدا من الأبحاث المحررة

In synchrony with the Heavensو David A. King, Astronomy in the Service of Islam

(١٢) الأمر لا يقف علي تحديد مواقيت الصلاة بل لم يكن في العهد الأول تحديد مختلف أجزاء الليل والنهار سهلا، ففي النهار نقص وازدياد لظل الشمس وبالليل معرفة أماكن النجوم كانت هي الوسيلة الوحيدة لتحديد الوقت فبقدر ما تكون مشاهدة السماء دقيقة بنفس القدر تزداد إمكانية النجاح في تحديد الوقت.

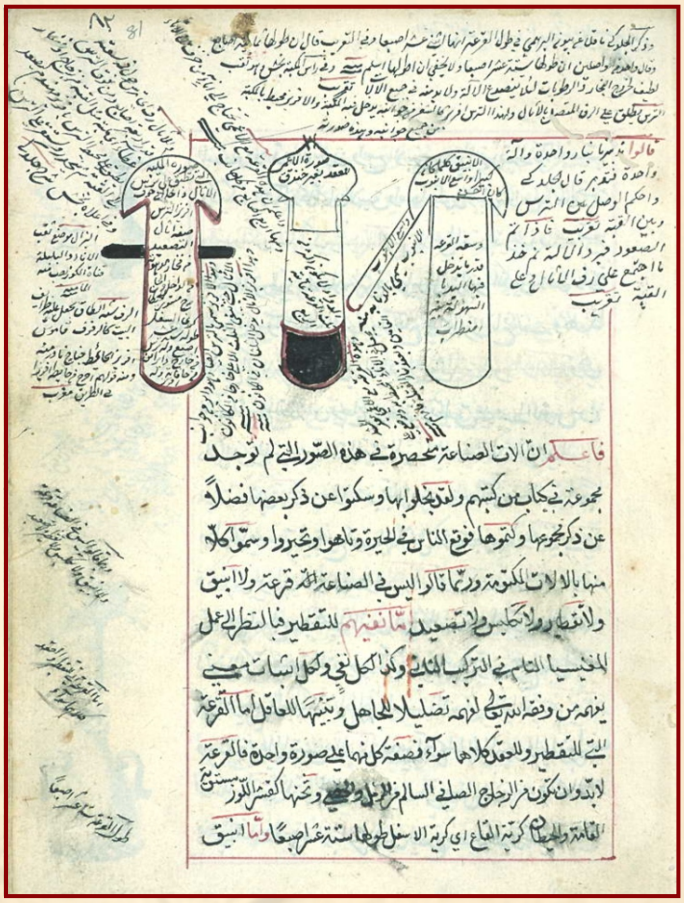
كيف تكون النجوم المختلفة زواياها من الأرض ففي هذه الحالة ينحصر كل شيء علي قياسها فلو أن نجما يوجد علي حافة مثلث وعلي الحافة الأخري يتواجد قطب العالم فمن الحافة الثالثة يمكن معرفة الارتفاع الذي يصل إليه النجم المذكور آنفا، ولمثل هذه الرياضيات ظهر في حيز الوجود علم المثلثات ثم حدث تطور نتج عنه الاسطراب القديم الذي يمكن أن يحدد الوقت بدقة. نفس العقبات تقريبا كانت موجودة في تحديد جهة القبلة. الأرض التي تتضمن مسطحا بيضاويا ومن أجل تحديد جهة القبلة لمختلف البلاد البعيدة علي سطحها ظهر في حيز الوجود علم هندسة الدوائر. وكذلك أيضا بالاستعانة بالنجوم تم الوصول إلي الهدف عن طريق الإحصائيات المعقدة. يُقال أن المسلمين المتخصصين في الفلك أصبحوا ماهرين عن طريق علم المثلثات في تحديد جهة القبلة لمختلف البلاد. وجدير بالذكر في هذا الشأن اسم البتاني. ولمزيد من التفسير انظر

David King, In Synchrony with the Heavens: Studies in Astronomical Timekeeping and Instrumentation in Medieval Islamic Civilization. 2 Vols. Leiden, 2004.

(١٣) علي سبيل المثال قام الخوارزمي بتعريف قضية معقدة تحتاج إلي حل في مجال تقسيم الميراث، وعلم الرياضيات السائد آنذاك كان عاجزا عن حلها وهي كالآتي: افترض أن شخصا علي فراش الموت ويعاهد عبديه أنهما سيصبحان من الأحرار لو قاما بدفع ثلاثمائة درهم ويموت واحد من هذين العبدين ويخلف وراءه بنتا وولدين وكذلك إرثا يساوي أربعمائة درهم وفي نفس الوقت يلبي سيده أيضا نداء الحق ويلحق بربه ويترك وراءه ثلاث بنات وثلاثة صبية، فحينها كم يأخذ كل من هؤلاء الأولاد؟ للخروج من هذا المأزق اخترع الخوارزمي فن الجبر والمقابلة وباستخدام هذا العلم أمكن حل المسائل المعقدة بصورة سهلة.

(١٤) الخوارزمي، الجبر والمقابلة، ١٩٨٩، ص٤

(١٥) مثل علماء المسلمين الآخرين كان البتاني أيضا علي معرفة بأن دراسة الفلك والنجوم مسئولية طبيعية للعارف بالله كما كتب في مقدمة مصنفه الشهير الزيج مستشهدا بالآيات القرآنية: إن من أشرف العلوم منزلة وأثناها مرتبة وأحسنها حلية وأعلقها بالقلوب وألمعها بالنفوس وأشدها تحديدا للفكر والنظر وتذكية للفهم وريادة للعقل بعد العلم بما لا يسع الإنسان جهله من شرائع الدين وسنته علم صناعة النجوم لما في ذلك من جسيم الحظ وعظيم الانتفاع بمعرفة مدة السنين والشهور والمواقيت وفصول الأزمان وزيادة الليل والنهار ونقصانها ومواضع النيرين وكسوفها وسير الكواكب في استقامتها ورجوعها وتبدل أشكالها ومراتب أفلاكها، وسائر مناسباتها إلي ما يدرك بذلك من أمعن النظر وأدام الفكر فيه من إثبات التوحيد ومعرفة كنه عظمة الخالق وسعة حكمته وجليل قدرته ولطيف صنعه قال عز من قائل "إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ" وقال تبارك وتعالي "تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ



صفحة من شرح شذور الذهب لأبي القاسم محمد بن عبد الله الأنصاري (القرن الثاني عشر الميلادي).

بُرُوجًا" وقال عز وجل "وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً" وقال سبحانه "هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً وَٱلۡقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ" وقال جل ذكره "وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ" مع اقتصاص كثير في كتاب الله عز وجل يطول وصفه ويتسع القول بذكره واستشهاده... زيج البتاني، الباب الأول.

(١٦) في المراجع التاريخية أصبح التفوق العلمي لنصير الدين الطوسي مرتبطا بموقفه الشخصي من السياسة وبصفة خاصة في حادثة سقوط بغداد حيث أصبح شخصية مكروهة بين عامة الناس بسبب سياسته السلبية وإلا كان قد جمع بين العلوم الدينية وعلم الطبيعة علي حد سواء. فمن جانب كانت مؤلفاته في الفلك هي الأساس ومن جانب آخر يُعرف أنه كان أهم علماء الفرقة الإسماعيلية في عصره من خلال كتبه (روضة التسليم) و(سير وسلوك) و(أوصاف الأشراف) و(تجريد العقائد).

(١٧) إن باحث علم التاريخ يتحير من صنيع المؤرخين المسلمين إذ قاموا بمحو اسم عبد الله بن الزبير من تاريخنا السياسي علي الرغم من أنه ظل حاكما قرابة تسعة أعوام ونصف علي جزء كبير من العالم الإسلامي بما فيه الحجاز، وكذلك كان يُنظر إليه علي أنه أفضل بكثير من عبد الملك علي مستوي التقوي والزهد والعلم والفضل وكان أحق من عبد الملك بالحكم وكانت مطالبته بالحكم أكثر وزنا حتي منع عبد الملك الناس من الذهاب إلي الحجاز لأداء فريضة الحج خوفا من أن يتأثر هؤلاء من حديث ابن الزبير. وكان يري أن بلاد الشام ستذهب أيضا من يده وعندما بدأ الأمر يستفحل والناس احتجوا علي منعهم من أداء فريضة الحج قام عبد الملك بإضفاء القداسة علي بيت المقدس لكي تكون بديلا للحج والعمرة وبدأ نشر الروايات من قبيل أن رسول الله صلي الله عليه وسلم أمر بزيارة ثلاثة مساجد، والصخرة التي وضع عليها الرسول صلي الله



**صفحة من كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر للدمشقي (القرن الثالث عشر الميلادي) بشأن ذكر طواحين الهواء بسجستان وتقنياتها.**

عليه وسلم قدمه الشريفة وعرج منها إلي السماء لا تقل في فضلها عن الكعبة. ذكر اليعقوبي في تاريخه أن عبد الملك بني علي هذه الصخرة قبة جميلة وراقب أهل الشام وهم يقومون بالطواف حولها. يُقال نتيجة لهذا الترغيب والترهيب بدأت وفود بلاد الشام تصل إلي المسجد الأقصي حتي بدأت هناك بمناسبة عيد الأضحي مع الطواف التحليق وذبح الأضاحي. وفي القبة تم رسم صور الجنة وجهنم وطريق الصراط بشكل مدهش وهكذا وجد أهل الشام مكانا متبادلا للزيارة بدلا من الكعبة. ولكن الذي حدث أن عبد الملك استطاع السيطرة علي أرض الحجاز في وقت قصير ولم تعد هناك حاجة لهذه الزيارة البديلة وإلا فمصلحة الحاكم السياسية هذه قامت بمسخ وتشويه شعائر الحج.

لمزيد من التفصيل انظر تاريخ يعقوبي ٢-١٦١ ، والبداية والنهاية ٨-٢٨١.

(١٨) من خلال المراجع المتداولة للتاريخ يظهر أن دواوين الخراج في البصرة والكوفة حتي خلافة عبد الملك كانت تكتب باللغة الفارسية وفي بلاد الشام كانت تكتب باللغة اليونانية وكان زادان فروخ الفارسي الأصل مسئولا في البصرة عن الخراج وفي دمشق كان سرجون بن منصور النصراني يتولي نفس المنصب.

(١٩) البلاذري، ص٢٤٩.

(٢٠) في كتب التاريخ نجد أن خالد بن يزيد بن معاوية كان موصوفا بالعلم الغزير عن خواص المعادن وذات مرة قدم إلي عبد الملك بن مروان مشورة مفادها أن يقوم بنقش سورة الإخلاص علي العملات الجديدة. "أبو هلال العسكري، كتاب الأوائل، بيروت، ١٩٩٧م، ص١٨٥".

علي العموم كان معروفا أن اهتمام خالد ابن يزيد بالكيمياء كان بسبب تشوقه لقصص أساطير الكيمياء، فتحت تأثير هذه الأساطير كان الكثير من الناس في مختلف العصور التاريخية تمنوا أن يحولوا المعادن الرخيصة عن طريق وصفة أسطورية إلي ذهب غير أن الحقيقة أن اهتمام خالد بالكيمياء كان بسبب اختراع عملة قيمة علي مستوي عال ولسد هذه الفجوة قام بترجمة الكتب السائدة والمتداولة في هذا الفن

وفي الأخير قدم العون للسلطنة الأموية في إقامة دار لصك العملات علي مستوي راق. ويُقال أيضا أن خالد بن يزيد كان قد أعد مركبا كيميائيا باسم نفيت (نفيط) في مقابل النار اليونانية لأهل الروم التي كانت تشتعل فجأة بسرعة شديدة.

(٢١) علي سبيل المثال خذ قضية تحديد الشهور القمرية استعان بطليموس لقياس الشهور القمرية بخسوف القمر وحسب هذه العملية تكون المسافة بين الكسوفين٢٦٠٠٧ يوما وساعة وخلال هذه الأثناء يكون القمر قد قام بالدوران ٤,٢٦٧ فيكون الشهر القمري ٢٩ يوما و٣١ دقيقة و٥٠ ثانية و٢٠ رباعيا (أي ٢٩,٣١,٥٠,٨,٢٠) هذا القياس للشهر القمري هو من قياس الحجاج بن يوسف بن مطر بعد الإصلاح والتصحيح وإلا فحسب مقاس بطليموس لو تم تقسيم اليوم بالدوران لكانت النتيجة مختلفة عن هذا وهي تكون علي النحو التالي (٢٩, ٣١, ٥٠, ٨, ٩, ٢٠) راجع:

Bernard Goldstein, “Ancient and Medieval Values for the Mean Syndoic Month”, Journal for the History of Astronomy, 34 (2003): 65-74

George Saliba, Islamic Science and the Making of European Renaissance, p. 79-80.

(٢٢) هناك يسود هذا الرأي بأن تقدم العلوم والفنون الذي جاء عن طريق المسلمين في أزهي عصورهم السياسية فهو لم يكن من إنجازاتهم الطبيعية البحتة بل إن هؤلاء المسلمين كل ما قاموا به هو أنهم في القرون الأولي للخلافة العباسية قاموا بنقل العلوم والفنون اليونانية بسرعة شديدة إلي العربية ونتيجة لهذا العمل نتجت ثورة علمية ولكن في القرون المتأخرة عندما نقلت نفس العلوم إلي اللاتينية مترجمة إلي أهل أوروبا بدأ يتقهقر بهاء الحضارة الإسلامية فحسب هذا الرأي السائد أن المسلمين كل ما فعلوه هو الحفاظ علي علوم القدماء واستفادوا منها غير أن أوروبا عملت علي تنميتها وازدهارها وصنعت عالما جديدا للاستكشاف والتسخير. في رأيي أن مثل هذا الكلام لا يصغي إليه إلا أولئك الذين ليس لهم إلمام بالمرة بتاريخ الحضارة الإنسانية أو يكونون متأثرين بنزعة التعصب والدعاية المضادة لأن باديء ذي بدء فإن هذا الرأي لا أساس له من الصحة بل هو رأي باطل. إن جزيرة العرب والمناطق المفتوحة المحيطة بها لم يكن فيها وجود لعلوم الفلك والجغرافيا والرياضيات والفنون الجميلة قبل عصر الخلافة العباسية. وتبني هذه الفكرة له علاقة بالمعلومات التي تشاع بحسن نية أن أهل مكة كانوا جهلاء والأوباش لا يعرفون القراءة والكتابة ولم يكن هناك أي شكل من أشكال التمدن والحضارة، فمثل هذه المبالغات ربما قامت بدعم إنجازات الإسلام مؤقتا لكن لا علاقة لهذه المعلومات بالحقائق التاريخية لهذه الحقبة من الزمان لأن دارسا عاديا للقرآن الكريم يستطيع بكل سهولة التقدير بأن المخاطبين الأولين للقرآن الكريم كانوا يملكون ذوقا شعريا وأدبيا علي مستوي رفيع كذلك كانوا علي معرفة بدوران الشمس والقمر وبتقويم الشهور والسنين

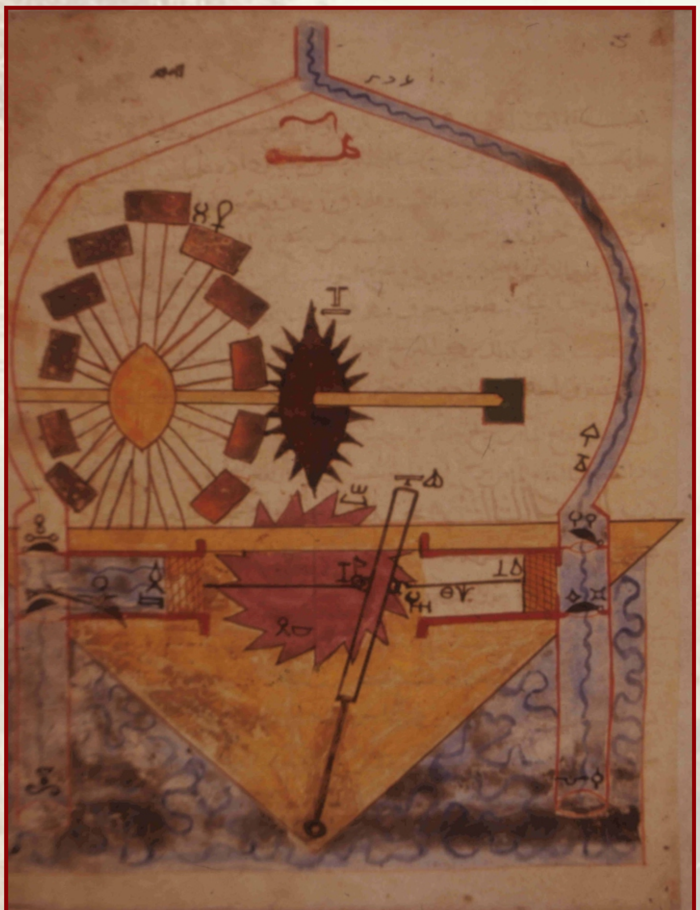
وبالإضافة إلي علوم الفلك كانوا علي معرفة بالرمل والنجوم والكهانة وأكثر من كل هذا لم يكونوا علي معرفة بالأعداد من واحد إلي مائة ألف بل أن الشواهد للأمور الداخلية لآية الميراث تدل علي أنهم كانوا مؤهلين لفهم التوزيع المعقد للحصص أي أن كتابا عظيم الشأن كالقرآن العظيم في البيئة التي كان ينزل فيها كان مخاطبوه يملكون المقومات الأساسية لفهمه.

والمستشرقون أيضا قاموا بدعاية مضادة كبيرة ضد المسلمين الأوائل علي أنهم كانوا أصحاب عقلية محدودة وقاصرة لكي يؤكدوا لنا في قرون الانحطاط أنكم لم تكونوا مؤهلين من قبل ولا اليوم فقد أضعتم بالأمس مكانتكم بين العلوم والحكم اليونانية القديمة واليوم أيضا لا يستنجدكم إلا علوم وفنون الغرب. معظم المستشرقين الذين يحسبون أن الحضارة الإسلامية مأخوذة ومقتبسة من العلوم والفنون اليونانية القديمة فإن جذور أفكارهم هذه توجد في كتابات (جولد تسيهر) الذي يري جميع التقدم الاستكشافي والعلمي للعصر الإسلامي علي اعتباره بأنه علوم أجنبية. راجع:

“The Attitude of Orthodox Islam Toward the ‘Ancient Sciences’” in Merlin L. Swartz, (ed). Studies on Islam. New York: Oxford University Press, 1981, pp.185-215.

والمستشرقون الذين جاءوا بعده بدلا من أن يدرسوا ويحققوا في هذا الموضوع قبلوا رأي "جولد تسيهر" كما هو ككلام صادق ومسلم به. وهذا هو السبب أن في الغرب يسود إلي يومنا هذا ذاك الرأي وهو أن الإسلام ضد العقل الاستكشافي ولعله السبب في أن حالة التفكير في الكون والاتجاه إلي الاستكشاف والتسخير في العالم الإسلامي المعاصر سيئة للغاية.

وأصحاب هذا الرأي لا يتعبون من الدعاية المضادة من أن العلوم والفنون اليونانية القديمة ظلت تضيء وتلمع الحضارة الإسلامية فقط ولم تستطع أن تتقدم من



**مثل هذه الآلات كانت تُعد في أوروبا القرون الوسطي علامة للعلم والحكمة وأهل العلم كانوا يحسبون وضعها في حجرة الطعام مبعث فخر واعتزاز والمصورون كانوا يضعونها في الخلفية عند التقاط الصور.**



Binding Side

مستوي معين لكن نفس العلوم حينما ترجمت من العربية إلي اللاتينية وانتقلت إلي أوروبا فإن المزاج العلمي للغرب أقام عالما جديدا خالصا من خلالها. مثل هذا الكلام إن كان من ناحية الدعاية السياسية للاستعمار فمن ناحية أخري هو نتيجة عدم معرفة بالتاريخ بالمرة. والحقيقة أن حركة الترجمة لم تكن تقتصر علي الكتب العلمية اليونانية بل إن هذه الحركة العلمية كانت قد أحاطت خلال ثلاثمائة سنة بجميع العلوم والفنون التي وجدت في المناطق المفتوحة من روما



بدأت هذه الآلات تشيع في الغرب في القرن السادس عشر الميلادي.

وفارس وصولا إلي علوم الهند والصين، جميعها كانت بحوزة المسلمين. وبعبارة أخري تستطيع أن تقول بأن الحضارة الإنسانية حيثما كانت قد وصلت في رحلتها التقدمية فلم يقم بإحاطتها المسلمون فقط بل كانوا قد أقاموا تقليدا افتراضيا للتحليل والتنقيح في ضوء دائرة الفكر القرآني ولم يقبلوا العلوم السائدة آنذاك كما هي بل وُضع الموضوع علي ميزان الرفض أو القبول في ضوء التصورات والمعتقدات القرآنية وكم نجحوا في هذا العمل فهذه قضية أخري لأنها ليست موضوع دراستنا في الوقت الحالي.

(٢٣) ابن الهيثم، الشكوك علي بطليموس، تعليق عبد الحميد صبره ونبيل شهابي، القاهرة، ١٩٧١م.

(٢٤) جورج صليبا أخبر عن تداول هذا الكتاب من خلال شهادة ضمنية متواجدة في مخطوط قديم باسم كتاب الهيئة. انظر هذا في:

George Saliba, A History of Arabic Astronomy: Planetary Theories During the Golden Age of Islam, New York University Press, 1994, p.20.

(٢٥) المعدل المسار الذي نسميه قضية تكافؤ في علم الفلك القديم فبالرغم من لغوه وعدم فائدته ظلت تزاحم لفترة طويلة المشاهدات العلمية غير أن حقيقة هذا التصور لم تكن أكثر من قياس مع الفارق. وهل هناك تصور مهمل أكثر من هذا أن دائرة ما تكون سائرة نحو محورها ومركزها علي خطوطها أن تمر دون المساس بمركزها. جورج صليبا، المرجع السابق، ص٨٥.

(٢٦) البحث الذي أقامه المتكلمون للعرض والجوهر فصوروا الوقت فيه أيضا علي مستوي الجوهر حيث مسبب الأسباب ذات الله وحده لا شريك له وهو مصدر وصنع جميع العوامل وقدم الرازي نظرية (الفضاء المطلق)، وهذه النظرية الأكثر قربا إلي نظرية نيوتن مقارنة بنظرية المكان لأرسطو.

(٢٧) ابن الهيثم، الشكوك علي بطليموس "تحقيق عبد الحميد صبره ونبيل شهابي"، القاهرة، ١٩٧١، ص٦٣.

(٢٨) George Saliba, Islamic Science and the Making of European Renaissance, London, 2007, pp. 82-83.

(٢٩) ابن الهيثم، الشكوك علي بطليموس، القاهرة، ١٩٧١، ص٣٨.

(٣٠) أبو جعفر البطروجي (المتوفي ٦٠٠هـ)الذي يُعرف في الغرب ب(ألبترجيوس). إنه في كتاب الحياة وهو من أهم مؤلفاته رفض تماما النموذج البطليموسي وأردي الملامح الأولية لعلم الهيئة الجديد. وتُرجم هذا الكتاب إلي اللاتينية وطُبع في فيينا عام ١٥٣١م وله كتاب آخر وهو كتاب الهيئة كان قد ترجمه ميخائيل سكوت وطُبع في القرن الثالث عشر الميلادي في صقلية في عهد (فريدريك الثاني)، وكوبرنيكوس الذي أظهر ضيق الأفق ونكران الجميل بل وصل الأمر إلي السرقة الفكرية فيما يختص بذكر المسلمين المتقدمين في موضوع الفلك لكنه مع كل هذا الذهن المريض لم يستطع أن يصرف النظر عن البطروجي وكتب كوبرنيكوس في مصنفه الذي ذاع صيته في العالم المسمي De Revolutionibus Orbium Coelestium أن البطروجي حدد مركز الزهرة فوق الشمس وعطارد تحتها . واعتراف وقبول كوبرنيكوس يكفي لإظهار هذه الحقيقة أن تصور البطروجي للكون كان مختلفا عن تصور أفلاطون وبطليموس حيث وضع الأول منهما الكوكبين فوق الشمس ووضع آخرهما تحتها.

(٣١) في القرآن وردت كلمة الحكمة في بعض الأماكن بمفردها وفي أحايين أخري جمع الكتاب والحكمة معا. علي سبيل المثال "وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا" (البقرة ٢٦٩) أو "وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ" (البقرة ١٢٩). والقرآن الكريم تحدث عن رسول الله محمد صلي الله عليه وسلم علي أنه كان مقررا عليه أداء واجب تعليم الكتاب والحكمة. والمراد من



صفحة من كتاب الحيل للجزري حيث جاء أنه باستخدام طلمبات مزدوجة يمكن استخراج المياه من عمق ١٢ مترا.



Binding Side

الكتاب هو الوثيقة المحددة المشتملة علي الوحي الرباني حيث لا مجال للالتباس في هذا الشأن إلا قليلا. أما بشأن تحديد الحكمة فالمتقدمون تعرضوا لكثير من الالتباس فقال قائل منهم أن الحكمة تشير إلي مأخذ آخر غير القرآن الكريم. وبالتدريج بدأ هذا الرأي يتوثق بأن الكتاب والحكمة شيئان مختلفان وهما قد أنزلا معا علي رسول الله صلي الله عليه وسلم. فواحد منهما في شكل مجموعة للقرآن الكريم والآخر في شكل سنن وروايات ولكي ينال هذا الرأي قبولا عاما أدي قتادة السدوسي (المتوفي ١١٨هـ) وعبد الله بن وهب (تلميذ الإمام مالك) المتوفي ١٧٩هـ والإمام الشافعي (المتوفي ٢٠٥هـ) دورا خاصا. وفي رأيي توصيف الحكمة بمعني السنة لا يصح لأن آيات القرآن الكريم تدل علي أن الكتاب والحكمة كانتا قد منحتا للأنبياء السابقين أيضا. علي سبيل المثال قيل بشأن سيدنا عيسي عليه السلام "وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ" (آل عمران ٤٨). وبشأن آل ابراهيم جاء في القرآن الكريم "فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ" (النساء ٥٤). وبشأن لقمان جاء "وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ" (لقمان ١٢). فكأن كل تلك الآيات تؤيد هذا الرأي وهو أنه لا يصح إطلاق كلمة الحكمة علي سنة رسول الله صلي الله عليه وسلم ولا يمكن أن يكون هذا هو الفهم الصحيح للآيات القرآنية ولو كان المراد بالحكمة سنة الرسول صلي الله عليه وسلم فبكل تأكيد لم تكن قد نزلت مجموعات الأحاديث والروايات علي آل ابراهيم وعلي عيسي وعلي لقمان.

وبعض الشراح قدموا حلا آخر لجمع الكتاب والحكمة معا وهو أنهم حددوا وجود الحكمة داخل الكتاب نفسه بدلا من البحث عنها خارج القرآن الكريم. ولا شك في هذا أن القرآن الكريم عبر عن نفسه بحكمة بالغة. وإن كان ضم الكتاب مع الحكمة في أماكن مختلفة ليبين أن للإعلان عن أن حل التعقيدات لهذا الكتاب العظيم ولإضاءة الطرق من تجلياته لا بد من الاستعانة بالحكمة. فما هذه الحكمة؟ حسب بيان القرآن الكريم أنها نفس الشيء الذي كان رفيقا وحاميا لداود عليه السلام في إدارة شئون البلاد. ونفس الهدية للكتاب والحكمة عندما أعطيت لآل ابراهيم كانت السيادة من نصيبهم: (فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا) النساء ٥٤. والله يعطي الحكمة لمن يشاء "يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ" (البقرة ٢٦٩). ومن يعطي الله الحكمة فقد أعطاه خيرا كثيرا. ومن البيانات القرآنية يتضح جليا أن الحكمة خير كثير ومن أوتيها فقد أوتي خيرا كثيرا. وهي التي تجعل الشعوب والملل مستخلفين في الأرض فقد كانت عظمة وجلالة سلطنة داود وسليمان نتيجة هذه الحكمة. والوحي الذي كان ينزل علي رسولنا صلي الله عليه وسلم يبني عقلا حكيما وقلبا سليما وفيما بعد قُدر لأمته الاستخلاف في الأرض نتيجة لها. وإن أردنا أن نقول نفس الكلام بعبارة معاصرة فيمكننا أن نقول باختصار أن المراد بالحكمة هو تشكيل وبناء سلوك عقلي لا ينظر إلي الكون كعرض محض أو يخاف من سريته بل عليه أن يؤدي واجب التسخير. وداود عليه السلام بهذا السلوك العقلي المليء بالعبادة الكاملة شكل سلطنة كانت تحيط بالشرق والغرب

بل كانت في إحاطتها حتي الجبال والطيور وحسب بيان القرآن كانت الجبال قد سخرت له بشكل كانت تسبح وتحمد الله معه وكذلك الطيور كانت شريكة معه في تسبيح وحمد الله وكل هذا قد أمكن بسبب "وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ" (ص:٢٠). وفي سيرة داود وسليمان عليهما السلام يوجد ذكر لاختراعات محيرة للعقول. ورمي الحبائل علي الجبال والأجواء وسيادته وحكومته علي الطيور والنمل يوثق هذا الرأي وهو لو أن الحكمة أصبحت رفيقة للوحي فتسخير الكون للإنسان لن يكون سهلا فقط بل يستطيع هذا الإنسان أن يجعل الأرض جنة متسقة تماما مع الفطرة حيث تنحني رؤوس المؤمنين مثل لقمان أمام نعم الله سبحانه وتعالي وحيث داود يعد نفسه من الأوابين مع الاستمتاع بكل هذه النعم.

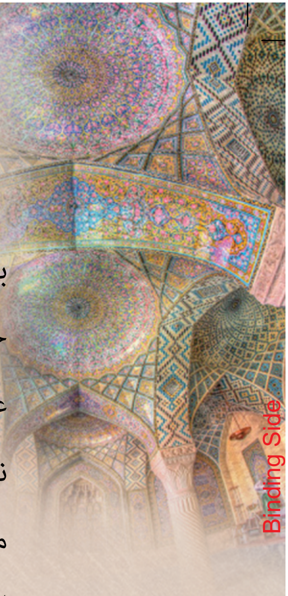
(٣٢) جابر ابن حيان، راجع فؤاد سزكين، ص٢٢٧.

(٣٣) القانون المسعودي، ج١، ص٤٥.

(٣٤) من سخرية التاريخ العجيبة أن الحركة الناشطة التي انتشت بنزول القرآن الكريم ودعوته للاستكشاف والتي ازدهر المنهج العلمي للتجارب والمشاهدات نتيجة لها تنسب اليوم في أوروبا إلي اسم فرانسيس بيكون. ونشر بيكون مصطلح "نوفوم أورجانوم" في مقابل مصطلح "أورجانوم" والذي اعتبر أن تكون التجارب والمشاهدات أساس العلم وفيما بعد بات نفس المنهج لبيكون يعرف بالمنهج العلمي. وهكذا بدأ يعرف أن العالم الجديد الذي ظهر نتيجة للتجارب العلمية مؤسسه ورائده الأصلي هو فرانسيس بيكون. وفي الأوساط العلمية يقال لبيكون "أبو العلوم التجريبية" غير أن الذين لديهم إلمام بسيط بالتاريخ يكون صعبا عليهم أن يرفضوا أن المنهج العلمي الجديد للتفكر والتدبر والذي يبني علي المشاهدات أكثر من المنقولات كان سائدا بين العلماء المسلمين في القرون الوسطي كمنهج مقبول وعام. خذ علي سبيل المثال ابن الهيثم الذي ينظر إليه في الشرق والغرب علي السواء كأب للبصريات بكل تقدير واحترام. إنه لم يكتف فقط بسرية التجربة الإنسانية والمشاهدة بل ظل ينبه أهل العلم باستمرار أن الحقائق غارقة بين الشبهات ومنهج ابن الهيثم أساسا عبارة عن وضع هذه الشبهات علي طاولة التجارب والمشاهدات. راجع النص التالي: "رأينا أن نصرف الاهتمام إلي هذا المعني بقدر الإمكان ونخلص العناية به ونوقع الجد في البحث عن حقيقته ونستأنف النظر في مبادئه ومقدماته ونبتدع



**مجسم للكرة الأرضية صنعه جعفر ابن عمر ابن دولت شاه الكرماني (في القرن الرابع عشر).**



بالاستقراء الموجودات وتصفح أحوال المبصرات وتمييز حواس الجزئيات ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس.. ثم نترقي في البحث والمقاييس علي التدريج والترتيب مع انتقاد المقدمات والتحفظ من الغلط في النتائج ونجعل غرضنا في جميع ما نستقرئه ونتصفحه استعمال العقل لا اتباع الهوي ونتحري في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء .. فلعلنا ننتهي بهذا الطريق إلي الحق الذي به يثلج الصدر ونصل بالتدرج والتلطف إلي الغاية التي عندها يقع اليقين ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم بها مواد الشبهات ... وما نحن من جميع ذلك براء مما هو في طبيعة الإنسان من كدر البشرية ولكننا نجتهد بقدر ما لنا من القوي الإنسانية ومن الله نستمد العون في جميع الأمور".

والأمر ليس موقوفا علي ابن الهيثم فكلية التوازن لجابر ابن حيان التي سبق لنا ذكرها في الصفحات السابقة وإصراره علي أنه: "ليس لأحد أن يدعي بالحق أنه ليس في الغائب إلا مثل ما شاهد أو في الماضي والمستقبل إلا مثل ما هي الآن" هي في الحقيقة تعبير عن هذا المنهج المبني علي التجارب وأساسه آيات الاستكشاف القرآنية التي قامت بتعريف وإخبار أتباع محمد صلي الله عليه وسلم عن منهج علمي جديد ثم أن الكتاب الذي يقول لأتباعه علي الملأ: "سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ" (فصلت: ٥٣). وحيث يكون لديه إصرار لتصحيح الإبصار إذ يقول الله تعالي بنفسه: "مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ٤" (الملك:٣-٤) ومن ثم كيف يمكن لحامليها أن يصرفوا النظر عن التجربة والمشاهدة فالكتاب الذي يقول لأتباعه بعبارة واضحة لا لبس فيها: " وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ٧٨" (النحل:٧٨) يحملهم مسئولية خصائص هذه التجارب والمشاهدات: "إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولٗا٣٦" (الإسراء:٣٦) فكيف يمكن لحاملي هذا المنهج العلمي أن يتجاوزوا عنه ويتولوا عنه فالحقيقة التي لا غبار عليها أن هذا المنهج العلمي الجديد هو الذي قام بقلب المناهج القديمة للتفكر والتأمل. وبمرور الأيام ظهر في حيز الوجود عالم جديد للتسخير والاستكشاف وبعد نزول القرآن الكريم لم تعد الحضارة الإنسانية كما كانت من قبل.

(٣٥) جابر ابن حيان، راجع فؤاد سزكين، ص٢٢٧.

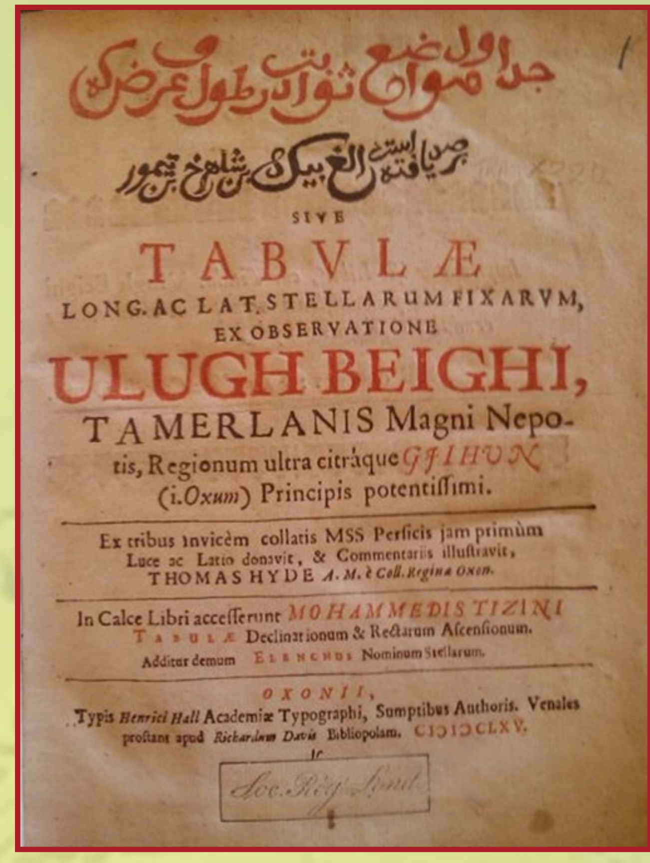
(٣٦) ابن الهيثم، الشكوك علي بطليموس، المرجع السابق، ص٣٤.

(٣٧) نُظر إلي المراصد في الإسلام باستمرار كعلامة بارزة للمشاهدات والتجارب ففي عهد المأمون كانت الشماسية أول مرصد منظم يُعتز به بعد بغداد وفيما بعد اشتهرت المراصد التي أقيمت في الري وأصفهان وشيراز وإن



كانت مراصد مراغة وسمرقند ينظر إليها علي الدوام بكل اعتزاز وفخر في التاريخ الإنساني بسبب إنجازاتها غير العادية والمرصد الشهير "ألغ بيك" في سمرقند يقوم بتجسيد العظمة العلمية لذلك العهد للناظرين إلي يومنا هذا. وبقدر ما تقدمت آلات المراصد بدأ عنصر اليقين والتأكد يدخل ما بين الأرض ومعلوماتنا عنها. في عصر المراصد حينما كانت الدنيا لا تعرف شيئا عن الآلات الالكترونية الحديثة كان قد تم قياس المحيط الأرضي ب٢٤,٨٣٥ ميل والمقياس الحالي هو ٢٤,٩٠٦ ميل. أليس المقياس الأول قريب بشكل مذهل من القياس الثاني الجديد؟

(٣٨) "الكندي هو أول من قام بتعليل وتوجيه كون السماء زرقاء في الظاهر فالجو الذي يحيط بالأرض يصدر ضوءا خافتا متأثرا به وسببه الأجزاء الأرضية النارية التي تنتشر من انعكاس الأشعة الخارجة من الأرض وعلي هذا فإن الفضاء المظلم الذي فوقنا هو مزيج الضياء الأرضي والضياء الكوكبي. وبذلك يُري هذا اللون متوسطا بين الظلام والضياء وهذا هو اللون اللازوردي (الأزرق السماوي)" فؤاد سزكين، ص١٣٦.


جداول مواضع ثوابت در طول وعرض
برصد يافته است الغ بيك بن شاهرخ بن تيمور
SIVE
TABVLÆ
LONG. AC LAT. STELLARUM FIXARVM,
EX OBSERVATIONE
ULUGH BEIGHI,
TAMERLANIS Magni Nepotis, Regionum ultra citráque GJIHUN (i. Oxum) Principis potentiſſimi.
Ex tribus invicèm collatis MSS Perſicis jam primùm Luce ac Latio donavit, & Commentariis illuſtravit, THOMAS HYDE A. M. è Coll. Reginæ Oxon.
In Calce Libri acceſſerunt MOHAMMEDIS TIZINI Tabulæ Declinationum & Rectarum Aſcenſionum.
Additur demum Elenchus Nominum Stellarum.
OXONII,
Typis Henrici Hall Academiæ Typographi, Sumptibus Authoris. Venales proſtant apud Richardum Davis Bibliopolam. CIↃIↃCLXV.

غلاف الجدول الفلكي لأولغ بيك في أوروبا القرن السابع عشر الميلادي.

(٣٩) حسب كلام الكندي حينما تكون الشمس مائلة إلي الجانب الشمالي فأماكن الشمال تصبح ساخنة وتصبح الأماكن الجنوبية باردة ونتيجة لهذا ينتشر الهواء الشمالي بسبب حرارته ويتجه ناحية الجنوب لأن الهواء الجنوبي بسبب تحويله إلي الهواء البارد ينكمش وهذا هو السبب أن معظم هواء فصل الصيف يكون شماليا وكذلك معظم هواء فصل الشتاء يكون جنوبيا.

فهل مكتشفو الغرب في القرن الثامن عشر كانوا علي معرفة بتوجيهات الكندي هذه؟ في الواقع بقدر ما نتعرف علي المراجع الأصلية لأهل الغرب في العصر الحديث فحينها يمكن لنا التحدث بشكل قاطع في مثل هذه التعاملات الحضارية. ويمكنك أن ترجع لمزيد من التفصيل إلي الباب الخامس في هذا الشأن.

(٤٠) في الغرب اعتبرت آلة الجذر الرباعي من اكتشاف "تيخو براهي" لفترة طويلة. غير أن هناك دلائل كثيرة متوفرة حول أن هذه الآلة كانت متاحة للبيروني وإلا فلم يكن من الممكن له أن يتحدث عن مقياس

المحيط الأرضي. بالإضافة إلي ذلك كان استخدام هذه الآلة أيضا معروفا في مرصد نصير الدين الطوسي وفي مرصد تقي الدين باسطنبول مازالت إلي يومنا هذا تُستخدم هذه الآلة لتصحيح الالتباسات التاريخية. انظر لمزيد من المعلومات:

A. Y. Al-Hassan, (ed.), The Different Aspects of Islamic Culture. Vol 4: Science and Technology in Islam. Paris: UNESCO Publishing, pp. 235-265.

(٤١) (الخريطة المأمونية) وإن كانت تري الدنيا حسب التصور اليوناني منقسمة إلي سبعة أقاليم لكنه جدير بالذكر أنها أول خريطة تذكر ٥٣٠ من المدن الهامة في العالم وخمسة محيطات و٢٩٠ من الأنهار ومائتين من الجبال وكذلك يذكر في خريطته هذه أهم المعادن والأحجار الموجودة في مختلف المناطق. والمسعودي تحدث بتوسع عن هذا المشروع. انظر كتاب (التنبيه والأشراف).

(٤٢) حتي في العصر البيروني كانت توجد مدارس فكرية مختلفة للعلوم الأرضية. علي سبيل المثال في عصر الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور (٧٥-٧٥٣) كان قد ترجم في هذا الموضوع إلي اللغة العربية الكتاب السنسكريتي "سور سدهانت" وبالإضافة إلي ذلك فإن العرب كانوا لا يعرفون شيئا عن الكتاب القديم لآريه بهات المعروف باسم (أرجمند) الذي جاء فيه مع بحث عن دوران الأرض والسماوات أن المناطق المائية وغير المائية علي الأرض سواء بسواء

S. Maqbul Ahmed “Djughrafiya.” In Encyclopedia of Islam Leiden: Brill, 1991, vol 3. pp. 575-587.

(٤٣) أبو ريحان البيروني، كتاب (تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن)، المرجع السابق.

(٤٤) ابن الهيثم في كتابه الشهير الشكوك علي بطليموس الذي قرر فيه النظام البطليموسي القياس مع الفارق فلعله لم يترجم إلي اللغة اللاتينية كما في رأي صليبا. إن التوجيه الذي قدمه ابن الهيثم عن حركات الكواكب والتي أسماها بالنظام الطبيعي يوضحه علي النحو التالي:

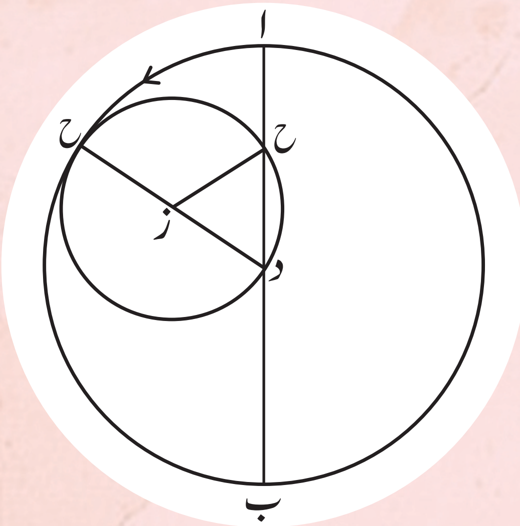
إن المقدمات التي تبني عليها تراكيب مدارات الكواكب وجميع المجرات التي تدور حول الأرض هي أربع مقدمات، الأولي أن هذا الجسم الطبيعي لا يستطيع التحرك بنفسه أكثر من مرة والثانية أنه لا يقع اختلاف في حركة الجسم البسيط الطبيعي أي أنه وقت الدوران لقطع المسافة دائما في الوقت المحدد والثالثة أن الجسم لا يقبل الانفعال السماوي والمقدمة الرابعة أن هذا الخلاء غير موجود. فؤاد سزكين، ص١٠٣-١٠٢.

(٤٥) في مصنفه الذي قام فيه أبو ريحان البيروني بلوم بطليموس يوجد له ذكر فقط في كتب التاريخ ففي (البرهان في رد البهتان والعدوان) نقل قطب الدين الشيرازي (المتوفي ١٣١١م) هذا القول للبيروني.

George Saliba, A History of Arabic Astronomy: Planetary Theories during the Golden Age of Islam, New York University Press, 1994, p. 279.

(٤٦) النظام الجديد الذي قدمه ابن شاطر (المتوفي ١٣٧٥م) قبل مائة وخمسين عاما من كوبرنيكوس، رافضا النظام البطليموسي هو نفسه الذي ينسب إلي كوبرنيكوس بكل اعتزاز فلو ألقي أي شخص نظرة علي خرائط كوبرنيكوس وابن شاطر بشيء من الأمانة لن يجد صعوبة في إدراك أن جميع دراسات كوبرنيكوس ما هي إلا نقل الجهود العلمية لابن شاطر وغيره من العلماء المسلمين المتقدمين. يُلاحظ تشابه الخريطة الثالثة بالخريطتين الأولي والثانية.

خريطة




خريطة رقم ١

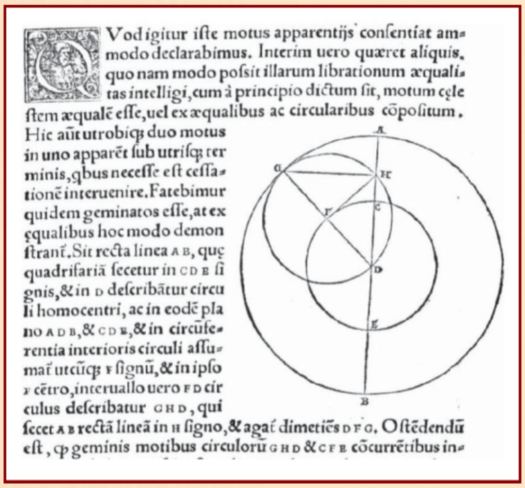
الخريطة الأولي والثانية مأخوذة من كتاب "تذكرة في علم الهيئة" لنصير الدين الطوسي ١٢٦١م. ففي الخريطة الأولي عرض دوران المجرات بالصغيرة والكبيرة "مزدوجة الطوسي". في هذه الخريطة توجد دائرتان وقطر الدائرة الأولي الصغيرة نصف الدائرة الكبيرة. القطر الكبير أُشير إليه بالألف، ح، د، ب. وهنا في الدائرة الصغيرة يُري أنها تدور اتجاه عقارب الساعة. في الوقت نفسه تدور الدائرة الكبيرة بنصف سرعة الدائرة الأولي في الجهة المضادة. والنتيجة أن ح علي الرغم من دورانه يُري بين الألف والباء.



خريطة رقم ٢

وفي الخريطة الثانية حاول الطوسي إظهار أن الدائرة الصغيرة حينما تدور داخل الدائرة الكبيرة بسرعة مضاعفة في الجهة المخالفة فماذا يعني هذا المنظر للمشاهدين. ففي الخانة الأولي حينما تكون الدائرة الصغيرة في النصف العلوي للدائرة الكبيرة أي أن الدائرة الكبيرة في الجهة العكسية للساعة والحلقة الصغيرة تدور اتجاه عقارب الساعة. ففي هذه الحالة يتطلب الأمر تواجد الحلقة "الخانة" الرابعة. وحقيقتها أن الدائرة الصغيرة هنا تكون قد دارت مرة ونصف المرة في الوقت الذي تكون الدائرة الكبري لم تدر إلا ثلاثة أرباع من الدوران. وإذا نُظر إلي هذه الحالة من مسافة بعيدة تبدو وكأن الصغيرة دائما تدور حول قطر الكبيرة.

والآن لو قمنا بدراسة مقارنة لرسم بيان الطوسي برسم بيان نيكولاي كوبرنيكوس فلن تكون هناك صعوبة في فهم حقيقة الموقف.

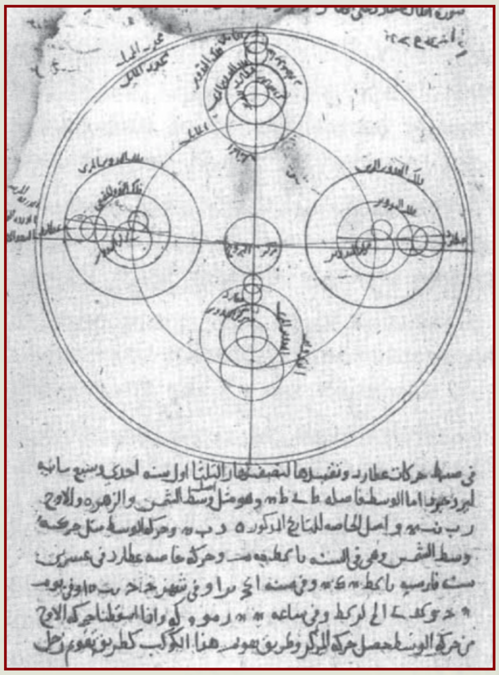

Quod igitur iſte motus apparentijs conſentiat amodo declarabimus. Interim uero quæret aliquis, quo nam modo poſsit illarum librationum æqualitas intelligi, cum à principio dictum ſit, motum cęleſtem æqualē eſſe, uel ex æqualibus ac circularibus cōpoſitum. Hic aūt utrobiq; duo motus in uno apparēt ſub utriſq; terminis, qbus neceſſe eſt ceſſationē interuenire. Fatebimur quidem geminatos eſſe, at ex ęqualibus hoc modo demonſtrant. Sit recta linea A B, quę quadrifariā ſecetur in C D E ſignis, & in D deſcribātur circuli homocentri, ac in eodē plano A D B, & C D E, & in circūferentia interioris circuli aſſumat utcūq; F ſignū, & in ipſo F cētro, interuallo uero F D circulus deſcribatur G H D, qui ſecet A B rectā lineā in H ſigno, & agat dimetiēs D F G. Oſtēdendū eſt, q geminis motibus circulorū G H D & C F E cōcurrētibus in-

خريطة رقم ٣

وبادئ ذي بدء من الضروري أن نعرف أن كوبرنيكوس استعان ب"مزدوجة الطوسي" في رسم بيانه. إذن فإنجازه ينحصر فقط في أنه بعدما قام بتغيير وتبديل الحروف العربية الهجائية إلي الحروف اللاتينية حاول تقديم انطباع أوروبي محض وهذا الرأي ظل مقبولا لدرجة كبيرة بين علماء المسلمين لعلوم الفلك أن النظام البطليموسي لا يقدم صورة صحيحة لحركة الكون. وأول من قام بالنقد اللاذع علي النظام البطليموسي هو ابن الهيثم (المتوفي ١٠٤٠م) وإن كان تقديم تصور نظام متبادل فكان مقدرا لابن شاطر (١٣٧٥م) وهو الذي عرفه كوبرنيكوس في الغرب بتعديل بسيط في الأبعاد أي جعل الشمس مركزا بدلا من الأرض وبسبب المحاولات المشتركة لكوبرنيكوس وجاليليو شعر أهل الغرب كأنهما اكتشفا سر حركة الكون وهذا الشعور وضع حجر الأساس لبعض الأفكار الأساسية المتغيرة.

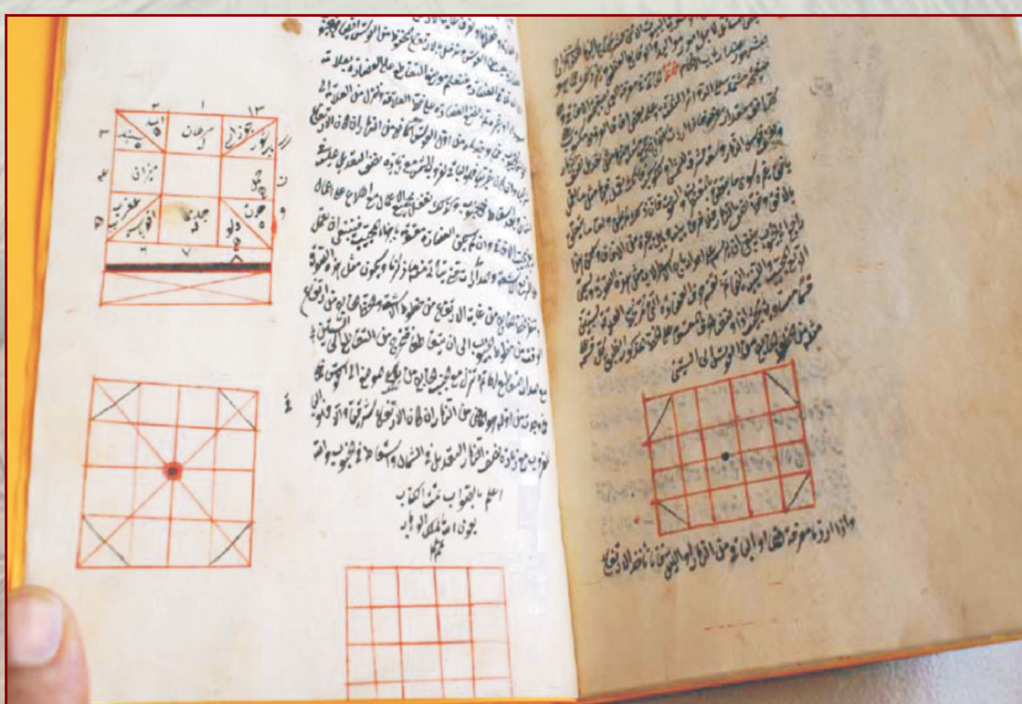
(٤٧) غالبا كانت سنة ١٩٥٧م التي اكتشف أهل العلم لأول مرة أن الخريطة التي وضعها ابن شاطر قبل ١٥٠ أو ٢٠٠ سنة علي أساس "مزدوجة الطوسي" هي نفس الخريطة التي وضع فيها كوبرنيكوس الشمس بدلا من الأرض وقدم نفسه في عالم الغرب كإمام لهذا الفن. ولهذا الادعاء دلائل وشواهد ومنها أن كتاب ابن شاطر "نهاية السول في تصحيح الأصول" كان قد وصل إلي إيطاليا في القرن الخامس عشر الميلادي والبعض يقول أيضا أن كوبرنيكوس بكل تأكيد قد اطلع علي هذا الكتاب في مكتبة الفاتيكان ووجود هذا الكتاب في مكتبة

الفاتيكان وذهاب كوبرنيكوس مثبت في التاريخ وهذا هو السبب أنه يوجد تشابه كبير إلي حد الاندهاش بين الرسمين التوضيحيين لابن شاطر وكوبرنيكوس.



**لاحظ تصور ابن شاطر حيث تم تحديد مكان عطارد باستخدام مزدوجة الطوسي في مقابل النظام البطليموسي.**

لاحظ تصور ابن شاطر في مقابل النظام البطليموسي إذ تم تحديد مكان عطارد في البيان التوضيحي لابن شاطر مستعينا ب"مزدوجة الطوسي".



**الدراسة الدقيقة عن اسطرلاب في كتاب نصير الدين الطوسي.**



Binding Side

راجع في هذا الصدد لمزيد من البحث والتفصيل:

George Saliba A History of Arabic Astronomy: Planetary Theories during the Golden Age of Islam, George Saliba, Islamic Science and the Making of European Renaissance, New York, 1994, p. 236. George Saliba (2007), Lecture at SAOS, London-Part 4/7 (http://youtube.com/watch?v=GfissgPCgfM) and Lecture at SAOS, London-Part 5/7 (http://youtube.com/watch?v=OVMBRAd6YBU) London, 2007.

(٤٨) إن جابرا قد وضع لأول مرة حجر أساس لعلم باستخدام العدد الترجيحي لخواص الأشياء الذي كان مبعث ثورة علمية محيرة فيما بعد ومن ثم أصبح ممكنا للناس أن يعرفوا أجزاء الأشياء المختلفة ويخترعوا أشياء جديدة بالتغيير والتبديل في ترتيبها وتعديلها. وبحسب قول جابر أن من اكتشف هذا الأصل للميزان فكأنه تعرف علي السر الأساسي للكون. المرجع السابق، فؤاد سزكين، ص٧٧.

(٤٩) في القرون الوسطي كان العالم الإسلامي يحتل مكانة الحضارة المنتصرة حيث كانت عملية الترجيحات الفكرية والأدبية مبعث اعتزاز وفخر. والمفكرون الغربيون كانوا ينظرون إلي عالم الإسلام بنظرة مهيبة كما هو حال العالم الثالث الآن وهو ينظر إلي الدول الغربية بنظرة مهيبة. فمع هذه الخلفية لا مجال للاستغراب إذا عرفنا أن تخيلات جابر الكونية هي السبب وراء كتابات فاوست ورواية (فرانكشتاين) لماري شيرلي.

(٥٠) المرجع السابق، فؤاد سزكين، مكانة الحضارة الإسلامية في تاريخ العلوم، ص٤٥.

(٥١) يُقال أن روبرت أف شستر حينما ترجم بعض أجزاء هذا الكتاب إلي اللاتينية باسم Liber Algerbrae et Almucabola فلم يكن هناك أحد في الغرب قد سمع عن هذا العلم وقتئذ.

(٥٢) راجع: أبو الحسن أحمد بن ابراهيم الإقليدسي، الفصول في الحساب الهندي، عمان، ١٩٧٣م.

(٥٣) فؤاد سزكين، المرجع الأسبق، ص٨٩.

(٥٤) المرجع السابق، ص٨٦.

(٥٥) إن الكاشي كان من أولئك العلماء المكتشفين العباقرة الذي كان قد دعاه "ألغ بيج" (المتوفي ١٤٤٩م) إلي سمرقند للتحقيق والدراسة. إن الكاشي هذا قد قام بتقدير العلاقة بين قطر الدائرة وعرضها ب٦.٢٨٣١٨٥٣٠٧١١٧٩٥٥٨٦ وهو الرقم الذي يمكن اعتباره صحيحا إلي حد كبير إلي يومنا هذا. لمزيد من التفصيل راجع: Berggren, J. L. Episodes in the Mathematics of Medieval Islam, New York, 1986, pp. 15-21, pp. 151-154.

(٥٦) المجتمع الإسلامي يقدم مظهرا للبهجة حيث يتقابل الناس ببعضهم البعض ويجلس الغني والفقير والملك والمتسول علي مائدة واحدة ولذا رأي علماء الفقه بأن الأمراض المعدية متصادمة ومتضاربة مع فكرة المساواة الإسلامية لديهم ولذلك اضطر لسان الدين الخطيب (المتوفي ٧٧٦هـ) أن يكتب في كتابه "مقنعة السائل عن المرض الهائل".

"فإن قيل لماذا نعترف بدعوي مرض معدٍ مادام الشرع ينفي هذا. نقول أن وجود الأمراض المعدية ثابت بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والاختبار وكل هذه دلائل علي وجودها. وكل من يتأمل في هذه القضية أو يدرك المشكلة فلا يخفي عليه أن كل الذين يرتبطون بمريض هذه العدوي مباشرة يموتون ومن لا يتصلون بهم بعلاقة مباشرة ينجون وكذلك بسبب الملابس أو الأواني ينتشر المرض في البيت وفي الحي كله حتي من لبس حلقة الأذن الخاصة بالمريض أهلكته وأهلكت أهل البيت كلهم. هذا المرض المعدي ينتشر في أحد بيوت المدن ثم ينتشر بين الأحاد الذين يقابلونه ثم ينتشر بين جيرانهم. راجع فؤاد سزكين ص٤٧.

(٥٧) إن الرازي سطر في كتابه "الشكوك علي جالينوس" مقدمة أهداها لجالينوس: إنني أشعر بالألم إذ أقوم بنقد رجل تعلمت من بحر علمه الزاخر الكثير والكثير لكن شعور الامتنان والعظمة لا يمنعني من أن أشير إلي الأخطاء التي تكشفت لي.

(٥٨) فؤاد سزكين، المرجع السابق، ص٤٥.

(٥٩) المرجع السابق نفسه، ص٤٦.

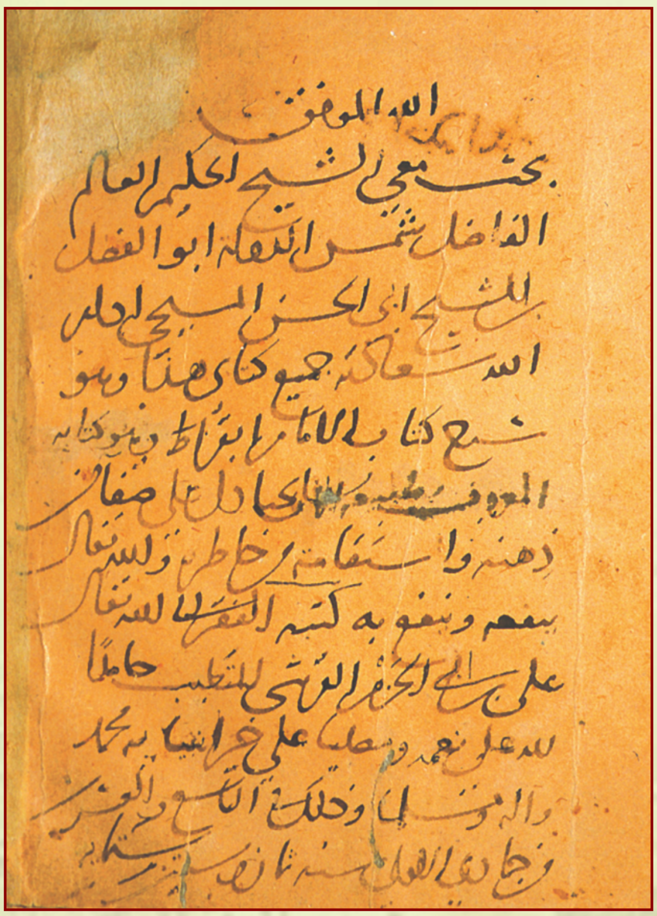
(٦٠) المرجع السابق، ص٤٦.

(٦١) المرجع السابق، ص٤٦.

(٦٢) المرجع السابق، ص٥١.

(٦٣) Ehsan Masood, Science and Islam: A History, London, 2009, p.162

(٦٤) المرجع السابق، ص٧٤.



صورة شهادة ابن النفيس التي قدمها لأبي الفضل المسيحي في عام ١٢٧٠ وذلك عندما كان منح الشهادات العلمية من العلماء المسلمين إلي أهل أوروبا مبعث اعتزاز وتقدير.

(٦٥) المرجع السابق، ص٧٢.

(٦٦) علي سبيل المثال ثاودورس أبو قرة (المتوفي ٨٢٦م) الذي كان قسيسا والذي كان قد تم تعيينه في عصر الخلافة الأموية لإنجاز بعض أمور السجلات الحكومية وله باع طويل في عملية الترجمة واشتهر كثيرا في هذا المجال كما نقل كتب العلوم الهندية والرياضيات إلي اللغة العربية. كان هذا الرجل من حيث الديانة من الصائبين. وكذلك عُين شخص آخر وهو (حُنين بن اسحاق) للإشراف علي عملية الترجمة وقد كان نصرانيا أيضا.

(٦٧) بعض المستشرقين قاموا بترويج هذا الفكر المغلوط بأن الحضارة الاسلامية أو المجتمع المسلم لا يقدم بيئة مناسبة للتقدم العلمي. هؤلاء يقولون أن العلوم اليونانية حينما أتيحت لهم فبسبب معارضة علماء الإسلام لم يُكتب لها أن تتقدم وتزدهر لكن نفس العلوم عندما انتقلت إلي الغرب حدثت ثورة علمية عارمة قامت بتغيير أسلوب الحياة تماما. إن مثل هذه الادعاءات أولا تدل علي عدم معرفة بالتاريخ. ثانيا إنها نتاج ثقافة القرون الوسطي التي تشبه تقدمها العلمي بالظلامية لأنها كانت خارجة عن حدود الغرب. جميع هذه الادعاءات نتاج عهد كان المسلمون فيه بسبب غلبة الاستعمار مجبرين علي الخوض في حرب تقوم بالحفاظ عليهم وإبقائهم في أوطانهم فلم يستطيعوا صد هذه الادعاءات غير التاريخية ونتيجة لهذا بدأ ضبابها يزداد كثافة حتي وصل الأمر اليوم إلي حد أن الهفوات العصبية هذه ينظر إليها أنها تقارير تاريخية مسلمة وإذا نُظر إلي هذا الادعاء بعين الاعتبار نجد أن مروجها الأساسي هو في الواقع (جولد تسيهر) الذي أبدي رأيه هذا لأول مرة في مقاله المكتوب باللغة الألمانية Stellung der alten islamischen Orthodoxie zuden antiken Wissenschaften (Goldziher 1915) Muhammedanische Studien (1888) فكتابه هذا الذي يعتبر في الأساس دراسة عن الإسلام والذي تسبب ومازال إلي يومنا هذا في تضليل المتجددين والمستشرقين علي السواء.

(٦٨) Johannes Pedersen, The Arabic Book (trans. Geoffrey French) Princeton University Press, 1984, pp. 116-17.

(٦٩) المرجع السابق، ص١٢٣.

(٧٠) المرجه نفسه، ص١٢٨.

(٧١) المرجع نفسه، ص١١٩.

(٧١) The Cambridge History of Renaissance Philosophy, Charles Schmitt and Quentin Skinner (ed.) Cambridge University Press, 1988, pp. 11-12

(٧٣) الكتاب العربي المذكور آنفا، ص٦٢.



المرصد البريطاني علي هضبة "جرين ويتش" (أُقيم في عام ١٦٧٥م) الذي تسبب في سلب المسلمين تحكمهم في الوقت فيما بعد.



(٧٤) إنني لا أعلم بكل تأكيد أن المصانع المختلفة لتصنيع الأوراق كانت قد وجدت ببغداد في الأيام الأولي للعصر العباسي ولا من أين جاءت هذه الصنعة والحرفة لكن الرق المنشور المذكور في القرآن الكريم يشير إلي أن أي شكل بدائي للورق كان موجودا في العهد النبوي والشعراء العرب كانوا يعلقون عليه معلقاتهم وكانت تكتب عليه التعاملات من الأخذ والعطاء والمعاهدات البينية فسواء كانت معاهدة صلح الحديبية أو وثائق المدينة أو الرسائل المختلفة لرسول الله صلي الله عليه وسلم التي كتبت لمختلف الحكام والأمراء ورؤساء القبائل وقبل كل هذا نسخة القرآن الكريم التي كانت توضع في المسجد النبوي أمام الإمام لكونها مصحف الإمام فهذا يكفي للشهادة بأن الجيل الأول للمسلمين كان متصفا بالأدوات الأساسية للقراءة والكتابة. وإن كان الحديث عن الصنعة الورقية العامة حيث توجد الأدوات الكتابية بوفرة فهذا إنتاج العهد العباسي بصفة خاصة. يُقال أن العرب تعلموا تكنولوجيا الورق في وسط القرن الثامن من أهل الصين حتي وصلوا إلي مهارة كبيرة في هذه الصنعة في أواخر القرن الثامن وبدأت تُعرف مصانع أوراق بغداد علي أنها تصنع من أجود وأنفس الأوراق بل وصل الأمر إلي أن بعض الناس بدأوا يطلقون علي هذا الورق اسم Bagdatixon.

Jonathan Bloom, Paper Before Print: The History and Impact of Paper in the Islamic World Yale University Press, 2001, pp.48-51.

(٧٥) إن أرسطو الذي ينحصر عليه العلم بصفة أساسية علي فروع ثلاثة وهي الفيزياء والميتافيزيقا والرياضيات. فكان هذا العلم لدي علماء المسلمين في القرون الأولي مرجعا جذابا. وأرسطو كان يحمل فكرا بأن القوي الحسية والإدارات المحضة ليس في وسعهما رفع الستار عن ماهية العلم ولذلك فمن أجل تقييم تصور صحيح للكون لا بد من إعطاء الاهتمام للوجدان بالإضافة إلي الشعور والإدراك. والعقل اليوناني القديم كان معتقدا أن الكون من الأزل خالقه مشغول في نوع من المراقبة النفسية. فكان إله أرسطو مختلفا تماما عن إله القرآن الكريم. وكان يتولد انطباع واضح للشرك بسبب اعتقاد الكون قديما مثل الإله من الأزل. ولم يكن هذا التصور للكون مستساغا للعلماء المسلمين والمفكرين. إن هذه المداخلات للحكمة اليونانية إن كانت أنتجت احتمالات الالتباس الفكري من ناحية فمن ناحية أخري هذه المداخلات الأجنبية نفسها حركت العقل المسلم المحنك للتحليل الجريء الخالص. والتصور القرآني للإله بالنسبة للمسلمين كان قضية دين وإيمان ولهذا فعلي الرغم من جميع التهافت الفلسفي لم يصبح مستساغا أن الكون أزلي وأبدي وقديم. وفائدة رفض النظام الإلهي لأرسطو جاءت في شكل التشكيك بمصنفاته من حيث أنها حتمية وكان هذا هو السبب أن العلوم لم تنحصر فيما بعد في فروع ثلاثة فقط بل أنها حملت إمكانات لا نهاية لها. وأرسي أصحاب الفكر والفن من المسلمين طرق الدراسة والتحقيق في فروع عديدة للعلوم النقلية والعقلية فإن كان من ناحية تقرر كتاب الطهارة وكتاب الزكاة وكتاب المعاملة وكتاب البيع وكتاب الوراثة علي أن تكون مجالات التخصص فمن ناحية أخري كانت مؤلفات العلوم الطبيعية مثل كتاب المناظر وكتاب تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن وكتاب الهندسة وكتاب النجوم إعلانا عن سعة العلوم اللامتناهية.

(٧٦) وإن كان قد ظل الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد مؤيدين وداعين لنظام الفكر الأرسطاطاليسي إلي حد كبير لكن بسبب تأثير الدائرة الفكرية القرآنية ظلت الهيبة العلمية لأرسطو قيد التحليل والتمحيص علي الدوام لأنه لو تم قبوله كأمر مسلم لظلت الحضارة الإسلامية تابعة لليونانيين وتوقف تقدم الحضارة تماما.

(٧٧) في عهد الخليفة المأمون كانت المدرسة اليونانية (الحكمة اليونانية) تحظي بالثقة والاعتماد حتي أنها كانت تعد معينة للفكر الإسلامي ووصل الأمر إلي حد كان يُعتبر قول علماء اليونان في بصيرة الشرع ومعرفة التوحيد حكما فاصلا. يُقال أن الخليفة المأمون رأي في المنام ذات يوم أرسطو متمكنا من العرش. سأل المأمون: من أنت؟ فقال: أنا أرسطو. وقال: أيها الحكيم، أسألك؟ فقال: سل. قال المأمون: ما الحسن؟ فرد: ما حسن في العقل فسأل المأمون: ثم ماذا؟ فرد أرسطو: ما حسن في الشرع. فسأل المأمون: ثم ماذا؟ فرد أرسطو: ما حسن عند الجمهور. فسأل المأمون: ثم ماذا؟ فقال أرسطو: ثم لا. أي لا يوجد شيء بعد ذلك. فعندئذ طلب المأمون من أرسطو النصيحة. قال: الزم التوحيد. يُقال لعل هذا الحلم هو الذي جعل المأمون



Binding Side

علي إثره مهمة حياته ترجمة كتب علماء اليونان ولعل ذلك يرجع أيضا إلي أن المأمون لم يكن في ذهنه أي تعارض نظري بين الحكمة اليونانية والوحي الرباني.

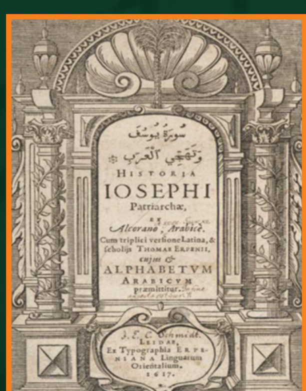
وحسب قول ابن النديم: فكان هذا (المنام) من أوكد الأسباب في إخراج الكتب فإن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات وقد استظهر عليه المأمون فكتب إلي ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما عنده من مختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلاد الروم فأجاب إلي ذلك بعد امتناع فأخرج المأمون لذلك جماعة ... فأخذوها ووجدوا ما اختاروا فلما حملوا إليه أمرهم بنقله فنُقل. (الفهرست، ص١٣٩)

(٧٨) المقصود هو "توبي هيف" والذي ذُكر كتابه ( The Rise of Early Modern Science في هذا الباب.

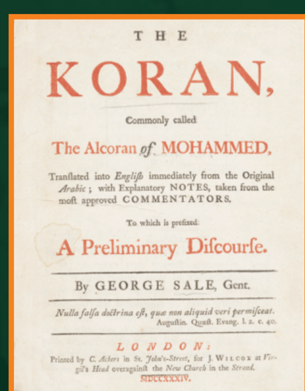


Binding Side





سُورَةُ يُوسُفَ
وَتَهَجِّي ٱلْعَرَبِ
HISTORIA
IOSEPHI
Patriarchæ,
EX
Alcorano, Arabicè.
Cum triplici verſione Latina, & ſcholijs THOMAE ERPENII,
cujus &
ALPHABETVM
ARABICVM
præmittitur.
LEIDAE,
Ex Typographia ERPENIANA Linguarum Orientalium.
1617.



THE
KORAN,
Commonly called
The Alcoran of MOHAMMED,
Tranſlated into *Engliſh* immediately from the Original *Arabic*; with Explanatory NOTES, taken from the moſt approved COMMENTATORS.
To which is prefixed
A Preliminary Diſcourſe.
By GEORGE SALE, Gent.
*Nulla falſa doctrina eſt, quæ non aliquid veri permiſceat.*
Auguſtin. Quæſt. Evang. l. 2. c. 40.
*LONDON:*
Printed by *C. Ackers* in *St. John's-Street*, for J. WILCOX at *Virgil's Head* overagainſt the *New Church* in the *Strand*.
MDCCXXXIV.



1
ALCORANI
SURA I.
APERIENS.
MECCANA
COMMATUM VII.
1. IN nomine Dei Miſeratoris, Miſericordis. 2. Laus Deo, Domino Mundorum. 3. Miſeratori, Miſericordi: 4. Regnanti diei Judicii. 5. Te colimus: & te in auxilium imploramus. 6. Dirige nos in viam rectam: 7. Viam illorum, erga quos beneficus fuiſti: non actum iracundè contra eos: & non Errantium.
NOTÆ.

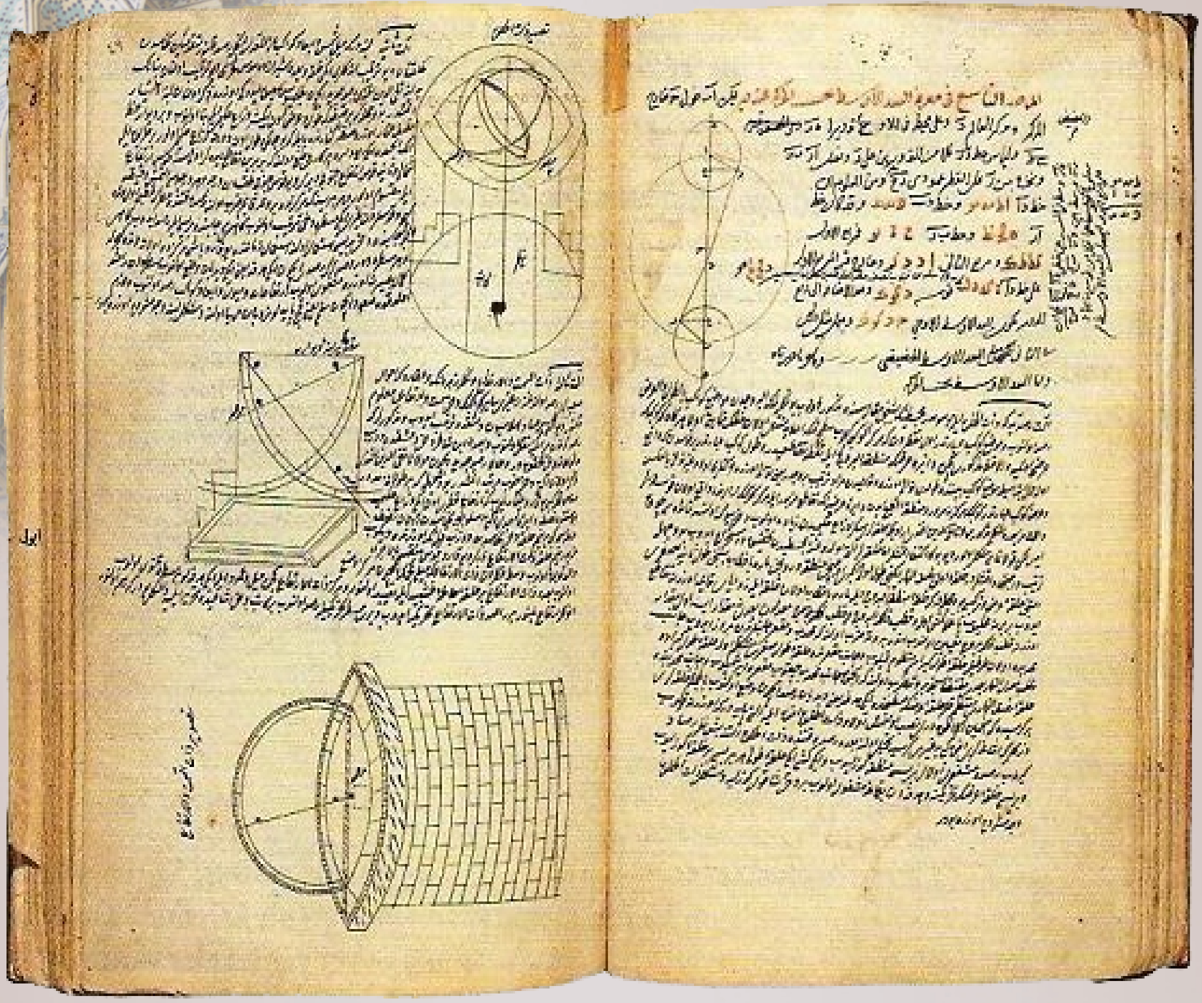
# الجزء الثاني

"الحركة الاستكشافية التي كانت تغمر حياة الفرد بالمعاي وتطلعه بالحبل الوثيق الرابط بن الأنفس والآفاق تغرت وجهتها علي يد الرأسالية بحيث بدأ يُ نسب سبب وجودها في الدنيا للعهد المظلم. المبادرات الجديدة للتكنولوجيا وتيسرات المواصلات وتسخر الكون كل هذه الأحداث كانت بكل تأكيد تستحق الإشادة لكن هذه البشارة للفجرالجديد كانت قد جاءت من نصيب أهل الغرب وكانت شعوب الشرق مجبرة علي تسديد منها الغالي فكأن بشري الفجر في الغرب كانت مثابة ليلة حالكة في الشرق."

# هجرة الحركة الاستكشافية

إن القرآن الكريم بمثابة وثيقة لما بعد عصر النبوة أكثر مما كان في عهد الرسول صلي الله عليه وسلم نفسه. وكانت مسؤوليته هي أداء واجب الرشد والهداية لشعوب العالم بأسره بعد وفاة الرسول صلي الله عليه وسلم وهذا هو سبب التركيز علي التدبر والتفكر والتسخير والاستكشاف باستمرار ولا نظير لهذا التوجه في الكتب السماوية السابقة. فعلي الرغم من جميع الالتباسات الفكرية والحوادث السياسية والحروب الأهلية الفقهية والتشتت المذهبي والتدقيق الكلامي ظل العقل المسلم من القرن السابع الميلادي إلي القرن السادس عشر علامة بارزة للتفكر والمشاهدة. لكن في النصف الآخر من القرن السادس عشر وقعت حادثة فارقة كانت بمثابة وضع أختام علي انغلاقنا العقلي.

ففي عام ١٥٨٠م تم هدم المرصد العالمي باسطنبول بإصرار من العلماء المقلدين وتأييد كاسح لهذا التوجه من قبل عامة الناس. قيل أن التدخل غير الضروري في السر الإلهي هو سبب انتشار وباء الطاعون كأمر تأديبي ولمنع هذا التدخل لا بد من هدم هذا المرصد. وكان هذا هو الوقت الذي كان فيه "تيكو براهي" ومعاونوه يفكرون في الغرب بإقامة مركز بحثي لدراسة العلوم الفلكية. وفي النهاية وفي عام ١٦٠٠م أُقيم في الغرب أول مرصد منظم تحت إشراف تايكو. وفي بداية القرن السابع عشر الميلادي أدخلت مشاهدات منظار جاليليو جاليلي فتصادم العقل الجديد والقديم في مرحلة حاسمة. والنظام الكوني لكوبرنيكوس الذي أخذ إلي حد كبير من ابن شاطر والذي لم تكن له أهمية إلي الآن أكثر من الدعوة النظرية وجاء الآن أمام الناس كقضية حياتية. واتساع الفجوة بين المعتقدات النصرانية والمشاهدات والاستنتاجات والاستنباطات ذهبت إلي مزيد من المشاهدات. ففي عام ١٦٧٥م تم التخطيط لمرصد جديد في جرينتش بانجلترا بأمر من الملك تشارلز الثاني والذي أصبح مركزا للحركة الاستكشافية وبالتدريج احتل زيج جرينتش مكانة عالمية متقدمة. فالفترة التي كانت بين هدم مرصد تقي الدين عام ١٥٨٠م باسطنبول وإقامة مرصد جرينتش بانجلترا عام ١٦٧٥م ذات

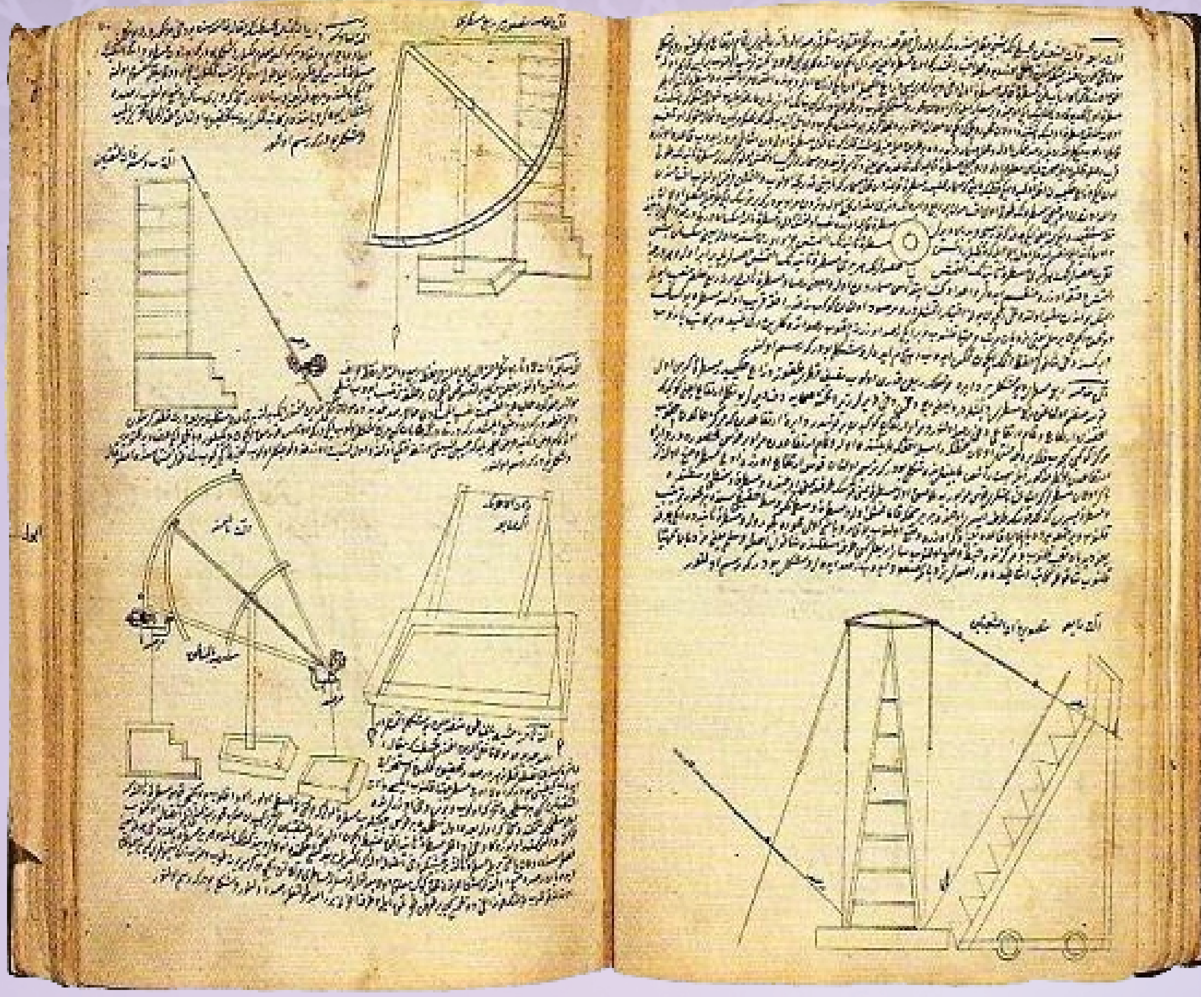


نظرة عابرة علي الآلات المستخدمة في مرصد تقي الدين.



أهمية عظيمة في تاريخنا الحضاري. وهذا هو العصر الذي اضطرت فيه حركة الاستكشاف للهجرة من العالم الإسلامي ونتيجة لهذه الهجرة تغير ميزان القوي بين الإسلام والغرب تماما.

في القرن السادس عشر كانت هناك ثلاث امبراطوريات تحكم العالم، الامبراطورية التركية العثمانية والامبراطورية الصفوية الإيرانية والامبراطورية المغولية الهندية. وهذه الامبراطوريات الثلاث علي الرغم من اختلافاتها البينية إلا أنها كانت في مجموعها علامة بارزة لعظمة وجلالة الإسلام. وإن كانت قد وقعت في عام ١٤٩٢م حادثة سقوط غرناطة وكانت قد بدأت المغامرة البحرية لكولومبوس وفاسكو دي جاما لكن لم تكن لهذه الحوادث أهمية تاريخية تذكر كما حاول مؤرخو الغرب التأكيد عليها في القرون اللاحقة ولم يكن قد مر زمن طويل إذ تعرض العالم المسيحي لأزمة كبيرة في تاريخه وذلك بعد سقوط القسطنطينية علي أيدي الأتراك في عام ١٤٥٣م. وأصبحت السيطرة الآن للأتراك العثمانيين علي عاصمة النصاري الشرقية. وفي عام ١٦٨٣م حينما بدأ الأتراك العثمانيون يطرقون باب



**نظرة علي الآلات المستعملة في مرصد تقي الدين.**

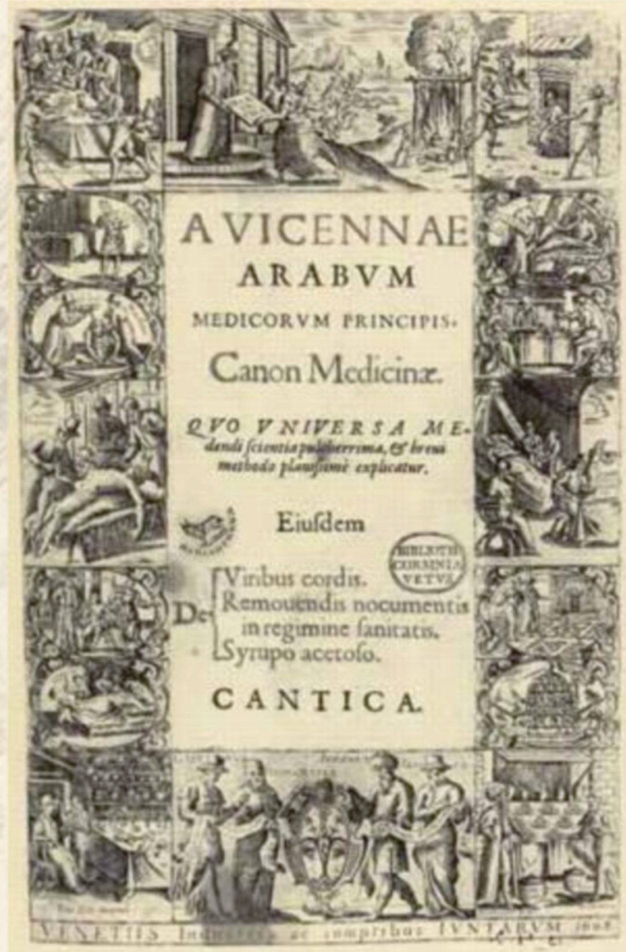
فيينا ففي ميزان القوي كان موقف المسلمين متينا وفي ذلك الوقت اعتبر العالم الغربي الأتراك علي حد قول مصلحيهم أنهم عقاب من الرب لتكفير ذنوبنا(١). وكانت هناك حالة ذعر في أوروبا من المسلمين الأتراك لدرجة أن مصلح مسمي ب"لوثر" كان لا يمل من ترديد رأيه هذا وهو أن أعظم راهب وعالم لو سنحت له الفرصة أن يقيم مع الأتراك ثلاثة أيام أو أكثر لأصبح بقاؤه علي دينه أمرا صعبا وذلك لأن حضارة الأتراك علي حد قول "لوثر" في جلالتها ومهابتها وطعامهم وشرابهم ومعيشتهم وملابسهم وثقافتهم وصلاتهم وصيامهم وطريقة عبادتهم الجماعية ففي مقابل كل هذا لا نملك شيئا يذكر(٢).

إن كانت أوروبا خائفة من حملات الأتراك وهيبتهم من ناحية فمن ناحية أخري كانت تعاني من ظلم وجور الكنيسة ومن الحكومات التي كانت تحكمها وتريد الخلاص منها واللجوء إلي الأتراك لكي تحظي بعطف وشفقة المسلمين. وملكة إنجلترا إليزابيث الأولي كانت ترسل البعثات الدبلوماسية

للحصول علي حماية الأتراك في مقابل بابا روما وبسبب علاقاتها السياسية العميقة مع الأتراك كان يُنظر إليها في العالم الكاثوليكي بمثابة حليفة للأتراك(٣). وكانت عظمة وهيبة ثقافة الأتراك العثمانيين متوهجة لدرجة أن بعض الشباب الأوروبيين الذين كانوا يسافرون إلي تركيا كانوا يعتنقون الإسلام تاركين هويتهم وذلك حسب قول السفير الإنجليزي "سير توماس تشارلي". ففي عام ١٦٠٦م اعتنق القنصل البريطاني بنجامين بيشاب الإسلام بحيث لم يرغب في العودة إلي بريطانيا مرة أخري(٤) وكأن هيبة وعظمة المسلمين التي كانت حديث عامة الناس علي المستوي العالمي ففي تلك الأجواء لم تكن رحلة كولومبوس وفاسكو دي جاما البحرية ذات شأن عظيم بالنسبة للمسلمين وإن كانت حادثا ضخما لدي أوروبا. ولماذا تكون لهذه المغامرة أهمية؟ لأن السفن الإسبانية والبرتغالية حينما بدأت رحلاتها ففي نفس الوقت كانت هناك أساطيل بحرية تجوب البلاد من أجل التجارة علي مستوي كبير جدا. ويمكنك أن تقدر أن أكبر سفينة إسبانية وبرتغالية كانت لا تحمل أكثر من مائة طن من الوزن في حين أن السفن التجارية الصينية في الشرق كانت تحمل واحدة وثلاثين ألف طن من الوزن. ففي هذه الحالة لم يكن هناك سبب وجيه للنظر إلي هواية الغرب هذه بنظرة اندهاش ويظنها المسلمون خطرا عليهم(٥).

ووقتئذ كان قوس التاريخ بأيدي المسلمين وجميع أهل الفكر في الشرق والغرب كانوا علي معرفة بهذه الحقيقة وهي أن شلال العلوم والفنون الذي بدأ يدخل الغرب بحالة من الفرح والسرور منبعه في الواقع في الشرق وأن جميع أنشطة العلوم والفنون في الغرب هي في الواقع مرهونة للأساتذة المسلمين الذين أضاءوا في صقلية والأندلس في أول الأمر مصابيح الحضارة العلمية حيث تربي وترعرع جيل المؤسسين والمفكرين لأوروبا الجديدة وهم الذين في حقيقة الأمر عرفوا أوروبا المنهج العملي الجديد

والحضارة العلمية الجديدة. حتي القرن الثامن عشر ظل كتاب القانون لابن سينا يُدرس في المدارس الغربية كآخر وأهم مرجع في فن الطب. ففي هذه الظروف فهدم مرصد تقي الدين باسطنبول في عام ١٥٨٠م وفي نفس الفترة تقريبا وضع حجر الأساس لدراسة الفلك في الدنمارك بيد تيكو براهي ثم بعد ذلك في عام ١٦٠٠م وُضع حجر الأساس لمرصد أكبر بشكل منظم لم يكن في ظاهر الأمر تغييرا كبيرا لكن كان بمثابة إشارة أن السوس بدأ ينخر في سيادة المسلمين في قادم الأيام وهجرة هذه الحركة الاستكشافية قد بدأت في صمت حتي أن علماءنا ومفكرينا الكبار لم يستطيعوا تقدير هذا التغيير وعندما انتبهوا كانت الدنيا قد تغيرت والغرب لم يتقدم علينا في كسب معارك التسخير


AVICENNAE
ARABVM
MEDICORVM PRINCIPIS.
Canon Medicinæ.
QVO VNIVERSA MEdendi scientia pulcherrima, & breui methodo planissimè explicatur.
Eiusdem
De Viribus cordis. Remouendis nocumentis in regimine sanitatis. Syrupo acetoso.
CANTICA.

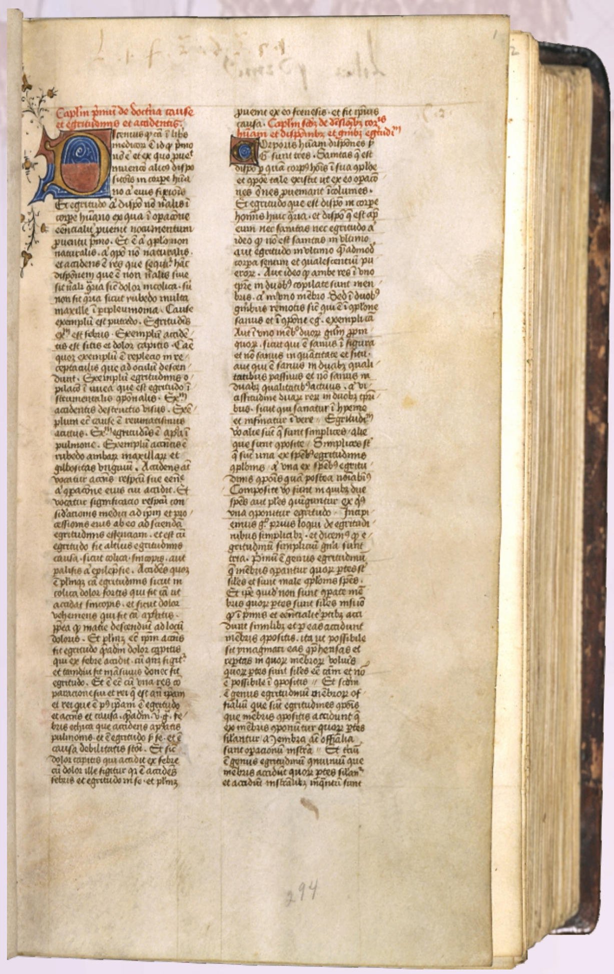
**نسخة لاتينية لكتاب القانون في الطب المطبوع في عام ١٥٩٥م بفينيسيا.**

والاستكشاف بل قام هذا الغرب بحرمان أجيالنا القادمة بكل دهاء عن التاريخ الذي بدأ يتشكل بعد البعثة المحمدية باستمرار أفكارنا وأعمالنا.

ألم يكن يكفينا الهم والغم الذي لحق بنا بعد أن غادرتنا الحركة الاستكشافية لكن ما زاد الطين بلة أن الغرب بدأ يحاربنا في تاريخنا وينكر إحساسنا التاريخي. ففي أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر قام بتشكيل أسطورة جديدة وحسب هذا التشكل الفكري بدأ يُنظر إلي الحركة الاستكشافية بأنها عمل غربي خالص وبدأ يسود الرأي بأن الدنيا قد كانت غارقة في الظلام الحالك قبل ظهور أوروبا وأن نهضة أوروبا هي التي أضاءت المصابيح الجديدة للعلم والحكمة وهذا هو العمل الذي أصبح فيما بعد مبعث تشكيل حضاري للحضارة الغربية الحديثة. وبهذا العمل الطائش حدث ضباب كثيف للعصبية باسم العهد المظلم علي أعمال وإنجازات الخريجين الأوروبيين من مدارس مسلمة بالأندلس وصقلية والذين كانوا أحق بأن يطلق عليهم مؤسسو أوروبا الحديثة. بدأ يُقدم عام ١٤٩٢م كرواية جديدة للتاريخ وحادث غير عادي وهذا هو العام الذي حدث فيه سقوط غرناطة وخرج كولومبوس في مهمة بحرية ثم الحديث عن الخطاب الغربي في التاريخ بشكل كبير جدا حتي آمن بهذه الفرية المسلمون بشيء من الشك حيث أصابتهم الدهشة والرعب معا بسبب استكشاف المعجزات الغربية الحديثة وكانت النتيجة أنهم بذلك فقدوا الطموح للنهوض مرة أخري.



من يؤمن اليوم بأن الغرب كحضارة وتصور للحياة وما هو عليه الآن بفضل مساهمة الإسلام العظيمة في بنائه والتي إذا تم فصلها لحُرم الغرب من لمعانه ورونقه تماما. ولا نستطيع أن ننسي هذه النقطة أيضا أن الحضارة رأسمال جماعي لشعوب العالم ولا يمكن تقسيمها بين خانات الشرق والغرب والمسيحي والصيني والإسلامي واليهودي. وكلما استعان أي قوم بأسطورة مختلقة لإسدال الستار عن



القانون في الطب.
الترجمة الأولي إلي اللغة اللاتينية التي قام بها "جيراردو الكريموني"

التاريخ فهي في الواقع تحاول عمدا أن تحرمنا من ضوء التاريخ وفي الوقت نفسه إن هذا العمل عمل إجرامي يحرم الناس من أن يتعلموا من تجاربهم بأنفسهم. إن التاريخ ليس موضوع فخر ومباهاة محضة بل هو طريق للعالم الإنساني تقطعه القافلة الإنسانية باستمرار من خلال أسفارها من الأفضل إلي الأفضل. ثم أنه لو ازدادت كثافة ضباب الأساطير علي التاريخ أو تم إخفاؤه تحت ستار من ظلام العصر ففي هذه الحالة هناك خوف من هذا الفهم الناقص للتاريخ من أن نصبح عاريين من البصيرة التاريخية ونحن نخطط للمستقبل.

ونطرح هنا سؤالا غاية في الأهمية أيضا وهو أن الغرب الذي ظل تابعا لنا لقرون كيف نهض فجأة بعد الثورة الصناعية وبصفة خاصة بعد الثورة الصناعية وفي القرن التاسع عشر دانت له شتي بقاع الأرض القاصي منها والداني علي الرغم من وجودنا نحن حاملي القرآن؟ وبعد معرفة سر أسرار الغرب ربما لا نستطيع تقديم جواب شافٍ لهذا السؤال وهو أن العلوم الاستكشافية التي درسها الغرب منا واحتضنها ومازال يحتضنها كما تخلص إلي حد كبير من الفوضي المذهبية التي حدثت تحت تأثير منهج علم الكلام؟ لأن معرفة أسباب صعود وارتقاء الغرب ستكون معينة لنا في فهم أسباب انحطاطنا وفي نفس الوقت سيُرفع الستار عن الرمز الذي يدلنا علي المبادرات المطلوبة الفورية لقيادة الحركة الاستكشافية مرة أخري.

## خلفية الحركة الاستكشافية في أوروبا

كان قد منح نزول القرآن الكريم المنهج الاستنباطي الجديد المبني علي المشاهدة والرؤية اعتبارا لقبول الحق كما قد جعل السلوك العقلاني المفعم بالوحي أتباع محمد سعداء بأمر تسخير الكون

وكما قد وُضع الرأسمال المدخر للحضارتين الساسانية والبيزنطية وكل روؤس الأموال للعلوم الهندية والصينية واليونانية المعتبرة علي طاولة التحليل والاستقصاء. ولقد نتج عن هذا التحليل حالة فرحة متغلغلة داخل العالم الإسلامي وخارج حدوده والتي قد بدأت تتسع باستمرار وكان يبدو جليا أن أتباع النبي الخاتم صلي الله عليه وسلم مجتهدون من أجل إيصال التاريخ إلي نهايته وكذلك ستصل القافلة الإنسانية إلي منتهاها وهدفها المنشود بسبب هذه الأنشطة. أتباع محمد صلي الله عليه وسلم كانوا فرحين لأنهم الأمة المبعوثة بهذه الثقة اتضحت حقيقتها هذه لبعض العقلاء من أهل الكنائس(٦). ففي هذه الحالة حينما وطأت أقدام المسلمين صقلية والأندلس فكان سلوك أهل الغرب نحوهم يتراوح بين الالتفات والرفض في آن واحد. ظلوا معترفين بعلو نظرهم وعلومهم الاستكشافية حيث بهرتهم حضارتهم وثقافتهم ولكن بشأن الدين الإسلامي كانوا يشعرون بانقباض شديد وذلك بسبب الدعاية السياسية المنفرة. ونجاح المسلمين كقادة للحركة الاستكشافية كان ذلك بمثابة حقيقة جلية كان يصعب عليهم رفضها. ثم أن كل هذا النجاح حدث بسبب تشكيل دائرة الفكر القرآني فحينها لم يكن هناك مجال للتصديق أو التكذيب في المسيحية السائدة حيث كان أتباع المسيح عليه السلام قد أُغلق عليهم جميع أبواب التفكر والتأمل.

كان الغرب مذعورا ولم يكن أرباب الكنائس في حالة تسمح لهم بأن يحاكموا الدين الإسلامي في ضوء التعليمات المسيحية فعلموا أن العافية كل العافية في أن يواجهوا هذا الخطر الإسلامي الجديد عن طريق الدعاية المضادة والمنفرة. وأمر آخر هو أن الحروب الصليبية في صقلية وإسبانيا وفرت ذريعة لأهل الغرب للتعرف علي العلوم الاستكشافية. وبالإضافة إلي الأندلس وصقلية أقيمت إمارة صغيرة في فلسطين للمسيحية اللاتينية وبذلك أصبحت نقطة بداية لبدء عهد جديد في التقارب.

أهل الغرب حينما كانوا يخرجون من بيوتهم للحروب الصليبية وحينما تمت التعبئة العامة في أوروبا كلها باسم حرمة والحفاظ علي مقبرة المسيح ففي ذلك الوقت كان المسيحيون عرضة لدعاية مسمومة ومضللة. وخلال الحرب حينما عرفوا المسلمين والعالم الإسلامي عن قرب فمن خلال هذا التعارف المباشر أدركوا إلي حد ما الموقف الصحيح وهكذا مع الدعاية المنفرة ضد المسلمين بدأ يصل إلي أهل الغرب الجانب المستنير من حضارتهم، ثقافتهم، ديانتهم وعقائدهم أيضا لكن كانت المصيبة هي أن الكنيسة قد وضعت بعض الإضافات علي مستوي العقيدة وتصور الكون حيث أصبح فتح أي باب للبحث والنقاش الجديد كان بمثابة طي بساط المسيحية وكان حصار العقائد الدخيلة علي الرسالة النصرانية صارما لحد أن التنازل عن التثليث لأهل الكنيسة لم يكن ممكنا بأي حال من



Binding Side

الأحوال بل لم تكن هناك مرونة للتحدث حول هذا الموضوع بأي شكل من الأشكال(٧). والكنيسة كانت مُسخرة لخدمة الحكم منذ قرون وكما حاول الامبراطور قسطنطين إدخال الأساطير والمراسيم القديمة في الدين لجعله مقبولا لدي الشعب ولم يكن لأهل الكنيسة مفرا من أن يقيموا مجمعا جديدا للقضاء علي أية أزمة نظرية. وتحت مسمي اتباع وتقليد السلف كانت الأجيال القادمة مطالبة بأن يعملوا بها بدون قيد أو شرط فهذا الموقف لم يجعل أهل أوروبا نقيبا لمجتمع منغلق عقليا بل الجهل من العلم كان قد يحسب معراجا للمعرفة.

كانت قد تقدمت وترعرعت النصرانية في أجواء كانت جميع أساليب الحوار مغلقة وكان يعد هذا من شأن الكنيسة والدولة ويرجع الأمر كله إليهما فقط من حيث متي وأي نوع يجب إعداده وترتيبه من مذكرة أو وثيقة عقائدية.

في عام ٣١٩م كان الامبراطور قسطنطين قد أعفي واستثني أرباب الكنيسة من دفع الضرائب وأداء الخدمة العسكرية(٨). فيلاحظ من خلال هذا تقدير التحالف البيني بين الامبراطورية والكنيسة. وفي عام ٣٨٠م أصدر الامبراطور ثيودوسيوس فرمانا حصل من خلاله التثليث علي سند رسمي ومن ثم تقرر أن كل من يعارض هذا السند الأوحد يكون مصيره في الآخرة جهنم وفي الدنيا تتخذ ضده إجراءات تأديبية صارمة(٩). وفي عام ٣٨٨م تم إغلاق باب الحوار العام في الشئون الدينية للأبد. وفي عام ٤٣٥م وضعت الامبراطورية الروحانية عقوبة الإعدام شكلا قانونيا للمنحرفين والخارجين(١٠). وكان قد وصل حال الجنون إلي حد أن حرق الكتب المتنازع عليها كان يعد من الأعمال التي تستحق الأجر والثواب. وفي عام ٣٩١م الذين أحرقوا أكبر مكتبة في العالم وهي مكتبة الإسكندرية التي كانت تضم ٧٠٠٠٠٠ من اللفائف لم يكونوا غير أولئك المسيحيين ممن كانوا سكاري بالعواطف الدينية(١١). وتولد الإحساس بأن أرباب الكنيسة يعتقدون أن واجبهم الديني هو أن يقوموا بتدمير كل رأس المال الحضاري(١٢) فالبابا جريجوري الأول كان يُحرم دراسة قواعد النحو والصرف وكذلك تعليم اللغة اللاتينية(١٣) وهو الذي منع بشكل منظم عامة الناس أن يتعلموا الإنجيل(١٤). ففي عام ٣٩٨م كان قد منع منعا باتا المجلس الرابع المنعقد في قرطاج الرهبان دراسة كتب الأقوام الأخري غير المسيحيين ويقال أن بعض الرهبان في ذاك الزمان كانوا يعلنون بكل اعتزاز وفخر أنهم لم يلوثوا قلوبهم وعقولهم بدراسة كتب الأديان الأخري غير المسيحية(١٥). وكانت النتيجة فيما بعد لهذا الانغلاق العقلي أن أصبح المجتمع الأوروبي أطلالا للحضارة والثقافة. وفي عام ٤١٠م حينما دمر أتباع فرتوناتس الأسقف الألماني جوته المدينة الأبدية والروحانية لروما مما عرض الفكر

المسيحي التقليدي لأزمة كبيرة لكن المصنف الشهير "مدينة الله" للقديس أوغستاين الذي كان قد تم تصنيفه للدفاع عن الفكر التقليدي قد نجح بسرعة في إسدال الستار علي هذه الأزمة. وفي الأيام القادمة ظهر القديس أوغستاين كأكبر مفسر للعقيدة المسيحية وبدأ اعتبار تعبيراته وأساليبه كأنها قد حصلت علي سند أبدي(١٦). وبعد أول هجوم صريح علي الرسالة المسيحية من البابا بولس كان الهجوم الثاني الكبير علي معتقدات أوغستاين العمياء إذ كان البابا قد أعد القالب الجديد للمسيحية علي أساس مكاشفاته وكراماته فأوغستاين (٣٤٠-٣٥٤م) هو الذي قام بإبطال العقل من دنيا الإيمان وأغلق جميع أبواب التحليل والتمحيص والإصلاح. وهكذا أُغلقت جميع الأبواب أمام أتباع المسيح عيسي عليه السلام للخروج من التباسات البابا الذاتية واضطر أهل الغرب أن ينتظروا حتي القرن التاسع عشر كي يدرسوا الإنجيل دراسة نقدية كطلاب علم وحيث أصبح ممكنا أيضا حينما غاب الدين عن حياة الناس كعنصر اجتماعي. وأوغستاين قام بحركة قوية لتكون سلطة الشرح والتأويل كلية بأيدي الكنائس الكاثوليكية فقد كان من أقواله أن أهل اليقين هم فقط من يملكون فهما علي درجة عالية للدين. وحالة اليقين هذه لا يمكن الحصول عليها ما لم يؤمنوا بهذه المؤسسة التي تؤدي دورا أساسيا في ترويج وشرح المسيحية إيمانا كاملا.

أما العلوم الاستكشافية فقد اعتبرها أوغستاين أملا مهملا وأكد للمؤمنين بالمسيحية أن حياتهم الإيمانية لن تكون ناقصة بدونها. فحسب قول أوغستاين لا يصح أن يكون هذا الأمر مبعث قلق "لأن أهل الكنيسة ليسوا بحاجة لمعرفة خواص العناصر وعددها كما أنهم ليسوا بحاجة لدراسة حركات النجوم ومدارها وأنهم لا يعرفون شيئا عن تكوين السماء وليس لديهم أدني علم عن ماهية الحيوانات والأشجار والنباتات والأحجار والشلالات والأنهار والجبال وذلك لأن لدي أهل الكنيسة ما يكفي للإيمان بهذا القدر من العلم وهو أن خلق كل شيء هو بسبب رحمة خالق العالم(١٧)". وعلي الرغم من هذا فلو أن أنظار بعض الناس تتجه نحو السماء مرارا وتكرارا رغبة في التحقق والبحث ولديهم اهتمام بالعلوم الفلكية فلدي أوغسطين هؤلاء الناس يستحقون الإدانة والملامة.

"وإن كان كثير من الناس يعرفون كيفية دوران القمر لكن عدد أولئك الذين يملكون معلومات موثوقة عن بزوغ الكواكب وأفولها قليل وإن كان العلم نفسه لا يدخل في دائرة الأوهام لكن لا تساعد مثل هذه الأمور في فهم الصحف الإلهامية بل هذا العلم غير النافع يمكن أن يصبح مخلا من جانب آخر ومادام يستخدمه النجوميون لهذا من المناسب أن يتم كبح جماحهم وإدانتهم(١٨)".



حينما كان يُحسب تقليد المسلمين علامة من علامات التحضر.
الباقيات من الخط العربي في كنيسة "سان جوفاني" بصقلية.

أوغستاين لم يقرر أن الشغف والبحث غير ضروري ولا يعني شيئا فحسب بل اعتبره في كتابه الشهير (الاعترافات) مرضا مزمنا بل قام بتأنيب ومعاتبة كل جهود التسخير والاستكشاف(١٩).

أوغستاين كان مؤسسا لفلسفة الذنب الأزلي التي كانت قد استقرت في قلبه وعقله بسبب عدم فهمه فهما صحيحا للترجمة اللاتينية للإنجيل. فمن هذا المنظور كان يحسب الناس مذنبين منذ الولادة بل يعتبر هذا الإنسان صاحب شخصية ناقصة معيبة فكيف كان ممكنا له أن يسمح لهؤلاء الناس أن يستخدموا عقولهم القاصرة والمعيبة في قضية هامة مثل قضية الإيمان(٢٠). والناس المذنبون ومرتكبو الخطايا ليس لهم خيار أحسن من أن يعتمدوا علي أقوال المسيح لتحقيق النجاح. والشرح المعتمد الموثوق للإنجيل يمكن الحصول عليه من الكنيسة الكاثوليكية. وإن كان هناك أي استخدام للعقل لدي أوغستاين فهو لا يتعدي حدود تفسير مبهج للمعتقدات المعترف بها. أما الذين يريدون استخدام العقل للبحث عن الحق أو أنهم متفائلون فإن التحليل والتمحيص العقلي يمكنه أن يصل بهم إلي الحق والمعرفة ففي نظر أوغستاين هؤلاء ملوثون بذنب الغرور وغرورهم هذا يرجع إلي عقولهم وفهمهم(٢١).

بعد إبعاد العقل عن الدين ووضع الحراسة علي أبواب التحليل والتمحيص كان أهل الإيمان واليقين فرحين وسعداء لسببين؛ أولا لأن الحق معهم ومن كان الحق معه فعليه أن يأتي بالناس إلي طريق الحق بكل السبل ولا يضيع أي ثانية في سبيل الوصول إلي هذا الفرض وثانيا أن مكاشفات أهل الحق وكراماتهم يمكنها أن تصبح بمثابة إضاءة نور من المشاعل للضالين. وأوغستاين منح هذين المسلكين سندا واعترافا بفكره وعمله وقام بالدفاع المميت عن رأيه هذا وهو أنه لو اضطررنا لاستخدام القهر والإكراه لجعل الناس مستحقين للنجاح فلا بأس كما اعتبر هو بنفسه أنه لا بد



Binding Side



صقلية: من أول نظرة علي كاتدرائية مونريالي التي بُنيت في القرن الثاني عشر الميلادي تعطي انطباعا عن مدرسة أو مسجد.

لإصلاح إجباري لفرقة الدوناتية المسيحية في عهده(٢٢) وذلك علي سبيل الحب الأخوي. وفيما بعد أصبح سلوك الكنيسة تجاه معارضيها والمنحرفين عنها دمويا ووصل الأمر إلي أن الفرق المسيحية المختلفة أصبحت متناحرة فيما بينها. يُقال أنه في القرن السادس عشر الميلادي حينما حاولت طائفة نصرانية لأتباع عيسي عليه السلام العودة والرجوع إلي النصرانية الحقيقية فلم يكتف البابا بمقاطعتها فحسب بل تم ذبح عشرين ألفا من الناس بدون عناء اعتمادا علي أنه انتقام من الرب(٢٣).

إن تقليد التنمر العقلي الذي كان قد شكله أوغستاين منحه جريجوري العظيم(٥٠٩-٦٠٤م) فيما بعد استحكاما غير عادي فإنه لم يعارض العلوم الدنيوية فحسب بل ظل يعمل لترويج هذا الرأي بشدة وهو أن الكبر والغرور الذي هو واحد من الذنوب الكبيرة فالغرض منه في الحقيقة هو حرية الفكر. فالشخص الذي يدعي التفكير بدلا من التقليد فهو في الواقع ملوث بذنب كبير وحسب قول جريجوري يجب علي العقلاء أن يجتنبوا فصول العلم ويكونوا حكماء مع وجود الجهل وعدم المعرفة. فالفلسفي حينما يصبح شغفه البحث عن السبب فحينها وحسب قول جريجوري يصبح هذا الإنسان غافلا عن مسبب الأسباب وهو الإله(٢٤).

كانت نتيجة النفور من العلم والعقل وإقرار المكاشفات والكرامات مفتاحا للحياة الدينية إذ أصبح العالم النصراني في فترة وجيزة سجينا لتقليد الآباء والأجداد المبني علي معارضة العلم وعداوة العقل، فالمدارس اليونانية القديمة إما تحولت إلي خراب أو أغلقت بأمر من الحكومة وأصبح أرسطو مدانا بسبب أن كتابه كان يضع عشرة أسئلة لمعرفة ماهية أي قضية. علي سبيل المثال ما هو حكم الشيء؟ ما هي صفاته؟ وفي أي زمن ومكان يقع هذا الحكم؟ أو ما علاقته بالأشياء الأخري؟ فهذا



صقلية: عندما كانت القصور الملكية تحت تأثير الحضارة الإسلامية.

المنهج في نفسه مهما كان ناقصا إلا أنه توجد فيه طريقة وضع السؤال بصفة أساسية. ففي القرن السابع الميلادي أذهل الراهب النصراني "البابا أنسطاسيوس" محبي أرسطو قائلا أن الشيطان ذا القرون العشرة الذي جاء ذكره في مؤلف "كتاب الحقيقة" المراد منه في الأصل الأسئلة العشرة ل(كاتيجوريز). وهذا الهجوم المضاد من أهل الأديان لم يكن قاصرا علي الفلسفة فقط بل كانت تُظن دراسة الأمور الفطرية الكونية مع الأمور الدينية أمرا يمكنه أن يكون سببا للضلال.

ما الفائدة من العلم نفسه؟ لأننا لو علمنا عن أسباب الطبيعة فما هو الأجر والثواب الذي نناله من ورائه لو عرفنا من أين ينبع نهر النيل مثلا أو جميع الأبحاث التي يناقشها الحكماء والعقلاء تحت هذه السماء(٢٦). وكانت نتيجة هذا السلوك المعادي المعاند للعلم أن أصبح العالم المسيحي في وقت قصير خاليا من تقاليد التعليم والتعلم، فالكتب التي كانت في حوزته إما فنيت وتلاشت وإما أُغلقت عليها مخازن الكنيسة والآن كل ما كان موجودا لمحبي العلم هو الإنجيل وما يتصل به فقط لا غير.

لم تغب مراجع أرسطو وجالينوس والبطليموس فقط بل غابت بالتدريج من العالم المسيحي كل معالم الثقافة القديمة ولم يبق الآن إلا الكنيسة وعقلها المريض. وكان هذا الفكر رائجا بأن الإنسان الذي هو عبارة عن جسم وروح عليه أن يركز توجهاته علي الروح للشفاء من أمراضها أكثر من الجسد، فعند ذلك بدأ الناس يجلبون الرهبان للحصول علي خدماتهم بدلا من الحكماء والأطباء. وقيل عن الأمراض الجسدية أنها نوع من القهر الإلهي وللشفاء من مختلف هذه الأمراض تقرر التوسل ببعض الأولياء والرهبان استنادا علي التجربة. علي سبيل المثال إن داميان وكوزماس اللذين كانت قد قُطعت أجسامهما بعد الاستشهاد، أصبحا بمثابة وليين للجراحة وأبولسلونيا التي كانت قد



نموذج لفن إسلامي من صقلية في القرن الثالث عشر الميلادي.

كسرت أسنانها وقت الشهادة فأصبحت شفيعة للشفاء من آلام الأسنان. وكان شائعا عن مارجريت الأنطاكية أن حيوانا قد ابتلعها لكنها في بطن هذا الحيوان ظلت ترسم علامة الصليب. وهكذا خرجت من بطنه بمعجزة فأصبحت بعد هذه المناسبة مارجريت شفيعة لآلام المخاض. وفي هذه الأسواق الرائجة للأوهام والخرافات حيث كان دور الأولياء في الحياة الاجتماعية في أوجه وكان الإحساس بوجود ولي من الأولياء في كل مكان يزداد وكان لزاما علي الولي أن يكون قد صدر منه علي الأقل معجزتان. فكان ينتشر الحديث عن الكشف والكرامات في كل مكان. إن أوغستاين نفسه الذي كان مفسرا موثوقا به للإنجيل كان يتناول في خطبه عن "زاوية ستيفان أف هابو" أن الموتي كانوا يعودون أحياء بسبب كراماته حيث يوضع تراب مقدس يتم إحضاره من القدس بإشراف منه تحت تصرف العامة فيتسني لهم الشفاء به(٢٧).

بعد قرون عديدة وبالتحديد في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي حينما وصل أول عالم استكشافي وهو "أديلارد الباثي" إلي أنطاكيا أحس بأنه ليست انجلترا فحسب بل أن العالم المسيحي كله يغطيه ضباب كثيف من الجهل والأوهام واللاعقلانية وشيوع حكايات كرامات الأولياء وظهور العفريت والغول في كل مكان. وفي هذا العالم المصاب بالعفريت والغول فإن الناس مجبرين علي استخدام التعاويذ والطلاسم للحفاظ علي أنفسهم.

بسبب عدم معرفة قوانين الطبيعة كان قد تحول العالم المسيحي إلي خراب موحش(٢٨). وفي أواخر القرن الخامس رحل آخرعالم فلكي من أثينا وهو "بروكلس" والذي بعد رحيله لم تتوقف الأنشطة الاستكشافية فحسب بل بدأت تزداد كثافة الأوهام يوما بعد يوم. وأديلارد الذي خرج من انجلترا للبحث عن العلوم العربية فبعد السياحة التي امتدت لسنين عاد إلي بلده انجلترا محملا بالعلوم الاستكشافية العربية فتأسف كثيرا علي جهل مجتمعه وعدم إحساسه حيث تعود الأمراء علي

استخدام العنف وعامة الناس تعودوا علي الإدمان وكان أخذ الرشاوي منتشرا بين القضاة والمشاهير ولم يكونوا صالحين للاعتماد عليهم والمواطنون كانوا مصابين بالنفاق والمناصب الكبيرة لم يكن لها اعتبار وخيانة الأصدقاء والصداقة للمصلحة الشخصية كانت تعد شعارا للحياة(٢٩).



نموذج آخر لفن أسلوب البناء الإسلامي
من صقلية وهو عبارة عن كنيسة "سان كتالدو".

علي كل لم تكن انجلترا شيئا يذكر وكانت منطقة مجهولة ولم يكن لها أي دور قبل نهضة أوروبا الجديدة في أي مرحلة من مراحل التاريخ البتة. الشعب الذي كان يشتهر بالأعمال التخريبية قبل ظهور أوروبا الحديثة منذ القرن الثامن الميلادي وكان قد أقام مستعمرات لفترة وجيزة لأغراضه التجارية ومهماته العسكرية علي الساحل الشمالي الأمريكي ويعرفه الغرب باسم خطر "النورمان" ولمعرفة أحوالهم في الحضارة يمكنك أن ترجع إلي مشاهدات سائح عربي معتبر من القرن العاشر الميلادي فهو يرفع الستار عن هذا العصر المظلم علي هذا النحو:

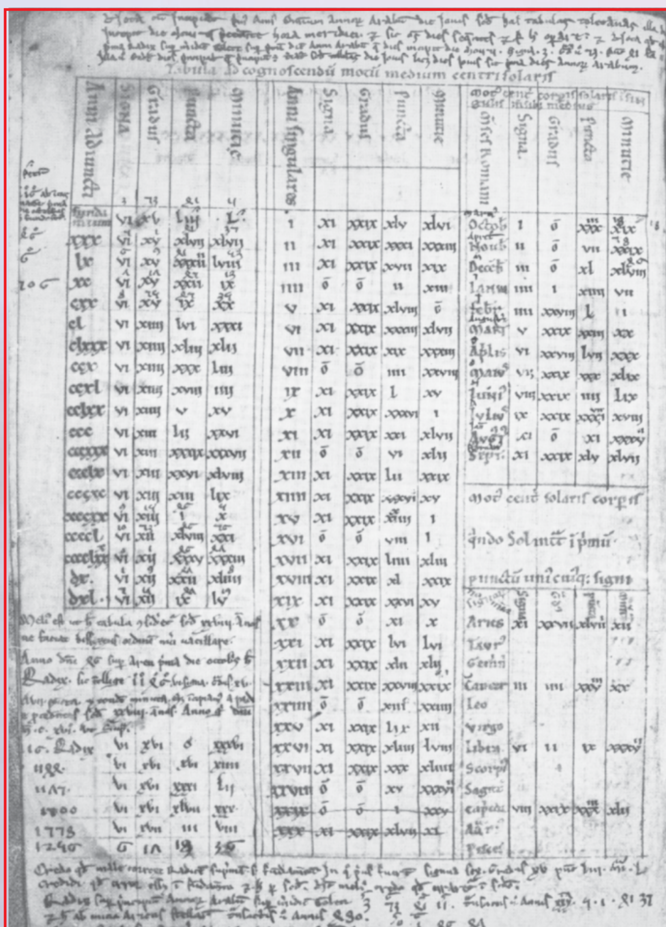
"هؤلاء أسوء خلق الله ولا يخجلون أبدا من قضاء حاجاتهم من البول والبراز أمام الناس ولا يتطهرون بالماء بعد خروج المادة المنوية ولا يعترفون بغسل الأيدي بعد تناول الطعام فهم مثل الحمير التي فقدت مأواها... مع كل واحد منهم حمار يجلس عليه ويُجلس علي نفس الحمار الجارية التي يرغب في بيعها ولا يخجل في معاشرة جاريته في وجود أصدقائه ولو دخل عليه عدد كبير من الناس فلا يشعر بأي خجل في إقامة هذه العلاقة الحميمة ويحدث أحيانا بأن الشاري حينما يأتي لغرض تسعير الجارية فيجد صاحبها في حالة معاشرة معها ولا يتركها للخروج حتي يقضي حاجته معها. يغسلون وجوههم ورؤوسهم كل يوم علي سبيل العادة ولكن بطريقة لا يمكن تخيلها وهي أن الجارية تحضر كل صباح إناءً مليئا بالماء وتضعه أمام سيدها فيغسل هو بهذا الماء يديه ووجهه وشعره وبعد ذلك ينظف أنفه ثم وفي نفس الإناء يقوم بالمضمضة وهكذا جميع أنواع النجاسة

تتجمع في نفس الماء. وحينما يفرغ شخص من نظافته تضع الجارية نفس الإناء أمام شخص آخر ليعيد ذلك الشخص نفس عملية التنظيف تلك بنفس الطريقة وتستمر الخادمة في وضع نفس الإناء أمام الآخرين حتي ينتهي جميع أفراد الأسرة من تنظيف أنوفهم ويفرغوا من المضمضة وغسل الشعر والوجوه(٣٠)."

وفي الوقت الذي كانت القاهرة وبغداد ومدن الأندلس نفسها قرطبة وطليطلة وغرناطة معروفة بنظافة حماماتها ونظافة شوارعها وإنارتها، كانت مدينة لندن عبارة عن قرية نائية فيها أكواخ مبنية من الطين والحشائش وحيث لم يكن هناك أي تصور لإنارة الشوارع والحمامات العامة ففي ذات الوقت وكما كتب برك أن نسبة سكان قرطبة التي كانت تربو نحو نصف مليون كانت تشتمل علي مائة وثلاثة عشر ألف من البيوت وكانت في المدينة وضواحيها سبعمائة مسجد وشبكة من ثلاثمائة حمام من الحمامات العامة كانت منتشرة بطول المدينة وعرضها(٣١). ومعظم مدن العالم الإسلامي كانت تقدم منظرا خلابا من الشوارع الواسعة النظيفة والحدائق الغناء والنوافيرالصناعية(٣٢). وعلي عكس هذا كان حال المدن الأوروبية أن كل صاحب بيت كان يريد إلقاء القمامة أمام البيت نفسه في الأزقة المظلمة وكانت البيئة كلها ملوثة بسبب رائحة البول والبراز الكريهة(٣٣). والورق الذي لم يكن يعرفه الغرب كان استخدامه في العالم الإسلامي شائعا وتتميز كل مدينة متحضرة بوجود سوق للوراقين فيها أي تتواجد هناك سلسلة من المكتبات للأدوات الكتابية، وبسبب الاستخدام العام للورق كان قد أقيم هناك عالم جذاب للكتب ودور الكتب(٣٤). ففي القرن العاشر الميلادي كانت مكتبة الحكيم(المتوفي ٩٧٥م) بأسبانيا المسلمة تحتوي علي أربعمائة ألف من الكتب وفي نفس الوقت في أسبانيا المسيحية كانت أشهر مكتبة في زاوية ريبولس وكان مجموع كتبها مائة واثنان وتسعون كتابا(٣٦). وزاوية القديس غالن بسويسرا التي كانت معروفة في وقتها كان مجموع كتبها لا يزيد عن ستمائة كتاب وكانت قد أعدت هذه الكتب من جلود الحيوانات(٣٧). وكأنه في جانب سوق رائجة للعلم والحكمة وعلي الجانب الآخر كان الحرمان والإفلاس واضحا والغرب كان ينظر إلي هذه الحالة بعواطف ممتزجة بالخوف والشوق ولعله كان يقدر بأن السيل الجارف لقافلة الاستكشاف الذي بدأ يتقدم إلي حدوده دون أن يوقفه أحد لا يمكن إيقافه بالطرق التقليدية لكن في نفس الوقت كان هناك خوف من أن يتحول ازدياد الاهتمام بعلوم وفنون الشرق إلي بداية ثقافة جديدة وهزيمة نظرية.

## شروق الشمس في الغرب

كما سبق أن ذكرت بأن سلوك الغرب نحو الإسلام كان من البداية مزيجا من الشوق والخوف لأن امتداد العالم الإسلامي المستمر واتساع حدوده كان بمثابة بركان للغرب وكان لا بد من رفع الستار عنه وهذا يستلزم دراسة الإسلام نفسه ثم هذا الفيضان الجارف الذي أخذ مدينة القدس في حضنه من قبل وفي بداية أيام خلافته الأولي أي في عام ٦٥٢م كان قد طرق المدينة التجارية صقلية وكذلك قوافله كانت قد وصلت إلي سواحل أسبانيا عابرين مضيق هرمز فكانت دراسة الإسلام المتأنية مهمة أولا لأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال وضع استراتيجية دفاعية من دونها وثانيا كان الغرب متلهفا لمعرفة المدرسة الإسلامية التي منحت المسلمين بصورة مذهلة وفي وقت وجيز الغلبة والاستيلاء علي المنصة العالمية وظهر بسرعة البرق خوف الغرب في صورة حروب صليبية وعاطفة الشوق أوصلته إلي مدارس صقلية وطليطلة حيث أطفأ هذا الغرب ظمأه. والحروب الصليبية لم تنجح في الوصول إلي أهدافها بشكل كامل لأن الغرب المسيحي لم يستطع الحفاظ علي احتلال القدس لفترة زمنية طويلة ولكن بالاستعانة بالمدارس الإسلامية بصقلية والأندلس أضاء الغرب مصباحه الخائف من الظلام الدامس وبسبب هذه الإضاءة تحول الغرب في القرون القادمة إلي بقعة نور وسمي مؤرخو الغرب هذه الحالة الثورية المتغلغلة بالنهضة بشيء من التعصب والتغافل وقوالب التفكير والتأمل السابقة انكسرت بشكل اهتز معه تقليد الكنيسة المتنفر من العلم والحكمة والذي كان يرجع إلي قرون عتيدة. وفي ظل الحركة الإصلاحية وبسبب ضيق النظر والتعصب ظهرت استنارة الفكر ووصل الأمر إلي أن



الزيج المحلي لمسلمة المجريطي علي طراز الخوارزمي الذي نقله إلي اللاتينية في الغالب "أديلارد الباثي"
(الصورة ملتقطة من مكتبة بودلين بأوكسفورد)

أهل الغرب ودعوا الديانة نفسها بدون رجعة إليها وحينما خرج الغرب من حصار الهداية أو بمعني آخر حينما قرر أن محور الكون هو الإنسان وليس الإله أصبح شعار هذا القوم نوعا من عدم التوجه إلي أي جانب وأصبحت بأيديهم الآن قيادة الحركة الاستكشافية.

وفي نهاية القرن الحادي عشر كان الشوق قد غلب علي الخوف وذلك لأن في نفس الأيام كان أهل الكنائس قد استولوا علي المعالم الثلاثة طليطلة وصقلية والقدس مرة أخري وقد ذهبت قبضة المسلمين من طليطلة في عام ١٠٨٥م ومن صقلية في عام ١٠٩١م وفي عام ١٠٩٩م خرجت مدينة القدس من أيدي المسلمين وفي الأيام القادمة ظهرت طليطلة وصقلية وضواحيهما في شكل مراكز كبيرة للدراسة الإسلامية وهذه المدن لم تقم بتعريف الغرب من العلوم الاستكشافية فقط بل عن طريق ترجمة الكتب العربية إلي اللاتينية سلم إلي أيدي الغرب كل رأسمال الحضارة الإنسانية.

## طليطلة: أول دار حكمة لأوروبا

توافد المسلمين إلي الأندلس نُظر إليه نظرة تحدٍ علمي وفكري أكثر من كونه خطرا عسكريا. واستغرق حصول المسلمين علي الاستقرار السياسي في صقلية خمسة وسبعون عاما غير أن الأندلس لم تستغرق سوي خمس سنوات من الزمن لبناء حكومة مستقلة فهذا النجاح بهذه السرعة أجبر المفكرين المسيحيين علي أن يفكروا أن هزيمتهم ليست بسبب عدم توازن القوي بل هناك سبب نظري وفكري أيضا جعل المسلمين جامحين في ثقتهم غير العادية. لم يكن قد مر قرن من الزمان علي قدوم طارق ابن زياد (٧١١م) إذ طبعت ترجمة عربية للإنجيل من جانب المسيحيين وذلك لصد بعض من هذا الخطر النظري(٣٨). ولعل وراء هذا العمل الشعور بأن القوي النظرية النصرانية وعملية التبشير من الممكن أن تقوم بهزيمة الغزاة لكن بقدر ما رسخت أقدام المسلمين في الأندلس بدأ الحكماء المسيحيون يقدرون أن المسلمين ليسوا غزاة عاديين بل هم أمناء رأسمال الحضارة في عصرهم أيضا. وفي أواسط القرن التاسع وبصفة خاصة في عهد عبد الرحمن الثاني بدأ توافد العلماء الكبار من مختلف دول العالم الإسلامي وكذلك بدأت مسودات ونسخ العلوم العربية تصل إلي الأندلس وكانت معظمها تتعلق بالعلوم الاستكشافية وبصفة خاصة بالفلك. يُقال أن الأمير عبد الرحمن الثاني كان له اهتمام خاص بعلوم الكليات والنجوم ودليل هذا الكلام هو أن ابن فرناس كان قد أقام مرصدا كبيرا بموافقة منه. وكان في هذا المرصد اهتمام بمعرفة مواعيد الصلاة عن طريق الساعات المائية إلي جانب دراسة النظام الشمسي وكان ابن فرناس قد رتب زيجا لقرطبة بناء علي

زيج السند والهند للخوارزمي. فخلاصة القول أن أقدام المسلمين بقدر ما بدأت تترسخ في الأندلس بدأت تُعمر دنيا حديثة للتسخير والاستكشاف.

وعبد الرحمن الثالث (٩١٢-٩٦١م) الذي كان يعد نفسه خليفة للخلافة الأموية بدلا من أمير إمارة أو والٍ، فبعد الإعلان عن خلافته ازدادت بصورة غير عادية الأنشطة العلمية في الأندلس وكانت الأمنية الغريزية للخليفة عبد الرحمن أن تتفوق قرطبة علي القاهرة وبغداد في عظمتها السياسية والعلمية. في عهد عبدالرحمن هذا تُرجم كتاب "دي ماتيريا ميديكا" الخاص بمؤسسة "ديوسقوريدس" إلي اللغة العربية لأول مرة وأتبعه بفترة وجيزة انتشار ترجمته اللاتينية في أوروبا المسيحية. ولم يكن قد مر زمن طويل إذ نُشر في أرض قرطبة كتاب أبو قاسم الزهراوي (٩٣٦-١٠١٣م)الذي يعرفه الغرب باسم "ألبوكاسيس" هو وكتابه الموسوعي الطبي الشهير في ثلاثين مجلدا ويعرف باسم كتاب (التصريف في علم التأليف)، وكتاب الزهراوي هذا لم يكن مخزن علوم القدماء فقط بل كان عصارة خبراته وتحقيقاته الطبية الممتدة علي مدي خمسين عاما من عمره أيضا. وذكر قرطبة هذا العصر يكون ناقصا بدون ذكر مسلمة المجريطي (المتوفي ١٠٠٧م) الذي ألف زيجا يكون مفهوما لعامة الناس حسب طول بلد قرطبة وذلك في ضوء زيج الخوارزمي ثم تمت ترجمة هذا الزيج إلي اللاتينية وعلي اكتساب هذا الكتاب قامت شهرة أول عالم لانجلترا وهو أديلارد الباثي. وكتاب المجريطي هذا المسمي بغاية الحكيم تُرجم إلي الأسبانية واللاتينية ورسالته عن اسطرلاب التي ظلت متداولة في الغرب وتصورات المجريطي هذه عن الفلك هي التي أقنعت ابن الشاطر بعد أربعة قرون علي تشكيل نظام غير بطليموسي وهو مكتسب منه بل بسبب السرقة منه اشتهر كوبرنيكوس. ومازال صيته قائما إلي يومنا هذا. وابن رشد الذي كان قاضيا لإشبيلية وقرطبة وكتاباته الفلسفية قامت بدور كبير في التسخير الفكري للمفكر اليهودي موسي بن ميمون وأكبر شارح مؤثر للإنجيل في القرون الوسطي وهو القديس توما الأكويني فكتاباته وتراجمها اللاتينية كانت قد بدأت أول ما بدأت من أرض الأندلس وابن زهر (أفينزور) فمصنفه الطبي التيسير في المداواة والتدبير مع كليات ابن رشد كان يعتبر منهجا كاملا لفن الطب وتراجمهم اللاتينية ظلت متداولة حتي عصر النهضة بسبب المترجمين اللاتينيين وكذلك كانت موضع اهتمام بمثابة القانون لابن سينا. وابن سينا نفسه فكتابه القانون في الطب والذي عُرف ب"أفيسينا"أدي دورا كبيرا في ترسيخ المشاهدات والتجارب علي أساس عقلي وكان ابن سيناء يعد في العالم الغربي المعلم الثاني بسبب عظمته العلمية. وأول ترجمة كاملة للقانون تمت علي يد "جيرارد آف كريمونا" في القرن الثاني عشر. وظلت ترجمة هذا الكتاب قرابة ستة

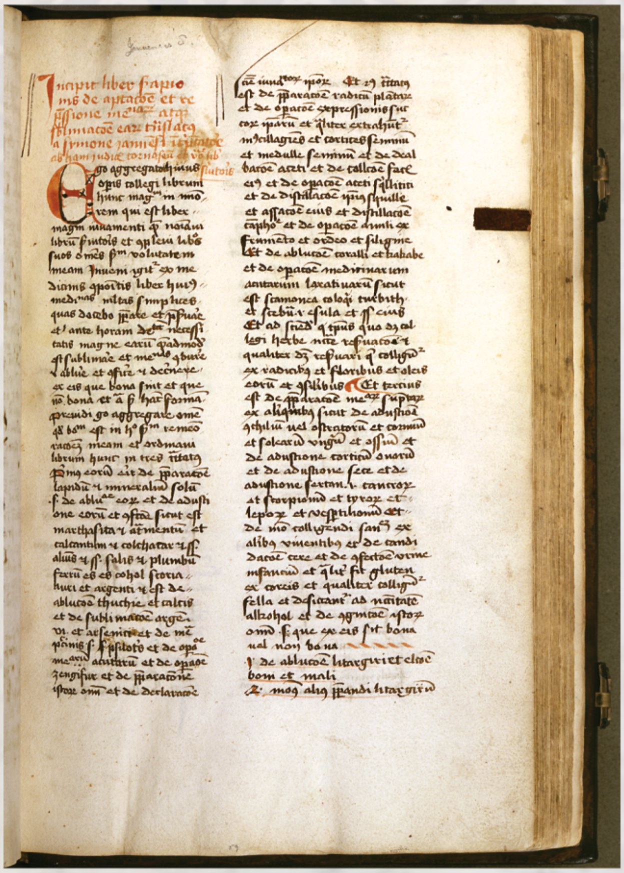


نموذج يمثل النظام الشمسي لعباس ابن فرناس في قرطبة. يرجع هذا النموذج إلي القرن التاسع الميلادي ويعطي انطباعا كأن الكواكب تدور حقا.

قرون ككتاب دراسي في مدارس الغرب ويمكن معرفة قدر هذا الكتاب علي قول المؤرخ الأمريكي "نانسي سيرايسي" أن هذا الكتاب طبع له ستين طبعة ما بين ١٥٠٠م إلي ١٦٧٤م. كما تُرجم إلي اللاتينية كتاب الشفاء قبل ذلك في عام ١٠٢١م. وكانا هذان الكتابان من موضوعات البحث في الحلقات العلمية بالأندلس وخارجها. وبالإضافة إلي ذلك كان ابن سيناء يُعتبر في الطب وما بعد الطبيعة مرجعا آخر كما جاء في كتابات وتراجم مايكل سكوت وبصفة خاصة عن طريق نشر أبحاثه عن الروح والجسم. كانت هذه البيئة الاستكشافية مجتمعة هي التي خلقت لأهل الغرب جاذبية غير عادية في الحضارة الإسلامية.

وهنا كان قد جاء من نصيب طليطلة حاكم لُقب بسبب اهتمامه العلمي بالمأمون (١٠٤٣-١٠٧٥م) والذي لم يقصر في أن يجعل طليطلة ندا لقرطبة وأشبيلية وقبل دخول الإسلام كانت طليطلة عاصمة لمملكة القوط الغربيين. وفي عام ١٠٨٥م حينما استولي عليها المسيحيون فاعلم أن العالم المسيحي حصل علي مدرسة موقرة ومحترمة في شكل طليطلة حيث كان يوجد فيها مركز لقرون من العلوم والحضارات الإسلامية واليونانية والهندية والساسانية. ملك قشتالة ألفونسو السادس إن كان قد استولي عليها عسكريا لكن من الناحية الحضارية كانت غالبة ومسيطرة بالفكر الانفتاحي وكان مولعا بعلم وثقافة العرب حتي وصل الأمر به إلي أن تزوج امرأة عربية وبعد الاستيلاء تم تحويل المسجد الجامع بطليطلة إلي كنيسة والمكتبة الملحقة بالجامع أصبحت مركزا لاهتمامات أهل الفكر من المسيحيين. وبدأ يتوافد طلاب وطالبات من النصاري من مختلف الأرجاء للاستفادة من هذا الكنز العلمي. وحسب قول "بيتر فينيرابل" حصل بالأخير أهل العلم النصاري علي سر عظمة العرب(٣٩).

وظل مبني هذا الجامع الذي تم تحويله إلي كنيسة لمائة وخمسين عاما القادمة كأول دار للترجمة حيث تمت ترجمة عدد كبير من الكتب العربية إلي لاتينية. وقام بهذا العمل المسلمون واليهود والنصاري الإسبانيون Mozarabsمعا(٤٠).



المجلد الثامن والعشرين لكتاب الزهراوي باللاتينية.

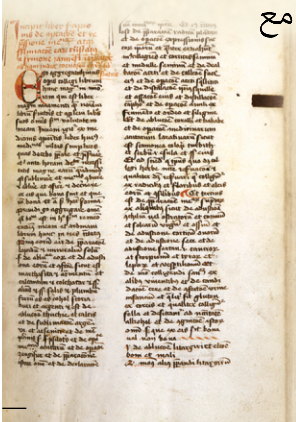
يقال أن شخصا واحدا وهو (جيرارد الكريموني) قام بمفرده بمساعدة مسلم إسباني بترجمة حوالي ثمانية وثمانين كتابا والثلثين من هذه الكتب كانت تخص العلوم الاستكشافية مثل الفلك والرياضيات والطب وغيرها من العلوم والبقية الباقية كانت تتعلق بعلم الكلام(٤١).



إن ترجمة جيرارد عرفت أهل الغرب بعالم جديد من العلم والفن ووصل إلي طليطلة محبو العلم بسرعة من مختلف أنحاء أوروبا. يُقال أن العالم الإنجليزي دانييل أوف مورلي حينما وصل إلي باريس بحثا عن العلوم الاستكشافية أُصيب بيأس شديد وفي الأخير توجه إلي طليطلة وكانت عظمتها في العالم المسيحي معروفة إذ أن الحاخام اليهودي ابراهيم بن عزرا حينما وصل إلي مدينة لندن من طليطلة فإن قدومه هذا أصبح سببا لنيل علم التنجيم قبولا عاما في انجلترا وضواحيها وتُرجمت عشرات من كتبه الصغيرة والكبيرة إلي الفرنسية واللغات الأوروبية الأخري بالإضافة إلي اللاتينية وقليلا ما شعر الناس بضرورة محاكمة هذا الفن علي أساس علمي. وسواء كان علم المسلمين أو التباسهم الفكري فإن كل هذا كان يعتبر لأوروبا المسيحية قابلا للتقليد باعتبار الحضارة الغالبة حتي وصل الأمر إلي أن المصنفين الأوروبيين كانوا يبدأون كتبهم بالبسملة مترجمة من اللاتينية كما يعرف من خلال كتاب قسم علم الفلك الخاص ب "روجر أوف هيرفورد".

طليطلة كانت معروفة باعتبارها مركزا للعلم والفن قبل سقوطها وكانت قد مرت ثلاثة قرون علي معرفة النصاري المحليين باللغة العربية فهذا السقوط المفاجيء وغير المتوقع والسريع كان قد

سلم إلي المسيحيين مهدا مزهرا ومثمرا للحضارة العربية بكل جمالها وبما أن الغاصب كان مرعوبا من الميراث العلمي للأقوام التي فتحها وكانوا يحسبون تلك العلوم سر سطوة وجلالة المسلمين ولذلك بدلا من أن تتوقف الأنشطة العلمية بسبب تغيير السلطة ازدادت فقد كلف (رايموندو دي توليدو) (١١٢٦-١١٥١م) الجديد بطليطلة فريقا من المترجمين لترجمة أهم الكتب تحت إشراف الفلسفي الإسباني المعروف "دومينجو جونديسالبو" وعالم مسيحي آخر من طليطلة وهو "يوحنا الإشبيلي" قد قام بترجمة عدد كبير من الكتب العربية الخاصة بالفلك والنجوم ومنها كتاب أبو معشر "كتاب المدخل الكبير إلي علم أحكام النجوم" وقام بترجمة نقد البيروني علي الفرغاني وكذلك ترجم مارك "مارك أوف توليدو" عددا من كتب جالينوس الخاصة بفن الطب(٤٢). وإلي الآن مئات من الكتب العربية الاكتشافية التي تمت ترجمتها في طليطلة للفارابي والخوارزمي وبني موسي والفرغاني وجابر ابن أفلح والرازي فهذه الترجمات الفردية كانت إضافة جديدة وكان قد نُقل حتي القرن الثالث عشر الميلادي عدد كبير من العلوم الاستكشافية والكلامية للمسلمين إلي اللاتينية واللغات الإسبانية المحلية وجيرارد الكريموني الذي سبق ذكره أنجز خلال إقامته في طليطلة حوالي خمسين سنة إنجازا علي مستوي عال في ميدان الترجمة من العربية إلي اللاتينية. يُقال أنه في البداية كان قد جاء إلي طليطلة بغرض السياحة لكنه حينما رأي في مكتبة جامع طليطلة الذخيرة الكبيرة من الكتب العربية اندهش أشد الاندهاش وقرر أن يقضي حياته المتبقية في ترجمة ودراسة هذه الكتب. وعلي الرغم من تقدم حركة الترجمة في طليطلة والمدن الإسبانية الأخري حيث كان هواة الترجمة يحسون دوما أن هناك الكثير من العمل ففي نفس الوقت كانت تقتضي هذه التراجم أن يوضع أساس للتجارب بناء علي هذه العلوم فعلي سبيل المثال مباحث الفلك أو زيج الدول الشرقية وبيان جوها وفصولها كانت تقتضي من المترجمين أن يعدوا زيجا جديدا لمدينة لندن ومدينة باريس والمدن الأخري الأوروبية بدلا من ترجمة زيج القاهرة وبغداد وصقلية وطليطلة أي بدون ترتيب مناخ جديد معروف في الإنجليزية تكون الترجمة الإبداعية والحية غير مكتملة. علي سبيل المثال جداول  ألفونسين التي استُعين بها في إعداد الزيج المحلي حتي القرن السادس عشر فوقت ترتيبه وإعداده كانت الترجمة اللاتينية لزيج الخوارزمي موجودة أمام الواضعين والمعدين وبالإضافة إلي ذلك ترجمة زيج طليطلة نفسها كانت موجودة وهذا الزيج كان قد أُعد لطليطلة والآن الزيج الذي أُعد باللغة المحلية بأمر من ملك قشتالة "ملك كاستيا" والزيج الذي أُعد في عام ١٢٠٢م بإشارة من ألفونسو العاشر فكان هذا الزيج متسقا مع



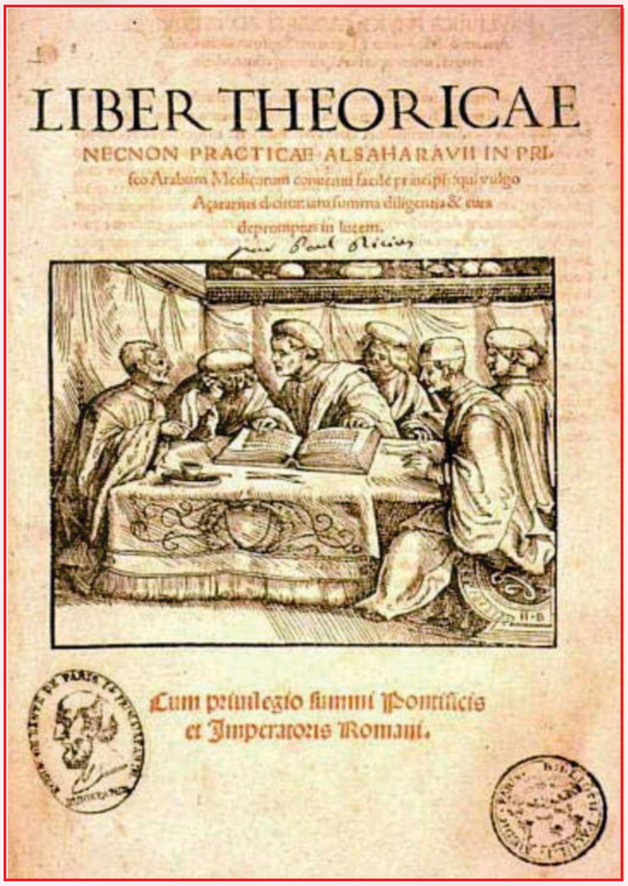
التقويم المحلي إلي حد ما ويُقال أنه في القرن الرابع عشر الميلادي نال هذا الزيج قبولا عاما في أوروبا بأسرها بسبب الترجمة اللاتينية لهذا الزيج.

زيج طليطلة كان علامة بارزة قام بضبط الأوقات والجهات بأوروبا لقرون عديدة وإلا فالحق أحق أن يقال أن أسبانيا المسلمة كانت بمثابة منارة للعلم لأهل الغرب ولم يستطيعوا بأي حال من الأحوال الاستغناء عنها فمن فرنسا وانجلترا والمدن الأخري الأوروبية كان الطلاب يفدون أفواجا إلي قرطبة وإشبيلية وطليطلة وفي بعض الأحيان إلي صقلية وحسب قول "كليو" لم يكن في أوروبا كلها مكانا مثل أسبانيا يمكنه جذب أصحاب العقول النيرة إليه وفيما بعد الطلاب الذين تخرجوا من هذه المدن رجعوا إلي بلدانهم وأضاءوا مصابيح العلم والفن في بولسونيا وباريس وأوكسفورد حيث أشعلوا المصابيح التي جعلت أوروبا المظلمة في نهضة علمية التي كانت تعيش في ظلام دامس أصبحت الآن متلألأة وسنقوم بالحكم علي هذا التغيير الفكري فيما بعد لكن تعالوا نري أوروبا أولا في الدور الذي أدي المركز الإسلامي الثاني للحركة الاستكشافية وهو صقلية وأطرافها وضواحيها في تشكيل هذه الرواية من شروق الشمس.

## صقلية: أول شعاع لشروق الشمس

دخول المسلمين إلي صقلية كان قد بدأ في الأيام الأولي من عام ٦٥٢الهجرية وإن كانت قد استحكمت الآليات الرئاسية بشكل منظم في القرن التاسع وبدأت أسس الحضارة الاستكشافية تستحكم في البداية علي صقلية علي أيدي الأغالبة (٨٢٧م-٩٠٩م) ثم علي أيدي الفاطميين (٩٠٩م-٩٦٥م) ثم بعد ذلك علي أيدي الإمارة المستقلة إلي حد ما (٩٦٥م-١٠٩١م) وحصلت صقلية علي درجة المدرسة لأوروبا حينما استولي المسيحيون النورمان عليها في عام ١٠٩١م. والفاتحون الجدد كانوا في حيرة شديدة بعدما شاهدوا أنه توجد في الجزيرة المراصد وأسواق التعليم والتعلم في أوجها بل توجد علي مآذن المساجد الآلات الفلكية وتُستخدم لقياس الأفلاك ويتم من خلالها مشاهدة الكون(٤٥)، الأمور التي كانت تُعد عند المسيحيين تدخلا في السر الإلهي كانت بمثابة تجارب تُجري عند المسلمين علي مآذن المساجد فوقتئذ كانت من مسئوليات موقت المساجد معرفة مواعيد الصلوات وتعيين القبلة والمعرفة الدقيقة بطلوع وشروق الشمس، فبعد مائتي أو مائتين وخمسين سنة من إقامة المجتمع المسلم لم يكن حدوث هذه المناظر مبعث الحيرة والاستغراب(٤٦).

مثل الفاتحين المسيحيين لطليطلة كان فاتحو صقلية من النورمان مدركين العظمة العلمية والسبق غير العادي للعلوم الاستكشافية لدي المسلمين. وصقلية كانت أيضا ميناء تجاريا وكان في رخائها إسهام لتجار عرب الشرق والغرب واليهود والنصاري إسهاما مشتركا. وكان لهؤلاء عمران منظم في هذه الجزيرة والأكثر من هذا أن المسلمين الذين كانوا يُحسبون أمناء وقادة العلوم الاستكشافية فكانت اختراعاتهم الجديدة وتأمين السفر والحضر بجهد متواصل أهلتهم لمكانة خاصة والغزاة النورمان كانوا يريدون استمرار هذه الحالة الجيدة ولذلك لم يسعوا فقط لأن يستمر المسلمون بأنشطتهم العادية بل يستمر أيضا توافد وقدوم العلماء المكتشفين إليها من البلاد والأمصار الأخري. فالملك روجر الثاني (١١٣٠م-١١٥٤م) قدم الدعوة للشريف الإدريسي بغاية التقدير والاحترام لزيارة صقلية وقد كان مشهورا في ذلك الوقت بعلمه وفضله. وبهذا أصبح روجر الثاني مدانا وملاما في نظر كنائس روما بسبب اهتمامه بالعلوم الاستكشافية كذلك أسماه ناقدوه بالسلطان بتسمائي بسبب قربه من العلوم والفنون الإسلامية والاهتمام بها وكانت أمنيته الكبيرة أن يتم تصوير الأرض كما هي في هيئتها الأصلية بما فيها من البر والبحر والجبال والأنهار والسماء بنظامها الشمسي أو تفاصيل طبق الأفلاك بحيث إذا ألقي المشاهد النظر عليها يستطيع فهمها بنظرة واحدة وكذلك يتيسر وضع خرائط تفصيلية للأنهار والبحار والوديان وفي الأخير تم وضع كتاب روجر أو "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" بعد خمسة عشر سنة أتم فيها السفر المتواصل للشرق والغرب وقام بمشاهدات عملية فكان هذا الكتاب لروجر بمثابة مفتاح الدنيا للإنسانية وبصفة خاصة للعالم الغربي(٤٧). وكثير من الناس لخصوا هذا الكتاب وخريطة إدريسي تم تداولها لقرون في عالم الشرق والغرب(٤٨).




الغلاف اللاتيني لكتاب التصريف الذي تم طبعه أ كثر من عشر مرات فقط في أوائل القرن السادس عشر الميلادي وقد شاعت ترجمة هذا الكتاب بسرعة إلي الفرنسية والإنجليزية والعبرية أيضا.

إن أول ظهور لخريطة إدريسي للعالم نجده في اللغات الغربية في شكل مساعي الفلسفي الإيطالي برونيتو لاتيني. وكان تأثير خريطة لاتيني في الغرب شديدا لدرجة أن العالم الألماني "ألبيرتوس ماغنوس" حينما وضع خريطة للعالم تم إبراز مدن الشرق فيها بصفة خاصة في حين لم يذكر المدن الهامة للغرب ويُعرف من تصفح هذه الخريطة أن خريطة الإدريسي كم كان لها تأثير في ترتيب ووضع هذه الخريطة بكل تأكيد(٤٩). والحق أن خريطة الإدريسي هذه قامت بتغيير هيئة وشكل العالم في الغرب. فالخريطة التي كانت رائجة إلي الآن فيها الأرض البيضاوية كانت منحصرة علي ثلاث قارات فقط وهي أوروبا وآسيا وأفريقيا والآن بعدما رتب الإدريسي خريطة للكرة الأرضية بجميع تفاصيلها علي أساس المشاهدات الممكنة فأصبح ممكنا للبحارة الغربيين أن يلقوا سفنهم في البحار والمحيطات بثقة جديدة فحينما خرج فاسكو دي جاما في رحلته البحرية في عام ١٤٩٧م لم يكن يرافقه بحار مسلم فحسب بل كان مزودا بالمعلومات الجغرافية المسلمة(٥٠). والبحار كولومبوس الذي يُنظر إليه كمؤسس جديد للغرب يوجد وراء رحلته البحرية الملاح المسلم والمعلومات الجغرافية الإسلامية(٥١). والواقع أن أي مغامرة كبيرة في ذلك العصر بدون الاستفادة من الاكتشافات العلمية للمسلمين كانت عبثا محضا.

الشهرة غير عادية التي كانت قد وصلت إليها صقلية في العالم المتحضر بسبب نشر وطبع خريطة العالم للإدريسي وتجسيد الكواكب وازدادت المعرفة في هذا المضمار في عهد فريدريك الثاني. إن فريدريك هذا كان يُحسب أيضا علي الفكر الشرقي أكثر من الغربي مثل جده روجر الثاني وذلك بسبب حبه للتعقل والحرية الفكرية واهتمامه غير عادي بالعلوم الاستكشافية للمسلمين. وكان أيضا يلقب بالسلطان البتسمائي(٥٢). فريدريك الثاني هذا قام بالمبادرات الثورية وذلك لتعميم الاستكشافات العلمية في الغرب خلال فترة حكومته التي امتدت زهاء خمسين عاما ولهذا السبب تعرض لمقاطعة البابا مرتين لكن هذه المبادرات تركت آثارا بعيدة المدي علي الغرب ولهذا السبب من الجدير أن يقال له مؤسس نهضة الغرب. إنه لم يقم بتوثيق المدرسة الطبية بساريلنو بل أقام مدارس جديدة في نابولسي وبادوفا ومسينا. يُقال أن مدرسة نابولسي هي أول مدرسة في العالم المسيحي أقيمت في عام ١٢٢٤م بشكل منظم حسب التوجيهات الملكية(٥٣). إن فريدريك الثاني لم يكن حاكما صديقا للعلم فقط بل إنه كان نقيبا أيضا لحلقة فكرية للاكتشافات الجديدة وجذورها تمتد إلي الحضارة المشرقة للشرق بدلا من عصر الظلام الدامس للعالم المسيحي. كذلك كان فريديرك الثاني يميل إلي الشرق في معيشته أكثر من الغرب فكان يرتدي مثل ملابس المسلمين ويتحدث باللغة



Binding Side



كتاب الزهراوي باللغة اللاتينية الذي قام بإرشاد أوروبا لقرون في مجال علم الطب.



العربية وبلاطه كان عامرا بالأصدقاء المسلمين وعلماء المسلمين حتي قصره كان قد بناه علي طراز مسجد قبة الصخرة(٥٤) والعرب كانوا ينادونه بالامبراطور وكانت له مراسلات مع مسلمي العالم الإسلامي وعلماء اليهود بصورة منتظمة.

في بيئة التجمد الفكري لأوروبا والانغلاق الذهني للكنيسة كان فريدريك قد تسبب في نزاعات كثيرة بسبب حبه للشرق وصداقته للعلم ووجوده بجانب مؤازريه ومسانديه بمثابة أعجوبة من أعاجيب الزمن فمعارضوه كانوا يحسبونه دجالا لأنه قد عقد العزم لطي بساط الانغلاق الذهني للعالم المسيحي. إن فريدريك نفسه كان لديه تذوق كبير لمختلف العلوم والفنون وكان متمكنا بست لغات وخلافه مع بابا الكنيسة ظل قائما فقد كان عاجزا عن فهم عقيدة التثليث وطريقة ولادة السيدة العذراء وكذلك كان محبا وذواقا للأكلات الهندية كما كان معتادا علي الاستحمام بكثرة مثل المسلمين. ومن الطريف أنه عندما كان يخرج موكبه في الشوارع الرئيسية فتكون معه الجمال والأفيال والزراف والصقور(٥٥) أي كان يُري من كل الجوانب ملكا شرقيا فحبه للشرق وشغفه للعلوم الاستكشافية لظل منحصرا علي حدود صقلية لو لم يكن قد أقام بصورة منتظمة المدارس الجديدة.

وسواء كان مايكل سكوت أو أديلارد الباثي أو مشاهير أوروبا الآخرين لذلك العصر الذين كسبوا من فيض البيئة العلمية لصقلية التي يسميها أهل الغرب بعلوم العرب "ستوديا أرابم" وتوما الأكويني الذي قام بتشكيل الإلهيات النصرانية حال قيامه بفرنسا هو نفسه كان متخرجا في مدرسة نابولسي حيث كانت قد سنحت له الفرصة للاطلاع علي فكر وفلسفة الإسلام(٥٦).

حينما يدخل أي شخص في مدينة فينيسيا القديمة التي تقع بجوار جزيرة صقلية علي الضفة الأخري من البحر فهو يحس كأنه قد جاء إلي مدينة قديمة من الشرق.

فلو خرجت من ساحة سان ماركو مرورا بقصر موتشنجو وجسر ريالتو بريدج فزينة المباني وطراز بنائها يُشعرك وكأنك في فناء الجامع الأموي بدمشق. وفي وقت آخر تحس أنك واقف علي شاطيء نهر النيل بمدينة القاهرة. وإن بدأت تنظر إلي محلات دوجز للحظات فيحنها تزداد إعجابا بشرقية فينيسيا هذه التي تظهر علي طراز المباني والفن والتزيين فالحق أنه لا يخلو أي مركز حضاري أوروبي من هذه الأثرات. كان هذا الشعور في فينيسيا أكثر شدة(٥٧).

إن فينيسيا جزء من إيطاليا جغرافيا وهي التي تعد بالنسبة للغرب أرض النهضة والذين لهم إلمام بتاريخ القرون الوسطي يعرفون جيدا أن منطقة اسطنبول قبل مجيء الإسلام بل وحتي القرن السابع الميلادي كانت تحتل مكانة كبيرة كميناء تجاري مركزي وبعد مجيء الإسلام بدأت حدود الإمارة البيزنطية تنكمش وبدأ يقل تأثيرها وهذا الوضع قام بتعارف فينيسيا كميناء تجاري في مقابل قسطنطينية وأهل فينيسيا لم يتعاملوا مع المسلمين في ميدان التجارة فقط بل قاموا بتقليد هذه الحضارة المنتصرة بقدر الإمكان. ومن هنا بدأت تنتقل إلي أوروبا الحضارة والثقافة والفنون الإسلامية مع أموال وأمتعة التجارة ففي عام ٨٢٨م قام تاجران من فينيسيا بسرقة وتخريب بعض آثار القديس مرقص من الإسكندرية وكان هذا الأمر طبيعيا أن يخطر ببال فينيسيا بعدما رأوا الروابط التجارية التي بدأت تزداد مع أهل الشرق وعظمة الحضارة الإسلامية ومبانيها العظيمة أن يبنوا في مدينتهم نصبا تذكاريا عظيم الشأن للقديس مرقص. كان طراز وأساليب البناء أمرا غاية في الصعوبة بالنسبة لأهل فينيسيا، وكذلك هواة أوروبا الآخرين من حيث الأسرار الفنية التي تكمن وراء هذه المباني الشاهقة ولكن فيما بعد وبالتحديد بعد سقوط طليطلة وحينما ترجمت الكتب العربية الخاصة بالهندسة إلي اللاتينية وخصوصا كتاب إقليدس "العناصر" وكتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة فحينها عرف أهل الغرب السر بأن وراء المحراب والقبة يكمن علم الهندسة.




**كتاب الفلاحة الأندلسية لابن العوام الذي عرف أوروبا بالزراعة النافعة.**



وبهذه الزاوية لو نظرت لكل هيبة وجلال الغرب وجميع مبانيه الحضارية سواء كانت المباني الشاهقة للكنائس أو المباني التاريخية للمدارس والجامعات فإن عظمتها ترجع إلي القرون الوسطي حيث تُرجمت الكتب العربية إلي اللاتينية واللغات الأوروبية الأخري. ولو لم يدرس في مدارس كاتدرائية الغرب عن طريق تراجم الكتب العربية الهندسية علي يد أديلارد الباثي ولو لم يكن رئيس جامعة أوكسفورد المستشار روبرت جروسيتيست المتوفي ١٢٥٣م الذي قرر إلزام علم الزاوية والمثلث لمشاهدة الكون(٥٨) فما كان لهذه المباني الحضارية وجود علي ظهر الأرض ولم يكن قد ظهر المنهج الاستكشافي للتفكير.

وبسبب نيل العلوم الرياضية أهمية كبري تغير القالب الأساسي للتفكير والتأمل وبدأ الإحساس بأن الكون مرتبط بنظام ميكانيكي واكتشافه يمكن أن يملأ الإنسان بانشراح جديد والعقل الغربي امتلأ فرحا وسرورا بنوع من العلم القاطع ودخل تغيير أساسي في تصورات العلم بل الحق أن علم الرياضيات حصل علي مكانة لغة العلوم والفلسفة في الأيام التي تلت(٥٩).

فن تاريخ الغرب ظل بعيدا عن قبول هذه الحقيقة وهي أن نفس علم الهندسة مرتكز ومختف من قبة ومحراب القديس بال إلي قبة القديس بيتر وكذلك في استحكام وتزيين قبة مبني الكابيتول

التي تلقي الغرب لأول مرة في القرن الثاني عشر عن طريق تراجم الكتب العربية إلي اللاتينية. فقبل إنشاء علم الهندسة كانت القباب نصف الدائرية منتشرة ورائجة في الغرب(٦٠) وجميع تصميماتها تقريبا كانت ملتزمة إلي حد كبير بمقاس القباب ولدعم القباب ذات الأعمدة كانت تقام حوائط ضخمة حيث لم تكن هناك سعة لتركيب النوافذ ولم يكن هناك أي تناسق وتناغم بين الحوائط والمحاريب(٦١). ولكن بعدما انتشر علم الهندسة عرفوا سر جمال المباني الإسلامية ومتانتها. يُقال أنه في عام ١١٢٧م بُني جوقة سان دينس الكائن في باريس من جديد والراهب سوجر الذي كان يراقب بناء هذا المبني بنفسه كان ملتزما بهذا الأمر وهو أن هذا المبني الذي يقام من جديد لا يمثل طراز البناء اليوناني القديم ولا يري فيه أي نوع من طراز البناء الروماني وفي رأيه مبني هذا الخانقاه الجديد كان نموذجا لطراز البناء الجديد وفيما بعد سُمي هذا الطراز بطراز القوطي(٦٢). وهكذا تم تمهيد الطريق لولادة الحداثة.

ربما كان هذا هو المبني الأول الذي كان قد بُني في أوروبا المسيحية بعد اكتساب المهارة من طراز البناء الإسلامي. يُقال أنه بعد ذلك بُني في فرنسا فقط خلال قرن واحد ثمانون كاتدرائية علي طراز وأسلوب هذا البناء. وكان هذا هو الزمن الذي تم فيه إدخال التراجم اللاتينية لإقليدس في مناهج مدارس الكاتدرائية بفرنسا.

والغرب يسمي هذا الطراز من البناء باسم العمارة القوطية لإشعار الناس أنه علي الرغم من اكتساب هذا الطراز من المسلمين فإنه اكتشاف الغرب نفسه ولكن الذين علي أدني معرفة بتاريخ شعب القوط فهذا الأمر يزيد من حيرتهم واستغرابهم أن الشعب الذي اتصف بأعمال التخريب علي مر الزمان والذي لم يصدر عنه أي كرامة أو معجزة العلم والحضارة كيف يليق به أن يسند وينسب إليه تاج الطراز المتقدم للبناء. إن "كريستوفر رين" الذي كان له الشرف أن يبني كنيسة القديس بال التاريخية بلندن وكذلك تم بناء أكثر من ثمانين مبني من المباني الحضارية تحت إشرافه فقد وصل هذا الشخص بعد دراسة عميقة أن بناء طراز القوطي ليس له وجود منفصل عن بناء الطراز الإسلامي وهو في الواقع بناء طراز المسلمين ولكن بسبب التعصب الأعمي والجهل تم وضع شعار القوطي عليه.

يقول هذا الرجل: نحن نسميه بناء طراز القوطي (أهل إيطاليا استخدموا طرازا للبناء مختلفا عن الطراز الروماني) غير أن شعب القوط لم يكن لديه اهتمام بالمرة بالبناء بل كان لهم اهتمام بالتخريب والتدمير. وفي رأيي وحسب ما يقتضيه العلم والفهم يجب أن يطلق عليه طراز البناء الإسلامي لأن قوم القوط لم يكونوا مهتمين بالعلم ولا بالفن وحينما فقدنا في الغرب هذين الشيئين أخذناهما من المسلمين عاريةً من كتبهم العربية التي كانوا قد حصلوا عليها عن طريق الترجمة اليونانية بشق الأنفس. إنهم كانوا محبين لدينهم وأينما ذهبوا فتحوا البلاد بسرعة عجيبة فبنوا هناك علي الفور المساجد والنزل وأحسوا بضرورة اختيار طراز جديد للبناء ولذلك زينوا مساجدهم بالقباب في مقابل الصليب المسيحي(٦٣).



انعكاس المجتمع التكثيري لصقلية في عصر روجر
وهو عبارة عن لوحة حجرية محفوظة في
الكنيسة محفور عليها نصوص باليونانية واللاتينية والعربية والعبرانية.

وبدأ يعترف الآخرون أيضا من أهل الفن والتخصص بموقف كريستوفر هذا. علي سبيل المثال الباحث الإنجليزي "ايوان وليام أندرسون" والمؤلف الفرنسي "جان" كل منهما صرح في كتاباته بوضوح تام أن طراز العمارة القوطية هو في الواقع طراز بناء إسلامي(٦٤).

إن طراز العمارة القوطية كان رائجا ومقبولا لدي البنائين لأربعة نظم بنائية من الأثاث. أولا هنا تُستخدم القباب الحادة بدلا من القباب البسيطة ولهذا السبب يمكن نقص أو زيادة مسافة الأعمدة. ثانيا هنا بسبب استخدام القباب ذات السواري واستعمال الدوائر بصورة فنية يمكن نقل عبء السقف إلي الأعمدة. ثالثا أن تكون هنا سعة لاستخدام الأعمدة الطائرة ببراعة. رابعا يتم بناء الجدران والأعمدة بشكل متناسق ومتناسب كي يكون ثقل المبني علي الأعمدة وحينها يمكن بسهولة تزيين الحوائط بشبابيك كبيرة. ويوجد هذا الاستخدام الأنيق في كاتدرائية ريمس وأميان وشارتر الشهيرة(٦٥). ولو قارنت المباني الغربية بالقرون الوسطي بالمباني التي جاءت في حيز الوجود قبل زمن طويل في دمشق والقاهرة والأندلس وفي جزر صقلية فيصبح فهم هذه العقدة سهلا بأن القباب

الحادة واستخدام أكتاف التدعيم الأربعة أو الستة في وقت واحد أمر معتاد في بناء الطراز الإسلامي(٦٦) وتكنيك "الأقبية المضلعة" الذي ظهر في القرن الرابع عشر في الأندلس(٦٧) فلو لم يكن قد انتقل هذا التكنيك إلي أوروبا لما كان ممكنا في أي حال من الأحوال لأي من مايكل أنجلو أن يفكر في بناء قبة جذابة كبيرة لكاتدرائية القديس بطرس وكذلك لما كان ممكنا لكريستوفر رين أن يزين كنيسة القديس بولس بالقبة وما كان ممكنا أن تُري اليوم قبة رائعة في المبني المركزي للكونجرس الأمريكي.

## دنيا جديدة للتراجم

بسبب ازدياد الروابط العلمية والتجارية وترجمة الكتب العربية إلي اللاتينية باستمرار تهيأ تقلب وتغير العقل الغربي. علي سبيل المثال أديلارد الباثي حينما عاد إلي انجلترا من سفره العلمي الذي استمر سبع سنوات وكان قد حدث له تغيير كبير في عقله وفكره(٦٨) ولم يعد مقبولا ولا مستساغا له الآن أن في قضية ما رأي العالم النصراني الفلاني أو رأي البابا كذا وكذا بل في نظره الآن الحق هو ما يصدقه العقل من خلال التجارب والشواهد. والعقل الجديد الذي كان يمثله أديلارد لم يكن مستعدا للقبول بأن أوغسطين أو بيد قال هكذا والآن وإن كان هناك قوم جديرون للتقليد فهم مفكرو المسلمين الذين كان لديهم منهج البحث عن الحقيقة استنتاجيا بدلا من الاستقرائي. وكان أديلارد يناديهم بلقب الأساتذة العرب. ذكر أديلارد هذا المنهج العلمي بقدر من التفصيل يقول مخاطبا ابن أخيه في كتابه "مسائل طبيعية" : لو اتخذت موقفا في أي قضية فلا بد أن يكون لهذا الموقف دليل عقلي وإلا فأهل الفكر (الفلاسفة) لا يعطونه أي اعتبار ويكون غير صالح للمناقشة(٦٩). وكتاب أديلارد هذا الذي وردت فيه عدد من الأسئلة تحت البحث والمناقشة أصبح بمرور الأيام دليلا ومعلما للطريق إلي العقل الغربي. والأسئلة التي أُثيرت في هذا الكتاب هي في ظاهرها عادية. علي سبيل المثال لماذا يوجد الأنف علي الوجه الإنساني فوق الفم بالضبط؟ لماذا لا يسقط الماء من ماسورة مليئة بالماء إذا تم فتحها وأغلق الجانب الآخر بأصبع الإبهام؟ ما هو السبب في تغيير الأشياء إلي قوالب مختلفة أو أن الحيوان الذي يكون اليوم صغيرا يصبح بعد ذلك قويا وضخما؟ لماذا القمر لا نور له؟ هل النجوم لها حياة وإن لم تكن لها حياة فكيف تعيش؟ وأكثر من هذا أن الإنسان الذي يُري مميزا عن سائر المخلوقات التي لها روح لماذا لم يُمنح له أي سلاح طبيعي للدفاع عن نفسه؟ ولكن في نفس الوقت مُنحت الحيوانات القرون والخراطيم وطرق القفز



Binding Side



أسبانيا المسلمة: حيث كان مسح الفلك سائدا من علي مآذن المساجد والقصور.

والفرار(٧٠). والجهد الذي بُذل لحل تلك الأسئلة في ضوء العقل والمشاهدات فهو حسب قول أديلارد بسبب تأثير العلوم العربية. يقول أديلارد أيضا إنني تعلمت من أساتذة العرب في توجيه ودلالة العقل شيئا واحدا وهو أنك حينما تُصبح معتادا علي التقليد واتباع الأسلاف فهذا التقليد ألا يعد انغلاقا للعقل مثل الحيوانات التي لا عقل لها فيتم توجيه هذا القطيع إلي الجهة التي يريدها الراعي والحيوانات تسير خلفه بدون تفكير فكذلك تقليد الأسلاف يذهب بك مثل الحيوانات إلي الجهات المختلفة الخطرة.

هؤلاء الناس وهم أصحاب الوطن لا يعرفون أن الإنسان الذي مُنح العقل عليه أن يجعله حكما كي يفرق بين الحق والباطل ولو لم تكن هذه الفريضة للعقل وهي أن يخبرنا عن الخير والشر فلم يُمنح هذا الجوهر لكل شخص علي أساس فردي؟ لماذا لا يُمنح العقل للمجموعة التي تضع القوانين أما عامة الناس فلا عليهم إلا اتباع أحكامهم الآمرة بهدوء وطمأنينة(٧١). مثل أساتذته العرب لم يكن أديلارد بعيدا عن ذات الله سبحانه وتعالي علي الرغم من وكالته القوية للعقل والمشاهدة وقد أعلن بهذا علي الملأ قائلا أن الإيمان بالله لا يعني بالمرة أن يصرف الإنسان النظر عن التفكير في الكون وحسب قول أديلارد فإن كل شيء من الله وعملنا أن نستخدم العقل والفكر الإنساني مع احترام قدرهما وحينما يبدأ عقلنا في الفشل في هذا العمل فحينها نفوض الأمر إلي الله(٧٢).

إن تراجم أسلوب التفكير الاكتشافي لأديلارد وإقليدس وزيج السند والهند لم تكن بالقليلة لإحداث تغيير جذري إذ طبع أديلارد في عام ١١٥٠م كتابا له عن اسطرلاب(٧٣) ومع طبع هذا الكتاب كأنه بدأ فجر جديد للاستكشاف وبدأ الإحساس بأن الغرب عثر علي مفتاح للكون عن طريق هذه الآلة الصغيرة لاسطرلاب. وإلي الآن كان تحديد الوقت عملا شاقا في بلاد الغرب وبصفة خاصة في الأيام التي تكون فيها السماء ملبدة بالغيوم إذ لم تكن طريقة تحديد الوقت معروفة وأجراس






صفحة من كتاب الخوارزمي.

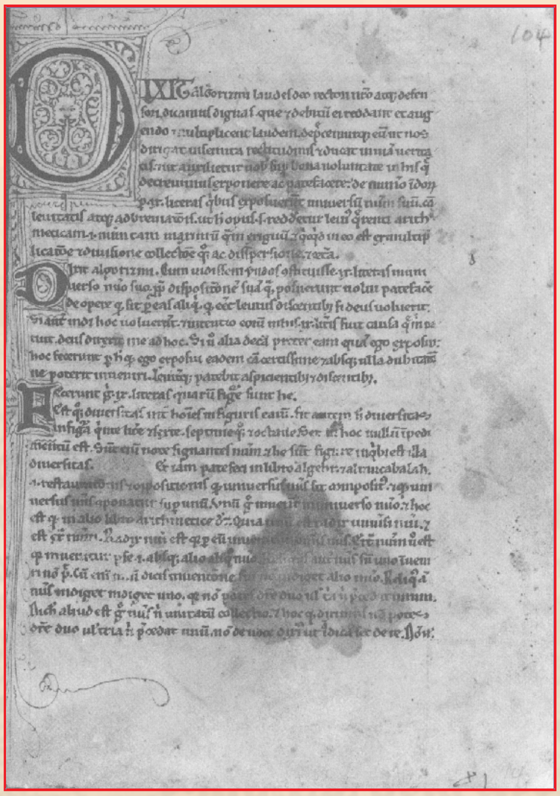
الكنائس كانت تدق في أوقات غير محددة ولكن باستخدام اسطرلاب لم يعرف الغرب البناء العلمي لتحديد الوقت واستخدامه في تنظيم الليل والنهار فقط بل أصبح الإنسان الغربي واثقا وفرحا أنه يستطيع الآن تحديد مكانته في هذا الكون المليء بالأسرار وأكثر من هذا أن التصور النصراني للكون الذي كان يقول أن الأرض مسطحة وأصبحت الآن بيضاوية والآن أصبح ممكنا للإنسان الغربي تحديد مداها(٧٤). وجود اسطرلاب كان إيذانا بهذه الحقيقة أن قبضة الناس علي الزمان والمكان أصبحت قوية.

إن أديلارد لم يكن الوحيد في معرفة أسرار ورموز الكون فلا أدري كم من الناس كانوا مشغولين في مختلف أنواع التجارب الفلكية الصحيحة وغير الصحيحة في لهفة لأن يصبحوا مثل البيروني وأبي الفداء فقبل نصف قرن من الزمان السعي الذي كان قد بذله والتشر بمساعدة الجداول الألفنسية لإعداد زيج محلي لم ينجح(٧٥). لكن إنجاز أديلارد كان مهما باعتبار أنه قام بإعداد زيج لمدينة باث معتمدا علي زيج الخوارزمي واستفاد كثيرا في هذا العمل بزيج البطروجي الذي كان قد شكل الزيج البغدادي للخوارزمي حسب قرطبة(٧٦). إن الزيج والاسطرلاب ورسم الطوالع كان قد جعل أهل الغرب مندهشين ويمكن تقدير هذه الحالة ببيان "جون أوف ورسستر" الذي كان في نفس الزمن.

"إنني قمت بتحديد تلك اللحظة حينما بدأ أول شهر للسنة العربية وأول يوم وأول ساعة وعلي حسبه فقد قام العالم الموقر الخوارزمي بتشكيل الزيج ومنه تعرف حركة السيارات السبعة ونحن قمنا بترتيب التقويم طبقا لهذا العلم لكي لا يضيع(٧٧)."

في القرنين الثاني والثالث عشر كان رواج سوق التراجم في العالم المسيحي علي أشده إذ كان يُقصد بالعلم الجديد ترجمة العلوم العربية وربما لم يكن قد بقي هناك أحد من أهل العلم الجديرين بالذكر الذين لم يكونوا قد ساهموا في هذا العمل أو يكونوا قد ابتعدوا عن تراجم اللاتينية فكل من عثر علي أي كتاب عربي جلس علي الفور لترجمته خوفا من أن يسبقه مترجم آخر علي إنجاز هذا

العمل ففي مدن إسبانيا وصقلية وإذيسا وأنطاكية كان الهواة الأوروبيون يتجولون بين المدن باحثين عن الكتب العربية الجديدة والمخطوطات القديمة وبصفة خاصة في أسبانيا حيث استمر هذا العمل لفترة طويلة وإسبانيا المسلمة بقدر ما بدأت تنكمش وتتقلص كانت الفرص تتيسر وتتوفر للحصول علي رأسمال المسلمين. وعمل الترجمة هذه وإن كانت مدعومة من الرئاسة والكنيسة لكن عملية الترجمة لم تكن تجري وفقا لخطة عملية بل كان من ورائها مهابة وعظمة العلوم العربية وعلي هذا تم طبع ترجمة عدد من الكتب القديمة والحديثة عن موضوع واحد ووجد في أحيان أخري أن قام بترجمة كتاب واحد عدد من الكتاب حسب مقدرتهم.



صفحة من كتاب الخوارزمي المترجم إلي اللاتينية.

علي سبيل المثال خذ كتاب علي ابن عباس المجوسي المسمي (كامل الصناعة الطبية الضرورية) والمشهور باسم الكتاب الملكي وترجمه ستيفن من بيزا وكانت قد تمت ترجمته من قبل علي يد قسطنين الأفريقي وستيفن هذا قدم ترجمته مدعيا أن الترجمة السابقة لم تكن مكتملة بل كانت ناقصة أيضا وأبدي ستيفن عزمه ونيته أيضا بأنه قريبا سيجمع كل هذه الكنوز وهي مختفية عن أعين أهل الغرب لأنها باللغة العربية وسيظهرها بعدما يقوم بترجمتها(٧٨). وكثُرت التراجم حتي القرن الثالث عشر إلي أن قال "أوليفروس بريتو" أن إحصاء وعد الكتب المترجمة في فن الفلك فقط لم يسعفني يوم بأكمله(٧٩).

رأسمال التراجم هذا باعتبار تنوع الموضوعات كان يعتبر فن إحصاء للعلوم ولم تكن علي هذه الأرض قضية إلا ولها ذكر إجمالا أو تفصيلا في هذه الكتب وكانت نتيجة تغلغل التراجم هذا أن تم تمهيد الطريق بسرعة للكتب شبه المطبوعة والمنقولة وفي أكثر الأحيان المسروقة. إن أول شخص عرف الغرب علم الرياضيات والذي هو علم المسلمين وأُلف في هذا الفن بالأساس كتابا باسم "البير أباتشي" والذي سمي باسم "ليوناردو فيبوناتشي من بيزا" الذي تعرف بكتب الخوارزمي عن طريق فريدريك الثاني وذلك أيضا بسبب قربه من صقلية وليونارو فان من الكتاب الأوائل القليلين الذين يعترفون



أسلوب البناء من الطراز الإسلامي بارز في هذه الكنيسة التي بُنيت في القرن الرابع عشر الميلادي حيث جمعت المحاريب ذات القباب والمقاس الهندسي والحسن والجمال والهيبة والعظمة في مكان واحد.



بفضل أساتذتهم العرب بقلب مفتوح(٨٠). والخوارزمي سميت الخوارزمية علي اسم كتبه المترجمة إلي اللاتينية "ألجوريتمي دي نوميرو إندورم" والاسم اللاتيني "ألجوريتمي" جاء من "ألجوريثم" فتراجم بعض كتبه كانت قد تمت علي يد روبرت من تشستر من قبل في عام ١١٤٥م ولم تكن قد بقيت أي مدينة أوروبية جديرة بالذكر من بيزا وأنطاكيا إلي طليطلة وباريس وأوكسفورد نجت من حصار الآثار العلمية والتدفق الفكري للترجمة. وهدفنا هنا ليس عد وإحصاء المترجمين وكتبهم ولا ترتيب وتصنيف التاريخ العلمي لذلك العهد. إننا هنا نريد أن نُري الناس إجمالا أن الأشعة الأولي لحركة الاستكشاف حينما وقعت علي الغرب النائم في القرنين الحادي عشر والثاني عشر فكيف غشيتهم الفرحة الغامرة بسبب تعاملنا وتراجم كتبنا وظل الغرب لمدة خمسة قرون يعترف بتفوق علومنا واكتشافاتنا مرة بقلوب مفتوحة ومرة مجبرين ولتجنب الإطالة نكتفي هنا بذكر ابن الهيثم فقط.

بمجرد أن طُبعت الترجمة اللاتينية لكتاب ابن الهيثم كتاب المناظر "برسبكتيف" أو "دي أسبكتيبوس" فكأن النور قد عاد إلي عيون العهد المظلم للغرب. ومع طبع هذا الكتاب لم يتم نسخ وإلغاء العلوم اليونانية القديمة الخاصة بالبصريات والتي ضيعت جزءا كبيرا من عمر رئيس جامعة أكسفورد روبرت جروسيتيست وراء ترجمة هذه العلوم إلي اللاتينية(٨١) بل قام بدور كبير في سبيل تقرير المشاهدات والتجارب علي أساس أنها مفتاح العلم. وروجر بيكون الذي يُعتبر في الغرب شارحا عظيما للمنهج الاستكشافي والذي ترك أثرا غير عادي في غرب القرون الوسطي فهو يُعتبر تلميذا معنويا لابن الهيثم ولم يكن بيكون وحده بل معاصروه الآخرون أيضا مثل "جون بيكم" وفيتيلو فهؤلاء قلدوه في كتاباتهم تقليدا كاملا. وبيكم كان مرتعبا من علم ابن الهيثم الجليل وكان هذا واضحا من خلال استشهاده الدائم بأفكار ابن الهيثم في تحليلاته الشخصية. وكذلك كان حال بيكم أيضا الذي كان يذكر لتدعيم كتاباته بين الحين والآخر أن وجهة نظره هذه متوافقة تماما مع الكاتب مد ظله العالي وكان يقصد به ابن الهيثم(٨٣). إن التوجيه العلمي للبصر لدي بيكون وبيجن وفيتيلو هو نفسه الذي فسره ابن الهيثم حتي أن هؤلاء الثلاثة قدموا نفس الأمثلة لتوضيح وتنقيح مواقفهم فهي أيضا مأخوذة من ابن الهيثم(٨٤). إن هؤلاء التلاميذ الثلاثة لابن الهيثم قد أدوا إنجازا كبيرا في نشر علوم البصريات في بلاد أوروبا ومازالت الدنيا إلي الآن تعترف بأهمية بيكون وكذلك كتاب بيكم "برسبكتيف"وكتاب فيتيلو"برسبكتيفا كوميونيس" كانا متداولين في القرون الوسطي ككتابين مقررين في المدارس. ووجود عشرات المخطوطات لهذين الكتابين إثبات بين لهذا الأمر(٨٥). وقد تمت شروح



Binding Side

كثيرة لكتاب بيكم وفي مدارس أوروبا ظل هذا الكتاب ككتاب مقرر للبصريات حتي القرن السابع عشر الميلادي بل الحق أن كل تقدم البصريات الحديثة إلي اليوم سواء كان التقدم الخاص بالكاميرا أو النظارات والمنظار أو المجهر كل هذا وذاك في الواقع مرهون إلي حد كبير لكتاب المناظر لابن الهيثم.

طريقة التفكير الاستكشافي لروجر بيكون ومنهجه التجريبي "ديالقديسيا اكسبريمنتالي" قد قامت بهز الفكر التقليدي حتي اضطر البابا كليمنت الرابع بإصدار أمر منه (والذي صدر يوم ٢٢ يوليو لعام ١٢٦٦م) لتفتيش كتابات بيكون والاطلاع عليها وردا علي هذا أرسل بيكون مع كتبه رسالة إلي البابا واقترح فيها أن يتم وضع منهج جديد لمدارس الكنيسة حيث طلب إضافة مواد الأخلاق والفلسفة والدين مع علوم التقويم والبصريات والكيمياء والعلوم التجريبية والعلم الطبيعي وبصفة خاصة علم الكيمياء الذي لم تكن أوروبا علي علم به البتة. كتب عن هذا الطلب بكل قوة قائلا: "ولكن هناك أيضا علم آخر وهو علم توليد الأشياء باستعانة العناصر ولا نجد عن هذا العلم أثرا في كتب أرسطو ولا يعرف فلاسفة الطبيعة بهذا الشأن وليس لدي العلماء اللاتينيين غير المنظمين أي علم بهذا وبناء عليه فما دام عامة الطلبة لا يعرفون شيئا عن هذا ولذلك لا يعرفون شيئا عن ماهية الأشياء ويسمي هذا العلم بعلم الكيمياء الذي يقوم بتعريفنا بكيفية إتمام تكوين الأشياء المختلفة بمدد من الجمادات والعناصر المختلفة(٨٦)."

بسبب اهتمام الناس عموما بالعلوم الاستكشافية وتفوق المسلمين ثقافيا وسياسيا ازداد القبول علي الترجمات اللاتينية وهنا اضطرت الكنيسة لأن تقوم بإجراءات ضد روجر واتُّهم بأنه متأثر بابن رشد وسُجن علي إثره لمدة طويلة لكن وعلي الرغم من هذا ازداد اهتمام الناس بالعلوم الجديدة وتم قبول المنهج الاستكشافي الذي قام بتعريفه كمعيار للبحث عن الحق ومثل ابن الهيثم الذي دافع كل الدفاع عن أن يتم درء الشبهات بالتجارب والمشاهدات. كذلك قرر روجر أن تكون التجارب أساسا لعلوم المشاهدات وأبدي رأيه في هذا قائلا أننا نستطيع بهذه التجارب الوصول إلي النتائج الصحيحة. "التجربة تعرفنا بالعلوم الجديدة وتكتشف لنا دنيا جديدة وفي هذا العمل يحتل علم الرياضة أهمية كبيرة."(٨٧). إن الإصلاحات التعليمية لروجر وإن كانت سببا في تحويل المدارس المسيحية إلي مراكز العلوم الاستكشافية من جانب فمن جانب آخر من هذه الإجراءات بدأ يدب التغيير في الكنيسة نفسها. وقبل ظهور كيبلر استمر روجر ومعاصروه بيجن وفيتيلو قيادة الذهن الغربي بل الحق أن الأنشطة الاستكشافية للقرون الوسطي هذه هي التي مهدت المجال للثورة العلمية في القرن السابع عشر الميلادي ولو لم تكن قد ترجمت الكتب الاستكشافية إلي اللاتينية من أمثال علماء المسلمين



First World

Second World

Third World



المرصد الشهير بألغ بيك الذي أقيم في عام ١٤٢٠م بسمرقند. وذلك عندما
كان المسلمون يتحكمون بالوقت ولم يكن هناك وجود لتوقيت جرينيتش.

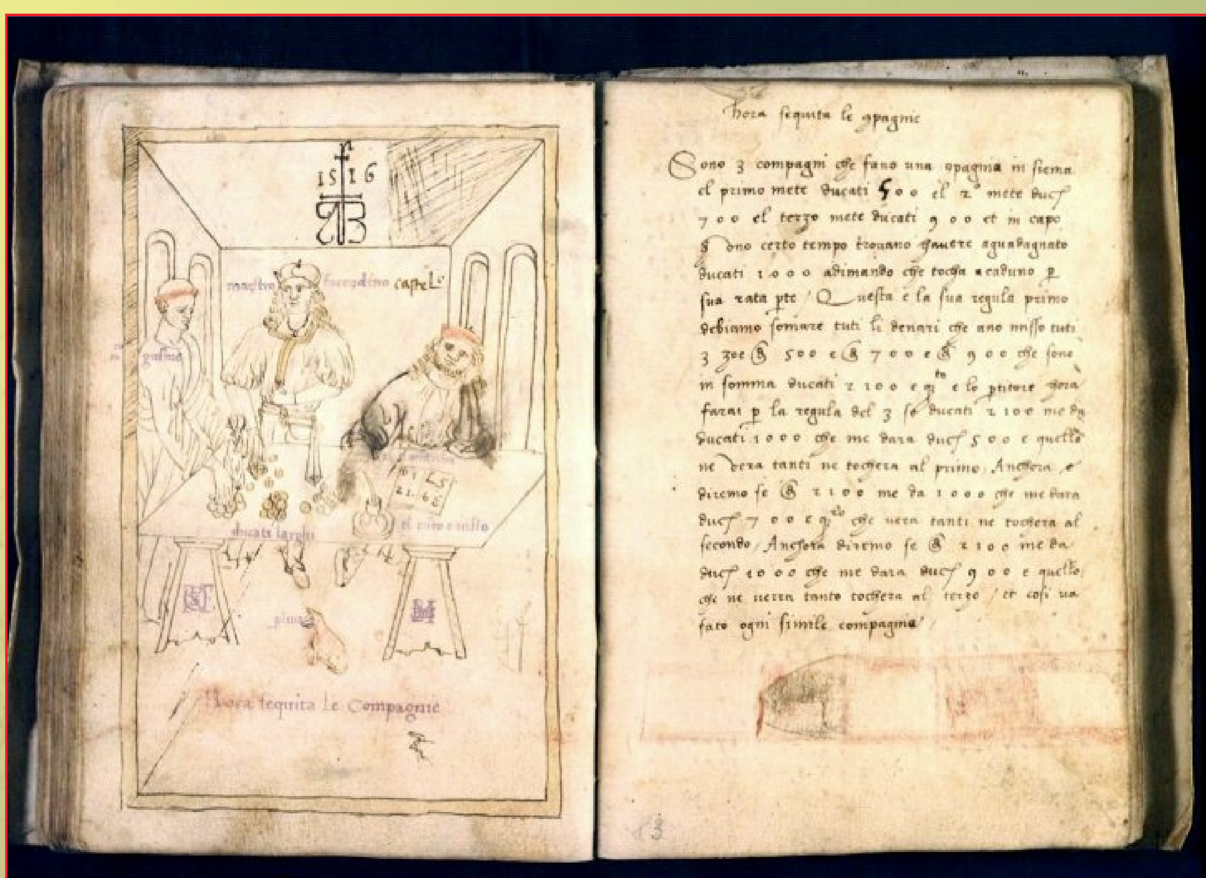


المكتشفين ابن الهيثم والبيروني والخوارزمي والمجريطي والزهراوي وابن سينا وابن شاطر وغيرهم وغيرهم ولم تمر أوروبا القرون الوسطي بفرحة غامرة ولم تكن كذلك كتابات الغزالي وابن رشد الفلسفية التي قامت بهز وزلزلة الفكر الديني للغرب اللاديني فلم تكن قد ظهرت الثورة العلمية في القرن الثامن عشر ولم تكن قد تولدت دواع لإصلاح الكنيسة.

## السرقة باسم الترجمة

ظل الغرب مبهورا بعظمة وجلالة المسلمين العلمية لقرابة سبعة قرون. ثم ما الذي جري في القرن الثامن عشر إذ طرأ تغيير جذري في ميزان القوي وغطي ضباب الزمن الأسود المفترض علي منن وأفضال علمية للمسلمين بحيث تم محو ذكر المسلمين من التاريخ العلمي لأوروبا. في رأيي أن سببا من أسبابه وعلله كان تشكيل الأساطير التي كانت أوروبا في حاجة ماسة لها للظهور في الأفق. وفي الصفحات التالية سنقوم بمقاضاتها بقدر من التفصيل. وكان السبب الثاني لهذا الأمر هو أن المترجمين

الأوروبيين للعلوم الاستكشافية كانوا قد طبعوا الكتب المترجمة بأسمائهم في نطاق واسع للغاية كأنهم هم الذين قاموا بكتابتها. وبسبب الرواج الكبير لهذه السرقة العلمية نشأت قضايا ومسائل كثيرة للمؤرخين وأصبح الأمر شاقا عليهم أن يعرفوا من أي الكتب العربية مأخوذة الكتب الأوروبية المشهورة والمتداولة في مختلف الفنون ومن هم المؤلفون المسلمون الحقيقيون لهذه الكتب. وكان قد أحس ابن عبدون بهذا الخطر منذ زمن طويل وذلك حينما كان السياح اليهود والمسيحيون من صقلية والأندلس يجوبون حول مراكز العالم الإسلامي باحثين عن الكتب العربية ومسوداتها ففي ذلك الوقت كان قد نبه ابن عبدون المسلمين قائلا: أن نتجنب بيع الكتب الاستكشافية علي أيدي اليهود والنصاري لأن هؤلاء يقومون بنسب تراجم هذه الكتب إلي أسماء بني جنسهم بيد أنها ثمرة الجهود العلمية للمسلمين(٨٨). وقد شجعت الكنيسة والدولة معا المترجمين بل المسؤولين بالكنيسة الذين كانوا شركاء في هذا العمل وكان داعيا من الدواعي وراء هذا العمل هو أن يتم تحرير العلوم بأقصي سرعة من أيدي المسلمين واستعبادهم(٨٩). ثم في مجتمع لم يكن تقليد العلم ناضجا ولم تكن أصول الأمانة العلمية واضحة ربما لم يكن يُحسب خطر السرقة العلمية بهذا القدر إلا أنه حدثت سرقة



صورة لكتاب "ليبر أباتشي" الخاص بالتلميذ النجيب للشرق "ليوناردو فيبوناتشي"، المطبوع في عام ١٢٠٢م.هذا الكتاب هو الذي عرف الغرب بالهندسة والعادات الهندية. وصفر اللغة العربية تحول في اللاتينية إلي"زيفروس" ثم جاء في اللغة الإيطالية باسم "زيفرو" حتي بدأ يطلق عليه في فينيسيا باللغة المحلية "زيرو".

التقدير أن هذه الحركة العلمية في الواقع عربية الأصل ثم أصبح الأمر ممكنا في القرن السابع عشر لمطبلي الغرب أن يلحقوا النهضة والحركة الإصلاحية وعهد النهضة والثورات الفكرية الأخري إلي الماضي البعيد المفترض إلي اليونان بدلا من نسبتها إلي مسلمي القرون الوسطي الذين كانوا في الأصل أصحابها الحقيقيين.

سمها سرقة أو اختطافا لكنها لا تقل خطورتها في أي حال من الأحوال. علي سبيل المثال روجر بيكون يقدم ابن الهيثم كمرجع من مكان لمكان لكنه في نفس الوقت يتهرب من أن يعترف صراحة بأن كتابه الكبير Opus Majus في الواقع مأخوذ من كتاب ابن الهيثم وهو Opropticae Thesaurus (٩٠). كذلك الحال مع Lattus Raymundus الذي يشتهر بتعصبه ضد المسلمين فقد قام بنشر عدد من الكتب العربية الأصلية في مادة الكيمياء باسمه ومن المترجمين الأوائل قسنطنطين الأفريقي الذي نشر باسمه الكتاب المفصل في علم الطب باسم Pantegne هو في الواقع كتاب علي بن عباس المجوسي المسمي بكامل الصناعة الطبية وقد ترجمه بالحرف الواحد بدون زيادة أو نقصان ونشره باسمه. وفي الغرب ظل هذا الكتاب متداولا باسمه زهاء قرنين من الزمان. وتعرض لنفس المعاملة كتاب العين لحنين ابن اسحاق وكتاب الماليخوليا لإسحاق ابن عمران وكتاب الباه للرازي وظلت هذه الكتب العلمية في أوروبا تعرف بأنها مؤلفات جالينوس فرفوريوس والاسكندر الطراليسي(٩١). كذلك تم نسبة كتب بعض المؤلفين المسلمين إلي المصنفين اليونانيين القدامي فعلي سبيل المثال مايكل سكوت أعد كتابا في فن الفلك مأخوذ من كتاب السماء لنور الدين بطروجي وابن رشد ونُسب هذا الكتاب إلي نيكولاس الدمشقي. مثل هذه الخيانة العلمية جعلت تحديد مكانة المسلمين الصحيحة أمرا صعبا وبدأت الإنجازات العلمية لعلماء مسلمي القرون الوسطي تنسب كذبا إلي علماء أوروبا الجديدة. علي سبيل المثال ليوناردو دافينشي بدأ يحسب أنه هو مؤسس الطائرة لكن ما قام به ابن فرناس في قرطبة قبل ستمائة سنة من مساع لقيام رحلة الطيران مُحي ذكراها من أذهان الناس وعلم الكيمياء لجابر ابن حيان مع جميع مستنداته التي تشهد له لم يستطع مقاومة الدعاية التي تقول أن علم الكيمياء يبدأ من "بويل" (٩٣). والزيج الجديد لابن الشاطر والذي من خلال اكتسابه بل قل بلا حرج علي السرقة العلمية منه يقوم مبني كوبرنيكوس قد ضاع في صفحات التاريخ وتم الاعتراف جهارا نهارا بأن كوبرنيكوس هو مؤسس الدنيا الجديدة(٩٤). واكتشاف ابن النفيس هذا عن كيفية تنقل الدم بين الرئتين والقلب (الدورة الدموية الصغري) تمت نسبته إلي




العكس اللاتيني لكتاب المناظر لابن الهيثم الذي طبعه "ويتلو" في عام ١٢٧٠م.

مايكل سروتس  1510-1153 Michael Servetusوكذلك إلي حد ما لويليام هارفي William Harvey 1578-1657  (٩٥).

واكتشاف تلميذ ابن النفيس وهو ابن القفCapillaries in Blood Circulation  تمت نسبته إلي مارسيلو  (96) (1628-1694) Marcello Malpighi of Bologna وكذلك عدد من النسخ العلمية المأخوذة من كتاب التصريف لأبي القاسم الزهراوي اشتهرت باسم مختلف علماء الغرب. علي سبيل المثال "كوجرس ميثود" المعروف بتصحيح المناكب التي انسحبت من مكانها أو فالتشر وتدندلنبورغ الذي يحسب مجربا وعمليا في تقليل ألم وضع الحمل. ليس هذا فحسب بل وصل الأمر إلي أن الآلات التي كانت تستعمل في مراصد ومعامل المسلمين تم أيضا نسبتها لعلماء الغرب الذين جاءوا فيما بعد. علي سبيل المثال في مرصد تقي الدين باسطنبول كان استخدام ميورال كوادرانت Mural Quadrant يقال له Tichonicus نسبة إلي تايكو براهي Tycho Brahe (٩٧).

أهل العلم من المسلمين كانوا قد عرفوا في القرون الأولي أن لون السماء ليس أزرقا وحسب علم الكندي فإن الغلاف الذي يحيط بالأرض يعطي ضوءا خافتا إذ أن الأجزاء الأرضية التي تتحلل في النار تنتشر وهي تقبلها بسبب أنها تعكس أشعة الأرض وحينها الغلاف المظلم الذي يوجد فوق رؤوسنا هو في الواقع الشفق المشكل من امتزاج الضوء الأرضي والضوء الكوكبي وهو الذي يظهر لنا باللون الأزرق لكن في معركة الغرب العلمية نُسب هذا التوجيه والاكتشاف الصحيح إلي ليوناردو دافينشي وغوته. ومع كتابات ابن الهيثم التي تُنشر في الغرب بكثرة فأني لأحد ألا يعرض اسما آخر غير هذا المخترع المكتشف الحقيقي للحجرة المظلمة لكن في فن التاريخ الغربي لا ينقص وجود مثل هذه المعجزات حيث عُرض اسم ليوي كمخترع للحجرة المظلمة بل ليوي هذا يُعرف في الغرب كمخترع كبير ولم لا يكون إذ نُسبت إليه المثلثات التي شكلها أبو الوفا البوزجاني والخجندي الكروية وكذلك عصا يعقوب المخترعة من قبل ابن سينا وأيضا كسر العشرية للإقليدسي(٩٩). ولفترة ما اعتُبر علم المثلثات اختراع كافاليري(١٦٣٢) إلي أن وصل هذا الأمر لدرجة الدليل أن مخترعه الحقيقي هو نصير الدين الطوسي(١٠٠) والخرائط الجغرافية لإدريسي التي ظلت تُنشر في مختلف اللغات حسب الضرورة وملاحو الغرب اعتمدوا عليها لقرون فالترجمة اللاتينية لتلخيص هذا الكتاب عندما طُبعت في باريس في عام ١٥٧٩م كُتب علي غلافه بدلا من اسم المؤلف الأصلي هذا فقط "الجغرافي النوبي" (١٠١). وبسبب هذه الكتابة ظل الستار مسدولا علي الهوية الإسلامية للمؤلف وهكذا تعرضت ثروة علمية عظيمة من فن الجغرافيا ورسم الخرائط للسرقة.

أقل من السرقة العلمية لكن الابتعاد عن ذكر اسم المؤلف الحقيقي يمكن مشاهدته في المخازن العلمية التي ظلت متداولة في مختلف العصور. فعلي سبيل المثال قام الملك ألفونسو العاشر بطبع كتب علم الفلك النفيسة تحت إشرافه وكان من ضمنها كتاب ابن الهيثم "هيئة العالم" في شكل موسوعة. وهذه الترجمة ظلت متداولة في أوروبا باسم "ليبروس ديل صابر لقرون" وكذلك رتب بواير باخ مجموعة من المجرات باسم Theoricae Novae Planetarum والتي كانت في الواقع مبنية علي ملخصات كتب ابن الهيثم وثابت بن قرة والزرقاني وريجيو مونتانوس قدم تلخيصا لكتاب بطليموس وهو في الأصل مأخوذ من كتابات الزرقاني والبتاني(١٠٢). وفي عصر برنكيوس وجاليليو وكيبلر كان هذا الكتاب متداولا وشائعا لكن من كان يعرف أن الكتب التي يتم تقديمها علي أساس أنها علوم يونانية الأصل هي في الواقع عصارة مساعي ومحاولات علماء المسلمين التي استمرت قرونا. وفيما بعد لم يعد الأمر سهلا لطلاب الغرب وإلي حد الشرق أن الكتب المتداولة من حيث مؤلفيها الأصليين لها علاقة

بالإسلام أو المسلمين وذلك لأن الأسماء اللاتينية مع مرور الزمن كانت تُشعر بعدم الأنس والألفة بسبب مرور الزمن. علي سبيل المثال كان ابن النفيس يُعرف باسم أنافس وأبو القاسم الزهراوي باسم Abulcasis وابن سينا تقرر أن يعرف باسم Avicenna وجابر ابن أفلح ب Gaber أو Jaberوابن الهيثم بAlhazen وخالد بن يزيد بCalid ويعقوب الكندي بAlkindus والرازي Rhazes والخوارزمي بAlgoritmi وابن رشد Averroes والزرقالي Arzachel وأبو معشر بAlbumasar والغزالي بAlgazel وابن طفيل Abubacar والفرغاني بAlfraganus والبطروجي بAlpetragius. فالأسماء اللاتينية هذه أسدلت الستار علي الهوية الإسلامية لتلك العلوم.

## قدوم الجامعة إلي أوروبا

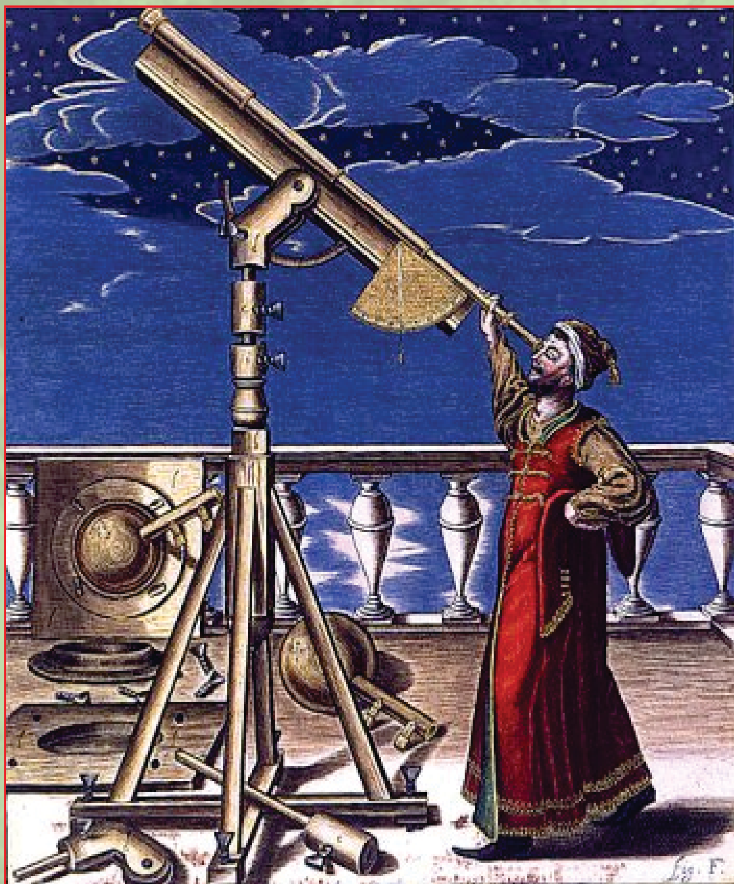
السمعة الكبيرة للعلوم الاستكشافية أي العلوم العربية "ستوديا أرابم" ولدت نوعا من التشويق والتوجس بشأن الدراسة الإسلامية. إن جون آف لندن حينما عاد من زيارة القدس في عام ١١٨٠م أقام أول مؤسسة تعليمية كبيرة للطلاب الفقراء والمساكين باسم College Des Dix-Huit ولم يكن في الغرب المسيحي من قبل أي تصور لمؤسسات تعليمية ذات وقف(١٠٣). والمدارس التي أقيمت في البداية كانت منحصرة علي المدن التي تتصل حدودها بالعالم الإسلامي. علي سبيل المثال مدن ساليرنو ونيبلس وبولسونيا ومونبيليه وباريس وغيرها(١٠٤). والغرب رأي أول جامعة حينما سقطت صقلية المسلمة وجاءت بأيديهم أول كلية طبية علي مستوي العالم بمدينة ساليرنو(١٠٥) ثم بعد سقوط طليطلة تم اتصالهم بمدينة مليئة بالأنشطة العلمية حيث بدأ يتجمع عشاق العلم من مختلف مناطق أوروبا المسيحية وذلك بعد انسحاب المسلمين منها سياسيا وفيما بعد تولي خريجو طليطلة وساليرنو مسئولية التدريس والتوجيه في مدارس باريس وبولسونيا ومونت بيليه وأوكسفورد. علي سبيل المثال لا الحصر جيلبرت الذي قام بدور كبير في مجال التعريف بالأسلوب الفكري الاستكشافي وكان هذا الرجل قد تتلمذ في الأول في برشلونة ثم في قرطبة الإسلامية وإشبيلية علي يد أساتذة مسلمين وكذلك كان حال روجر بيكون الذي كان قد تعلم اللغة العربية أيضا بالإضافة إلي الحصول علي العلوم الاستكشافية وأرنولد فيلانوبي ورايمندلوليو أيضا كان من خريجي الأندلس المسلمة وهو الذي احتل فيما بعد كرسي التوجيه والإرشاد. ولا ننسي أنه هو الذي قام بإعمار "كامبانوس دو نوفارا". وهذا هو حال أستاذ مدرسة فيينا المسمي "دانيل أوف مورلي" فهو أيضا كان من خريجي



Binding Side

قرطبة وكذلك رئيس جامعة أوكسفورد "روبرت جروسيتيست" وهذان الأستاذان كانا أيضا من خريجي مدارس الأندلس المسلمة(١٠٦).

هؤلاء الخريجون من مدارس العلوم الإسلامية حينما عادوا إلي بلادهم جلبوا معهم أحلام إنشاء مدارس علي الطراز العربي. وأكابر الكنائس الذين كانوا قد أخذوا أماكنهم في الصفوف الأولي من حركة الترجمة أيدوا فكرة إنشاء مدارس قائمة بذاتها ومختلفة عن مدارس الكاتدرائية ففي عام ١٠٨٨م أقيمت أول جامعة مستقلة في بولسونيا وفي عام ١١٥٠م أقيمت جامعة في باريس وفي عام ١١٦٧م أقيمت جامعة أوكسفورد وفي عام ١١٧٣م أقيمت جامعة في ساليرنو وفي عام ١١٨٨م أقيمت جامعة في ريجيو وفي عام ١٢٠٩م أقيمت جامعة كامبردج وفي عام ١٢١٨م أقيمت جامعة في سلامنكا وفي عام ١٢٢٢م أقيمت في بيتوا جامعة في شكلها البدائي. هذه المدارس والجامعات أقيمت علي طراز المدارس والجامعات العربية فكان أسلوب الدراسة بل حتي المباني تأخذ الصبغة العربية(١٠٧). وقد قدم جورج مقديسي شواهد كثيرة ووافرة علي أن تحديد درجات الماجستير والدكتوراه والأستاذية ومنح الشهادات وقت نيل هذه الدرجات في الأصل راجت وشاعت بتأثير من أسلوب وطريقة الدراسة الإسلامية السائدة في القرون الوسطي. يُقال أن الدكتوراه في الواقع ترجمة لكلمة لاتينية وهي اختصار لكلمة أخري ومعناها شهادة التدريس وهي ترجمة حرفية للمصطلح العربي الأصل إجازة التدريس. وبصفة عامة كان العرب يستخدمون مصطلح إجازة التدريس والإفتاء بالكامل ففي المنهج الدراسي الإسلامي كانت تأتي درجة الفقيه أولا ويليها المفتي وفي الأخير كانت تأتي درجة المدرس أي الدكتور(١٠٨). وهذا النظام التقليدي الإسلامي



Johannes Havelius (1611-1687)

العالم الفلكي الأوروبي المتتبع لعلوم العرب.

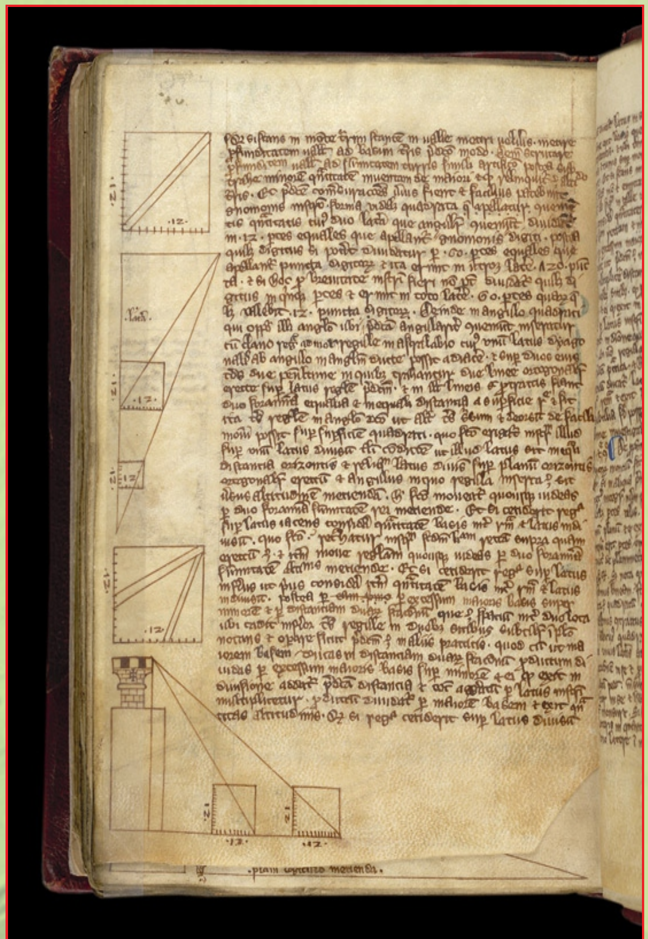


Binding Side

للجامعة في القرون الوسطي انتقل إلي أوروبا عن طريق التراجم اللاتينية وهذا هو النظام السائد إلي الآن ليس في الغرب فقط بل في جميع شعوب الدنيا. ومن يصدق اليوم أن البالطو والقبعة كانا قد انتشرا في أوروبا القرون الوسطي علي أساس تقليد المسلمين وحتي كلمة "كوليج" في الأصل اختصار للشكل اللاتيني "كولجييت" المأخوذة من الكلمة العربية "الكلية"(١٠٩).

## وصول الحضارة والتكنولوجيا إلي أوروبا

إن العالم الإسلامي في القرون الوسطي كان بمثابة علامة فارقة في الغلبة والرخاء للاستكشاف الحضاري وأهل الغرب كانوا مبهورين ومرعوبين بما كانوا يرون بأعينهم من مدن عظيمة الشأن مثل بغداد والقاهرة وقرطبة عامرة كل آن بتيسيرات النقل والمواصلات ووجود الأسواق والأنشطة التجارية بكثرة كانت علي أشدها بسبب الوفرة في الخامات والصناعات وبالعلم والفن والاختراعات. إن تيسيرات الحياة المدنية علي هذا المستوي الكبير ووفرة الحبوب الغذائية وإتاحة الأوقات الكافية للمشاغل العلمية والترفيهية فأي ماكينة وراء هذه الأبهة والعظمة والتي توفر لهم كل هذه النعم بدرجة من الكمال. استمر مفكروا وعلماء الغرب منذ قدوم المسلمين إلي إسبانيا وصقلية في إكمال هذه المهمة وهي أن يستوردوا التفوق العلمي والاستكشافي بل تكنولوجياتهم قبل كل شيء واستمرت مهمتهم هذه إلي أواخر القرن السادس عشر. إن زيج الخوارزمي هو الذي استمر لبناء عملية الزيج في أماكن مختلفة وفي آخر الأمر تم رسم خط جرينتش وهي علامة وإشارة يعرف من خلالها تقليد الأخذ والاكتساب الذي استمر قرابة ألف عام وإلا ففي كل مجال من مجالات الحياة استمرت شعوب أوروبية خلال هذه الألفية في اتباع وإلي حد ما تقليد العالم الإسلامي. علي سبيل المثال خذ مشكلة الغذاء فالعالم الإسلامي كان لديه رخاء في هذا المجال إذ كان الإنتاج غزيرا وضروريات الحياة كانت متوفرة بسبب الوفرة في الإنتاج. كان هناك استخدام طريقة متقدمة للري بشكل فني فقد كانت أقيمت شبكة من الأنهار الصناعية مستعينةً بنهري دجلة والفرات حول بغداد وضواحيها(١١٠). كذلك في مرو (خراسان) كان نظام الري محكما جدا وكان حوالي عشرة آلاف من العمال معينين لهذا الغرض وحده(١١١). ونهر صغد الذي يمر بين سمرقند وبخاري كانت الحقول المخضرة علي جانبيه تقدم مناظر خلابة وآسرة للقلوب. والآن وبعدما أثبت المسلمون وجودهم في الأندلس فقد استخدموا نفس طرق الري في مناطق نهري الوادي الكبير وبلنسيا بشكل فني بلغ درجة الكمال(١١٢). في المراحل الابتدائية انتقلت إلي الغرب طرق تكنولوجيا الري من جانب المسلمين وكان



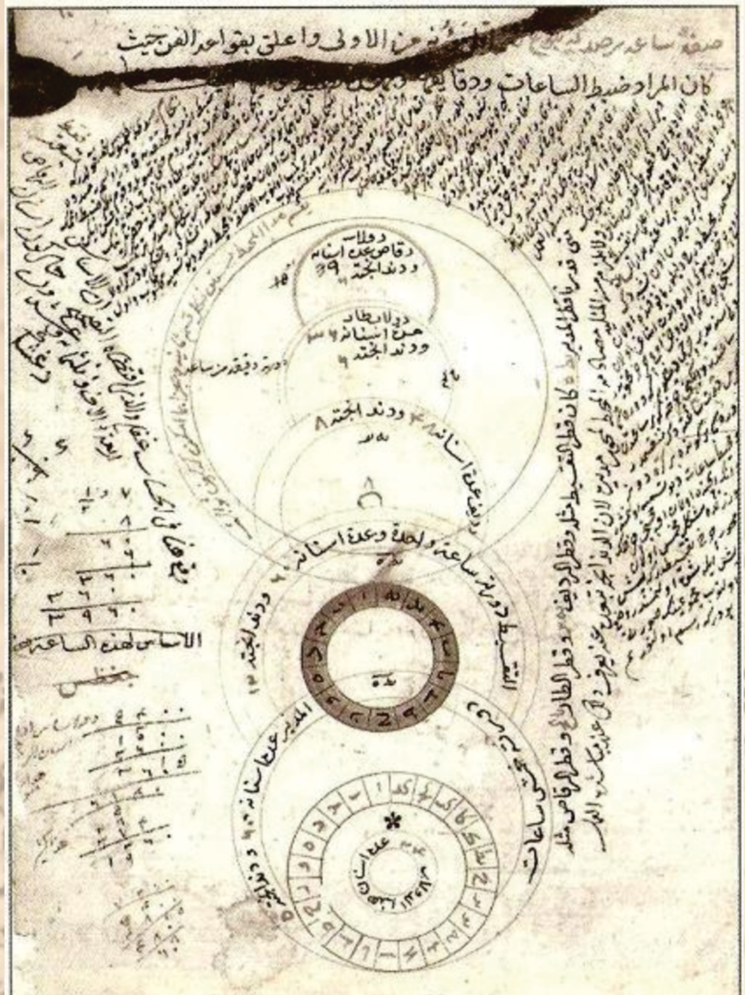
**صفحة من علم المثلثات وذلك حينما كانت العلوم العربية تعامل كمقررات دراسية في مدارس أوروبا.**

منها الساقية والناعورة بصفة خاصة، أما الساقية فكانت عبارة عن نوع من الماكينات تديرها المواشي ومن خلال هذه الدورية كانت تُستخرج المياه وتُستعمل في مجال الري وبدأت هذه التقنية أول ما بدأت في مصر القديمة ولكن في القرون الوسطي نال مزيدا من التطور وانتشر فن الري في أسبانيا عن طريق المسلمين ومن هناك أخذ في الانتشار في الدول الأوروبية الأخري(١١٣).

إن استخدام طريقة الساقية إذا كانت سهلت استخراج المياه من تحت الأرض للري فقد كانت طريقة الناعورة اختراعا محيرا إذ كانت تعمل بالطاقة الناتجة من تيار الهواء وموجات النهر وبهذا كان يصل الماء إلي الأراضي المرتفعة بنفسه. كانت تقام عجلات سحب المياه الخشبية العملاقة بحيث تتحرك من أمواج المياه وبعدما يتجمع الماء في الصناديق والسلات المتصلة يصل باستمرار إلي الأعلي (أي إلي الأراضي المرتفعة). كانت هذه الماكينة تعمل بنفسها دون الحاجة إلي وقود أو أي نوع من المراقبة(١١٤). إن المسلمين قاموا بتعريف هذه التقنية في طليطلة وأسبانيا.

تصور تلك البيئة للقرون الوسطي حيث كان يوجد حماس زائد لترجمة الكتب العربية إلي اللاتينية حيث تكون الحرب مستمرة بين المسلمين والمسيحيين وفي نفس الوقت تكون العلاقات التجارية متصلة ببعضها حيث يكون منظر الشمس والظل واقعا بين النصر العسكري والهزيمة. في بيئة النصر ونصر ما بعد النصر تنتقل المدن المضيئة والمصانع المنتجة إلي أيدي العدو. والعدو في نفس الوقت يحرص علي إبقاء جميع المسلمين الفنيين بأنشطتهم في نفس المدينة (المحتلة)، ففي مثل هذه البيئة فإن قضية تنقل التقنية (التكنولوجيا) كانت تعد قضية تعامل اجتماعي (١١٥).

بصفة عامة فإن الناس قليلا ما يلتفتون إلي أن المؤلفات العربية الأصيلة أيضا ظلت مركز اهتمام العلماء والمفكرين الغربيين بالإضافة إلي التراجم اللاتينية للعلوم العربية. في القرون الوسطي كانت سطوة وشأن أهل العلم في الغرب قائمة علي اللغة العربية(١١٦). إن الأندلس وصقلية كانتا من مراكز الحضارة العربية أصلا لكن المناطق الأخري للغرب مثل إيطاليا وفرنسا فقد كانت تتم دراسة اللغة العربية في المدارس والمعاهد بصفة أساسية. ووصل الأمر في عام ١٦١٩م إلي حد أن جامعة أوكسفورد اشترطت علي أساتذة الهندسة والفلك أن يكونوا علي معرفة باللغة العربية(١١٧). ولذلك فالمخطوطات العربية للعلوم الاستكشافية كانت في متناول أهل الغرب وإلي يومنا هذا لا تخلو مكتبة في الغرب خالية من أمثال هذه المخطوطات. إن الشواهد والمستندات التي قدمها جورج صليبا علي أساس أن كوبرنيكوس استفاد من ابن شاطر استفادة مباشرة تعطي طابعا مباشرا بأن الغرب في القرون الوسطي لم يخل من أولئك الذين كانوا مؤهلين للاستفادة والاكتساب من الكتب العربية مباشرة وكان هذا هو السبب أن هواة العلوم الاستكشافية في الغرب في القرن السابع عشر كانوا يسيحون في العالم الإسلامي وحين العودة إلي أوطانهم يحضرون معهم ذخيرة كبيرة من المخطوطات العربية. وفي المصادر الشرقية والغربية نجد ذكرا لأمثال هؤلاء السياح الذين كانوا يخرجون للسياحة باحثين عن العلم من مكان لآخر. علي سبيل المثال خذ العالم الفرنسي "غيوم بوستل" المتوفي ١٥٨١م هذا العالم معروف بمعرفته العميقة للغة العربية ولعله كان قد سافر بأمر من ملك فرنسا إلي عدد من الدول منها اسطنبول وفلسطين وبلاد الشام وبعد الجهد الجهيد الذي استمر عدة سنوات رجع إلي فرنسا ومعه ذخيرة غالية من الكتب. كذلك يُقال عن "ياكب يوليوس" المتوفي ١١٦٧م الذي أصبح فيما بعد أستاذا للغات الشرقية بجامعة لايدن. ويُقال أنه حينما عاد من رحلة العالم الإسلامي فكان قد جاء معه ما يقرب من ثلاثمائة كتاب باللغة العربية والفارسية والتركية علي أساس مركز الحضارة الغالبة كان العالم الإسلامي في هذه القرون مكانا آمنا ومُفرحا لهواة الغرب وكان بعض الناس يقضون معظم حياتهم في المناطق الإسلامية باحثين عن العلم. علي سبيل المثال خذ مؤلف كتاب "ليبر أباتشي" ليوناردو فيبوناتشي المتوفي ١٢٢٨م الذي قضي حياته الدراسية في الجزائر وبلاد الشام ومصر وبعدما رجع إلي وطنه علم الغرب الرياضيات والأشكال الهندسية والهندسة. وهناك عالم إيطالي يسمي "بتريارك نيما" فبعدما عاد إلي وطنه في عام ١٥٧٧م فلورنس (إيطاليا) من ديار بكر بعدما أقام هناك مدة طويلة جلب معه مكتبته الخاصة به أيضا. يُقال أنه نظرا لجلالة علمه وإحضاره لمكتبة قيمة استقبله البابا جريجوري الثالث عشر استقبالا حارا. فلو لم يكن في الغرب كل هؤلاء العلماء الذين



رسم بياني للساعة الميكانيكية لتقي الدين.

كانوا يستفيدون من الكتب العربية مباشرة ولم يكن هؤلاء عارفين باللغة العربية لما كان في الإمكان أن يستمر العثور علي الكتب العربية طوال سبعة قرون من الزمان علي هذا المستوي الكبير وإن بقي كثير من الكتب ولم تجد مكانا مباشرا في فهرسة الكتب المترجمة فالسبب هو أنه بعد الأخد والاستفادة من هذه الكتب كان قد بدأ طبع المصنفات اللاتينية. خذ علي سبيل المثال كتاب جابر ابن حيان الخواص الكبير وكتاب الفروسية والمناصب الحربية لنجم الدين الرماح المتوفي ١٢٥٩م أو كتاب المخزون لأرباب الفنون لمؤلف مجهول فتستطيع أيها القاريء أن تري ملامح وآثار هذه الكتب علي لايبر بشكل واضح. واستمر تقليد الاستفادة المباشرة من الكتب العربية حتي أواخر أيام القرن السادس عشر حينما بدأ تقليد الكتب المطبوعة في أوروبا يزداد رسوخا لكن حتي في ذلك الوقت لم تتحرر هذه الكتب من كتب المسلمين الاستكشافية ولهذا الموضوع هناك مثال لطيف وهو كتاب "أغوسطوني راميلي"وهو خاص بالماكينات وطُبع في عام ١٥٨٨م ويُري في هذا الكتاب أثر واضح لكتاب تقي الدين الشامي وهو الكواكب الدرية في البنكمات الدورية المطبوع عام ١٥٥٦م.

إن صنعة الورق والطباعة أيضا وصلت إلي الغرب عن طريق الأندلس الإسلامية. يُقال أن أول مصنع للورق أُقيم في مدينة "جاتيفا" بالأندلس وبسرعة أقيم في فرنسا مصنع لتصنيع الورق عام ١١٥٧م وكذلك أقيم في إيطاليا عام ١٢٧٦م مصنع لهذا الغرض نفسه. قبل ذلك كان الغرب يستورد

الورق من بغداد ودمشق علي مستوي محدود. وكان ورق دمشق لأوروبا معروفا ب"الصفائح الدمشقية" وورق بغداد كان معروفا بBagdatixon(١١٩).

بعض المؤلفين الأوروبيين مازالوا مصرين إلي الآن أن اختراع الساعة من إنتاج حضارتهم وحسب هذا الرأي تم نصب أول ساعة في الدنيا علي برج كنيسة "القديس يوستورجيا" عام ١٣٠٩م وإن كانوا يتهربون من ذكر اسم مخترعها(١٢٠). صنعة الساعات أيضا انتقلت إلي الغرب عن طريق الأندلس مباشرة(١٢١).

يُقال أن الزرقالي كان قد نصب ساعة مائية كبيرة في طليطلة علي ساحل نهر تاجة في عام ١٠٥٠م وقد ظلت تؤدي مهمة الإخبار بالوقت حتي بعد سقوط طليطلة وكانت تعد وقتئذ هذه الساعة من عجائب طليطلة. إن كتاب الحيل لبني موسي الذي يتعلق بالماكينات التي تعمل بنفسها وكتاب ابن الجزري فبعدما تمت ترجمة هذين الكتابين إلي اللغة الإسبانية قاما بدور هام في مجال التعريف بالتكنولوجيا المختلفة وإن جئنا إلي الحق فصنعة الساعات في عالم الغرب ظلت تحت أثر ابن الجزري بشكل تام إلي القرن الثامن عشر الميلادي وفيما بعد حينما أصبحت الساعات ذات تروس وانتشرت وراجت الساعات الميكانيكية فحتي في تلك الأيام لم تنقطع صلة الغرب بالتكنولوجيا الشرقية واستخدام التروس كان رائجا في الآلات الفلكية بالإضافة إلي الساقية والناعورة الخاصة بالري.

تيار المياه سواء كان بسبب التيار الطبيعي أو بسبب السدود لجعلها أكثر تأثيرا. وكل هذه الاستخدامات كانت قد أصبحت محكمة في القرن الثامن الهجري في العالم الإسلامي. وكانت الطواحين منصوبة علي نهري دجلة والفرات وهي التي كانت توفر الدقيق لأعداد كبيرة من سكان المدينة. وقد جاء ذكر تدابير كثيرة تخص استخدام طاقة المد والجزر(١٢٣). وقد شاع استخدام السواقي في قرطبة في القرن الثاني عشر الميلادي عن طريق المسلمين كما يُعرف من تذكرة الإدريسي. في كتاب السبعين لجابر ابن حيان

وقد عرف الغرب علم الكيمياء بشكل أساسي عن طريق الترجمة اللاتينية التي قام بها المؤلف الإنجليزي روبرت آف تشستر في عام ١١٤٤م وهي معروفة ب"تكوين الخيمياء". قبل ذلك كان الغرب جاهلا بعلم الكيمياء كما تساءل روبرت في مقدمة ترجمته مخاطبا قراءه: ما هي الكيمياء؟ وما هي التعاملات المسماة بالكيمياء؟ فدنياكم اللاتينية إلي الآن غير مدركة له وسأقوم بفك هذه العقدة في هذا الكتاب(١٢٤).



منظر لمدرج دراسي والطلاب بالجلابيب والعمائم في أوروبا في القرن الرابع عشر الميلادي تأثرا بالحضارة المسلمة.



في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي نالت الإسبانية المسيحية هدية غير عادية من جانب المسلمين وهي التي قامت بتغيير ميزان القوي بين العالم الإسلامي والمسيحي. لم يُقدر في ذلك الوقت خبايا وأسرار نقل تكنولوجيا البارود أو النفط لكن فيما بعد في القرون التالية حينما خرج الجنس الأبيض المسيحي بعد تطوير هذه التكنولوجيا للاستيلاء علي العالم الإسلامي فكان قد حدث تأخر كبير.

منذ البداية وإلي الآن قليل من المؤرخين المسلمين التفتوا إلي نقطة هامة وهي أن أبهة وعظمة العالم الإسلامي وتفوقه العلمي والفكري والاقتصادي كان له سبب آخر وهو تفوقه العسكري التكنولوجي. ففي المراحل الحاسمة من التاريخ حينما كاد مصباح الأمة بأسرها أن ينطفيء وبعد

سقوط بغداد كان المغول يتقدمون إلي بلاد الشام وفي هذه اللحظات جعل استخدام البارود بكل دقة علمية المغول مجبرين علي الاستسلام وقبول الهزيمة. فعندما بدأت تخرج الشعلة النارية من فوهة الصاروخ والدبابة فأحصنة المغول فرت قسورة والمشاة أصبحوا مجبرين علي الاستسلام بسبب هذا الهجوم الناري(١٢٥). ومثل هذه الحالة كانت قد حدثت خلال الحرب الصليبية السابعة وهي الحرب التي كان يقودها لويس التاسع بنفسه. يُقال أن لويس التاسع هذا كان قد استولي علي مدينة دمياط المصرية عام ١٢٤٩م وفي العام التالي أي عام ١٢٥٠م هاجم مدينة المنصورة وهنا كان قد أعد المسلمون في مختلف مواقع المواجهة فوهات نارية للبارود(١٢٦). في مواجهة هذه الحالة فقد لويس وجيشه حواسهم وأسر المسلمون لويس التاسع بكل سهولة ويسر وبعد هذه الهزيمة انهار العدو الصليبي وهكذا كان التفوق العسكري التكنولوجي للمسلمين سببا في الدفاع عن مستقبلهم في هاتين الحالتين الدقيقتين وقد جاء ذكرهما في الكتيبات العسكرية بالتفصيل ووصلت إلينا هذه المعلومات وإلا فمعروف أن فن التاريخ المقبول العام لا يذكر مثل هذه التقنيات الدقيقة.



الأندلس المسلمة: بعيدة عن التلوث البيئي والميكنة المائية المسماة بالناعورة التي كانت تعمل بأمواج البحر وكان ابتكارها قد أوجد ثورة زراعية في العالم الإسلامي.

في اليوم الذي جاء فيه الغرب أمامنا كحضارة منتصرة وكذلك منذ أن سادت رؤية المعركة الغربية علي أساس التاريخ العالمي فيحسب بصفة عامة أن الشعوب الأوروبية أول ما فعلته أن جعلت نفسها أميرا للبحر بعد اختراع البارود ومحركات البخار ثم انطلقت نحو تسخير واستكشاف الدنيا بأسرها غير أن الواقع يقول أنه لم يكن هناك أي رواج لاستخدام البارود في الغرب حتي القرن الرابع عشر الميلادي. ومن خلال مخطوط لبشير آغا يُعرف أن الهزيمة

الحاسمة للصليبيين كان من أهم أسبابها استخدام البارود لأن الإنجليز حتي ذلك الوقت لم يكونوا علي علم بهذه التقنية(١٢٧) حتي أن سائحا فرنسيا حينما وصل إلي دمشق في النصف الأول من القرن الخامس عشر استغرب أشد الاستغراب من أن الناس لدي استقبال قافلة الحجاج يطلقون قذائف نارية(١٢٨). وإن اختراع البارود يرجع فضله إلي الصينيين كما بدأ دارسوا الغرب يعترفون الآن ولكن كثيرا منهم إلي الآن لا يسوغ لهم أن يعترفوا أن المسلمين هم الذين قاموا بتنمية معادلاته المتوازنة وفي الأخير وصلت هذه التكنولوجيا إلي الغرب عن طريق الأندلس مباشرة(١٢٩). ويري بعض الخبراء المسلمين بغرناطة في الأيام الأولي وهم يقومون بتدريب الناس علي هذا الفن في البلدان المسيحية ويُقال أيضا أنه أثناء محاصرة الجزيرة خلال ٤٢-١٣٤٠م استخدم المسلمون البارود بكثرة وقد تضرر العدو كثيرا لكن في نفس الوقت تولد فيهم تشوق الدراسة لهذه الطريقة من الحرب. حسب بعض المؤرخين(١٣٠) كان يشارك في هذه الحرب "إيرل أوف دربي" و"إيرل آوف ساليسبري". إن هذين الشخصين قاما بتعريف أهل انجلترا بتكنولوجيا البارود أما في رأيي أنا فهو أن المشاهد الحربية المحضة أو تحليل البقايا البارودية لم يكن كافيا لتحضير وإعداد السلاح الناري وربما لم يكونوا في حاجة إليها مادام في الأندلس النصراني يتواجد المهرة المسلمون لهذا الفن ومازال توافد الطلاب والهواة مستمرا إلي أسبانيا من أجل الحصول علي الكتب العربية واستكشافات المسلمين العلمية فحينها لا حاجة لأن يترك هذا الطريق المباشر للكسب ويتم اختيار طريق سرقة التكنولوجيا(١٣١).



## النهضة: تشكيل أسطورة جديدة

بسبب التعامل مع العالم الإسلامي من قرون وكذلك بسبب تنقل العلم والحرفة تغيرت ماهية وشكل أوروبا حتي أصبح أهل أوروبا مع نهاية القرن الخامس عشر مغمورين بثقة جديدة وبدأوا يحسون وكأنهم يعيشون لحظة تاريخية غامرة بالفرح حيث ظهرت أنشطة مبهجة حولهم من كل جانب وفيما بعد سمي مؤرخو الغرب هذه الثقة الذاتية التي تولدت في الأصل نتيجة ما اكتسبوه من النهضة وقام تشكيل هذه الأسطورة الجديدة بدور رئيسي في منح الثقة والاعتبار للمعركة الغربية من التاريخ. تأمل قليلا أيها القاريء أن أشعة العلوم الاستكشافية حينما كانت تصل إلي داخل أوروبا عن طريق صقلية وطليطلة فلم يكن وقتها أي وجود لأوروبا علي المستوي الحضاري ولم تكن قد ظهرت الشخصية الحضارية لأوروبا لأن أوروبا وقتئذ كانت عبارة عن أمراء صغار وكبار ومجموعة إمارات متنافرة ومتحاربة وغير منظمة بل متخلفة ففي ذاك الوقت لم يكن هناك أي تصور للحروب

الصليبية ولم تكن هناك أية ملامح واضحة لأي نظرية لدولة نصرانية وشارلمان هو أول شخص قدم لأول مرة فكرة اتحاد أوروبا وملامحها النظرية وذلك في مقابل الخلافة الإسلامية لتكون عبارة عن شخصية متحدة أوروبية ذات صبغة مسيحية.

ولو نُظر لهذا الأمر بعين الاعتبار فالتخيل الحضاري لأوروبا أو الغرب أو تصور الوحدة النظرية للعالم المسيحي هو أيضا في الأصل نتيجة التعامل والمنافسة مع العالم الإسلامي. فشارلمان هذا الذي أدي دورا رئيسا في عالم الغرب وإن كان هذا الشخص نفسه لم يكن علي



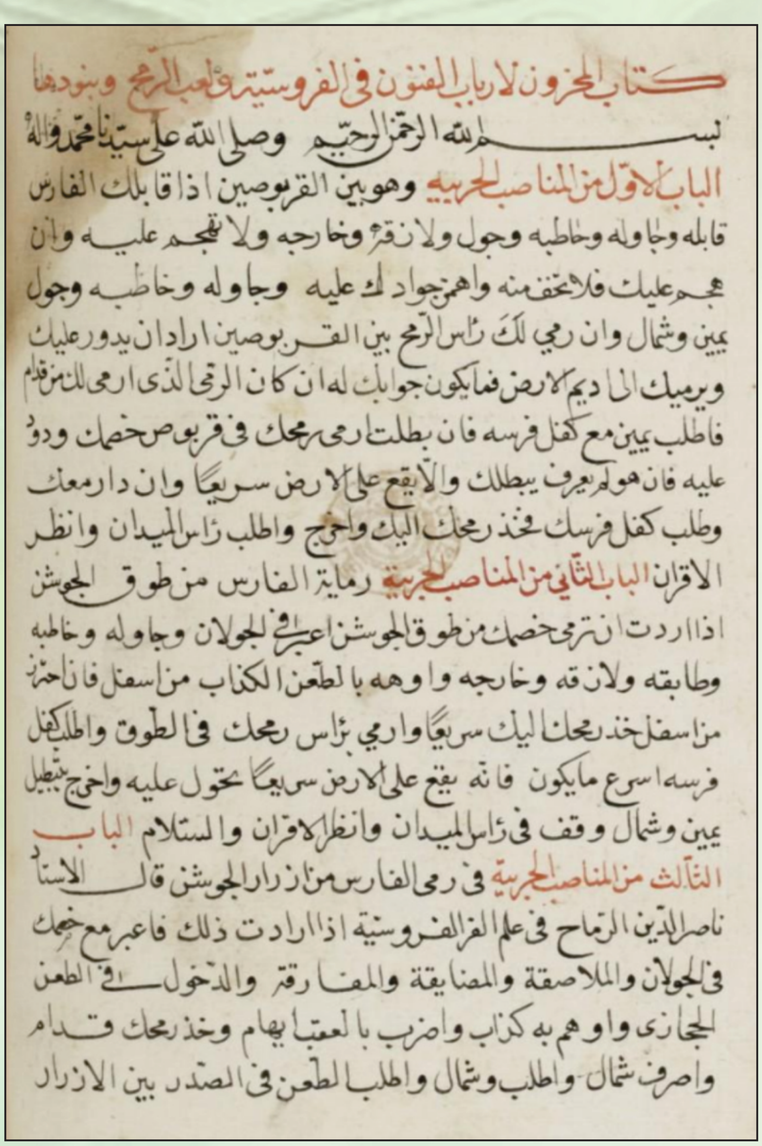
الباقيات المباركة لناعورة في بلاد الشام.

معرفة بالعلم والفن لكن الله كان قد منحه كفاءة غير عادية في التنظيم وامتيازات عسكرية وكان يري أن الوحدة الأوروبية لا بد لها من الاستفادة من العلوم العربية. يُقال أن معاصره جربرت الذي عُرف فيما بعد باسم البابا سلفستر الثاني فحينما نشر هذا الرجل بحثه ذا الأربع صفحات فقط في عام ٩٠٨م عن علوم الرياضيات حدثت في العالم المسيحي نفس الضجة التي كانت قد حدثت في عام ١٩٠٩م حسب قول ديوديليوس وقت طبع مقالات آينشتاين الأربع طبيعيات (١٣٢). وجربرت هذا قام بحل المسائل الأساسية للجمع والطرح للغرب للأبد بالاستعانة بالهندسة العربية-الهندية. إن جمع وطرح الأعداد الكبيرة والضرب والتقسيم أصبح الآن سهلا وميسورا وهو الأمر الذي لم يكن متصورا في الأعداد الرومانية البيزنطية. كان يُنظر إلي تلك الهواية لجربرت في علم الرياضة الأدبي بعين القلق في الأدب النصراني ففي عام ٩٩٩م حينما تولي كرسي البابا بعض الناس كانوا يشكون بأنه دجال

ضد النصرانية تمت توليته علي كرسي البابا في أواخر الألفية النصرانية للتاريخ تحت نظام إلهي بسبب هوايته وحبه للرياضيات أو هي إشارة لقرب وقوع القيامة وأن الدنيا ستنتهي مع نهاية الألفية. لكن من كان يعلم أن تلميذ العلوم العربية جربرت هذا كان داعية ونقيبا لإحياء الغرب وليس هادما وقاضيا عليه. ولم يكن قد مر قرن ونصف قرن أو قرنان من الزمان حتي راجت تراجم العلوم العربية وتحولت أوروبا القرن الثاني عشر إلي مدرسة للعلوم الاستكشافية(١٣٣). وعند نهاية القرن الخامس عشر اضطرت أوروبا لتعريف نفسها من جديد بخلق أسطورة النهضة.

إن النهضة وحركة إصلاح الديانة أو عصر النهضة الافتراضي لأوروبا (كل هذه المصطلحات ليست من إنتاج التاريخ بل هي نتاج فن التاريخ) هي في الأصل سعي لتشكيل رواية غربية بصفة أساسية وهذا يؤكد لنا أن أيام منتهي ومعراج التاريخ الإنساني ظهر تحت قيادة الغرب غير أن التحليل والنقد بدرجة عادية جدا لهذه التصورات والتهيؤات يكفي لرفع الستار عن طلاسمهم هذه. أولا هذه الدعوي لا أصل لها وباطلة بالمرة أن النهضة الشاملة للغرب ظهرت في إيطاليا من القرن الرابع عشر إلي القرن السادس عشر لأن النهضة تحتاج إلي وجود قالب حضاري هناك في شكل نائم فأي حضارة غربية نائمة كانت موجودة في إيطاليا التي احتاجت الإعداد لإحيائها. إن إيطاليا كانت علي الدوام تحتل مركزا تجاريا في مواجهة العالم الإسلامي. إن صقلية وفينيسيا ومناطق باليرمو كانت معروفة بإياب وذهاب تجار المسلمين والعلماء الاستكشافيين وكان قد تفوق ميناء فينيسيا بالتدريج علي قسطنطينا بسبب نقل الأموال التجارية داخل أوروبا. فلا شك في أن إيطاليا كانت علي حضارتها وتمدنها آثار المسلمين واضحة لدرجة كبيرة مقارنة بالدول الأوروبية الأخري فإنهم كانوا يقلدون المسلمين في السكن والإقامة والمعيشة والتعاملات والحضارة والاجتماع حتي ملابس النساء كانت قد أخذت الألوان التقليدية للعرب وكان حال قبول الموضة المسلمة أن سيدات المجتمع عندهم كانت تخرج إلي الأسواق مرتدية جلابيب المسلمات وكذلك كان حال نقوش المباني وتزيين الستائر كانت تشبه الخط الإسلامي لمن لا يعرفون اللغة العربية(١٣٤). فلو نُظر لهذه الناحية فالموضة العربية كانت أكثر انتشارا في إيطاليا كما في الأندلس مقارنة بالدول الأوروبية الأخري. لكن لم يكن هناك شيء آخر يذكر ويكون محط أنظارهم ليقوموا بإحيائه. إن "بتراركا" حينما لفت النظر إلي الكتب اليونانية القديمة في مقابل العلوم والآداب العربية فلم يستطع لفت النظر هذا أن يولد أدني تأثير في ذلك الوقت في العقل الغربي. إن "فرانسيسكو بتراركا" الذي اعتُبر فيما بعد أبا للأدب الغربي قدم نفسه علي أنه "إنيس الثاني" وادعي أنه بعد زمن طويل قدم الدعوة لآلهة الشعر للرجوع إلي إيطاليا مرة

أخري. يُقال في هذا الشأن أن بترارك نظم ذات يوم حفلة في "كابيتولين هيل" ورجع من هناك وهو يحمل وسام الامتياز للشعر بشكل كأنه قام بإحياء التقليد الشعري القديم الذي يرجع إلي ألف ومائتي سنة من قبل(١٣٥) لكن لم يُلاحظ أي نوع من الفرحة الشعبية الغامرة علي حركة بترارك هذه ولكن ما حدث بكل تأكيد هو أن حركته هذه أصبحت مثل ضرب المثل بجحا عندما كسر جرة الماء فعرفت القرية بأسرها أنه جحا هذه الخرافة موجود في شكل بترارك.


كتاب المخزون لارباب الفنون في الفروسية ولعب الرمح وبنودها
بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد واله
الباب الاول من المناصب الحربيه وهو بين القربوصين اذا قابلك الفارس
قابله وجاوله وخاطبه وجول ولا نقر وخارجه ولا تهجم عليه وان
هجم عليك فلا تخف منه واهمز جوادك عليه وجاوله وخاطبه وجول
يمين وشمال وان رمي لك راس الرمح بين القربوصين اراد ان يدور عليك

صورة للصفحة الأولي لكتاب المخزون لأرباب الفنون.

كتاب الرواية الغربية عاجزون إلي الآن عن الإخبار بشكل قطعي أين ومتي ظهرت النهضة؟ أهل فرنسا يحسبونها عملا فرنسيا خالصا ونتيجة لذلك حدثت عندهم في نهاية الأمر ثورة فرنسية والشخص الذي استخدم مصطلح النهضة هو المؤرخ الفرنسي ميشليه وإنه قد سمي المجلد السابع لكتابه الثورة الفرنسية الذي ذاع صيته في العالم بالنهضة وهذا الكتاب الذي طُبع لأول مرة في عام ١٨٥٥م يعبر عن النهضة باكتشاف الكون والإنسان وجاء في قائمة مؤسسيها مع أسماء كولومبوس وكوبرنيكوس وجاليليو و وشكسبير(١٣٦). والنهضة لميشليه تتشكل بالتفوق العقلي والإصرار علي الصدق وامتزاج الجمال والفن. يقول المؤلف عن هذه النهضة أنها ليست وليدة القرن الرابع عشر أو الخامس عشر بل هي وليدة البيئة الفرنسية الخاصة بالقرن السادس عشر. والمخترع الثاني لأسطورة

النهضة هو "بوركهارت" الذي قام بإبداء هذا الرأي بكل ثقة في كتابه "حضارة عصر النهضة في إيطاليا" المطبوع عام ١٨٦٠م وهو أن الشعور الأوروبي الجديد تم تشكيله في إيطاليا القرن الرابع عشر والخامس عشر واكتشف الإنسان الغربي لأول مرة تميزه وهكذا ظهر علي سطح الأرض الغربية إنسان جديد "إنسان النهضة" (١٣٧). وفي منتصف القرن التاسع عشر عندما كانت تتشكل الأساطير المتحاربة للنهضة فكان هذا هو وقت ازدهار الاستعمار الغربي فعدم تقديم الرد علي هذا السؤال الأساسي وهو أن النهضة متي وأين ظهرت أصبح دوي النهضة للغرب بصفة عامة جزءا من فن تاريخنا العام والمقبول. ثم بعد ذلك نادرا ما يفكر أحد أن يتحدي الحقائق التاريخية هذه التي تعبر عن الأسطورة، والواقع هو أن النهضة سواء كانت مثل تسخير الكون ومعرفة الإنسان لذاته أو مثل بوركهارت ويُقال عنه أنه في خلفية كل هذا تتواجد الرحلة البحرية بفضل التعامل المتبادل لكولومبوس لأن قصة بداية الغرب تم نحتها علي أساسها وبصفة عامة يظهر كولومبوس في الرواية الغربية كمغامر عرف الغرب عن طريق رحلته البحرية بإمكانيات جديدة غير أن حب البحث عن الدنيا الجديدة والموضوع الذي يُقال عنه أن قصة كولومبوس كانت ممتلئة بها ولا علاقة لها بالحقيقة. لو سُمح للحقائق التاريخية السطحية بالتعرض لهذا الموضوع فإن الطلاسم الرومانية عن الطموح والحب تذهب بعيدا عن رحلة كولومبوس وكيف يمكن صرف النظر عن هذه الحقيقة وهي أن أولياء أمر كولومبوس ومموليه لم يكن أحد غير إيزابيلا وفرناندو من الأندلس المسيحي وهما اللذين كانا يقودان قيادة مؤثرة لإخراج وإبعاد المسلمين واليهود من الأندلس وهما كانا بصدد تشكيل أوروبا تكون خاصة بالنصاري المتعصبين ولا تسع لأي ديانة أو ملة أخري ماعداهم فمثل هؤلاء كيف يستطيعون الإدعاء بأنهم رافعو لواء القيم الإنسانية العليا والحرية الفكرية ومعرفة الذات والكون؟ ففي العام الذي تم دك وتخريب الإمارة الإسلامية ففي نفس السنة خرج كولومبوس للإعداد والتجهيز لحرب صليبية جديدة ولإكمال النوايا الاستعمارية الأوروبية . إن كولومبوس نفسه رفع الشعار عن هذه الحقائق في قصة رحلاته البحرية(١٣٨). إن حكام الأندلس الجدد كانوا بصدد البحث عن وسائل وإمكانيات لحرب صليبية جديدة ولذلك أُرسل كولومبوس بعد سقوط غرناطة مباشرة لهذه المهمة كي يتعرف عن الإمكانيات التي تكون معينة ومؤثرة لنهب وسلب أراض جديدة وجعل سكانها أرقة والسيطرة عليها.



Binding Side

الحقيقة أن أهل الغرب لم يكونوا متخيلين حتي منتصف القرن التاسع عشر أن العهد الممتد من القرن الرابع عشر إلي القرن السادس عشر من تاريخهم عبارة عن نهضة ولكن حينما بدأ الشرق يتقهقر أمام الغرب فحينها احتاج الغرب إلي تشكيل رواية جديدة مع الأساطير الأخري لاختراع أسطورة النهضة. إن المؤلف الإيطالي فرانسيسكو بتراركا (١٣٠٤-١٣٧٤) عندما استخدم لأول مرة مصطلح النهضة "ريناسيتا" فكان مراده إحياء الآداب اليونانية وهذا هو الشخص الذي أبدع فلسفة العهد المظلم وسعي لإخفاء العصر المظلم من سقوط روما إلي عصره الممتد الطويل



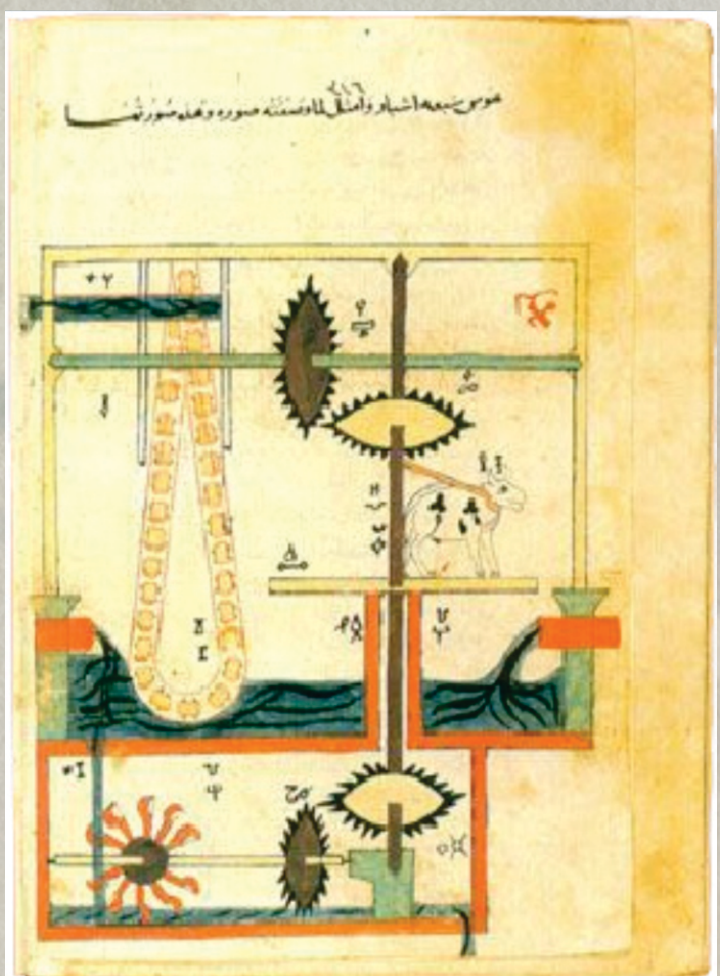

بيان عن التقنية الأوتوماتيكية للفلاش في كتاب الحيل للجزري.

في الضباب(١٣٩) لكن وقتئذ أي في القرن الرابع عشر كانت أوروبا تسمع دوي العلوم العربية ولم يطرأ علي مخيلة أحد أنه سيأتي اليوم الذي يتم فيه إقامة سرادق لظلام هذه القرون الطويلة للأخذ والاقتباس وذلك لتقدم الأسطورة المختلقة للنهضة حيث يصبح غير ممكن للقادمين وراء النهضة الفرضية. ففي القرن التاسع عشر عندما سقط الشرق فجأة وحدث السبق غير العادي للغرب فكأن هذا الحدث منح حياة جديدة للأساطير القديمة وساد هذا الرأي أن أوج أوروبا في الواقع هو بفضل اكتشاف العلوم والآداب العلمية غير أن الحقيقة هي أنه في عام ١٤٥٣م بعض المتخصصين والخبراء في اللغة اليونانية كانوا مجبرين للهجرة من القسطنطينية إلي إيطاليا مع كتبهم بعد سقوط القسطنطينية ونظرا لهذا السبب كانت قد تيسرت السبل لتعليم وتعلم اللغة وترجمة بعض الكتب الأدبية اليونانية(١٤٠) وبكل تأكيد كان من بين هذه الكتب كتب العلوم الاستكشافية أيضا وكانت قد وجدت الطريق للترجمة من اليونانية مباشرة لكن هذه الكتب قد وصلت إلي أيدي مترجمي

طليطلة بعد الإضافة والتصحيح فلم يكن هناك سبب وجيه لأن هذه الدفعة الجديدة من أهل العلم كانت قد وفدت مع المسودات القديمة والكتب إلي مختلف المدن الإيطالية لكي يُقال عنها نقيبا للنهضة ولو كانت هذه الكتب اليونانية القديمة حقا سببا للنهضة لكانت حدثت هذه المعجزة في مدينة القسطنطينية القديمة. والواضح أن تغيير ماهية الغرب سواء سميت بالنهضة أو بأي شيء آخر بدلا من ترجمة المجسطي هو إنتاج كتب المجسطي نفسه.

إن تصور النهضة في الظاهر لدي ميشليه وبوركهارت هو عبارة عن إحياء الآداب والفن ومعرفة ذات الفرد لكن لو تأملنا قليلا فلن يستغرق منا هذا التأمل وقتا طويلا لأن نعرف سريعا أن "إنسان النهضة" الذي تم إقراره أنه الحرية الشخصية وحرية الفكر هي خاصة في البيت. كل هذه الفلسفة قد تم نحتها كي يتم إثبات تفوق البيض علي شعوب الدنيا الأخري وحسب وجهة النظر هذه كان التخطيط إعمالهم لبناء العالم الجديد غير أننا لو ألقينا النظر علي اللوحات الفنية للمصورين أو الرسامين المشهورين بإيطاليا يظهر من الوهلة الأولي أن هذه اللوحات لا تشير إلي الحرية الشخصية أو المعرفة الكونية بقدر ما نجد فيها الغلبة والتفوق لروحانية الثقافة الشرقية والسيادة السياسية وسنكتفي هنا بتقديم عدد من الأمثلة لتوضيح هذا الرأي.

عام ١٤٩٢م يُعتبر عاما بارزا لدي كتاب الرواية الغربية لأنه هذا هو العام الذي سقطت فيه غرناطة وبدأت فيه مغامرة الرحلة البحرية لكولومبوس وهي نفس السنة التي بدأت فيها أعمال الرسم الشهير الخاص بالقديس مرقص واستغرق إتمام هذا العمل حوالي خمسة عشر عاما.

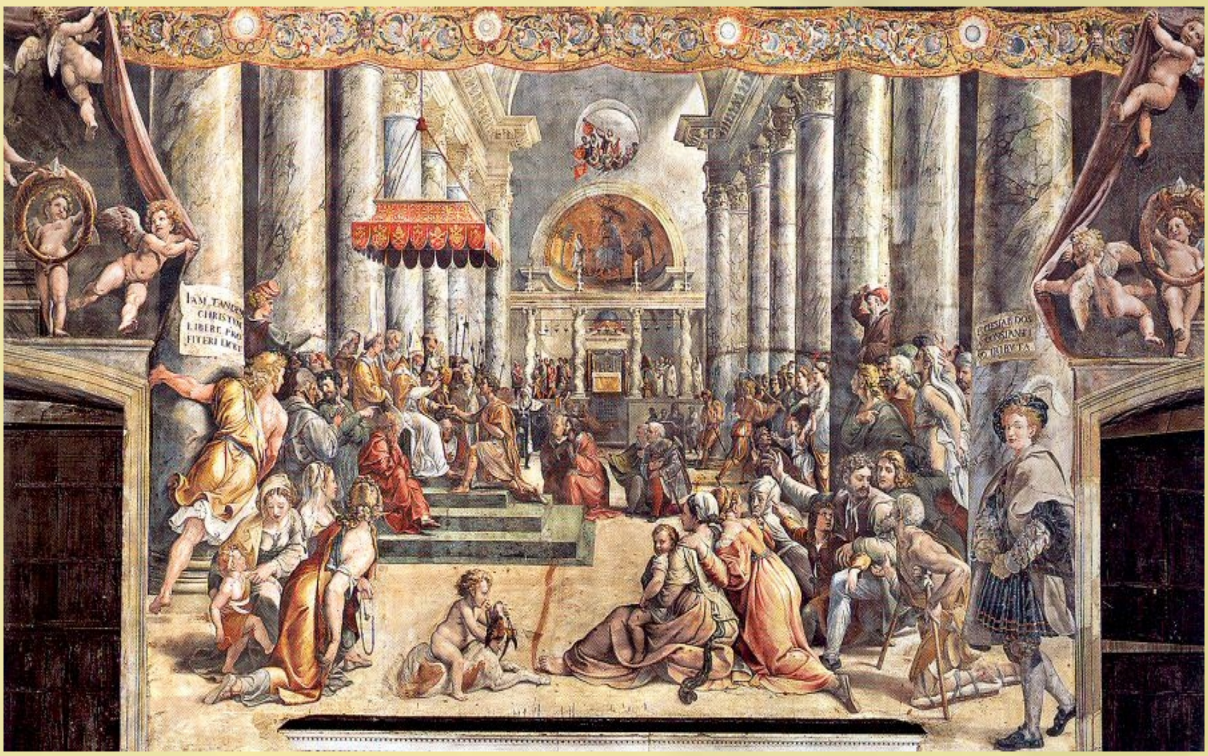


كتاب الحيل

تقنية استخدام الدروب لاستخراج المياه من تحت الأرض.



Binding Side




The Donation Contatine

الرسومات الشهيرة لرفائيل وتلامذته في الفاتيكان.



إن "جنتيلي" و"جوفيني بيليني" قاما بإظهار القديس مرقص في هذه اللوحة الفنية مشغولا بالتبشير بمدينة الإسكندرية والقديس مرقص هذا كان أكبر مرشد روحاني بمدينة فينيسيا وقد سبق لنا ذكر حادثة سرقته للآثار ونقلها سرا إلي فينيسيا. فهذه اللوحة كلما تمعن النظر بدقة عليها يزداد بانبهار جديد فهي في الواقع عبارة عن بيئة مملوءة بمكانة وعظمة وأبهة الشرق وسيادته الحضارية (انظر ص١٣٨). وجود السيدات بالملابس الشرقية وجماعة كبيرة لأشراف الأتراك وعدد كبير من أشراف مماليك مصر يدل كيف ينظر العقل الغربي إلي عظمة ومكانة الشرق وكم هي بارزة وذات مهابة في أعينهم. والقديس مرقص هذا من المنبر الذي يخطب ففي خلفيته يظهر المبني علي الطراز الإسلامي والنقوش والزينة علي المنبر يدل بكل وضوح أن إيطاليا القرن الرابع عشر والخامس عشر لم يكن لديها أي تصور لهذه المهابة والإجلال بدون الخلط بالشرق واللوحة الأخري لعصر النهضة أيضا تعطي نفس الانطباع عن عظمة وهيبة الشرق. والحق أحق أن يقال أن الغرب كان عاجزا عن تقديم لوحة مصورة تكون خالية من الملامح الشرقية أو بعبارة أخري أن الغرب كان مجبرا علي رسم لوحته علي أن يجعل الشرق مقياسه ومرآته كي يري فيها صورته الشفافة.



إطلالة لما يشبه الخط العربي استُخدم في تزيين ملابس السيدة مريم في إحدي صورها المقدسة.

دراسة هذه اللوحات الفنية النادرة بدون الرجوع إلي الزمن التاريخي وما قبله وما بعده تستطيع أن تحرمنا من الوجدان الحقيقي لذلك العهد. إن "جنتيلي بيليني" كان رساما بسيطا ولم يكن قد طرأ في خياله أنه برسمه هذا يوقظ النهضة النائمة أو أن فرشته هذه تعمل في تشكيل رواية غربية. ففي عام ١٤٧٩م أُرسل بليني إلي القسطنطينية بإشارة من حاكم فينيسيا وهذا الفنان رسم لوحة عبقرية للسلطان محمد هناك وتأثرا بهذه اللوحة قام السلطان بتكريمه ومنحه الجوائز. في لغة القديس مرقص يظهر بيليني وهو واقف قريبا من المنبر بعد تكريمه من قبل السلطان إذ يلبس قلادة ذهبية فهذا إثبات ودليل واضح علي أن الفنان إذا ما أراد بناء اعتبار له فإن شهادة السلطان التركي تعتبر سندا له.

والمطبوعات التي وصلت إلينا عن هذا العصر تدل علي أن إيطاليا القرن الرابع عشر والخامس عشر كانت أكثر تهيئا لتلقي اللغة العربية والعلوم الاستكشافية مقارنة بالمناطق الأوروبية الأخري. ففي الوقت الذي كان يتم فيه طبع الكتب المطلوبة في الأسواق بشدة عن طريق " آلية الطباعة الخشبية" فتصاب بالحيرة عندما تعرف أن من بين هذه الكتب المنتقاة للطبع كانت كتب مباديء وقواعد اللغة العربية أيضا. والحق أن هذه الأيام للنهضة كانت أيام التعامل بين الشرق والغرب بدلا من الصحوة الروحية الفرضية لأوروبا حيث كان الغرب مشغولا باستمرار في الاقتباس من الشرق وقد كان يظهر للغرب هذا الأمر كما نُقل عن ميشيل دي مونتين وفي وقتنا هذا أكبر قوة بل أعظم حكومة

استحكاما هي حكومة الأتراك وحسب قول مارشل هودجسون أنه لو جاء سائح من المريخ في القرن السادس عشر لم يكن لديه خيار إلا أن يستشعر أن الدنيا كلها مصرة علي اعتناق الإسلام(١٤٢).

كان سبب تقدم وازدهار فن الرسم وكذلك فن النحت في إيطاليا القرن السادس عشر المصالح السياسية بالإضافة إلي أن تقدمهما كان يدل علي الرخاء الاقتصادي في البلاد. وفي نظر كُتاب الرواية الغربية يُعتبر مايكل أنجيليو وكذلك رفائيل ترجمانا ومعبرا عن الحسية الجديدة غير أن الحقائق التاريخية تحكي قصة أخري وهي أن سقوط القسطنطينية علي يد محمد الفاتح في عام ١٤٥٣م كان خبرا ذا شؤم للعالم المسيحي(١٤٣) والآن كان أكبر معبد وقبلة للعالم المسيحي تحت سيطرة المسلمين الأتراك أما بالنسبة لكنيسة روما بعد سقوط القسطنطينية فكان لها جانب ذا فأل حسن وهو أنها نالت مكانة المركز الروحاني الأوحد في العالم المسيحي والمشروع الذي خططه بابا روما لبناء كنيسة عظيمة الشأن كان قد فوض هذا الأمر إلي الرسامين والفنانين التشكيليين وهي أن يُظهروا هؤلاء تفوق روحانية روما عن طريق الرسم والنحت وقد أبدي الفن التشكيلي لمايكل أنجيليو ورافائيل في رواج هذا الرأي علي مستوي عامة الناس دورا كبيرا وهو أنه كيف انتقل مركز النصرانية من القسطنطينية إلي روما وكيف نقل قسطنطين كل اختياراته إلي الكنيسة طوعا الأمر الذي كانت حركة البروتستانت قد قررته أمرا متنازعا وكانت تُثير علي صحة وثائقه ومستنداته الشكوك والشبهات فلم تكن هناك طريقة أحسن من أن يتم رسمه في شكل رسومات فنية في مزار كاتدرائية القديس بطرس نفسه وهكذا يتم نقله إلي قلوب وعقول الناس(١٤٤) مباشرة. في هذا العصر كان فن الرسم وكذلك فن النحت أكثر تأثيرا وقوة من الكلمات المطبوعة وكان يستطيع هذا الفن إقامة مبني ذا هيبة وعظمة وأن يترك بصمات لا تنمحي من قلوب وعقول الزائرين ولذلك تم تفويض مهمة الدعاية إلي الرسامين والنحاتين المشهورين في هذا العهد. فمن جانب كانت كتابات ومقالات لوثر الغاضبة التي كانت تثبت أن مستندات ووثائق "دونيشن" مزورة وبيعها كان يعتبر نفاقا رخيصا وتجارة دينية وفي جانب آخر كان الهجوم المضاد هو تعيين الرسامين الكبار ليردوا علي ألسنة فنونهم علي هؤلاء ويقوموا بهذا الشكل بالدعاية الدينية خير قيام. ولو كان هؤلاء المصورون والرسامون خبراء لنزاع وقتي لكان الأمر قد انتهي هنا لو لم يكن قد منح جريجوري هؤلاء المصورين درجة القداسة بسبب فنهم. يُقال في هذا الصدد أن "فاساري" قد قام بطبع كتاب في عام ١٥٥٠م "حياة الفنانين"وجاء في ذكره اسم ١٤٢ مصورا ورساما ونحاتا بأسلوب تقديسي وعلي أن بعض الرسامين من هؤلاء كانوا مؤهلين للتكريم بسبب كاتدرائية القديس بطرس فبهذه المناسبة حُسب هذا الفن أيضا ذا قداسة(١٤٥) وفاساري هذا



Binding Side



: حينما كانت صبغة الشرق الإسلامي غالبة علي أدبيات وموضة أوروبا.



لعله أول شخص استخدم بشأن الفن مصطلح النهضة ومن هنا نتج هذا الالتباس وهو أن هؤلاء الفنانين لعلهم كانوا مشغولين في إنارة عالم جديد غير أن الحقيقة هي أن العلماء الكاثوليك ومعارضيهم كانوا منهمكين في مناقشة نزاع داخلي للعالم المسيحي. وكل هؤلاء كانوا يستخدمون الخطب والكتابات تأييدا ومساندة لمواقفهم ففي نفس الوقت استخدمت الكنيسة الرسامين والنحاتين المؤيدين لموقفها من القضية. فلم يكن هناك سبب وجيه لأن يعتبر ليوناردو ورافائيل ومايكل أنجيليو أصحاب قداسة بسبب علاقتهم بالقديس بطرس أو يعد هؤلاء مؤسسين لتشكيل الذهن الغربي الجديد. ووساري كان نفسه فنانا جيدا ورسوماته منتشرة في أنحاء كنيسة القديس بطرس ورسوماته الشهيرة بمذبحة كوليجني قدمت مناظر مؤلمة ومخيفة ذات عبرة إذ يتم قتل وسفك دماء المعارضين بأيدي المسيحيين الكاثوليك ويتضح من هذا علي الأقل أن هؤلاء لم يكن لديهم أي دستور لرفعة شأن الإنسان بل كانت عقولهم ضيقة جدا ولم يكن لديهم أي مكان للمعارضين فبأي وجه يعد هؤلاء دعاة للفجر الجديد وللحرية الفكرية.

## تصوير أوروبا وظهور دولة المسيح

لم يكن لأوروبا أي وجود كوحدة نظرية أو جغرافية قبل قدوم حركة الاستكشاف. وكان قدوم طارق ابن زياد كممثل للحضارة المسلمة ومن كان يدري أن فوضي وتخريب المسلمين في الأندلس وصقلية سيكون سببا للتنقيب الجديد لأطلال الحضارة الروحية القديمة ففي البداية ظل أهل الغرب مبهورين ومندهشين لكن وبعد فترة وجيزة بدأ القادة بعيدوا النظر أمثال فريدريك وشارلمان إقامة أسطورة الحضارة الأوروبية الجديدة ولو علي سبيل التقليد في مقابل الحضارة الإسلامية. وكان أمام هؤلاء المؤسسين أنموذج مجرب للنظام السياسي والقومي وكانوا يستطيعون في ضوئه تخطيط تنظيم جديد للعالم المسيحي. علي سبيل المثال أصبح هذا السؤال وهو بشأن بقاء ووحدة أوروبا ذا أهمية خاصة في عصر شارلمان أمام المفكرين المسيحيين أن المسلمين يرون الدنيا برمتها في ضوء مجيء الإسلام فلديهم ترتيب ولديهم تصويب التاريخ حسب النتيجة الهجرية. ويظهر من هذا السلوك أن ظهور الإسلام وهو أكبر حدث في التاريخ وكذلك يبدو أن لجام تاريخ المستقبل سلم إلي أيديهم. والتقويم الهجري ليس فقط آلة لمعرفة التاريخ فقط بل أصبح علامة بارزة لتفوق الإسلام فعند ذلك لا بد أن يكون هناك تقويم أيضا للعالم المسيحي في مقابل الإسلام. يُقال أن أول دلو تم إدلاؤه لوضع أول تقويم مسيحي باستشارة من "بيدا". ولبداية هذا التقويم تم إقرار ولادة السيد المسيح (١٤٦). وهذا أمر آخر أنه لم يكن لدي العالم الغربي أي طريقة صحيحة لمعرفة الوقت ولذلك وجب عليه أن ينتظر لمدة ثمانية قرون لإعداد تقويم مسيحي حقيقي إلي أن تم تمهيد الطريق لهذا بمعرفة علوم الفلك المسلمة في عصر برنكيوس. وفي آخر الأمر عندما استيقظت البشرية في صباح الخامس من أكتوبر لعام ١٥٨٢م بشر البابا جريجوري بأن اليوم هو الخامس عشر من أكتوبر بدلا من الخامس وقد تم تصويب الأخطاء السابقة الخاصة بحساب التقويم.(١٤٧). بقدر ما بدأت الحركة الاستكشافية تتغلغل في أوروبا في مقابل العالم الإسلامي بدأت بنفس القدر تقوي دواعي تشكيل العالم المسيحي لكن المصيبة التي واجهتهم هي أن المشرق أيضا كان مولدا للمسيحية وكانت السلطة هنا لأهل الإسلام والحروب الصليبية التي امتدت لقرنين من الزمان لم تفلح في حل قضية القدس فلم يكن هناك حل لهذه المشكلة سوي أن يتم نحت منطقة جغرافية افتراضية بعيدة عن الأرض المقدسة القدس. ولتحقيق هذا الغرض كان لا بد من تشكيل أساطير جديدة لإقرار أن أوروبا هي الأرض الطبيعية للنصرانية علي أساس أنه لم يكن متخيلا أن يتم فتح الشرق حتي في المستقبل البعيد واستخدم لهذا الغرض ذكر أولاد نوح عليه السلام الثلاثة كما جاء في كتاب الولادة وعم هذا الخيال أن

أوروبا هي الهوية الحقيقية للنصرانية(١٤٨). وفيما بعد نجحت هذه الأساطير إلي حد أن أوروبا بدأ يُنظر إليها أن النصرانية هي الديانة الطبيعية للغرب وهكذا ظهر عالم مسيحي جغرافي في مقابل العالم الإسلامي.

في القرن الحادي عشر شكل العالم المسيحي أسطورة جديدة لتوزيع الأعمال ولاستحكام بنيانه وبقائه وحسب هذا التقسيم قيل أن المجتمع الإنساني منقسم إلي ثلاثة أقسام فحسب أي أن الله خلق الكهنة والرهبان لكي يكونوا متحمسين وساعين لعملية النجاة والخلاص وأما الشرفاء والأمراء فعُهدت إليهم مسئولية الجهاد والحفاظ علي الحدود وبقية العمال والفلاحون المساكين فخلقهم الله ليخدموا الطبقتين المذكورتين آنفا ويوفروا لهما باستمرار وسائل الراحة(١٤٩). وقيل هي في الواقع جزء من الخطة الإلهية وهذا هو رضا الرب ففي هذه الحالة يجب علي كل شخص أن يؤدي عمله بكل نشاط أما عصيان هذا الأمر أو التمرد عليه وحتي التفكير فيه لا يقل عن ارتكاب ذنب عظيم(١٥٠) فمن ناحية أن (The Three Orders) سعي أن يجبر الفرد علي طاعة الإمارة ومن ناحية أخري قام هذا القانون بقطع الطريق علي الفرار من هذه المطالب الجائرة بسبب منح الكنيسة احتكار الخلاص والنجاة. وبما أن هذا الرأي كان شائعا في العالم المسيحي بأنه لا سبيل لنيل الخلاص والنجاة للسالكين بدون إشارة من الكنيسة وبناء علي ذلك لم يبق للفرد أي سبيل سوي الطاعة منذ الولادة إلي أن يموت مختنقا بسبب هذا الإجبار لأنه وقع فريسة لهذه المكيدة ولا شك أن هذا التقسيم للواجبات جعل العالم المسيحي مستحكما بل تحول إلي إقطاعي(١٥١). إن هوية أوروبا والعالم المسيحي قائمة من عصر شارلمان إلي يومنا هذا علي أساس معارضة الإسلام والأسطورة الأوروبية ظلت إلي "دانتي أليفييري" أي في الفترة التي لم يكن قد حدث فيها فتح القسطنطينية بأيدي الأتراك ظل العالم المسيحي

الإسلام أو الخطر الإسلامي الافتراضي ظل سببا في إمكانية الوحدة النظرية للعالم المسيحي وظل الغرب ينظر إلي نحت صورته وتزيينها وتحسينها في مرآة الإسلام حتي القرن الثاني عشر الميلادي أي إلي أن كانت سطوة العالم الإسلامي قائمة لكن في بداية القرن التاسع عشر حينما بدأ عدم التوازن في القوي بصورة محيرة ففجأة قبل مفكرو الغرب أهل اليونان كأساس لتطبيق مبادئهم. وشرارة هذه الأسطورة الجديدة كانت موجودة منذ البداية في كتابات المؤلف الإيطالي فرانسيسكو بتراركا وقد سبق لنا أن أشرنا إليها من قبل. وصلة علاقتهم الحضارية بأهل اليونان كأنها كانت بمثابة إسدال الستار علي العمل التاريخي الذي كانت القرون الأوروبية الطويلة معمورة بسبب الأخذ والاقتباس.



Binding Side

ومؤسسو الغرب للقرن الثاني عشر الذين كانوا قد ابتدعوا أسطورة النهضة قد نسوا أو تناسوا عمدا أن عظمة اليونان كانت قائمة علي أساس الإسكندرية وبابل وحسب الأسطورة البابلية نفسها فمقر أجينور ابنة الملك يوروبا جوتاير يقع علي ساحل لبنان(١٥٣). واليونان نفسه كان علي الدوام جزءا من الشرق علي المستوي الحضاري والروحاني فكيف كان للسعي الدؤوب أن ينال مراده وهو توليته علي المركز النظري والحضاري للغرب. لكن حيثما تتم جميع الأعمال علي أساس الأساطير ويكون التشكيل الحضاري والجغرافي حتي التشكيل الديني وتجسيمه يكون مرهونا بالأساطير وحيثما تكون الكنيسة الكاثوليكية تملك سلطة تقسيم الثواب والعقاب وحيثما يُباع تصريح الخلاص والنجاة علي العلن أو يُمنح هذا المرسوم وكذلك حيثما يكون هذا الأمر بيد أرباب الكنيسة أن يولوا من يشاءون في منصب الولاية وينزلوا علي من يشاءون عقاب جهنم الأبدي وحيثما أرادوا يظهر هوية نزول عيسي أو والدته علي قمة جبل ما وحيث ينزل القديس جيمس مزودا بالسلاح في ميدان المعركة لنصرة المسيحيين وتتعالي الصرخات في الفضاء بصوت وصدي "القديس جيمس وسيل"(١٥٤). ففي مثل هذه الخرابة الحضارية كيف يكون أي شيء مستندا أو موثقا ومؤثرا غير الأساطير.

## رواية التاريخ الغربية

وفي آخر الأمر إن الحركة الاستكشافية التي دخلت أوروبا عن طريق الأندلس وصقلية في القرن الثامن الميلادي تسببت في تشكيل حضارة جديدة وفي هذه الأثناء مرت قرابة الخمسمائة سنة الأولي في الأخذ والاقتباس والتقليد العاجز والثلاثمائة سنة المتبقية انقضت في التقليد المبدع للشرق حتي أصبح أهل أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر مغمورين بنوع من الثقة بالنفس والاعتماد علي أنفسهم. إن تيسيرات الرحلة البحرية وسياحة الشرق والغرب إن كانت منحتهم نوعا من الثقة بالذات فمن الناحية الأخري بدأوا يدركون إلي حد ما نقاط الضعف والقوة للشرق أيضا ثم جاءت الثورة الصناعية فأسمتهم في غمضة عين مصدرين لا مستوردين. وبسبب السياسة المتخبطة في الشرق وغلبة التوهمات والخرافات علي دائرة الفكر القرآني ذهبت علي الفور إمكانية إحياء العقل الاستكشافي والمفكرون المسلمون كانوا عاجزين عن إدراك الواقع ولم تكن لدي القيادة السياسية أي طريق إلا أن تفتح أسواقها لتجار الغرب الناشئين وذلك للحصول علي الفوائد المعيشية والدخل الفوري قصير المدي فبدأت بسرعة البرق وصول المال الخام من الشرق وبصفة خاصة من العالم الإسلامي عن طريق البواخر الضخمة إلي الوحدات الصناعية الحديثة بأوروبا. فهذه التغييرات الواردة

لم تسمح للشرق بالنهوض مرة أخري ومن جانب آخر أصبح الشرق وعدد من دول العالم الإسلامي بالإضافة إلي الدنيا الجديدة (أمريكا) مستهدفة من قبل الاستعمار الأوروبي فكانت النتيجة أن التميز السياسي للعالم الإسلامي تعرض للهزيمة والانكسار في القرن التاسع عشر. إن هذا القرن كان يحمل لأهل الغرب إمكانيات هائلة من السعادة وبدا وكأن الوقت قد حان لكتابة تاريخ جديد لأهل الغرب من فرانسيسكو بيتراركا إلي فرانسيس بيكون وبعد ذلك من بوركهارت إلي ماركس وماكس فيبر ظل ترديد هذا الرأي بشدة أن الدنيا الجديدة كما هي صنعها الغرب والبداية ليست من قدوم العلوم العربية وتشكيل حلقة الفكر بل تبدأ من رحلة كولومبوس البحرية في عام ١٤٩٢م وبعد ذلك جاءت في الأيام التالية سنة ١٤٩٢م كأسطورة مؤثرة وبدأ هذا الرأي يعم بأن الدنيا منذ خمسمائة عام علي الأقل مستمرة في رحلتها تحت قيادة الشعوب العربية ذات العرق الأبيض(١٥٥). وإن كانت هذه مغالطة تاريخية كبيرة وخدعة علمية من الدرجة الدنيئة لكن علي كل حال ظلت هذه الدعاية المضللة طوال القرون الاستعمارية بقوة حتي أصبح الفهم التاريخي للمسلمين منغلقا وصلاحيات التحليل والتمحيص أصبحت متجمدة فكيف يمكن حينذاك إدلاء دلو مبادرة حقيقية.

إن باحثا مبتدئا في التاريخ يصاب بالدهشة الشديدة ويسأل نفسه ما هو الأساس لضم مقال لجربرت لا يزيد عن أربع صفحات فقط في الأيام الأخيرة من القرن العاشر إلي الأحداث التاريخية الهامة؟ هذا الإنجاز المحير للعقول كان من الممكن بكل تأكيد أن يصبح مبعث حيرة واستعجاب لأهل الغرب وكان من الممكن أن يحملوا هذه المعركة لجربرت علي عبقريته لكن لم يكن لها أية أهمية في الخلفية العالمية لأن من كانوا علي معرفة بكتب الخوارزمي وكذلك كانوا علي علم بالهندسة الهندية لم يكن لديهم هذه المحاولة لجربرت سوي جهد مبتديء وكذلك حينما أغلق فرانسيس تغلغل المنهج الاستكشافي وحاول أن يصفه بإنتاج الذهن الغربي فدعواه هذه لم تكن تؤثر إلا علي الإنسان الغربي وإلا فإن ابن الهيثم كان قد تحدث قبل بيكون بكثير علي تفاصيل ومميزات المنهج الاستكشافي. وتلميذ غربي له وهو روجر بيكون كان قد أطلع أهل أوروبا علي فائدة هذا المنهج وتقريبا هذا هو حال رحلة كولومبوس وفاسكو دي جاما البحرية والتي لم تكن لأهل الغرب أقل من حادثة مفرحة. في البحار التي كانت البواخر التجارية للمسلمين وأهل الصين تسير فيها إلي الآن قد حاولت إمارة أسبانيا وكذلك إمارة البرتغال الحصول علي نصيبهما(١٥٦). وفاسكو دي جاما حينما استهدف رأس الرجاء أو عثر علي طريق بحري بديل فبكل تأكيد كانت هذه الخطوة لأهل الغرب نجاحا كبيرا ولكن علي المستوي العالمي لم يكن لهذا الأمر أي أهمية لأن الساحل الأفريقي الذي أُطلق

عليه رأس الرجاء كان موجودا منذ القدم وكان الناس علي علم أن البحارة أحمد ابن ماجد يعبر هذا الطريق البحري(١٥٧). أما عند أهل الغرب فقد قاموا برد التاريخ إلي الوراء بدأوا يخبرون الناس أن عام ١٤٩٢م هو بمثابة طلوع دنيا جديدة فهذا العمل قد خُطط له فيما بعد.

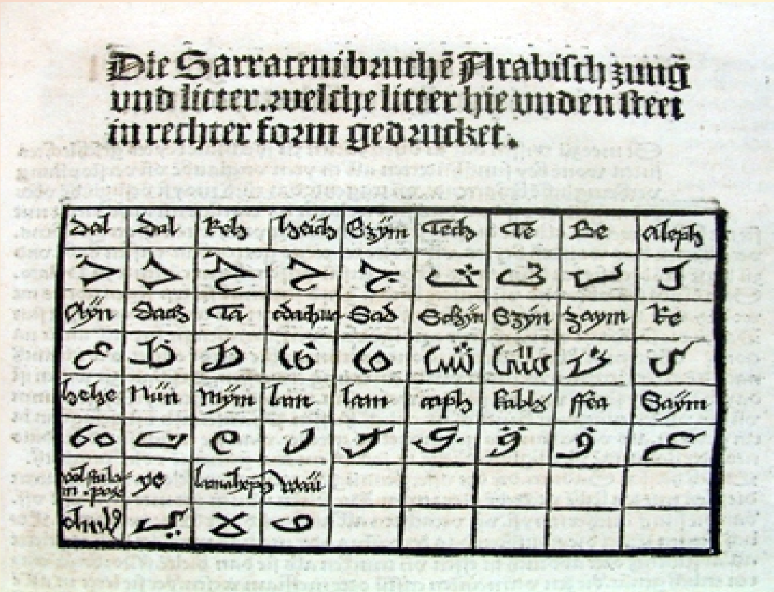
لقد سبق لنا وأن أشرنا في الصفحات الماضية أن قصص جلالة وعظمة الأتراك كيف كانت تغطي مسارح لندن في القرن السادس عشر وفي حركة لوثر يُسمع دوي التهديد التركي باستمرار والقوي السياسية الثلاث الكبري التي كانت من حسن الحظ مشتملة علي الامبراطوريات الإسلامية أي الامبراطورية المغولية بالهند والامبراطورية الصفوية بإيران والامبراطورية التركية العثمانية كانت هيبتها قائمة علي الجميع وكانت قد وصلت الفتوحات للأتراك العثمانيين في عام ١٧٨٢م إلي أبواب فيينا فكيف يمكن في هذه الحالة أن تُصدق افتراضية السيادة الغربية الممتدة علي مدي خمسة قرون؟ وإن كان لابد من تحديد تاريخ حقيقي لتقدم وعروج أوروبا في الماضي البعيد فيمكن أن يُحدد عام ١٧٨٩م إذ جاءت الثورة الفرنسية لكن حتي في هذا المشهد القضية لا تزيد عن مائتي سنة. والواقع أن أوروبا لم تكن في يوم من الأيام قبل القرن التاسع عشر حائزة علي أهمية إذ يُنظر إليها علي مستوي مركز التاريخ العالمي كما هو رأي هيجل ولا في هذه الأسطورة التي لا وزن لها ألا وهي أن أوروبا كانت متفوقة علي المستويين الأخلاقي والسياسي منذ أيام أنبياء بني إسرائيل كذلك نفس سوء فهم عند "ماكس فيبر" وكما أنه ليس هناك أي إنجاز علمي ولا تاريخي يُري حتي عام ١٤٩٢م في تاريخ البشرية كحادثة مهمة ظل يدافع عنها كارل ماركس. ولنجاح هذه الدعاية أي دليل يمكن أن يكون أكبر مما جري علي لسان شاعر الشرق نفسه كشكوي: "إن خمارات الهند مغلقة منذ ثلاث مائة عام".

بصفة عامة يُعرف كما كتب "جون روبرتس" في كتابه "فتح الغرب" أن اكتشاف الدنيا يرجع فضله بالكامل إلي الشعوب الأوروبية فبرحلة أبنائها البحرية بدأ عهد جديد وبسببهم انفتحت الدنيا الواسعة لشعوب أوروبا. وحسب قول روبرتس فإن أول لبنة للتاريخ الجديد وُضعت علي يد هنري وإن كان هو نفسه لم يكن مقدرا لهذه الخطوة الهجومية الهامة: "في القرن الماضي أصبح هنري "الملاح" مثل بيشرولوثر عن طريق مبادرته سببا لبدء تاريخ جديد وحدث كل هذا بسبب مركب صغير إلي أن وصل الأمر إلي أن يقرر ملك البرتغال "مانويل" أنه هو من أصبح الآن امبراطور العرب وفارس والحبشة والسيطرة علي البحار تثبت فتحا كبيرا وهي التي مهدت الطريق بسرعة لغلبة وسيطرة الحضارة الغربية علي الدنيا(١٥٨).





فن التصوير ل"بيليني" الذي نال شهرة عالمية.
يُري في هذه الصورة أن "القديس مرقص"
مشغول في التبشير والمكان تفوح منه
عبق ومهابة المشرق الإسلامي.




عندما كانت اللغة العربية لغة دولية وكانت
تُطبع الكتب الأساسية المقررة لدراستها وتعليمها.

سبق لنا وأن أشرنا إلي هذه الحقيقية وهي أن بداية الرحلة البحرية تحت قيادة هنري كانت بسبب الأزمة التي تولدت بسقوط القسطنطينية. ففي عام ١٤٥٣م حينما فتح المسلمون القسطنطينية فكان هذا السقوط بمثابة مأساة هزت أعمدة العالم المسيحي ودار الخلافة الروحانية للمسيحيين الشرقيين كانت الآن بيد المسلمين فولدت هذه الحالة بيئة مضطربة في أوروبا كلها وبدأ الاستعداد لحرب صليبية جديدة. فبعد سقوط القسطنطينية بثلاثة أعوام وبالتحديد في ١٤٥٦م كانت المدينة القديمة أثينا أيضا قد أصبحت تحت سيطرة المسلمين. وفي هذا الظرف الطاريء اضطر البابا "بيوس الثاني" لإعلان حرب صليبية جديدة ولذلك يُنظر إلي الأمير هنري كمجاهد عظيم في المسيحية. ولو وضعنا نصب أعيننا المرسوم الأول للبابا "نقولا الخامس" الصادر في عام ١٤٥٢م حيث كان قد فوض الأمور الحربية ضد المسلمين إلي ملك البرتغال ولو ألقينا النظر علي المرسوم الثاني الصادر في عام ١٤٥٥م حيث مُنحت رحلة الأمير هنري البحرية درجة دينية فبالنظر إلي ذلك لن تكون هناك أي صعوبة في فهم أن تحركات وإبحار السفن البرتغالية التي كانت مستمرة فوق سطح البحار كانت بسبب بدء الحرب الدينية والمطامع الاستعمارية في المستقبل(١٥٩). ولم تكن هذه التحركات من أجل مشاهدة الكون بالمرة والإعمار والاستكشاف كما ظل يؤكد لنا مغنو الغرب. والواقع أن "بارثولوميو دياز" لم يكن أول شخص اكتشف في عام ١٤٨٧م الطريق البحري المسمي برأس الرجاء وليس هناك أي دليل علي القول بأن فاسكو دي جاما كان مهتما بالبحث عن طريق بحري بديل للوصول إلي الهند(١٦٠).

إن جيرارد تيبتس في كتابه "الملاحة العربية" قد قدم شواهد ودلائل كثيرة علي أن ملاحي الشرق كانوا يمرون برأس الرجاء قبل البرتغاليين بكثير. علي سبيل المثال فالملاح العربي شهاب الدين أحمد ابن ماجد وصل إلي جبل طارق عن طريق رأس الرجاء مرورا بالبحر الأحمر في وسط القرن الخامس

العشر الميلادي ويوجد ذكر لهذا الحدث بقدر من التفصيل وكذلك لا يوجد هناك أي نوع من الصعوبة في تقدير أن الرحلة البحرية للأمير هنري كانت بمثابة بزوغ فجر جديد للبرتغاليين فقط أما بقية الدنيا فكانت الحضارة هناك في أوجها من الأول(١٦١)

إن تطوير المعركة الغربية مرهون أصلا بفن التاريخ المتعصب وضيق النظر الذي قام بجرة قلم بنسخ ورد خدمات المؤسسين المسلمين للاستكشاف الحضاري. إن ابن الهيثم والخوارزمي وابن سينا والبيروني إن كانوا قد وُضعوا علي هامش التاريخ بشق الأنفس فكيف لا يكون مؤسس علم الكيمياء جابر ابن حيان مشكوكا في كونه مسلما أصلا غير أن مؤرخي الكيمياء "إيرك جون هولميارد" نفسه يقول أن مكانة جابر في علم الكيمياء ليست بأقل من "بويل" و"لافوازييه". وجابر ابن حيان الذي يعتبر مؤسسا حقيقيا لعلم الكيمياء الجديد لعب الغرب لعبة خبيثة لإنزاله وإسقاطه من مكانته الأصلية إذ بدأ يفرق أولا بين الكيمياء والكيمي وبعد ذلك قرر أن الآخر وهو الكيمي ما هو إلا مجموعة من الأوهام والخرافات وإذن فهي غير صالحة للاهتمام بها. وبصفة عامة بدأ يُعتبر عالم الكيمياء المسلم جابر ابن حيان متخصصا في الكيمي. وفي أواخر القرن التاسع عشر جاء باحث غربي وهو "روسكا" قام بمسح وإلغاء البقية الباقية من المعرفة بهذا الشأن فقد أبدي رأيه قائلا أن تصنيف جابر ابن حيان الذي تمت ترجمته إلي اللغة اللاتينية جاء في حيز الوجود باسم "دي إنفنتيون فيراتيتيس" يدل علي معرفة نترات البوتاسيوم أو البارود وحسب هذا الرأي فإن العرب لم يكونوا علي معرفة بالبارود ففي هذه الحالة المفترض أن يعتبر هذا المؤلَف ل"جابر" اللاتيني الأصل والأكثر من هذا مما قام به "روسكا" من الافتراء هو إيراد الشكوك والشبهات حول أول كتاب عربي الأصل رسالة مريانس الراهب الحكيم للأمير خالد ابن يزيد المترجم إلي اللاتينيية باسم "كتاب تكوين الخيمياء". يقول "روسكا" أن هذا الكتاب هو من تأليف راهب مسيحي من القرن الرابع عشر(١٦٣) وأن الرسائل المختلفة لعلم الكيمياء والتي تُنسب إلي شخص اسمه جابر هو في الأصل مؤلف لاتيني معروف باسم "جيبر" وقد اختار الغرب وجهة نظر "روسكا" هذه كدراسة حاسمة. وهذه الدراسة التي تتحدث عن أن البارود من صنع أهل أوروبا وهي التي قامت بدور كبير في تشكيل الرواية الغربية غير أن هناك العديد من الشهادات والبراهين التي لا يمكن ردها وهي أن الرسائل العربية المختلفة ومؤلفات تكنولوجية عسكرية وكتبا معروفة للعلوم الاستكشافية وكذلك المصادر التاريخية العامة التي تشير إلي أن المسلمين كانت لهم معرفة عميقة بالعلوم الكيميائية المختلفة واستخدام



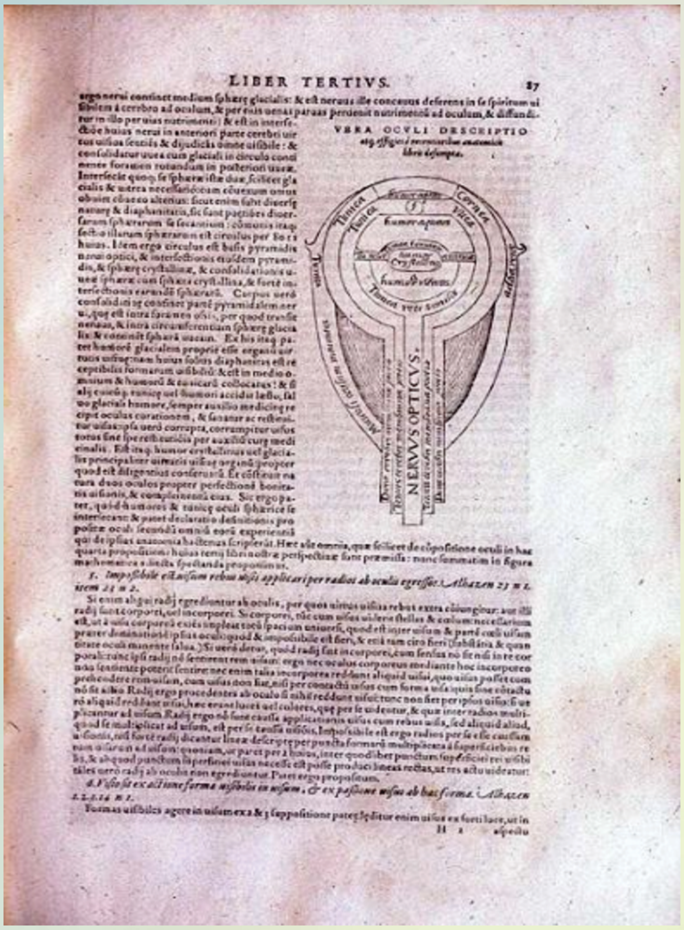


*Scuola di Atene (1509-1510)*

فن التصوير العبقري ل"رفائيل" في الفاتيكان
والذي أدي دورا هاما في تشكيل النهضة الغربية.

البارود من القرن الثالث عشر الميلادي بمهارة وقد قام فؤاد سزكين وأحمد الحسن في كتاباتهما بالكشف عن هذه الدعاية الغربية التي لا أصل لها بشكل جيد.

وهذا الرأي أن لأهل اليونان في بناء الحركة الاكتشافية الغربية ولا علاقة لها بالمسلمين هي في الواقع إنتاج لذهن مريض متعصب لفرانسيس بيكون إلي حد كبير وهو الذي قام عن طريق كتاباته الفوضوية بنفخ الروح من جديد في الأسطورة الميتة لبترارك وأعلن بيكون في كتابه "الوسيلة الجديدة" بدون ذرة من الحياء العلمي أن العلوم التي توجد لدينا هي في الأساس مأخوذة من أهل اليونان أما السؤال عن بعض الإضافات التي جاءت إلي هذه العلوم من الروم والعرب ومن قبل المؤلفين الجدد فجوابها أنها قليلة جدا ولا توجد لها أهمية تُذكر وذلك لأنها أيضا مأخوذة من اليونانيين أنفسهم(١٦٤).




كتاب المناظر.
الترجمة اللاتينية الكاملة الأولي (١٥٧٢م)
الصفحة التي يوجد فيها شرح عن تكوين العيون.
ص١٤٦: أول كتاب رياضي لمؤلف أوروبي.
والمؤلف هو "سيمسون جيكوب" المتوفي ١٥٦٤م.

إن بيكون لم يكن شخصا عاديا لأنه وبسبب كتاباته العلمية المبنية علي الوعظ والنصيحة ظهر في الغرب كمؤسس رئيسي للمعركة التاريخية الجديدة للغرب. ومع مرور الأيام وبصفة خاصة في قرون الاستعمار بدأ يُنظر إليه كمؤسس للغرب الجديد بل للمنهج العلمي والملاحظة وإن كان ذلك لم يكن أكثر من آلة دعائية سياسية وتعصب أعمي من حيث الحقيقة التاريخية لأنه لم يكن في أوروبا أي نقص في المؤسسين لمنهج المشاهدة والملاحظة بل كان هناك عدد من المشاهير الذين كانوا يسيرون علي هذا المنهج لكن بيكون كان ينفخ البوق للمعركة الغربية في الوقت الذي بدأ سبق الغرب علي

الشرق بوضوح ففي هذا الظرف بصرف النظر عن جميع الحقائق التاريخية بدأ موقفه ينال القبول العام بل نال لقب أبا الامبراطورية.

ولباحث مبتديء في التاريخ إنه لأمر مدهش ومستغرب أن في "الوسيلة الجديدة" والكتاب الثاني "تقدم المعرفة" أي مشاهدة منهجية جديدة لم يكن أهل الغرب أنفسهم علي علم بها(١٦٥) وعلي الرغم من هذا يردد مطبلوا الغرب أنه ليس هناك كتاب سبب إحداث هذه الثورة في الفكر والنظر ورفع الستار عن العصبيات وتضمن هذا القدر الكبير من الآراء مثل "الوسيلة الجديدة". وكل من يطلع علي تاريخ الغرب العلمي والحضاري والتعليمي بعين مفتوحة يكون صعبا عليه أن يصرف النظر عن العلماء المتأخرين لمنهج المشاهدة والملاحظة مثل روجر بيكون وكوبرنيكوس وليوناردو دافينشي وفيراليس وحتي المعاصرين ومنهم جاليليو وكيبلر فصرف النظر عن كل هؤلاء العلماء ليس أمرا صعبا بل مستحيل لكن الأمر حينما يتعلق بالرواية الغربية للتاريخ فمطبلو الغرب في هذا الموقف لا يكلفون أنفسهم برهة من الزمن لرفض تاريخهم هذا الذي كان ممتلئا بعلوم واكتسابات المسلمين لأنهم خائفون من أن يُثار سؤال علي كون الغرب قائدا ومؤسسا للحضارة الجديدة ولذلك كان الخير كل الخير لهم في أن يصنعوا صنما في شكل فرانسيس بيكون ويتم الاعتراف به كمؤسس للحضارة الجديدة وكذلك مؤسس الفكر المبني علي الطراز العلمي وصانع منهج المشاهدة والملاحظة ثم يكون هذا الرأي بشأنه عاما وهو: "من هو الشخص الذي لا يطرأ في ذهنه بمجرد سماع اسم لورد بيكون تصور شخص عبقري يحتل مكانا رفيعا في الأدب والذي يمتاز باختراعاته واكتشافاته العميقة ومشاهدته للحياة الإنسانية علي درجة عالية ومتميزة جدا(١٦٧)."


45 X

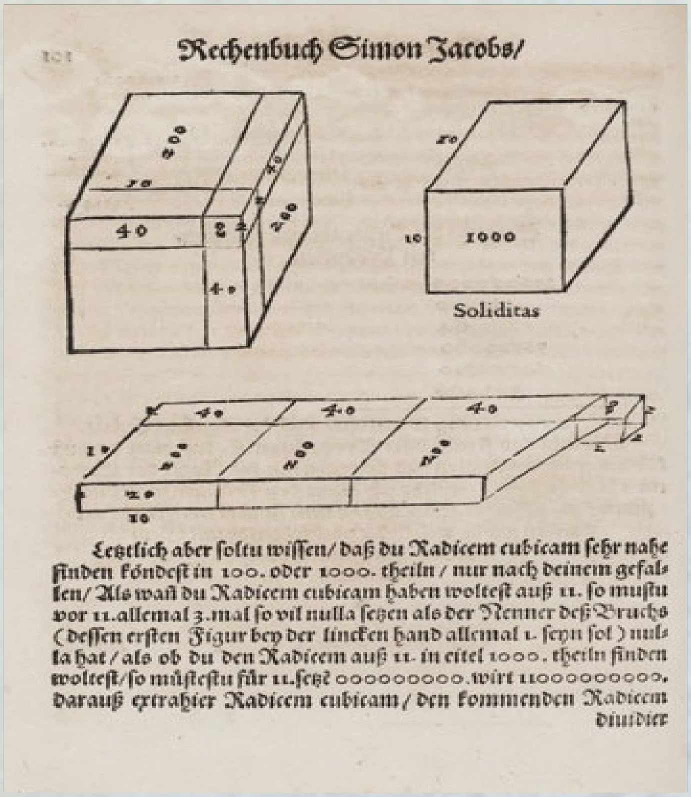
Ein New vnd Wol gegründt Rechenbuch/auff den Linien vñ Ziffern/ sampt der Welschen Practic vnd allerley vortheilen/neben der extraction Radicum, vñ von den Proportionen/mit vilen lustigen Fragen vñ Auffgaben/rc. Deßgleichen ein vollkomner Bericht der Regel Falsi/mit neuwen Inuentionibus/Demonstrationibus/vnd vortheilen/so biß anher für vnmüglich geschetzt/gebessert/dergleichen noch nie an tag kommen. Vnd dann von der Geometria/wie man mancherley Felder vnd ebne/auch allerley Corpora/Regularia vnd Irregularia/messen/Aream finden vñ rechnen sol. Alles durch Simon Jacob von Coburg/Bürger vnd Rechenmeister zu Franckfurt am Main/mit fleiß zusammen getragen/vnd jetzt erstmals getruckt.

Mit Röm. Keyser. Mt. Gnad vnd Freyheit nicht nachzutrucken.
Getruckt zu Franckfurt am Mayn/1565.

أول كتاب رياضي لمؤلف أوروبي.
والمؤلف هو "سيمسون جيكوب" المتوفي ١٥٦٤م.

١٥٣

كما سبق أن ذكرت أن القرن السابع عشر كان قرن عظمة وثقة. وكانت هذه الشهور والسنين انتقالية حينما كان الغرب بدأ يأتي لأول مرة في تاريخه ندا للشرق الإسلامي وهنا الامبراطوريات الثلاث العظيمة وهي التركية العثمانية والإيرانية الصفوية والهندية المغولية بدأت تضعف وتتقهقر اقتصاديا والآن بعدما بدأ الغرب يشعر بمشاركته في الاحتكار العالمي للمسلمين فهذه الشعوب الأوروبية التي كانت كؤوسها خالية من أمجاد وإنجازات الماضي وفارغة من العلوم الاستكشافية فأحست هذه الشعوب بحاجة تشكيل هوية حضارية جديدة. ولم يكن هذا الأمر سهلا بدون خوض معركة جديدة وتشكيل أسطورة. ليس فرانسيس بيكون وحده الحاصل علي لقب مؤسس "الثورة العلمية" بل هناك أساطير آخرون لهذا العهد قاموا بتعميم هذا التصور عن طريق مؤلفاتهم وهو أن فجرا جديدا للعلم والفن قد أشرق وليس له نظير إلي الآن في التاريخ الإنساني ولحن هذا الفجر الجديد ثبت تغلغله بين الناس لحد اضطر بيكون أن يسمي كتابه ب"أطلانتس الجديدة" و"الوسيلة الجديدة". أما كيبلر فقد ادعي أنه هو مبدع "علم الفلك الجديد". واختار جاليليو أن يسمي كتابه "العلمان الجديدان" الذي يعد من أشهر أعماله ويقصد بالعلمين الديناميكا والاستاتيكا. و"توماس هوبز" أبدي رأيه قائلا: يجب علينا أن نعد كوبرنيكوس وجاليليو وويليام هارفي متحدثين عن الحسبة الجديدة لأن قبل هؤلاء السادة لم يكن هناك وجود في العلم الطبيعي لأي كلية وكل ما كان موجودا هو تجارب شخصية وملاحظات بحتة(١٦٨). وبيكون قد أبدي هذه المعلومة المغلوطة مرارا من مكان لآخر متجاهلا الحقيقة وهي أن هذا المنهج العلمي



Rechenbuch Simon Jacobs/

Soliditas

Letzlich aber ſoltu wiſſen/ daß du Radicem cubicam ſehr nahe finden köndeſt in 100. oder 1000. theiln / nur nach deinem gefallen/ Als wañ du Radicem cubicam haben wolteſt auß 11. ſo muſtu vor 11. allemal 3. mal ſo vil nulla ſetzen als der Nenner deß Bruchs (deſſen erſten Figur bey der lincken hand allemal 1. ſeyn ſol) nulla hat / als ob du den Radicem auß 11. in eitel 1000. theiln finden wolteſt/ ſo müſteſtu für 11. ſetzẽ 000000000. wirt 11000000000. darauß extrahier Radicem cubicam / den kommenden Radicem diuidier

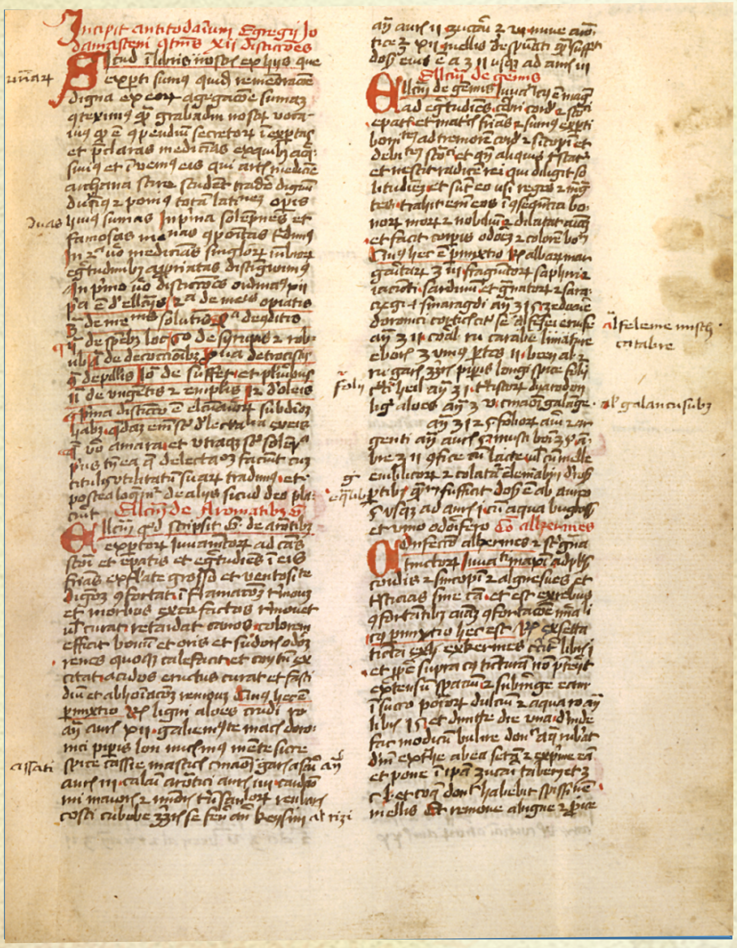
تلميذ العلوم العربية جيكوب الذي قام بتعريف قياس مربع المساحة لأوروبا.

الذي يدعو إليه ليس مختلفا عن اليونانيين القدامي فحسب بل هو مختلف أيضا عن منهج علماء الروم والعرب ولم يكن هناك أحد قد اتبع هذا المنهج إلي الآن ولم يكن علي معرفة به.

وهكذا نري أن بيكون في سبيل الإعداد لرواية غربية قد ترك زمام الأمانة العلمية ويمكنك أيها القارئ أن تقول أنه لم يكن لديه مكان لمثل هذه العوامل المتزاحمة فقد أعلن علي الملأ أن هناك ثلاثة أزمنة مرت في التاريخ الإنساني إذ تقدمت العلوم والفنون بشكل غير طبيعي. الزمن الأول كان لأهل اليونان والثاني لأهل روما والثالث فهو زمنه هو نفسه. أما تاريخ التفوق العلمي للمسلمين الممتد لنحو ألف عام فهذا ليس جديرا بالذكر لأنهم أي المسلمون لم يكونوا راغبين في العلوم حسب قول بيكون بل قاموا بكبح جماحها(١٦٩) وقد قام بيكون بنحت حيلة منهج التجارب والملاحظات لكي يقرر أن عهده أفضل في مقابل أزمنة اليونان والروم وحيلته الماكرة تلك التي قام بنحتها لم ير هذا الرجل مثيلا له في أي مكان في التاريخ أي المنهج الذي وضع أساسه علي التجارب والملاحظات وحيث يكون هناك سعة لتصحيح النتائج الخاطئة(١٧٠).

الدعاية الصاخبة هذه لبيكون قد قامت بمنح الغرب ثقة جديدة من جانب ومن جانب آخر وجد العطشي للسوق الجديدة والباحثين عن الهوية الجديدة راحة كبيرة في هذه الدعاية الكريهة وانضم الكثير من أولئك الذين بدأوا يضمون ألحانهم إلي لحن هذه الأسطورة الجديدة المختلقة(١٧١). وفي أواخر القرن السابع عشر ازدادت هذه الضجة حول التغير الجديد للحضارة إلي حد أن بدأ النقاش بين المفكرين "ويليام تيمبو" و"ويليام أوتون" أن اعتراف المؤسسين الجدد لا غبار عليه لكن في نفس الوقت عدم الاعتراف بالمفكرين القدامي بل رفضهم بالمرة غير لائق. وهذا البحث بين القديم والجديد وصل في الأخير إلي افتراضية تشكيل "العصور القديمة" وإلي حد ما نتج عنه المدح والثناء عليها(١٧٢). وهكذا وبشكل محمود بل بخبث كبير أسدل الستار علي العهد المظلم للتاريخ القديم والجديد برمته وقد تم محو التاريخ العلمي لحوالي أربعمائة سنة من روجر بيكون إلي فرانسيس بيكون حتي وصل الأمر أن روجر بيكون الذي تربي علي أيدي أساتذتنا العرب بدلا من أن يكون هذا مؤسسا للمنهج الاستكشافي ومنشيء الغرب الجديد تمت تولية فرانسيس بيكون الذي يشبهه اسما علي هذا المنصب الجليل.

في قرون أوروبا حيث كان الظلام الدامس فحينما كان من تجليات الشرق وبصفة خاصة العالم الإسلامي بدأ في أوروبا بزوغ فجر جديد فلم يكن هناك أحد يتخيل أنه سيحدث في الأيام القادمة أن عملية النقل والاقتباس هذه ستسمي يوما ما بالعصر المظلم. إن بترارك حينما حاول خلق أسطورة العصر المظلم لأول مرة بسبب حب الوطنية الإيطالية وعداوة الألمان لم تجد هذه القصة أهمية كبيرة في فن التاريخ الغربي. وإن كان فيما بعد جاء عصر الحداثة أو تم خلق أسطورة حركة النهضة ففي المقابل حصلت قصة العهد المظلم علي درجة المعركة الفلسفية والنظرية



قراباذين لابن ماسويه الذي ظل يؤدي دورا هاما في تحضير الأدوية في أوروبا اللاتينية.

ووراء مصطلح عهد النهضة كانت تختفي إنجازات هذه المعركة وحسب هذه النظرية ينال الدور التاريخي الطبيعي للشعوب الغربية المنصة المركزية للسيادة العالمية غير أن التحليل والتمحيص التاريخي يقدم دلائل وشواهد لا يمكن رفضها ومنها أن ظهور عهد النهضة المزعومة لأوروبا نفسها كان نتيجة النقل والاقتباس المباشر من العالم الإسلامي، والموضوع يحتاج إلي نقاش طويل لكن علي سبيل التذكرة يكفي الإشارة إلي أن عهد النهضة في أوروبا الذي هو عبارة عن الثقة بالنفس والبحث عن الحق قد حصلت عليهما أوروبا من نفس الحضارة التي أطلقت عليها مصطلح العصر المظلم ناكرة للجميل. والمفكرون الغربيون ليسوا جهلاء بأن مراكز الأندلس وصقلية أثناء النهضة في القرن الثاني عشر كانت تتم فيها ترجمة الكتب الفكرية والأدبية بالإضافة إلي كتب العلوم وكذلك بعد ترجمة معاني القرآن الكريم إلي اللاتينية والذي كان يمثل مستندا أساسيا للحضارة الغالبة مما جعل العالم المسيحي منتعشا لكن بحالة عدائية حذرة واستمر هذا الحذر والاحتياط بشأن القرآن الكريم

لكن الكتب المتأثرة بحلقة الفكر القرآني التي كانت تتعلق بالعلوم  الاستكشافية والأدبية والفلسفية جعلت تضيء باستمرار العهد المظلم للغرب من تجلياتها. علي سبيل المثال خذ كتاب ابن طفيل (أبو بصير) المسمي بحي ابن يقظان الذي تم طبعه عام ١٣٤٩م. ففي نفس العام طُبعت الترجمة العبرانية لهذا الكتاب وفي أواخر القرن الخامس عشر الميلادي تم طبع الترجمة اللاتينية لهذا الكتاب وكتاب الحي هذا عبارة عن قصة تمثيلية لشخص يبحث عن طريق مشاهدة وملاحظة الكون علي النهج القويم وظل هذا الكتاب يؤدي دورا كبيرا في بناء الذهن الغربي المتصف بالثقة بالنفس ويمكن تقدير القبول العام لهذا الكتاب أن "إدوارد بوكوك" قد طبع ترجمة لاتينية جديدة مقبولة لهذا الكتاب في عام ١٦٧١م وبعد عدة سنين وبالتحديد عام ١٦٧٤م نقله "جورج كيث" إلي اللغة الإنجليزية فهذا الكتاب الواحد كم أثر علي الذهن الغربي وهذا يكفي لمعرفة مساهمة الشرق في التغيير الفكري للغرب والكتاب الشهير "ديفو" الذي تم طبعه في عام ١٧١٩م باسم "روبنسون كروزو" فهو علي المستويين من التصميم والحلقة الفكرية منقول من ابن طفيل. رواية "ديفو" قامت بتغيير فكري كبير ل"روسو" ومن شابهه من الحكماء الآخرين من عهد النهضة وقد اعترف بهذا "روسو" نفسه.

وبالنظر إلي اليونان كمنبع ومأخذ للغرب الجديد لا بد منه للرواية الغربية لأنه بغير هذا لا يمكن تشكيل أساطيرها برمتها. أولا إن هذا الرأي لا صحة له أن أوروبا كان لها وجود منفصل من حيث التاريخ والجغرافيا والحضارة عن الشرق فسواء كان عهد عظمة روما أو الأيام المنسية الخفية للعهد المظلم أو الأيام المفرحة والمنعشة للنهضة وعصر النهضة لكن في كل الأحوال ظل الغرب علي الدوام محتاجا للشرق ومتصلا بالمناطق الساحلية لأفريقيا فلا معني لها أن تقبل أسطورة اليونان للسيادة الحضارية للغرب بدون تحليل وتمحيص. وتزداد الحيرة علي مؤسسي هذه الأسطورة التافهة التي تشمل أسماء "كارل ماركس" و"فيرنر سومبارت" و"إميل دوركايم" و"جورج سمل" و"ماكس فيبر" والذين مازال يُنظر إليهم إلي الآن في مجال البحث والتحقيق بعين التقدير والاحترام. كل هؤلاء من مادحي الغرب متفقون علي هذه الفرضية رغم اختلافهم فيما بينهم في مجال البحث والتحقيق وهي أن السيادة الغربية في حقيقة الأمر موجودة بسبب بنائها الخاص ويحتل في هذا التشكيل العقل والاستكشاف مكانة متميزة. يشارك في هذه الجريمة أيضا بعض المؤرخين الحقيقيين من أمثال "سبنجلر" و"توينبي"(١٧٣).

إن غالبية المفكرين والمحللين قد تربوا تحت تأثير هذه الأسطورة وحسب هذه الأسطورة فإن التفوق الغربي الحالي يرجع إلي اتباع المنهج العقلي والروح الاستكشافية وبسبب نضجه حسب هذا الرأي تمحصت وتنقحت الحضارة الغربية الحالية. وهذه دعاية خاطئة مستمرة منذ ما بين المائة وخمسين والمائتين سنة الماضية بحدة حتي آمن بصدقها المستنيرون من الشرق في ظاهر الأمر قبل الغرب. وفي الغرب الآن أصبح إحصاء الكتب التي تقدم المعجزة الغربية كنظرية مسلمة أمرا في غاية الصعوبة وقد تم تصنيف هذه الكتب بأسلوب علمي ظاهري ويحتل "جون لونج وايت جونيور" و"هال" و"ميشيل مان" مكانة بارزة بسبب كتاباتهم القوية ومن بين المصنفين من "ماركس فيبر" إلي مصنفي الحاضر. ومن جانب آخر فالدعاية مطلقة العنان هذه ولدت في الحلقات العلمية نوعا من المواجهة. وفي هذا الوقت قد  جاء في الغرب جيل من المحققين والدارسين الذين يتحدون الرواية الغربية علي أسس علمية ومن بين هؤلاء المفكرين أمثال "جورج صليبا" و"جورج مقدسي" ومن المحللين من أمثال "جاك جودي" و"هوبسن" ومراجعين من أمثال "بلاوت" وكتابه المعروف "نموذج المستعمر للعالم" قام بتوجيه كثير من الناس لأن يسلكوا طريقا جديدا للتحليل والتمحيص. إن "بلاوت" هذا قد أفشي سر هذه الأساطير التاريخية المختلقة والخاضعة للغرب. والحق كما كتب "موليفيكيت أالقديس" أن مادحي الغرب هؤلاء:

"في الواقع إنهم واقعون في جهل مركب من الكبر والغرور وهم ليسوا بعارفين بالأمور التي لا يعرفون عنها شيئا بالمرة لكن علي الرغم من هذا يتحدثون بشكل كأنهم يعرفون هذا الأمر جيدا وهو علي أي حال يجب علينا أن نكون علي علم به"(١٧٤).

إن الخدعة تكمن فيها قوة كبيرة فتشكيل الرواية الغربية لم يكن أول فرصة سانحة إذ انهزمت الحقائق بأيدي الأساطير ولكن كان هناك فرق بكل تأكيد إذ تم تشكيل هذه الرواية في ظاهر الأمر علي طراز فكري علمي آخذا بالاعتبار المنهج التجريبي والتحليل والملاحظة. خذ علي سبيل المثال "كارل ماركس" الذي كان قد وصل بعد دراسة عميقة إلي هذه النتيجة وهي أن الدنيا بعد النظام الإقطاعي ستصل إلي الرأسمالية وبعد ذلك إلي الاشتراكية بشكل حتمي. وهي  رواية تاريخية عظيمة تلك التي كان يقدمها ماركس في صورة رحلة حتمية للتاريخ الإنساني وكان موقعها الغرب والغرب فقط. وكذلك كان حال "توينبي" الذي كان قد سنحت له الفرصة بدراسة واحدة وعشرين حضارة دراسة عميقة فكان لديه أيضا نفس الفكرة وهي أن رأس المعركة للحضارة الإنسانية ستنشب في مستقبل الغرب. وقد حدث تصور جغرافي للغرب بسبب السيادة الأمريكية وذلك بعد الحرب العالمية

الثانية. إن العمل الذي كان يؤديه الغرب إلي الآن وهو جعل الدنيا تري نفسها في المرآة، فقد تم ضم أمريكا أيضا إلي هذا العمل مع تكريم خاص(١٧٥). وبدأ القائلون ترديد هذا القول بأن الثورة الصناعية التي حولت حظ الغرب ففي الواقع كان هذا عملا حضاريا واجتماعيا والشعوب التي تقدمت في الدنيا هي نفس الشعوب التي كانت قد تتبعت نجاح انجلترا علي المستوي الحضاري(١٧٦). وبعد أن نال هذا الرأي القبول في فن التاريخ كانت النتيجة أن الثقافة الغربية وطريقة التفكير الغربي أصبحت لازمة ولا بد منها للنهضة الدنيوية الشاملة. وشعوب العالم الساذجة التي كانت خاوية من أي نوع من الحس والوجدان التاريخي الحر أو كانت قد وقعت في عصر "الأساطير الغربية" فانطلقت وراء الحضارة الأوروبية باحثة عن الرخاء والنجاح وأصبح مقدرا لها أن تصير وراء السراب باستمرار.




كتاب "تايكو براهي" في موضوع الفلك الذي منح الغرب ثقة جديدة مفعمة بالفرح والسرور وبسببه أصبحت آلة "مورال كوادرانت" التي ترجع إلي قرون بعيدة مشهورة.

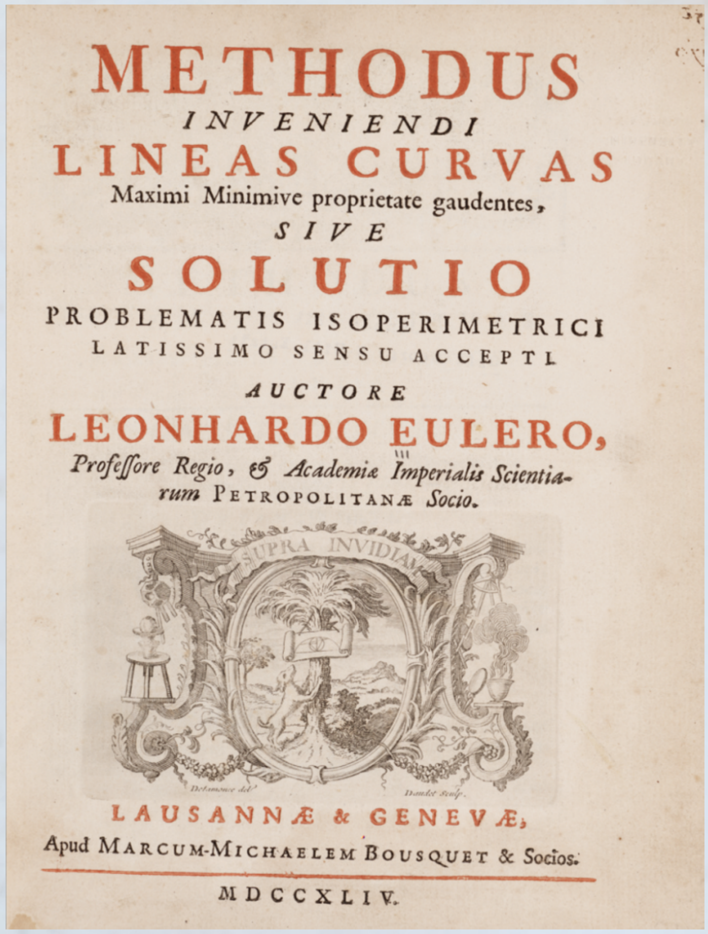
إن الغرب لم يكتف بمسخ التاريخ فقط بل حاول صوغ الحقائق الجغرافية حسب أهوائه ولهذا السبب أصبحت الدنيا لا تظهر في شكلها الحقيقي للمشاهدين. فخارطة "ميركاتور" لم تأت أوروبا في مركز الدنيا بل بدت المساحة الصغيرة لأوروبا في مقابل القارات الواسعة والعريضة تظهر بشكل بارز(١٧٧) وصدق من قال بأن الغرب باسم أوروبا قد مهد الطريق لرسم تصور خيالي للقارة الفرضية(١٧٨) وحسب هذا التصور فإن أوروبا التي كانت شبه جزيرة صغيرة إلي حد ما والتي لم تكن تمثل من حيث الجغرافيا شيئا نالت درجة القارة أما الهند مع سعتها الكبيرة وعرضها الطويل نالت فقط درجة شبه القارة.

إن من اطلعوا علي التاريخ العالمي وعلي تقدمه الاقتصادي والمعيشي من عصر إلي آخر هم بكل تأكيد لن يكونوا جاهلين بأن أوروبا لم يكن لها نصيب يُذكر في الاقتصاد العالمي قبل مطلع القرن التاسع عشر لكن لو كانت هناك معيشة قوية مثل العالم الإسلامي كانت هي معيشة الصين وسبب شراكتها في التجارة العالمية كان يُنظر إليها بعين الاحترام ولو تم الاعتماد علي بيان المفكر الألماني "لايبنتز" فقد جاء فيه "كل شيء يكون له لمعان وبريق تقريبا كان يأتي من شرق الهند ويقول خبراء التجارة أنه لا تجارة في الدنيا برمتها مثل تجارة الصين(١٧٩) ولو اعتمدنا علي كلام مبشر فرنسي من القرن الثامن عشر وهو "فادر دو هالد" فهو يقول أن تجارة أوروبا بأسرها لا تستطيع مجاراة التجارة التي تجري في بلاد الصين علي نطاق واسع جدا"(١٨٠) وعلي العكس من هذا لم يكن هناك رونق اقتصادي مثل الشرق ولم تكن قد حدثت الثورة التكنولوجية التي بدأت تُلاحظ في القرنين التاسع عشر والعشرين، ولم تكن هذه المنطقة تحمل أية أهمية باعتبار الموارد الطبيعية والاستراتيجية ولم يكن هناك أي نوع من المنافسة سواء كانت البرتغال الناشئة في القرن السادس أو إمارة ولنديزي من القرن السابع عشر أو تاج بريطانيا من القرن الثامن عشر في مقابل القوي السياسية والاقتصادية الكبري في ذاك العصر الذهبي وهي الامبراطوريات المسلمة الثلاث المغولية الهندية والصفوية الإيرانية والتركية العثمانية والقوي الرابعة كانت الصينية "مينغ تشاو".

ولو ألقينا النظر علي المدن الكبري من ناحية عدد السكان في القرن السادس عشر فسنعرف وسنقدر هذا الأمر بسهولة أن المدن الحضارية لأوروبا لم تكن تحظي بأي أهمية تذكر في مقابل مدن الشرق وبصفة خاصة المدن الكبري للعالم الإسلامي، فعلي سبيل المثال لا الحصر إن مدينة اسطنبول التي كانت تمثل في وقتها العاصمة العالمية كان عدد سكانها ستة ملايين وأقل من هذا العدد بقليل كان عدد سكان بكين كما كان عدد سكان المدينة التجارية الهندية "كاليكوت" خمسمائة ألف نسمة أما القاهرة فكان عدد سكانها أقل منها وهو أربعمائة وخمسين ألف نسمة أما باريس فكان عدد سكانها مائة وخمسة وعشرين ألفا(١٨١). معني ذلك أن أوروبا حينما أرادت إظهار الوجود الحسي لنفسها علي مسرح الخريطة العالمية فكانت علي الجانب الآخر من البحر الأحمر الأرض المسلمة لأفريقيا معمورة بالمظاهر المدنية علي مستوي عال جدا وظلت عظمة وسطوة الانطباع للشرق مهيمنة علي قلوب وعقول أهل الغرب حتي بداية القرن التاسع عشر أما الثورة الصناعية للقرن الثامن عشر فهي لم تستطع إزالة هذا الانطباع الجماعي من الرواية الشرقية. ولو جئنا إلي الحق فالمفكرون الغربيون في القرن الثامن عشر لم يكن لديهم أي تقدير لهذا الأمر وهو أن الثورة الصناعية

للغرب هذه ستقوم فيما بعد بتغيير جذري علي المسرح العالمي في حقه إلي هذا الحد. إن كتاب "ثروات الأمم" الذي صدر في عام ١٧٧٦م فصفحاته خالية تماما من أي ذكر للثورة الصناعية بل أن كتاب آدم سميث هذا يعترف علي الملأ أن الصين أكثر غني من أي منطقة من مناطق أوروبا.

ولكن فيما بعد ارتفعت نغمة مشاهدة التاريخ بالكامل علي أساس الرواية الغربية حتي وصل الأمر إلي أن المفكرين الغربيين قاموا بتقسيم الدنيا في مختلف الخانات الحضارية فسُمي الواحد منها أنه غير حضاري والثاني أطلقوا عليه بأنه همجي والثالث تم الإقرار بأنه أشبه بالحيوانات. أما الإنسان الأبيض الغربي فقد عُرف أنه متمكن من رأس المهام الحضارية ودرجة العالم الأول تم منحها لبريطانيا والدول الأخري الغربية بالإضافة إلي الولايات المتحدة الأمريكية أما لقب العالم الثاني فقد حصلت عليه شعوب الشرق المائلة للون القمحي التي لم يصبح تاريخ عظمتها وهيبتها قديما ومنهم علي سبيل المثال الأتراك العثمانيون أما العالم الثالث فقد تم تخصيصه لجميع الدول التي كانت أراضيها عرضة للسلب والنهب من الشعوب ذات العرق الأبيض بالإضافة إلي الشعوب السمراء. وإن لم يكن هناك أي أساس عقلي وعلمي لهذا التقسيم لكن شائعة الإفلاس والفقر والتخلف ذاعت بشكل كبير جدا حتي وصل الأمر إلي أن أهل الفكر للعالم الثالث أنفسهم بدأوا يصدقون هذه الدعاية الكاذبة ويحسبونها أمرا واقعا علي الرغم من وجود كثافة سكانية ووفرة الموارد والخيرات الطبيعية الثمينة التي منَ الله بها عليهم. بدأ سكان العالم الثالث الافتراضي يسمون منطقتهم وحضارتهم بنفس المصطلح المسلط عليها. قيل أن أفراد الدنيا الأولي ذوي اللون الأبيض قد تم تفويضهم لهذه المكانة


METHODUS
INVENIENDI
LINEAS CURVAS
Maximi Minimive proprietate gaudentes,
SIVE
SOLUTIO
PROBLEMATIS ISOPERIMETRICI
LATISSIMO SENSU ACCEPTI
AUCTORE
LEONHARDO EULERO,
Professore Regio, & Academiæ Imperialis Scientiarum Petropolitanæ Socio.
LAUSANNÆ & GENEVÆ,
Apud Marcum-Michaelem Bousquet & Socios.
MDCCXLIV.

الكتاب الذي يقوم بتعليم قياس الخطوط المعوجة.
والمؤلف هو "نيو هيلفيتيكا" (١٧٨٣م-١٧٠٧م).

الرائدة من الطبيعة وقيل أيضا أن الشعوب ذات اللون الأبيض أنسب لقيادة العالم من جميع النواحي السياسية والجغرافية والعرقية والذهنية. علي سبيل المثال فإن "ويليام فالكونر" قد أبدي هذا الرأي بأن أفضل نوع من البشر ينشأ في هذه البيئة التي تقع في أقصي الشمال وهو ليس بلدا آخر سوي بريطانيا(١٨٢). في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي حينما كانت الأنشطة الاستعمارية للشعوب ذات اللون الأبيض في قمتها، ففي بريطانيا بدأ أصحاب ألوية العنصرية العلمية إصدار فتاوي علي أساس حجم الجمجمة الإنسانية وبنائها. قيل أنه بناء علي دراسة علمية للجماجم ظهر أن جمجمة الإنسان ذات اللون الأبيض تكون عظامها رقيقة ولهذا السبب توجد هناك سعة كبيرة من المساحة لنمو ونشأة الدماغ أكثر بكثير أما جماجم الأفراد السود فبسبب سمك عظامها لا تكون هناك مساحة كافية لنمو الدماغ وهذا هو السبب في أن الإنسان الأبيض يصاب بضربة شمس في فصل الصيف بسرعة أما السود فلا يتأثرون بها(١٨٣). وفي سبيل إثبات التفوق الطبيعي للأفراد البيض ذُكرت حقيقة علمية غير محمودة أخري وهي أن في دماغ أهل الشرق يوجد فص شرقي وهو الذي دائما ما يحرك الوجدان وحب الديانة وفي الوقت نفسه فالفص الغربي الذي يوجد في أدمغة الأوروبيين تنبع منه في العقل الإنساني باستمرار منابع العقل والعلم والشعور. إن الدعاية لتقديس أفراد اللون الأبيض بلغت ذروتها وتم نشر هذا الرأي المذموم علي نطاق واسع جدا إذ بدأ يُفهم في القرون الاستعمارية علي العموم أن الشعوب ذات العرق الأبيض وبصفة خاصة نسل "الآنجلو- سكسون" كان فيهم شيء مميز وبسببه حصل هذا الجنس علي الغلبة واستحوذ علي شعوب العالم وبسبب تلك الميزة الطبيعية أصبح مُحقا أن يجبر شعوب الشرق المتخلفة علي استخدام القوي ضدهم لمعرفة الحضارة(١٨٥).


Vom Quadranten. 38

Hierauß folget ein gemein Regel/ also/ Wañ du die behaltene quotiens ten von beyden ständen gefunden von einander zeuhest/ bleibt dañ vberig 2. so ist die höhe vnd die weyte beyder stånd gleich 2. ists ein zweytheil/ bleiben drey/ so ist die höhe ein drittheil.

Wie du messen solt die höhe eines Thurns auff einem Berg/ so du im Thal stehest. Cap. xix.

NUn wollen wir zeigen wie man eines jeden dings höh/ das auff einem Berg stehet/ in einem thal messen sol. Zum ersten lug/ das du habst

K ij

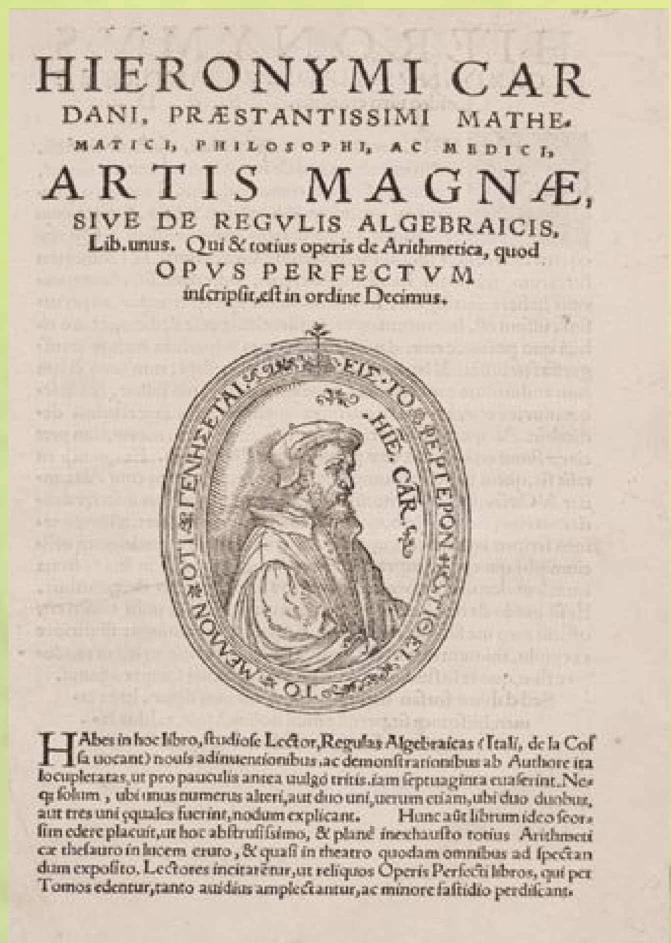
بسبب انتشار علوم الفلك وآلة "كوادرانت " أصبح ممكنا لأهل الغرب معرفة ارتفاع الأمواج. في الصورة علم الهندسة ل"جيكوب أناتولي" (١٤٦٠م-١٥٣٣م).

لأول مرة في القرن التاسع عشر نال الاستهزاء والتحقير من الشرق مكانه بدلا من

تعظيمهم وسطوتهم في الرواية الغربية وإلي الآن ما كان من نكران الجميل والعواطف المذمومة من بترارك إلي فرانسيس بيكون وبعد ذلك من ميشليه وبوركهارت إلي ماركس وماكس فيبر بدت فجأة تتحول إلي فلسفة منضبطة وأسطورة متينة. وأهل الغرب لكي يثبتوا أحقيتهم بالقيادة العالمية جعلوا فن التاريخ وعلم التمدن والفلسفة والأدب وحتي العلوم الحقيقية مثل علم الطبيعة لتُستخدم لصالح هذا العمل ولم يكتفوا باستخدام العلوم مثل علم الإنسان وعلم الاجتماع والتي هي أساسا قد وُضعت لإثبات تفوق وعظمة الشعوب ذات اللون الأبيض(١٨٦) بل من أمثال ماركس وفيبر الذين كانوا مختلفين فيما بينهم لكن أمثال هؤلاء المحللين الحقيقيين بدأوا القول بأن الإنتاج الرأسمالي وصفة خالصة للحضارة الغربية وفي مقابل الغرب وضعوا تصور دنيا افتراضية باسم "المشرق" حيث جاء حسب قول ماركس أن طريقة الإنتاج الآسيوي كانت قد منعت طريقة التغييرات السارة واللطيفة إلي أن جاء الرأسمال الغربي الذي قام بمبادرات لإنقاذ الشرق من هذا الجمود التقليدي.

إن فهم التاريخ الخاص بماركس كان يتغذي أساسا من هذه الفرضية وهي أن الغرب في ارتقائه التاريخي متميز ومتفرد عن الشرق لأن الغرب توجد فيه إمكانيات نمو وتقدم الرأسمالية بوفرة أما الشرق فحسب قوله معدوم الإمكانيات ولذلك قدم ماركس الإذن النظري للتدخل في الشرق، لقد كتب في الدستور الشيوعي مشيرا إلي طبقة الغرب (البرجواز) ومشيدا بما يلي: "إن هؤلاء يُعَرفون حتي الشعوب المتوحشة بالحضارة ... إنهم في بعض الأحيان يجبرونهم مستخدمين التعذيب الشديد (ولو اضطروا للإبادة) لكي يتعرفوا بالحضارة (أي يصبحوا غربيين. وخلاصة القول أن هذه الطبقة البرجوازية الغربية يريدون تأسيس عالمهم حسب أهوائهم بالتمام والكمال"(١٨٨).

إن ماركس ذكر في مقابل طريقة


HIERONYMI CAR
DANI, PRÆSTANTISSIMI MATHE-
MATICI, PHILOSOPHI, AC MEDICI,
ARTIS MAGNÆ,
SIVE DE REGVLIS ALGEBRAICIS,
Lib. unus. Qui & totius operis de Arithmetica, quod
OPVS PERFECTVM
inscripsit, est in ordine Decimus.



HAbes in hoc libro, studiose Lector, Regulas Algebraicas (Itali, de la Cossa uocant) nouis adinuentionibus, ac demonstrationibus ab Authore ita locupletatas, ut pro pauculis antea uulgo tritis, iam septuaginta euaserint. Neque solum, ubi unus numerus alteri, aut duo uni, uerum etiam, ubi duo duobus, aut tres uni æquales fuerint, nodum explicant. Hunc aũt librum ideo seorsim edere placuit, ut hoc abstrusissimo, & planè inexhausto totius Arithmeticæ thesauro in lucem eruto, & quasi in theatro quodam omnibus ad spectandum exposito, Lectores incitarentur, ut reliquos Operis Perfecti libros, qui per Tomos edentur, tanto auidius amplectantur, ac minore fastidio perdiscant.

قدوم علم الجبر وانتشاره بصورة منتظمة في عام ١٥٤٥م.

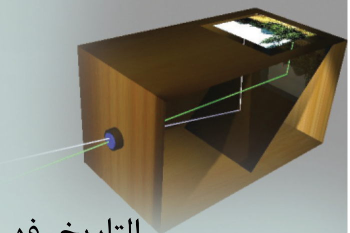
١٦٣

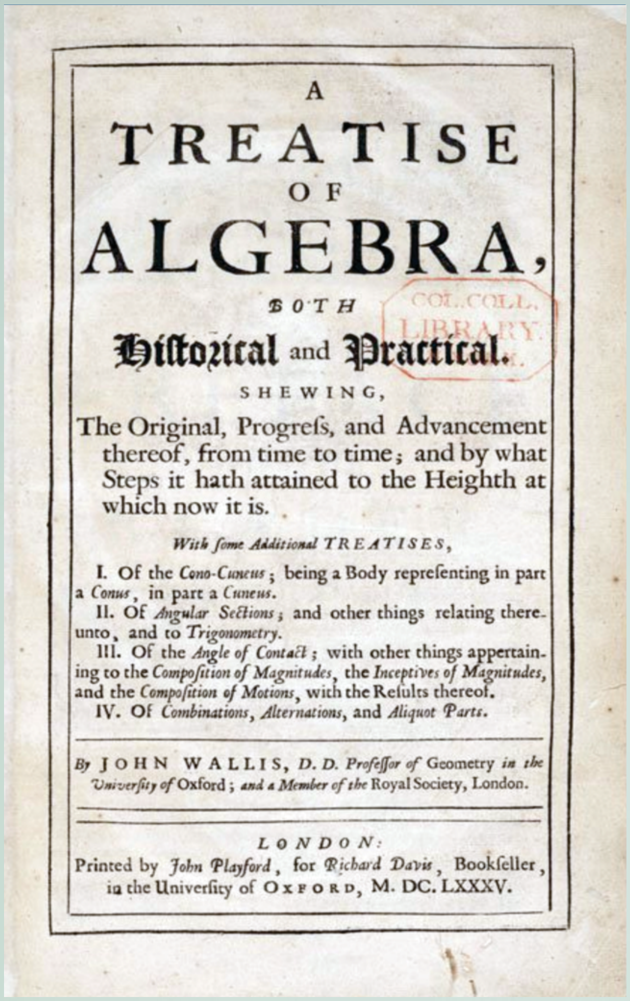
الإنتاج الرأسمالي الغربي تحقيرا واستهزاءا بطريقة الإنتاج الآسيوي وقام بالدفاع عن هذه الفرضية وهي أنه مادام هنا فقدان للملكية الذاتية ووجود صراع بين الطبقات فلا مكان في هذه المرحلة الطبيعية للتاريخ الوصول إلي المحطة الأخيرة وهي التي تبدأ من الإقطاعية تليها الرأسمالية وتنتهي بالاشتراكية. فإن لم يقم الغرب بإقناع الشرق بالقوة علي قطع الرحلة التاريخية فحينها يظل الشرق جامدا في مكانه إلي الأبد. ولدي ماركس كانت تبدأ رحلة التاريخ مثل المغنين الآخرين للغرب وتصل إلي مصيرها الحتمي والمنطقي تحت قيادة الشعوب الأوروبية في الغرب نفسه ولذلك فمن أهم واجبات الأفراد الغربيين أن يعرفوا الدنيا بالحضارة وقيل عن الإنسان الغربي أنه تربي في ظل أم الحضارة الإغريقية وذلك علي عكس نظام القحط والتاريخ الجامد للشرق(١٨٩). ومن هنا كان يأتي هذا الانطباع وهو أن الرحلة الانتقائية للتاريخ كان قد بدأها الإنسان الغربي من اليونان إلي روما ومن روما إلي "كريستندم" ومن ثم الوصول إلي النهضة ومن النهضة بدأت حركة النهضة ثم أتت الثورة الصناعية وهكذا سار هذا الإنسان علي هذا الدرب. أما الشرق النائم فهو لا يألف الحضارة وتابع لنظام القهر المركزي فهو محروم من إنتاج رأس المال الإضافي وما يتبعه من إمكانيات الثورة السياسية والاجتماعية. إن فهم التاريخ هذا لماركس ليس أسيرا للرواية الغربية ونتيجة اغترار النظر فحسب بل يدل علي عدم معرفته الكاملة بالشرق وكذلك عدم إدراكه بالتاريخ العالمي وهكذا تسبب في التضليل العلمي.

## نضج العقلية الاستكشافية في الغرب

في شهر مايو لعام ١٥٤٣م طُبع في نورنبرغ كتاب عظيم الشأن لكوبرنيكوس وهو "حول دوران الكواكب السماوية" وفي الشهر التالي أي في يونيو لعام ١٥٣٤م أصدر "اندرياس فيساليوس" في مدينة بيصل كتابه المسمي "بنية جسم الإنسان". كتاب كوبرنيكوس هذا إن كان علامة لمنهج المشاهدات والملاحظات لدراسة الكون فإن كتاب "فيساليوس" يعد نقيبا للدراسة الحقيقية والدقيقة لجسم الإنسان. إن كوبرنيكوس أخذ واستفاد من سابقيه أمثال الطوسي والبطروجي وابن شاطر وبعد ذلك قام بإضافات من عنده وهكذا كان قد وفر في الغرب لأول مرة أساسا علميا لدراسة الآفاق وكذلك "فيساليوس" كان قد قدم للعالم كتابا واقعيا للدراسة والاطلاع علي الأنفس مستفيدا من كتب سابقيه من أمثال جالينوس وابن سينا وابن النفيس. أيام القرن السادس عشر هذه التي قيل عنها أنها أيام الثقة بالنفس لأهل الغرب وإن كان لا بد وأن نقرر ونحدد اللحظة الحاسمة لتقدم أهل الغرب في

التاريخ فهي تلك اللحظة عندما جاء تفسير هذه الآية الكريمة أمامنا بأسلوب مبين "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه علي كل شيء شهيد." (فصلت:٥٣). وتم وعد الله سبحانه وتعالي أن قافلة العقل الاستكشافي بعد نزول القرآن وصلت إلي مرحلة لا يكون فهم الآيات الخفية الخاصة بالأنفس والآفاق للناس العاديين ممكنا بل نتيجة لمعرفة الأسرار عن الأنفس والآفاق يجد الناس أنفسهم في أوج حالة من الفرحة وهنا يجد هؤلاء أنفسهم مجبرين ومضطرين للقول بأنه هو الحق. إنني ذكرت هذين الكتابين بصفة خاصة كرمز وإلا فمعظم الكتب التي صدرت في النصف الأخير من القرن السادس عشر يبدو عليها الإحساس بالعلم الجديد ومعرفة كل شيء. علي سبيل المثال يبدو من عنوان كتاب "لوكا باتشولي" المسمي "ملخص في الحساب والهندسة والنسبة والتناسب". إن حالة النشوة تجاه المعرفة في الغرب كانت قد خلقت ما يشبه "دولة فكرية جديدة". وهذه الثقة أقنعت المؤلفين الغربيين أن يقدموا كتبهم علي أساس "علم جديد" أو "الأورجانون الجديد" وهو ما يعطي انطباعا بأن هؤلاء يضعون أساسا للفروع الجديدة للعلوم.





A
TREATISE
OF
ALGEBRA,
BOTH
Historical and Practical.
SHEWING,
The Original, Progress, and Advancement thereof, from time to time; and by what Steps it hath attained to the Heighth at which now it is.

With some Additional TREATISES,
I. Of the Cono-Cuneus; being a Body representing in part a Conus, in part a Cuneus.
II. Of Angular Sections; and other things relating thereunto, and to Trigonometry.
III. Of the Angle of Contact; with other things appertaining to the Composition of Magnitudes, the Inceptives of Magnitudes, and the Composition of Motions, with the Results thereof.
IV. Of Combinations, Alternations, and Aliquot Parts.

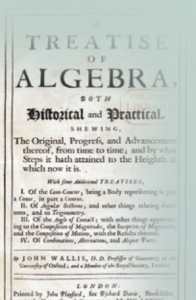
By JOHN WALLIS, D. D. Professor of Geometry in the University of Oxford; and a Member of the Royal Society, London.

LONDON:
Printed by John Playford, for Richard Davis, Bookseller, in the University of OXFORD, M. DC. LXXXV.



أول تاريخ منظم لعلم الجبر في أوروبا: المطبوع في عام ١٦٥٨م.

لقد سبق لنا أن أشرنا في الصفحات السابقة لهذا الكتاب إلي هذا الأمر وهو أن الرحلة الألفية للعقل الاستكشافي للغرب استمرت في اتباع المسلمين مباشرة وتقليدهم لكن السلوك العام لأهل الغرب بشأن الإسلام ذاته كان معاديا كحضارة غالبة أو فاتحة. ظلت العلوم العربية أو العلوم الاستكشافية مبعث اهتمام للغرب علي الدوام لكن في نفس الوقت الكتاب الذي حقق وأوجد هذه الحضارة لم تنته تحفظات العقل الغربي نحوه أبدا. ومن جانب آخر حينما حان وقت رفع نعرة الاستسلام في الغرب "إنه هو الحق" والذي يسمي في الغرب بعصر النهضة ففي ذلك الوقت كانت قد



بدأت قبضة المسلمين علي السيادة العالمية تتراخي وتتفكك بل يمكنك أن تقول بصريح العبارة عندما أوشك الغرب أن ينادي بأعلي صوته أنه هو الحق ففي الشرق كان العقل الاستكشافي في حالة احتضار. إن عام ١٥٨٠م الذي اخترته لفهم التاريخ علي سبيل المثال كان مرصد تقي الدين ذا الشأن العظيم يتم هدمه في اسطنبول وتخيل الشرق والغرب للقرن السادس عشر في مشهد واحد عريض وغير منقسم يخبرنا بهذه النكتة وهي أنه بعد الرحلة الألفية لحركة الاستكشاف وسعتها الآفاقية حينما حان الوقت لتوجيه التاريخ إلي الجهة الحاسمة فبصورة مذهلة غاب عن الأفق العالمي القائد الطبيعي لحركة الاستكشاف وحاملي الرسالة المحمدية وسيطر علي العالم الإسلامي الطراز الفكري الأساطيري والغير استكشافي بل غير القرآني والخرافي حتي وصل الأمر إلي حد أن المسلمين أنفسهم قاموا بدك مرصدهم الذي أقاموه يوما ما بأيديهم ووفاة العقل الاستكشافي كان في كل الظروف مأساة كبري للعالم الإسلامي لكن في نفس الوقت لم تنج الحركة الاستكشافية الغربية بآثارها الضارة فسواء كان الأدب أو الفلسفة أو العلوم الاستكشافية أو مظاهر الحياة الحضارية كان الغرب دائما يضع الشرق الإسلامي أمامه كند أو حتي حليف له، والآن وبعد سقوط الشرق فجأة نتجت لدي الغرب حالة أزمة نظرية.

في مفترق الطرق بين الخوف والرجاء هذا وعندما كانت قيادة الشرق الإسلامي قد غابت عن الأفق وكان الغرب يعاني من آلام المخاض فكان ينبغي أن ينال في الوقت المناسب هذا تعاون وتضامن من أهل الكنيسة. لو كان قد حدث هذا لكانت أودية الغرب يدوي فيها صوت وصدي معرفة الله "إنه هو الحق" بل أكثر من هذا وما العجب في أن تكون قد توفرت أيضا أداة التطهير والإصلاح للمسيحية نفسها لكن الذي حدث هو أن المهمة الاستكشافية هذه تعرضت للوم من الكنيسة بدلا من أن تنال التعاون منها فقد رأت الكنيسة دراسة الآفاق لكوبرنيكوس كخطر واعتبرت أن هذا الإثبات هو طعن في المؤسسة الكنسية ففي الكونيات الجامدة في التوراة كانت الأرض هي المركز وكان لديها هذا الأمر مصدقا ومعروفا أن القدس تقع في مركز الأرض لكن النظرية الجديدة عن الكون قد دكت المعتقدات المسيحية السائدة ومن جانب آخر جاء في التوراة ذكر ثلاث قارات فقط لكن الملاحظات والمشاهدات الإنسانية الجديدة أثبتت عدم صحة هذه المعلومات القديمة فأحس أرباب الكنيسة أن هذه الإثباتات والحركة الاستكشافية الجديدة هو طعن في نظريتها الراسخة ورأت أنها ستقوم بتحويل خيمتها إلي رماد فبدلا من أن يلبوا نداء الفطرة وينادوا بأعلي صوت بأنه هو الحق فتحوا ضد علماء الاستكشاف فوهات فتاويهم حتي أولئك الذين كانوا يعدون أنفسهم



Binding Side

إصلاحيين ومستنيرين هم أيضا انضموا إلي المنغلقين من المسيحيين من راسخي العقيدة. خذ علي سبيل المثال لوثر فقد أبدي غيظه وغضبه من كوبرنيكوس قائلا: "إن هذا الأحمق يريد أن يغير جميع المعلومات عن الفلك"(١٩٠). إن السلوك المعاند للكنيسة وإجراءاتها الانتقامية ضد علماء الاستكشاف جعل الحركة الاستكشافية في آخر الأمر حركة ناقصة. ثم أن الأهداف المحدودة لحركة الإصلاح وامتزاج الحركات السياسية في هذا العمل لم يترك هنا أي إمكانية للجوء للعقل الاستكشافي. إن الحرب الدينية والمذهبية أو الأوروبية الدائرة قرابة ثلاثين عاما والحالة الميئوس منها التي نتجت عنها جعلت الإنسان الغربي في آخر الأمر مجبرا لأن يلجأ إلي الحالة اللاإدراكية وكانت هذه هي الخلفية عندما وقعت أعين قادة الثورة الصناعية والرأسماليين الطامعين فرأوا في هذه الحركة الجديدة إمكانيات وافرة لإكمال أهدافهم البغيضة. وفيما بعد تم اختطاف هذه الحركة الاستكشافية التي نمت وترعرت في ظل العلوم العربية والتي هي أصلا من إنتاج الحلقة الفكرية للقرآن بأيدي الرأسماليين. والآن قل ما يوجد هناك شعور عن كونها أصلا دينية.


Erhart Helmen. 78
Der ander satz ist/ wie man die läng finden soll/auff ein jede tieff.
Der dritte vnd letzste ist/ wie man außtheilet vnd einsetzt die Puncten deß Innhalts.
Von der tieffe an die Visierruthen zu verzeichen/auß der Geometria.
Ziehe ein Lini/ a b. vnd setz einen Quadraten/ wie groß du wilt/ an das a. der sey a c d e. vnd das Latus/ strich oder seyt/ a c. wirdt genendt der erst Diameter/ oder der erst Puncten in der tieffe/vnd bleibt vngetheilt/bedeut ein maß.
Besihe

كتاب "آدم رييس" (يناير١٤٩٢م- مارس ١٥٥٩م)
الذي قام بدور مهم في نشر علم الرياضيات العربية في أوروبا.
وقد نشر هذا الكتاب حينما كان يعد علم
الرياضة العربية في بعض الدول الأوروبية من الممنوعات.

في الأوساط العلمية المتغربة يوجد علي العموم هذا الانطباع وهو أن الثورة الصناعية الأوروبية قد مهدت طريقا للرأسمالية ثم هذه الرأسمالية سلطت عفريت التكنولوجيا علي الغرب وعلي مرأي من الناس ظهر هناك عالم جديد والحكماء الغربيون يطلقون علي هذه الحالة المعجزة الأوروبية(١٩١). إن هؤلاء من رأيهم أن جل الهيبة والإجلال والاختراعات الجديدة المتنوعة والتسهيلات الجديدة للسفر والحضر من الحضارة الجديدة والدنيا بأسرها كما هي من صنع الشعوب

الأوروبية وحسب رأي هؤلاء السادة فإن الشرق الإسلامي الذي لم يستطع الحصول علي الشيء الذي كان يريده في أيام السيادة الفكرية للألفية جعله الغرب ممكنا نتيجة للثورة الصناعية وقد تم تفويض وتكليف التكنولوجيا لخدمة الناس بحيث جاء في مرأي من الناس طالب جديد للحضارة. وبصريح العبارة فإن الأهداف التي لم يصل إليها الشرق أثناء رحلته التاريخية الطويلة جعلها الغرب ممكنة.

في ظاهر الأمر تبدو هذه الدعاية ذات ثقل كبير وتعطي الإحساس كأن الشهادة التاريخية لخمسمائة عام مضت موجودة علي ظهرها. لكن لو قمنا بتحليل هذه القضية بشيء من التعمق يظهر لنا في الواقع أن هذا الرأي ليس أكثر من نحت أسطورة جديدة ولا شك في أن قالب الحياة الإنسانية طرأ عليه تغيير بسرعة شديدة بعد ظهور الثورة الصناعية لكن تفسيرها بالمعجزة لا يدل علي عدم معرفة التاريخ فحسب بل مسخه بالكامل ويدل كذلك علي السذاجة البحتة.

نحن نعترف بهذه الحقيقة بكل تأكيد وهي أن العالم الإسلامي بعد محاولة ابن فرناس للطيران في الهواء في القرن التاسع لم تحدث مثل هذه الضجة لقرون ونحن نعترف أيضا بهذا الضعف وهو أننا تعرفنا بتكنولوجيا محرك البخار قبل أهل الغرب بكثير لكننا استخدمناها لشي الخروف بالكامل ولكن



كتاب ابن بطلان (المتوفي ١٤٥٥م) الشهير بتقويم الصحة باللغة اللاتينية.

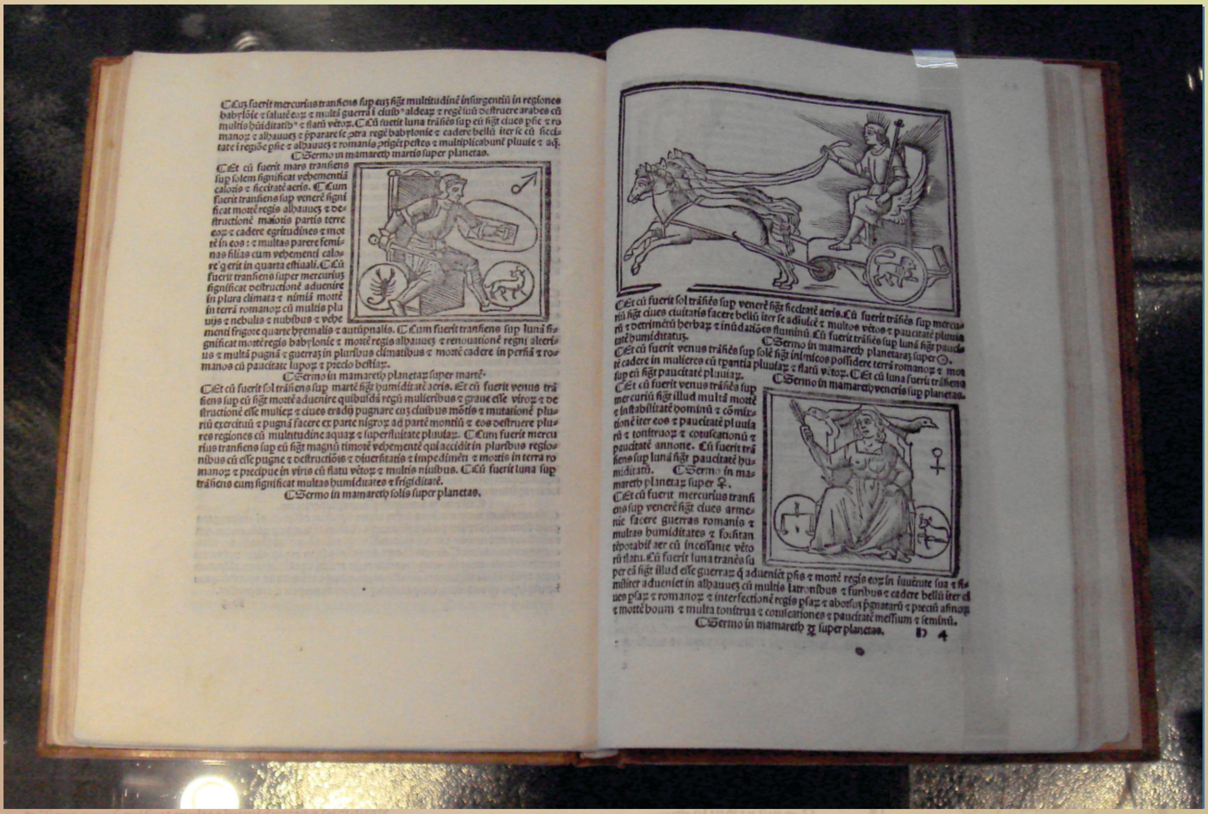


Binding Side

لم يتجه تركيزنا في استخدام هذا المحرك للصالح العام. ونعم نحن غير نادمين بالمرة أن التجار المسلمين والحكام لم يخطر ببالهم أبدا علي الرغم من وجود التكنولوجيا الأساسية في العالم الإسلامي كي يُحدثوا بثورة صناعية باستغلال التكنولوجيا والموارد الطبيعية للإنتاج اللامحدود فإن كان الشرق من ناحية بسبب غلبة الطراز الفكري الأسطوري معرض لنوم عميق واضمحلال فمن ناحية أخري لم تكن القيم الأخلاقية الراسخة في قلوبهم تسمح لهم بأن يظهروا هذا القدر من قسوة القلب في استخدام التكنولوجيا حتي يصل الأمر إلي تدمير التوازن الموجود بين البيئة والإنسان. إن من يعرفون تاريخ العلوم في العالم الإسلامي بكل تأكيد لن يكون فهم هذا الأمر صعبا بالنسبة لهم أن كتاب الحيل لابن موسي الذي ألفه في القرن العاشر يتحدث بالتفصيل عن الماكينات الأوتوماتيكية ويعطي هذا الكتاب علي الأقل انطباعا أن مسلمي العصر العباسي كانوا قد تعرفوا علي التكنولوجيا الأوتوماتيكية وكان قد تم صنع الساعات المائية وكان يتم استخدام السفن الشراعية بصورة عامة. والمهندس التركي تقي الدين الذي جاء ذكر مرصده الشهير آنفا نجد في كتبه تفاصيل عن محرك البخار وتكنولوجيا جهاز التروس التي كانت تعتمد عليها جميع المصانع في الثورة الصناعية ففي العالم الإسلامي كانت طريقة استخدامها تزداد استحكاما لكن حتي في ذلك الوقت لم يخطر ببال أحد أن يزيد الإنتاج بصورة غير عادية عن طريق استخدام الماكينات وتُحرم حينها كثير من الأيدي العاملة من ممارسة العمل. إن المناطق الواسعة والعريضة من العالم الإسلامي من جاوة وسومطرة والهند وفارس وإفريقيا الشمالية وبعض الأجزاء من أوروبا كانت غنية بالموارد الطبيعية مع عمران الزراعة والصناعة والتجارة وكانت كينونة الفرد عامرة بالسلام النفسي والأسواق كانت مليئة بالمصنوعات وتوازن العرض والطلب كان قائما ففي تلك البيئة من الرخاء ما الحاجة التي كانت تستدعي أن يتم زيادة الإنتاج لحد تخرج القوافل التجارية لبيع هذا الإنتاج من بلد إلي آخر ومن ثم يزداد شره الحرص والطمع حتي يُصاب بالتملق والاستجداء من الاستعمار، وعلي العكس من هذا فإن منطقة أوروبا الناشئة حيث كانت التكنولوجيا بشرتها بإمكانية جديدة كانت خالية من المواد الطبيعية. خذ علي سبيل المثال صناعة الأقمشة فكانت تستورد المواد الخام من الأسواق القديمة من أمثال الهند ومصر أي بعبارة أخري لم تكن هنا المواد والإمكانيات متوفرة في الطبيعة والتي كانت موجودة بوفرة في الشرق الغني ثم كان هناك نقص كبير في الأيدي العاملة التي تعمل لحساب أوروبا فحينها كان يلزمها استخدام ماكينات أوتوماتيكية مقارنة بالشرق أما أن استخدام الماكينات الأوتوماتيكية فهي تحرم أعدادا كبيرة من الأيدي العاملة من الشغل أو أن التوازن البيئي يتخلخل أو يتأثر فمثل هذه

القضايا لا تعني شيئا في وسط الفكر الرأسمالي. لكن بالضجة الكبيرة من الماكينات لم يكن ممكنا هزيمة الشرق وكذلك لم يكن من الممكن إقامة السيادة الغربية علي حساب الثورة الصناعية فقط. ولذلك استخدمت الشعوب ذات اللون الأبيض من سوء الحظ الحيل الخبيثة والكريهة للوصول إلي هذه الأهداف وذكر هذه الحيل يجعل القلب تخبو عاطفته وتفتر همته.

إن الرحلة البحرية لكولومبوس التي تُحكي بشكل رومانسي وهي جزء مهم في الرواية الغربية ويُنظر إليها كنقطة بداية للحضارة الغربية فإنه سبق لنا ذكر أهدافها الحقيقية في الصفحات السابقة والآن تعالوا نذكر الأمور التي دفعته ومشرفيه إلي هذه الرحلة سواء كان وراءها البحث عن الموارد أو العقلية الصليبية أو الحرص والطمع الزائد عن الحد لكن الحقيقة المرة أن الدنيا الجديدة أمريكا تلطخت بالدم الإنساني علي أيدي الغزاة الإسبان بسبب البربرية وسفك الدماء والنهب والتدمير حتي وصل الأمر أن عدد السكان المحلية البالغة ثمانين مليون نسمة من البشر تم إزهاق أرواح سبعين مليونا منهم خلال خمسين سنة فقط ويُقال أن عدد سكان مكسيكو في القرن السادس عشر كان يبلغ خمسة وعشرين مليونا لكن بقي مليون واحد فقط في نهاية القرن السادس عشر(١٩٢). وبكل تأكيد



كتاب أبو معشر جعفر ابن محمد البلخي باللغة اللاتينية (المطبوع عام ١٥١٥م بفينيسيا).

فإن عددا منهم ماتوا بالأمراض التي كانت قد انتقلت من مجتمع غير صحي لأهل أوروبا، علي سبيل المثال الجدري والحصبة وغيرها من الأمراض التي كانت منتشرة في أوروبا فقبل اختراع التطعيم الوقائي كانت الوجوه القليلة جدا التي تكون خالية من بقع الجدري والحصبة في أوروبا وبالإضافة إلي هذه الأمراض كانت هناك وفيات عديدة بسبب غلظة قلوب الغزاة الأوروبيين. إن هؤلاء الذين كانوا يمثلون الأندلس التي هي نفسها كانت قد أتمت في الآونة الأخيرة عملية جلاء المسلمين واليهود وإبادتهم تحت قيادة إيزابيلا وفرناندو فهؤلاء الغزاة الإسبان كانوا سائرين علي نفس الدرب في العالم الجديد إلي أن أصبحت أجيال الهنود الحمر قصة منسية من التاريخ(١٩٣). وقد نال الاقتصاد الأوروبي في القرن السادس عشر نموا وتقدما غير عاديين بسبب الثروة القادمة من المستعمرات الجديدة وبدأت ذخائر الذهب والفضة علي السفن الكبيرة من مختلف مناطق الدنيا الجديدة إلي أوروبا. يُقال أنه كان قد وصل الحال في أواخر القرن السادس عشر إلي أنه بدأت أوروبا تتلقي كل سنة حوالي ٢٧٠ ألف كيلو من الفضة و٢٠٠٠ كجم من الذهب(١٩٤). فمن جانب كانت عملية الإبادة المخططة مستمرة ومن جانب آخر كان يزداد الاحتياج لتوفير القوي البشرية وذلك للحصول علي المزيد من ذخائر المعادن الثمينة فجاء الحل لهذه القضية أن يتم تعيين الناس الأصحاء والأقوياء من قارة أفريقيا علي هذا العمل إجباريا. يُقال في هذا الصدد أنه في خلال ١٥٢٥م و١٥٥٠م تم نقل أربعين ألفا من السود العبيد إجباريا إلي أمريكا وتم تسخيرهم في الدنيا الجديدة هناك لإكمال حرص وطمع الشعوب الأوروبية ذات اللون الأبيض(١٩٥). لا ندري كم من الأسر اجتثت من جذورها وكم من الناس شُردوا وماتوا فبعد ذلك جاء من نصيب أوروبا هذا الترف والرفاهية.

إن البارود والماكينات الأوتوماتيكية ومغناطيس تحديد الجهات وإدراك قوة البخار لم تكن للشرق الإسلامي تجربة جديدة لكن وقتئذ كان استخدام البارود والبندقية لتغيير الخريطة في ميدان الحرب لكن لم يخطر علي بال أحد أن يُبيد الناس من الوجود وذلك طمعا لاحتلال الأراضي الخضراء الخاصة بهم ويخصص لنفسه مساحة آلاف الكيلومترات لتلبية رغباته وأهوائه وما حصل من النجاح للغزاة الأسبان والبرتغاليين شجع الشعوب الأوروبية الأخري لاتخاذ الحملة الاستعمارية طريقا لها. ولم يكن قد مر وقت طويل إذ انضمت شعوب انجلترا وويلز وفرنسا وألمانيا علي مستوي العالم إلي السلب والنهب فمن المحيط الهادي إلي المحيط الهندي ومنه إلي منطقة البحر الأسود أصبحت مسرحا للحرب في ضوء الأطماع الأوروبية المستمرة. إن المناطق المحتلة في أمريكا وفيما بعد المستعمرات الشرقية لم تملأ كؤوس أوروبا من الذهب والفضة والمعادن النفيسة فقط بل جاءت

تحت احتلال الشعوب الأوروبية مئات الآلاف من الأفدنة الزراعية الخضراء لهذه البلاد حيث تم تسخير العبيد والرقيق السود ليلا ونهارا كي يقدموا خدماتهم لرفاهية أوروبا.

عملية شراء وبيع الرقيق والعبيد نفسها جاءت في شكل تجارة رابحة جدا. إن رواية صعود وتقدم أوروبا كم هي مليئة بالبكاء والصراخ وعويل العبيد ويمكن تقديرها إلي حد ما بهذا الأمر وهو أن أربعمائة ألف من البشر من نيكاراجوا فقط صاروا عبيدا في القرن السادس عشر(١٩٦). ومناجم بيرو وميكسيكو من الذهب والفضة كانت عامرة علي حساب العبيد السود من أفريقيا حيث كانت توجد مراكز كبيرة لوضع العبيد في النظام الرأسمالي الاستغلالي. وفي البرازيل كانت هناك مزارع واسعة لقصب السكر ومحاصيل أخري تدار علي حساب العبيد. ومن ناحية أخري كانت قد ازدادت القوي الشرائية لأوروبا في الأسواق العالمية بسبب الوفرة الكبيرة في الذهب والفضة(١٩٧). وكانت ثمرة الأعمال الشاقة للملايين من العبيد تدخل في جيوبهم فكانت نتيجة هذه الثروة الرخيصة والوفرة الجائرة أن ولدت في الغرب الطبقة الرأسمالية الباحثة عن معارك الاستغلال والتي كانت تستطيع توفير الأموال للاختراعات والاكتشافات الجديدة لجلب مزيد من الربح. كانت هذه هي خلفية المعجزة التي جاءت من الغرب والتي نسميها نحن بالقالب الجديد للحضارة.

الحركة الاستكشافية التي تغمر حياة الإنسان في يوم ما بمعاني الحياة وتطلعه بالروابط القائمة بين الأنفس والآفاق فقدت وجهتها الصحيحة علي يد الرأسمالية إذ بدأ الإحساس بعصر مظلم جديد علي هذه الدنيا التي تم بناؤها. المبادرات التكنولوجية وتسهيلات النقل وتسخير الكون كل هذا كان بكل تأكيد شيئا يستحق الإشادة لكن هذه البشري السارة عن الفجر الجديد كانت قد جاءت من نصيب أهل الغرب فقط وكُتب علي شعوب الشرق أن يدفعوا ثمنه الباهظ مجبرين وبصريح العبارة كانت هذه البشارة المنعشة عن فجر جديد في الغرب عبارة عن ظلام دامس للشرق. إن رفاهية الغرب كانت قد جاءت علي حساب الشرق من إفلاس واستنزاف. كان الغرب يعلم جيدا أن دنياه المبنية علي المعجزة لن تقوم إلا علي إزهاق روح الشرق. إن الهنود الحمر قد أُبيدوا من أمريكا لكن شعوب الشرق وبصفة خاصة أرض العالم الإسلامي مازالت إلي يومنا هذا ملطخة بالدم بسبب هجمات الغرب.

إن الحضارة التي تكون محرومة من إمكانية بقائها علي أساس الحق والعدل والتي تُعاني من نقص في الأيدي العاملة وكذلك نقص في الموارد الطبيعية فمثل هذه الحضارة تختار أي سلوك لإبقاء سطوتها غير طريق الظلم والاستحصال؟ فلون وشكل هذه الحضارة مهما كان رائعا وأنيقا فلا يمكن



Binding Side

تحمله بعيدا عن التمجيد والإشادة بها. كل أولئك المادحون للغرب الذين يقررون أن صعود وتقدم الغرب يرجع إلي بعده النظري وتعقله الشديد منعونا من إدراك الموقف الأصلي والحقيقي. يقول أهل الغرب أن الدنيا الجديدة ظهرت إلي حيز الوجود بمساعينا ومحاولاتنا نحن وأن هذا الفجر الذي تشاهده هو قائم بسبب صياح ديكنا. مادحو الغرب هؤلاء يؤكدون لنا باستمرار متي ولماذا تعرضت قافلتنا لسبات عميق وعدم تركيز؟ وما الخطأ الذي حصل والذي أعطانا انطباعا بأن كل ما يحدث عندهم إلي الآن يسير علي الطريق السليم لكن نظراتهم المعرفية قاصرة في إدراك هذه الحقيقة أن عدم التركيز علي الجهة السليمة في الحركة الاستكشافية فيه دور كبير ورئيسئ لمؤسسي الغرب الذين خلقوا جوا عاما لعدم المعرفة بسبب لهجاتهم في الظاهر وبسببه نجد نحن أنفسنا محصورين في عصر الظلام.

## التعليقات والمصادر

(١) كم كان العالم المسيحي مرتعشا من الأتراك في القرن السادس عشر ويمكن معرفة هذا الخوف من الكتابات المعارضة للأتراك والتي كانت تصدر بكثرة في هذا القرن وبصفة خاصة بعد غزو الأتراك للمجر والنمسا. وكان عدم الإحساس بالأمان سائدا في ألمانيا. كانت هذه الظروف قد خلقت أزمة في العقل المسيحي ومعظم المفكرين المسيحيين كانوا يحسبون القدرة اللامحدودة لتركيا وتقدمها المستمر إلي العالم المسيحي نوعا من العذاب الإلهي ويتوجب لإزالة هذا العقاب طلب العفو والمغفرة من الله واقتراح روشتة لإصلاح الأحوال فبسبب انتشار هذا الأدب المعارض كان قد ظهر صنف جديد لمثل هذه الكتابات في اللغة الألمانية وسُمي "توركنبوخلين". وللمزيد من المعلومات في هذا الشأن انظر:

John W. Bohnstedt, The infidel Scourge of God: The Turkish Menace as seen by German Pamphleteers of the Reformation Era in Transactions of the American Philosophical society held at Philadelphia for promoting useful knowledge, New Series-volume 58, part9, 1968, The American Philosophical Society, Independence Square, Philadelphia, December,1969.

(2) Vorwort zu dem Libellus de ritu et moribus Turcorum, WA 30/2:206. 3-17 (H-B, 259) quoted in Adam S. Francisco, Martin Luther and Islam, Brill, Leiden 2007, p.2.

(٣) بسبب السياسة الناجحة للملكة إليزابيث الأولي بدأ يُنظر إلي انجلترا علي أنها حليف طبيعي للأتراك وملك المغرب العربي أحمد المنصور والذي عمليا كان يتبع الخليفة التركي لم يكتف بعقد معاهدات تجارية وعسكرية فقط بل في عام ١٥٦٩م في أثناء الهجوم علي "قادش" ساند انجلترا بكل قوة. وفي عام ١٦٠٣م كان



Binding Side

قد اقترح علي الملكة إليزابيث الأولي بأن يقوموا بإنقاذ أمريكا من أيدي أسبانيا بتعاون مشترك وأن يجعلوها مستعمرة لهما علي شرط أن تكون دولة المغرب هي الفريق الغالب في هذه الغزوات المستقبلية وذلك لأن الجنود المغاربة طبيعتهم أنسب من الإنجليز للإقامة في المناطق الحارة:

Those of your countrie doe not fynde themselfes fitt to endure the extremetie of heat there…. Where our men endure it very well by reason that heat hurtes them not."

وإن لم يكن قد تحقق هذا لكن يمكن التخمين من هذه المراسلة بأن المسلمين حتي أوائل القرن السابع عشر كان يُنظر إليهم كقوة قاهرة بل أن برنارد لويس كان يشكو باستمرار من أن السلوك المعادي الذي يتواجد بين المسلمين نحو عالم الغرب فهو بسبب عظمة تاريخهم هذا ويصعب عليهم هضم هذا الموقف وهو أنه كيف لمن كانوا تحت سيطرتنا يتفوقون علينا اليوم، ولويس يقرر أن هذه النفسية سببها "صراع الحضارات". راجع: The Roots of Muslim Rage, in From Bable to Dragomans .

ولمزيد من التفصيل راجع: Nabil Matar, Turks, Moors and Englishman in the Age of Discovery.

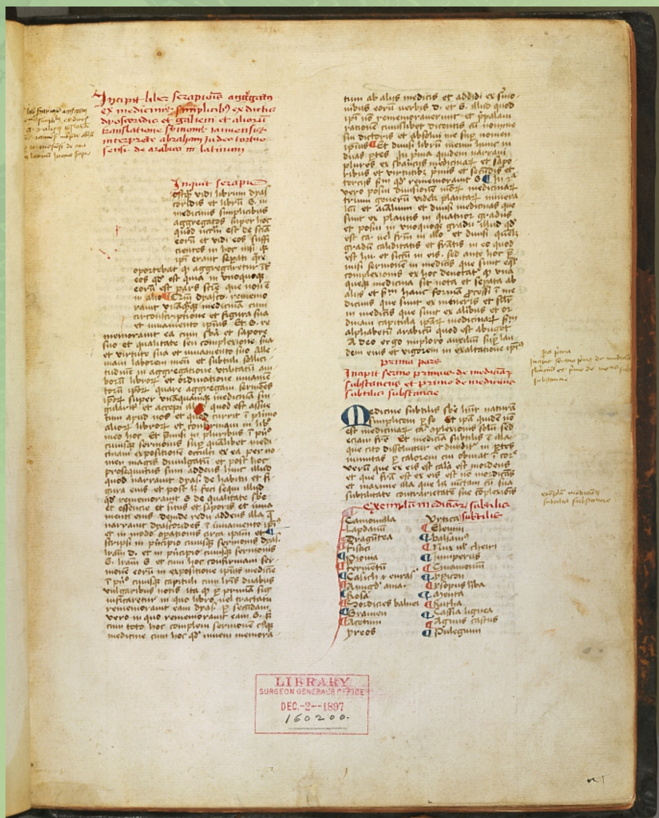
(٤) إن طلاسم جلالة وعظمة المسلمين لم تنته فجأة كما يُري في العموم. إن أوروبا كانت مرتعبة من القوة السياسية لتركيا والمغول الذين كانوا متأخرين جدا في العلوم الاستكشافية في مقابل العثمانيين والصفويين وكانت حالة الذعر للإنجليز من ثقافتهم كبيرة إلي حد أن وصل الأمرإلي أن الإنجليز ظلوا يختارون ثقافة المغول والزواج من نسائهم كانوا يحسبونه أمرا عظيما لهم وظل هذا الحال حتي أوائل القرن التاسع عشر، فالثقافة التي ظلت غالبة لقرون عديدة في أشكال مختلفة في مختلف بقاع العالم المتعددة فحينها شيء طبيعي أن يكون الفريق المقابل الذي بدأ ينهض كقوة ناشئة تتحرك نحو المنافسة مرعوبا وخائفا. في هذا الشأن ذكر وليام دالرميل تصريحا مثيرا للانتباه في كتابه "المغول البيض".

(٥) Hebson, John M, The Eastern Origins of Western Civilisation, Cambridge University Press, 2004, pp. 145-6.

(٦) قبل نشوب الحروب الصليبية وحينما لم تكن قد تصاعدت الحدة في الدعاية المضادة للمسلمين في أوروبا وأرباب الكنيسة كانت قد انكشف لهم أن المسلمين يحملون رسالة تماثل وتشابه الرسالة المسيحية ومن المحتمل البحث عن القدر المشترك بين هذين الشعبين. إن البابا جريجوري السابع كان قد كتب رسالة موجهة إلي السلطان الناصر (الجزائر) في عام ١٠٧٦م جاء فيها:



Binding Side




الترجمة اللاتينية لكتاب ابن سرابيون من القرن العاشر الميلادي المسمي "الطبيب المسلم الخبير في علم الطب" والنسخة العربية مفقودة.

"إن الله الذي يحب أن ينجو جميع الناس فهو ليس لديه شيء أحب من أن يكون الإنسان محبا لذاته تعالي قبل كل شيء وبعد ذلك يجب الحب لمن هم من أمثاله ... أنا وأنت كلانا أحق بكثير من الشعوب الأخري لأن يعامل كل منا الآخر بكل ألفة ومحبة وذلك لأننا نؤمن بإله واحد وإن كان طريق كل منا مختلف عن الآخر لكن في النهاية هو نفس الإله الذي نحمده ونثني عليه كل يوم كحاكم لكل زمان ومكان. وكما قال السيد المسيح: ذات الله الوحيد هو مبعث طمأنينتنا وهو الذي خلقنا نحن الاثنين كخلق واحد "هو السلام الذي جعل الاثنان واحد". وإن كان البابا جريجوري لم يكن واضحا أبدا في إظهار معتقده ولكن التوافق النظري الذي أبداه يمكن تقديره بسهولة وهو أنه وجود أناس كانوا يعرفون الحقائق في جو عام من البغض والعناد لم يكن مستحيلا، راجع:

E. Caspar, ed., Das Register Gregors VII, Bk. III, no.21, Epistolae Seletae in usum scholarum ex Monumentis Germaniae Historicis separation editae Bernord Hamilton, Knowing the Enemy: Western (Berlin, 1955), ii(1), p.288 (citing Eph. 2,15)> understanding of Islam at the time of the Crusades.

(٧) إن أهل العلم ليسوا بغافلين عن هذا الأمر وهو أن المسيحية السائدة اليوم هي ترجع إلي الأساطير المختلقة بالقديس بولس بدلا من الرسالة الحقيقية للسيد المسيح وكانت "كارن آرمسترونج" تلقب "بولس" بولس مسيحي أما "هيم ماكبي" ففي كتابه "بولس وتحريف المسيحية ١٩٩٦" يقر بأنه هو المؤسس الأول للمسيحية الرائجة وذلك في ضوء أدلة وشواهد لا ترد. إن ماكبي والباحثون الآخرون من أمثاله يقولون إن "بولس" هذا قد قام بوضع التصورات الدينية اليونانية القديمة علي رأس المسيحية وكذلك كان يأخذ قسطا

وافرا منها في تفسير الإنجيل بل كانت تحل مكانا أساسيا في المتن نفسه، وبعد كل هذا وذاك من المستحيل إنقاذ المسيحية من حصار بولس.

والذين يدققون النظر في تاريخ الأديان يعرفون جيدا أن بولس في تشكيل المسيحية الرائجة استعار من الديانة اليهودية تصور خالق الكون وأخذ الثنوية من أهل فارس والتثليث من أهل اليونان والمعمودية من الأقوام المشركة القديمة. وأخذ مبدأ تكفير الذنوب من الديانة الميثراسية وأخذ الصليب من عُباد الشمس ومن الحضارة الهلنستية حلقة الفكر الثنوية من المادة والروح. وبهذا وفي نهاية الأمر تم تشكيل المسيحية لكي تكون صالحة لشعوب العالم بالإضافة إلي اليهود. وتحت تأثير تفسيرات بولس جهز مرتبو العهد الجديد قالبا جديدا وتم نسخ الشريعة الموسوية وقيل أنه لا حاجة للشريعة للسير علي الطريق المستقيم لأن التضحية التي قدمها السيد المسيح من أجلنا فقد حصل المؤمنون نتيجة لهذه التضحية علي ضمان للنجاة كما كتب بولس في الرسالة الموجهة إلي أهل غلاطية وجاءت هذه الرسالة في الباب الثالث من الآية ١١ إلي ١٣. وظل الديانة الميثراسية كثيف جدا لحد أن تعتبر هذه المسيحية شكلا إصلاحيا للديانة الميثراسية. إن تخصيص يوم الأحد للعبادة واعتبار الخامس والعشرين من ديسمبر يوما للولادة واعتباره في هذا المضمار يوم الحرمة ووجود السيد المسيح بنفسه في مناسبة القربان المقدس، كل هذه الأمور مأخوذة من هذه الديانة الميثراسية. إن "بولس" والمسيح في الأساس شخصيتان تمثلان حلقتين من الفكر وخلاصة دعوة المسيح هي أن الحاكمية لله غير أن مسيحية بولس تقدم وفاة المسيح وحياته الأخروية كنقطة مركزية وبولس هذا يستعين بروح القدس أكثر من المسيح. وبوجوده ينال اعتبارا لشخصيته ويتخذ سلوكا سلبيا نحو العهد القديم ويقوم بتبليغ هذا الدين في الشعوب غير اليهودية وبعبارة أخري تستطيع أن تقول أن مسيح بولس ليس هو الشخصية التاريخية التي كان قد أرسلها الله لقوم اليهود بل هو ما جاء نتيجة لتصوره ومكاشفاته التي كانت قد أخذته علي شارع دمشق ومع هذه التجربة الروحانية استشعر بضرورة إقامة مسيحية جديدة وجاء في الإنجيل ذكر مكاشفة بولس هذه علي النحو التالي:

"لقد كان علي مسافة قريبة من دمشق إذ برق السحاب وأصبح كل ما حوله مضيئا أما هو فقد وقع علي الأرض وسمع صوتا فحواه يا بولس يا بولس لماذا أنت مصمم علي معارضتي؟ سأل: قل لي من حضرتك؟ جاء الصوت: إنه المسيح الذي أنت عازم علي إيذائه. قم واذهب إلي المدينة وسيقال لك ما هو المطلوب منك. ومن كانوا مصاحبين له في رحلته هذا جميعهم كانوا مندهشين. لأنهم سمعوا الصوت لكنهم لم يستطيعوا تحديد من أين جاء هذا الصوت. والآن نهض بولس من علي الأرض لكنه حينما فتح عينه لم



**كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب لابن الوردي الذي شرع في نشر علم المناخ العالمي في الشرق والغرب.**

يستطع رؤية أي شيء فالناس قد حملوه وجاءوا به إلي مدينة دمشق في نفس الحالة وظل كفيفا لمدة ثلاثة أيام لم يتناول أو يشرب خلالها شيئا". (Acts 9 - 31)

وجاء في الباب السادس والعشرون أيضا في هذه المناسبة قد خاطب بولس بقدر من التفصيل وعينه لنشر الدعوة وتوسيعها بين الشعوب غير اليهودية. إن تجربة بولس هذه المليئة بالفرح والسعادة لم تكن تجربة شخصية بل هي ميراث روحاني اجتماعي للمسيحية ولا نستطيع تشكيل الديانة المسيحية بدونها والكتب الأربعة الأساسية للعهد الجديد تم ترتيبها علي هذه الخلفية الروحية والذهنية وغير ممكن لنا أن نتصور الإنجيل نفسه منفصلا عن بولس وذلك لأن الكتب الأربعة للإنجيل قد تم تدوينها خلال الزمن الذي يمتد من ٧٠م إلي ١١٠م ورسائل بولس الرسول التي تُحسب متونا للإنجيل قد كُتبت خلال الفترة من ٥٠م-٦٠م فكيف يمكن تصور أن يأتي هؤلاء المؤسسون الأوائل برجحانات مختلفة عن رجحان بولس الشخصي وتقديم أي رأي جديد لا يمكن تصوره من دون ترك تفسيرات بولس لكن المصيبة أن عملا كهذا سيؤدي لسقوط هيكل المسيحية الرائجة بأسره.

(8) Charles Merrill Smith, The Pearly Gates Syndicate, New York, 1971, pp.27-28.

(9) J.N Hillgarth (ed.), The conversion of Western Europe: 350-750, New Jersey, 1969, p.46

(١٠) المرجع السابق ص٤٤-٤٨.

(١١) The New Columbia Encyclopedia, 61.

(١٢) الكتب التي فُقدت من هذه المكتبة عظيمة الشأن كما ذكرها المؤرخون منها ستة وثلاثون مجلدا من (بورفيري) والكتب الغنوسية و٢٧٠ ألفا من الوثائق التاريخية التي كان قد جمعها (بطليموس الثاني)




توزيع الدنيا علي أساس الحضارة والعرق.
الخريطة الافتراضية للدنيا علي أساس الأولي والثانية والثالثة.

وكتب "سزكين" أنه بعد عشرين سنة من تخريب المكتبة عندما كان يأتي إليها الزائرون ويشاهدون الأرفف خالية من الكتب كانوا يصاوبون بالحسرة واليأس. للمزيد من المعلومات انظر إلي:

Edward Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire, ch.28.

Lloyd Graham, Deceptions and Myths of the Bible, Carol Publishing Group Edition, 1999, p.444.

(١٣) Charles Homer Haskins, The Renaissance of the 12th Century, Cleveland & New York, 1927, p.96.

(١٤) Barbara G. Walker, The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets, San Francisco, 1983, p.208.

(١٥) John H. Smith, The Death of Classical Paganism, New York, 1976, p.223.

(١٦) في عام ٤١٠م حينما سقطت روما في أيدي المعتدين المسيحيين المنتسبين إلي "القوط" تعرض العقل المسيحي لأكبر أزمة في تاريخه والحضارة المسيحية أصيبت بالانغلاق الذهني حيث كان أرباب الكنيسة قد وضعوا حراسة شديدة علي التأمل والتفكر حيث أصبحت هذه الحضارة آيلة للسقوط لكن لم يكن في حسبان أحد أن الإمارة التي كانوا يحسبونها مقدسة وكانوا يتصورون أنها غير قابلة للانهيار أو التشتت فجأة. بسقوط روما تعرض عالم الغرب المسيحي لنفس الأزمة التي كانت قد حدثت بعد سقوط بغداد




**خريطة العالم السائدة الآن التي تقدم الدول الصغيرة وغير المهمة كبيرة علي أساس الجغرافيا والشرق الغني بالموارد تظهره هذه الخريطة صغيرا جدا.**

العباسية وكما حدث تخريب منظم من اليهود وقت سقوط "أوشوتس" وكان في ذلك الوقت علي لسان كل خاص وعام هذا السؤال وهو أنه كيف حدث تخريب السلطنة المقدسة.

وأوغسطين لو كان في استطاعته التحليل العقلاني لهذا الموقف وكذلك لو كان لديه إدراك لهذا الانحطاط الأخلاقي للكنيسة والانغلاق الذهني للمجتمع مثل الفرق المسيحية الأخري ومنها علي سبيل المثال "الدوناتية" فحينها كان يُتوقع أن العمل الاحتسابي سيريه الطريق لبدء العمل من جديد و"الدوناتية" كانوا يشكون منذ البداية أن الكنيسة التي هي نفسها مصابة بالذنوب وملوثة بالخبائث فلا قيمة للمعمودية التي منحتها الكنيسة ودفع أوغسطين لأن يعترف بها كما هي دون إصلاح أو تغيير للكنيسة ابتغاء مرضاة الرب. وبشأن أسباب وعلل سقوط روما كان تحليل أوغسطين تحليلا واعظا ومقدسا بدلا من التحليل العقلاني والعلمي وبهذا التحليل ذهبت جميع الإمكانيات لإقامة بداية جديدة هباء، بل وفي كتابه "مدينة الرب" قام بالدفاع عن هذا الرأي وهو أن دنيا الله مشتملة علي مدينتين الأولي هي ملكوته في السماوات والثانية هي دنيانا الأرضية. وفي هذه الدنيا الأرضية يعيش المذنب والتقي معا ولا يمكن تقديم نموذج للمجتمع المثالي لأن المجتمع النموذجي لا يمكن إقامته إلا بعدما يكون قد أُلقي المذنبون في جهنم

ويستطيع أهل الإيمان الاستمتاع في مدينة الله هذه وهي الآخرة وليس لأهل الإيمان مبعث فرح حقيقي في إقامة مجتمع إلهي مثالي بل فرحتهم الحقيقية تكمن في هذا الأمر وهو أن يكونوا راضين عما يواجهونه من صعوبات الدنيا راجين مسرات الآخرة. والحق أن أوغسطين كان رافضا تماما فكرة الإصلاح والتطهير وكان شاقا عليه أن يقتنع بأن المجتمع في حاجة للإصلاح وذلك للخلاص من القهر السياسي والفوضي واللامساواة في المعيشة ولذلك أيضا لم يقم بأية مبادرة ضد قضية العبودية بل أباحها قائلا بأنها عذاب أو ابتلاء من الله للعباد. فكرة أوغسطين المتصوفة هذه كانت ترغبه في تحمل المصائب والشدائد بدلا من إحداث تغيير في الموقف وإن كان هذا الموقف الذي اتخذه أوغسطين مغاير تماما لتعليمات السيد المسيح لكن فيما بعد أصبح هذا الطراز الفكري المسالم نقيبا للذهن المسيحي.

(١٧) Augustine, Confessions and Enchiridion, trans. Albert C. Outler, Philadelphia, 1955, pp.341-42.

(١٨) Augustine, On Christian Doctrine, trans. D.W. Robertson, Jr., Indianapolis, 1958, pp.65-66.

(١٩) Augustine, Confessions, trans. F.J, Sheed, New York, 1942, p.201.

(٢٠) الاعتماد الكلي لأوغسطين في دراسة الإنجيل كان علي التراجم اللاتينية ومعرفته باللغة اليونانية وكذلك العبرانية كانت بسيطة والآن بعدما درس رسائل بولس للروميين واجه تعقيدا كبيرا في فهم الآية رقم ١٢ من الباب الخامس ووصل إلي النتيجة بأن كل إنسان ارتكب الذنوب بسبب آدم عليه السلام وهو ممتليء بالخطايا أي أن الخطيئة داخلة في جبلته وحيثيته بشكل أساسي هي أنه أصبح مذنبا أزليا. ولو وصل أوغسطين إلي النسخ اليونانية مباشرة فلربما أتيح له فهم هذا أن دخول الذنب في دنيا الإنسان جاء بسبب زلة آدم حسب الإنجيل والآن أصبح الشر قوة تحارب ضد النوع الإنساني برمته وبسبب عدم معرفة أوغسطين بالنسخ اليونانية الأصلية وضع عقيدة كون الإنسان مذنبا من الولادة وفيما بعد نالت هذه العقيدة قبولا عاما في الفكر المسيحي.

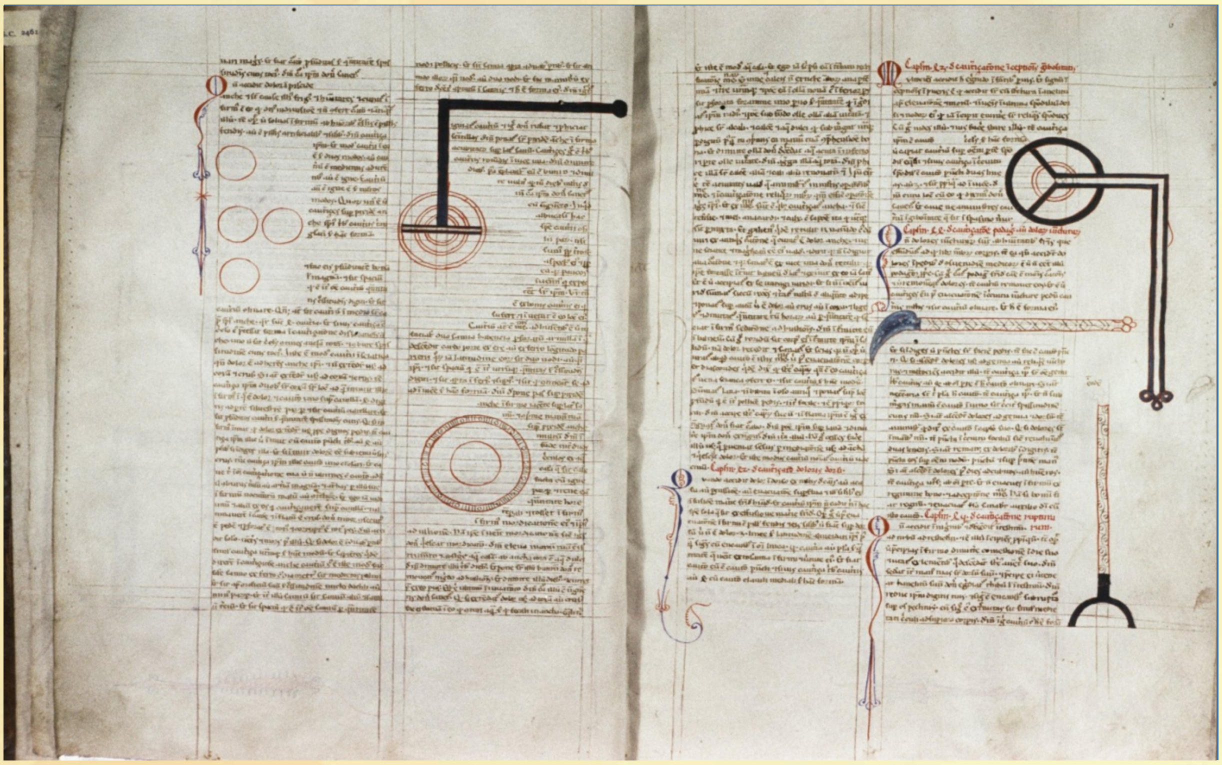
(٢١) S. Stead, Philosophy in Christian Antiquity, Cambridge, 1994, p.223.

(٢٢) وكان لدي أوغسطين تفسير آخر غير التفسير الرسمي للمسيحية مستحقا لضرب الرقاب وفي عهده استُخدم العنف ضد "الدوناتية". راجع:

H. Darke, Constantine and the Bishops: The Politics of Intolerance, Baltimore & London, 2000, p.407.



Binding Side



الأدوات الطبية للزهراوي في التراجم اللاتينية.

(٢٣) انظر لمزيد من التفاصيل في موضوع المظالم الدينية إلي المراجع التالية:

Stephen O'Shea, The Perfect Heresy, Life and Death of the Cathars, London, 2000.

(٢٤) انظر: Charles Freeman, The Closing of the Western Mind, London, 2002, p.310

وللمزيد من المعلومات راجع: Robert Markus, Gregory the Great and his World, Cambridge, 1997.

(٢٥) Lim, Richard. Public Disputation, Power and Social Order in Late Antiquity, Berkeley and London, 1995, pp.174-175.

(٢٦) Ramsay MacMullen, Christianity and Paganism in the Fourth to Eighth Centuries, New Haven and London, 1997, pp.86-9.

(٢٧) راجع: Ibad., p.94

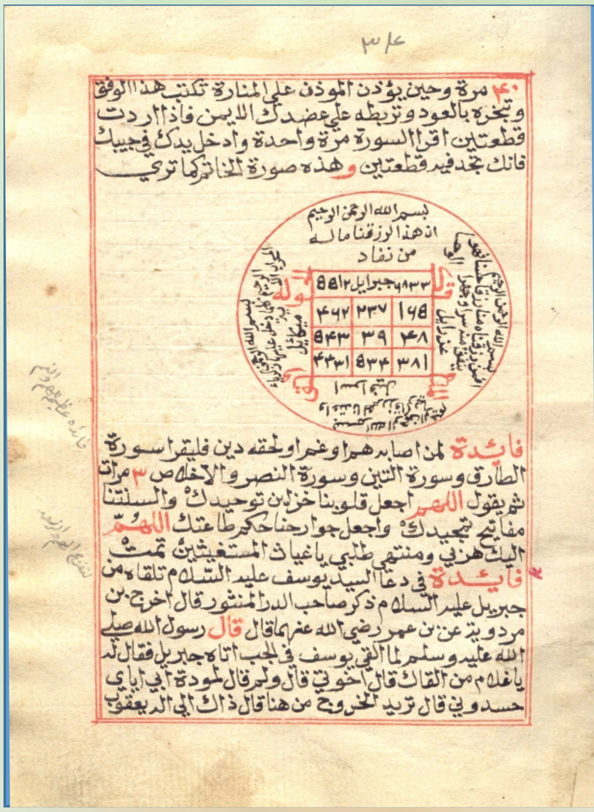
(٢٨) خيم ظل العفريت والغول بشكل كثيف علي العالم المسيحي ووصل الأمر إلي أن الناس بدأوا يحسبون أن العفاريت والشياطين يتواجدون جنبا إلي جنب في كل مكان سواء في النهر أو البحر أو الغابة أو الجبل أو

الصحراء أو المقابر فالدنيا بدلا من أن تكون لأهل الاستكشاف كانت قد تحولت إلي معمل لأصحاب الكشف والكرامات وكان واجبهم الطبيعي أن يضمنوا للناس من مضرات العفاريت والشياطين. راجع:

P. Horden and N. Purcell, The Corrupting Sea, Oxford, 2000, p.411.

(٢٩) Dorothee Metlitzki, The Matter of Araby in Medieval England, Yale University Press, 1977, p.33.

(٣٠) Richard Frye, Ibn Fadlan's Journey to Russia: A tenth-centurry traveller from Baghdad to the Volga River, New Jersey, 2006, pp.64-65.



حينما أصبح المسلمون معتادين علي الأسلوب الفكري المبني علي الأساطير. العمليات والرسوم (النقوش التي جعلت القرآن الكريم لعبة للأطفال).

بعد الغزو الأول للفايكينج علي بريطانيا في القرن الثامن الميلادي ولهذا أطلق علي القرون التالية اسم عهد "غزو الفايكنج". وكان هؤلاء من سكان النرويج والدنمارك والسويد الحالية وبسبب طبيعتهم الحربية كانوا يغيرون علي المناطق الواسعة لأوروبا والعرب عندما زادت صلاتهم وروابطهم مع هؤلاء بسبب الرحلات البحرية والتجارية فأسموهم العرب بالروس وأهل الأندلس كانوا يلقبونهم بالمجوس علي سبيل الاستهزاء والتحقير ولكن في فرنسا وصقلية كانوا يعرفون بالنورمان ومعظم أجزاء أوروبا كانت معرضة لغزواتهم فإن كان أهل أوروبا يعاملونهم بتعصب فلا عجب في ذلك، وابن فضلان الذي كان قد ذهب إلي بلغاريا بأمر من الخليفة المقتدر وذلك لغرض دبلوماسي فما كتبه في مذكرة رحلاته عنهم إلي حد ما عقلاني. ابن فضلان أولا أثني علي طول قامتهم ووجاهتهم لكنه لم يستطع السكوت علي عدم معرفتهم بالحضارة.

(٣١) James Burke, The Day the Universe Changed: How Galileo's Telescope Changed the Truth and other Events in History that Dramatically altered our Understanding of the World, Boston, 1995 p.38.

(٣٢) Reader's Digest History of Man: The Last Two Million Years, London, 1973, p.622.

(٣٣) إن نمط الحياة القذر وغير الصحي في القرون الوسطي كان هو المنتشر في أوساط الأوروبيين وبسبب تأثير الأتراك القادم من أسبانيا وصقلية كانت تُسمع الاعتراضات الشديدة هنا وهناك من جانب المسيحيين المتطرفين ومنها أن من تأثيرات الثقافة المسلمة القادمة من الأندلس وصقلية بدأ شبابنا يتعودون علي الطهارة والغسل متأثرين بثقافة المسلمين، ففي عالم الغرب يومئذ لم يكن هناك أي تصور للحمام ولم يكونوا علي معرفة بمبادىء الطهارة والنظافة بل إلي يومنا هذا وإذ هم يسيطرون علي العالم حضاريا وسياسيا مصرون علي رفض الاستنجاء، في الوقت الذي لم تكن فيه الأوراق متوفرة للكتابة فمن أين لهم أن يوفروا أوراقا لحماماتهم فكيف كانوا يتغلبون علي العفن بدون طهارة. ليس هذا فحسب بل في الوقت نفسه لم يكن استخدام الملابس الداخلية رائجا عندهم وحسب دراسة "فرناند بروديل" فإن استخدام الملابس الداخلية بدأ في أوروبا منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ويُقال أن الناس في أوروبا كانوا يقومون بتنظيف الأماكن المحتاجة للنظافة بالعشب وأوراق الشجر كما تحدثنا هذه الأبيات للشاعر الإنجليزي "بيير بلومان"

And seten (sat) so til evensong, and songen unwhile (from time to time), Til Glouton haddeyglubbed (guzzled) a gallon and a gille.

His guttes bigonne to gothelen (rumble) as two gredy sowes; He pissed a potel (pot full) in a Paternoster-while (the time it takes to say the Paternoster), And blewe his rounde ruwet (horn) at his ruggebones (backbone's) ende, that alle that herdethat horn helde hir nose after, and wished it hadde ben wexed (scoured) with a wispe of firses (furze),

راجع: Jack Goody, The Theft of History, Cambridge (New York), 2006, p.174.

(٣٤) Azim A.Nanji, ed., The Muslim Almanac: A Reference Work on the History, Faith, Culture and Peoples of Islam (Detroit: Gale Research, 1996), p.190.

(٣٥) James Burke, The Day the Universe Changed, Boston, 1995, p.38.

(٣٦) S. Cobb, Islamic Contributions to Civilization, Washington DC, 1963, p.42.

(٣٧) راجع: John P. McKay, Bennett D. Hill, John Buckler, eds., A History of World Societies, Boston, 1992, p.289.



Binding Side

(٣٨) هذه الترجمة العربية للإنجيل كانت قد تمت علي يد الراهب الإشبيلي "يوحنا". راجع:

H.S. Gehman, “The Arabic Bible in Spain “Speculum 1 (April, 1926), 220.

(٣٩) J. Kritzeck, Peter the Venerable and Islam, Princeton, 1964, p.210

(٤٠) من رأي روز أن طليطلة كانت حائزة علي مكانة علمية مرموقة. راجع لمزيد من التفصيل:

Valentin Rose, “Ptolemaeus und die Schule von Toledo”, Hermes 8, (1874), pp.327-349.

(٤١) Fletcher, Richard, The Cross and the Crescent, pp. 120-1.

(٤٢) Sarton, George, Introduction to the History Of Science (Volume II) 1931, p.114.

(٤٣) Jose Chabas and Bernard R. Goldstein, The Alfonsine Tables of Toledo, Boston, 2003, p.226.

(٤٤) James Cleugh, Spain in the Modern World, 1953, p.70.

(٤٥) أخبار الأندلس، ٢٦، ج٢، ص٧٠، سكوت، History of the Moorish Empire in Europe المترجم منشي محمد خليل الرحمن، المطبوع ١٣٤٠هجرية، مأخوذ من تاريخ صقلية، ج٢ ص٤٠٣، رياست علي ندوي.

(٤٦) لتحديد مواقيت الصلاة كان استخدام الآلات علي المآذن شائعا وبالإضافة إلي ذلك حسب بيان الإدريسي كان استخدام الساعات المائية رائجا أيضا. وكانت توجد هناك عين تسمي منبع المواعيد كانت تجري وقت مواعيد الصلاة وكانت تصبح جافة في الأوقات الأخري. راجع نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الإدريسي، ص٢٨، مأخوذ من رياست علي، ص٤٠٥.

(٤٧) إن مشروع الإدريسي العلمي الذي أشار إليه الإدريسي نفسه في مقدمة كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ينتج عنه الإحساس بأنه كان يخطط لإعداد وتحضير موسوعة في علم الجغرافيا لكي تضم جميع المعلومات الجغرافية واستمر عمله هذا قرابة خمسة عشر عاما مع التأمل والتفكير ليل نهار واستمرت السياحة والملاحظة والمشاهدة بالإضافة إلي الحصول علي الكتب المروجة لهذا الفن والنقاش والتحدث مع علمائه. بعدئذ ظهرت في حيز الوجود الكرة الفضية والجداول والخرائط المختلفة والمتنوعة بجميع تفاصيلها. وكان نصب عينيه إحصاء المحيطات والأنهار والجبال والموانيء وأمتعة التجارة المتواجدة في مختلف البلدان وإحاطة جميع التفاصيل عن مختلف الشعوب والقبائل. ولو نُظر إلي هذا العمل بعين الاعتبار فمحاولة الإدريسي هذه كانت خطة طموح لعالم معروف وحضاري مرتكز علي العلم وهو الذي قام بفتح أبواب الدنيا لأهل الغرب فيما بعد. نزهة المشتاق، ص٣.

(٤٨) حسب قول "بي إس سكوت" ظلت خارطة الإدريسي هذه مستخدمة في جميع الأطراف والأكناف قرابة ثلاثمائة سنة بدون أي تغيير يذكر واستمرت ترجمة مختلف أجزائها بمختلف اللغات الأوروبية وقام بعض الناس بتلخيص هذا الأطلس وقد ذكر جورجي زيدان أن متحف فرنسا يحتفظ بخريطة تشير إلي منبع نهر النيل والمدهش أن نفس المنبع اكتشفه بيكر وستانلي بعد سبعمائة عام علي التقريب.

انظر إلي: جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج٣، ج٨٥.

(٤٩) Swzgin, Fuat. Mathematical geography and cartography in Islam and their continuation in the Occident. (Frankfurt am Main: Institute for the History of Arabic-Islamic Science), 2000-2007, p.342.

(٥٠) لمزيد من المعلومات حول رحلة فاسكو دي جاما إلي الهند راجع:

De Barros, Asia (Lisbon: Nacional-Casa da Moeda, 1988), p.152>

(٥١) J.H. Kramers, “Geography and Commerce”, in M. J. L. Young, J. D. Latham, and R. B. Serjeant, eds., Religion, Learning and Science in the Abbasid Period (Cambridge: Cambridge University Press, 1990), pp.93-94.





استحواذ الأسلوب الفكري المبني علي الأساطير علي الذهن المسلم.
حينما بدأ يُحسب وجود لفائف لقصيدة البوصيري المسماة بالبردة والتي تحمل رموزا خاصة تبعث علي الخير والبركة.

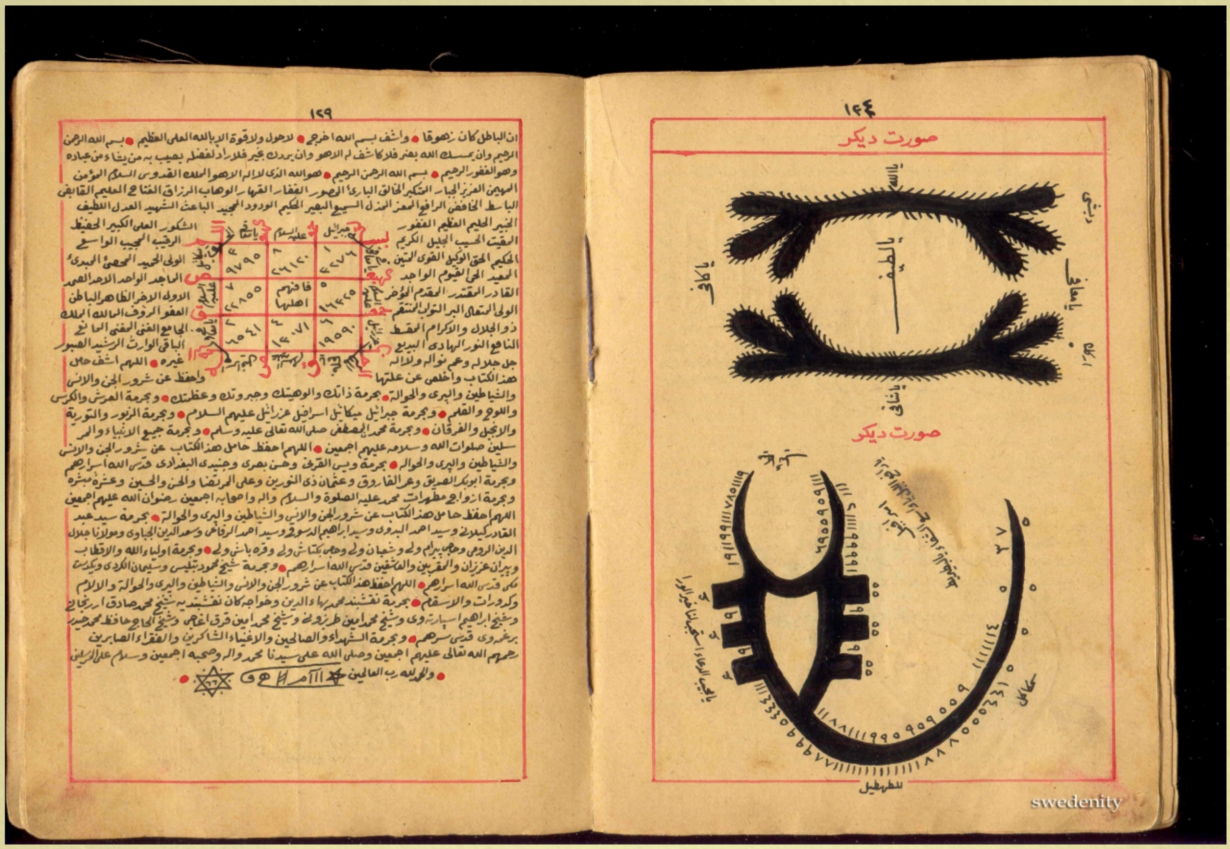
(٥٢) M. Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia (Florence, 1854-68), III, 365.

(٥٣) Helene Wieruszowski, The Medieval University: Masters, Students, Learning. Princeton, NJ, 1966, p.88.

(٥٤) Aziz Ahmad, A History of Islamic Sicily (Edinburgh: Edinburgh University Press), 1975, p.85.

(٥٥) Charles Homer Haskins, "Science at the Court of the Emperor Frederick II", American Historical Review 27, no.4 (1922), 680.

(٥٦) بسبب تعميم التصورات القرآنية بشأن الكون بدأت آراء الشعوب المتخلفة في أوروبا تتغير أيضا ففي التصور اليوناني للكون كان الإله يحتل مكانة وجود اللاعقلي والذي كان يتنقل في الكون بدون أي تخطيط وكانت خلائقه تتعرض لغضبه وانتقامه وحسده. والآن قام التصور القرآني والعقلي للكون وشرح أن التخطيط الإلهي للكون ليس مبنيا علي الباطل بل هو جزء من مشروع مدروس وإن كانت الفلسفة الإسلامية مشحونة بالأفكار اليونانية لكن دعوة القرآن الكريم نحو الكون هي التوجه الفكري والعقلي إليه وقد تكررت هذه الدعوة بكثرة ولهذا السبب لم تستمر قافلة التسخير والاستكشاف في رحلتها بل أن نجاح هذا الفكر جعل الشعوب المتخلفة مجبرة علي تجديد وترميم وإصلاح معتقداتها. إن القديس توما الأكويني هو أول مفكر مسيحي أحس بضرورة تشكيل علم اللاهوت الجديد وهو الذي أصبح كتابه "الخلاصة اللاهوتية" من طلائع علم اللاهوت المبني علي العقل. وتوما هذا وإن كان قد بادر إلي تشكيل علم اللاهوت الجديد متقدما علي سلفه القديس أوغسطين فلم يكن هناك سبب آخر لهذه المبادرة غير أن المنهج العلمي كان سلوكا للأمة الفاتحة والغالبة ألا وهي أمة الإسلام وكان هذا هو الطريق الوحيد الحائز علي المنهج العلمي وتوما كان متأثرا جدا بسلفه المسلم الفارابي في إقامة دلائل وبراهين علي وجود الله حتي وصل الأمر إلي أن بدأ الشعور بالسرقة من كتاباته. وكانت عظمة علم الحكماء والمفكرين المسلمين مسيطرة علي عقول المفكرين الغربيين إذ لم يكونوا واثقين من كلامهم إلا بعدما يستدلون من كتب ابن سيناء والغزالي وأمثالهما من المفكرين المسلمين كمرجع لكلامهم وإن كان هذا التقليد في الفلسفة قد أضر الغرب أيضا لأن التدقيق بعلم المنطق وطريقة الجدل الفقهي واتخاذ منهج الرواقيين اليونانيين من القيل والقال فإنها إذا دخلت مرة في المناقشات يحدث نتيجة لها نفس الموقف بالتقريب الذي كان قد تعرض له الفقهاء المسلمون بسبب كتاب الرسالة للإمام الشافعي وبسببه كان قد تحول العالم الإسلامي إلي مأوي للتشتت الفكري والسفك الفقهي وكانت في الواقع هذه الحالة أساس حدة جميع المناقشات الدينية بعد




عندما وقع الموت للذهن المسلم.
كتاب النقوش والرسوم والطلاسم الذي نال قبولا عاما في عهد الخلافة العثمانية.

حركة الإصلاح (البروتستانتية) علي هذا المنهج الكلامي وهذا هو المنهج الذي حول الفرق المسيحية المختلفة في العالم الغربي مسرحا لسفك الدماء وبسببه نشبت حروب أهلية استمرت قرابة ثلاثين عاما وفي نهاية الأمر جعلت هذه الظروف أهل الغرب نافرين من الدين نفسه واعتقدوا أن في قبول اللادينية عافيتهم في الحياة الاجتماعية.

(٥٧) وعلي الأبنية بفينيسيا إن كانت طبعة الطراز الإسلامي في البناء واضحة جدا لكن قليلا ما يأتي ذكرها وفي غالب الأمر حاول جون روسكين لأول مرة مناقشة موضوع الآثار الإسلامية بالتفصيل في كتابه "حجر البندقية" "١٨٥١-٣" وبعد دراسة تفصيلية عن هذه المباني وصل روسكين إلي هذه النتيجة ألا وهي أن المباني الأولي المقامة في فينيسيا والتي يمتد زمنها من القرن التاسع إلي الحادي عشر نري فيها التأثير البيزنطي بوضوح ولكن المباني التي ظهرت بعد ذلك نري فيها طراز البناء الإسلامي المحض حيث توجد القباب الحادة والأعمدة السوارية الدقيقة وبالإضافة إلي ذلك الترصيع (فن الأرابيسك) علي الطراز العربي وكل هذا يجعل الزائر يشعر وكأنه في إحدي مدن الشرق التقليدية. راجع:

John Ruskin, The Stones of Venice, 3 volumes, London, 1851-1853.

(٥٨) وكان روبرت جروسيتيست قد قرر أن دراسة علم الهندسة واجبة لا بد منها وكان موقفه كالآتي:

The usefulness of considering lines, angles and figures is very great, since it is impossible to understand natural philosophy without them... Now, all causes of natural effects must be expressed by means of lines, angles and figures, for otherwise it is impossible to grasp their explanation. This is evident as follows. A natural agent multiplies its power from itself to the recipient, whether it acts on sense or on matter. This power is sometimes called species, sometimes a likeness, and it is the same thing whatever it may be called..." Grant. Source Book, p.385

للمزيد راجع: A.C. Crombie, Robert Grossetaste and the Origins of Experimental Science, 1100-1700 (Oxford: Clarendon Press, 1971)



غلبة الفكر الخرافي في العالم الإسلامي. الإجازة للسلسلة القادرية حينما أحكمت الأغلال قيودها على الذهن المسلم.

(٥٩) في الصفحات السابقة من هذا الكتاب سبق أن ذكرت أنه بسبب تراجم الخوارزمي كيف راجت الأعداد الهندسية العربية والهندية في مقابل الأعداد الرومانية وخصوصا بعدما نشرت مقالة جربرت ذات

الصفحات الأربع حيث حدثت حالة ثورية وبقدر ما بدأ يعم علم الرياضيات بدا فهم الكون سهلا لأهل الغرب وبصفة خاصة كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي عندما طُبع نتج احتمال أنه يمكن في طريق البحث عن الحق الاستعانة بالهندسة بالإضافة إلي معادلة الحروف أي كما يعرف السائل قطعية الصدق عن طريق ٢+٢=٤ أو كما يثق السائل بأن انضمام زاويتين للمثلث دائما يكون بمثابة زاوية قائمة، كذلك في علم الجبر هو يستطيع أن يكون دائما هائما في البحث عن الحق. إن منهج الخوارزمي والذي بسببه دنيا الحاسوب قائمة اليوم قد ساعد أهل أوروبا كثيرا في البحث عن الحق وكانت هذه لغة تجريبية جديدة يمكن نقدها بما لها وما عليها. وديكارت استعان بعلمي الجبر والهندسة كلاهما لإثبات منهجه الفلسفي كما هو ظاهر في صفحات "المقال عن المنهجح" ومنهج "ديكارت" له تأثير في العلم التجريبي ل"لوك" وعلي وجودية سارتر ولم يكن أهل العلم علي معرفة بهذا الفن و"كانت" كان مجبرا علي الاعتراف بأنه علي الرغم من الشبهات فإن هناك شكل من الأشكال موجود للعلم أو الحقيقة فإن كان الأمر كذلك فحسب قول "كانت" لا يمكن إخراج ما بعد الطبيعة بأي حال من الأحوال أما "فولتير" فكان مبهورا بفن علم الرياضيات إذ وجد الحقيقة مبرهنا علي هذا المنهج وحسب قوله لا توجد هناك تفرقة في الهندسة ولا يوجد إطلاقا الهندسة الإقليديسية ولا للهندسة الأرخميدسية. هنا نوع واحد وواضح كل الوضوح للحقيقة حتي يصبح كل شخص مجبرا علي الاعتراف به والتسليم به ولو تم انطباق هذا المبدأ علي الديانات فالأخلاقيات أيضا لن تكون مختلفة مثل الهندسة وعندما أصبحت الرياضيات اللغة الأساسية للبوح عن إظهار الرأي العلمي أصبح ممكنا ل"كوبرنيكوس" و"نيوتن" تصور الكون كنموذج ميكانيكي بل إن هذه الأعداد والإحصائيات منحت العلوم الاجتماعية مكانة اعتبارية.

(٦٠) في جميع المباني التي أقيمت علي الطراز الروماني وكذلك المباني القديمة التي بُنيت علي الطراز البيزنطي فيها استخدام القباب نصف الدائرية وكان هذا الاستخدام لغرض التدعيم وكذلك للزينة أيضا وبهذه الطريقة كانت المباني ينبغي أن تلتزم بأحجام القباب وفي العصر الإسلامي لم يقم تقليد استخدام القباب الحادة الذي يطلق عليه أيضا حدوة الحصان بل سادت كذلك الأسقف المحرابية وذلك لتدعيم الأسقف ومن هنا انطلقت سلسلة جوانب السواري الأربعة والثمانية أيضا وكان عليها تحمل عبء القباب التي كانت تُعلق عليها باستحكام وفي نفس الوقت كان يبدو علي المباني مزيدا من الجودة والدقة ومن الأساس كان وراء هذه المهارة العلم العميق للهندسة وأهل الغرب تسني لهم مشاهدة مثل هذه المباني إما خلال زيارة العالم الإسلامي وإما تعرفوا عليها من المباني المقامة في أسبانيا وفينيسيا علي الطراز الإسلامي، وفي القرن الثاني عشر وبعدما انتشرت العلوم العربية وعلم الهندسة بدأ جنون بناء العمارات والمباني علي هذا

الطراز الإسلامي والمباني الشهيرة والعتيقة لهذا العصر يمكن مشاهدتها في كاتدرائية نوتردام وكاتدرائية بورج والتي تشهد علي آثارها العربية المسلمة، ولفترة ظل يسمي هذا النوع من المباني بطراز القوطي لكن البحث والتحقيق الذي جاء فيما بعد كشف الستار عن هذه الحقيقة وهي أن أسلوب البناء علي طراز "الساركينوسي" هو اسم آخر للطراز الإسلامي.

راجع العمارات القديمة الموجودة في الغرب قبل مجيء أسلوب البناء الإسلامي حيث كان استخدام القباب نصف الدائرية رائجاً وبعد وقوع تأثير المسلمين أو "ساركينوس" بدأ عهد جديد للمحاريب الحادة بالإضافة إلي المتانة والدقة. Catedral de La Almudena, Madrid 1883-1993.

(٦١) Ivor Bulmer-Thomas, “Euclid and Medieval Architecture”, Archaeological Journal 136(1979): pp.141-44.

(٦٢) راجع: Richard Appigneresi and Chris Garatt, Introducing Post-Modernism (Cambridge: Icon Books, 1995), p.6.



Binding Side



كاتدرائية بروغوس، اسبانيا.



ب: منظر مهيب لكاتدرائية نوتردام ذات المحاريب الحادة بفرنسا والتي بنيت علي الطراز الإسلامي.



Binding Side



قصر دوجي، فنيسيا.



ب: فونداكا دي تركي، فنيسيا.

(٦٣) لدي العارفين بفن العمارة إنه لشيء مسلم به أن معظم المباني الحضارية الغربية تم بناؤها تبعا لفن العمارة الإسلامية لكن بسبب العناد للإسلام والمسلمين يسمي هذا الطراز المسلم للبناء طراز "القوطي" وكريستوفر ورن في كتابه عظيم الشأن "بارنتاليا" المطبوع عام ١٧٥٠م أبدي رأيه هذا لأول مرة وبكل شجاعة أن هذا النوع من التعمير كان ينبغي أن يسمي بالأسلوب الإسلامي للبناء بدلا من طراز القوطي. يقول ورن بكل وضوح أن أي شخص يشك في صحة هذا الموقف عليه أن يدرس المباني الإسلامية بأسبانيا وبصفة خاصة الكاتدرائيات التي بُنيت في عصر المسلمين. علي سبيل المثال عليه أن يقارن بين كاتدرائية بروغوس وقصور "فض" وسيعرف بكل سهولة أن أسلوب البناء المسمي بالقوطي هو في الواقع التسمية المتعصبة لتعمير الطراز الإسلامي. يقول ورن أن أسلوب البناء الذي راج في أوروبا لأول مرة في القرن العاشر الميلادي ليس هناك أي جواز لانتسابه إلي "القوطي" وبمطالعة هذا الكتاب وهو "مقالات عن فن القوطي المعماري" المطبوع عام ١٨٠٠م ويعرف أيضا أن طراز القوطي كونه إسلامي الأصل ليس برأي غريب لدي أهل الفن ففي عام ١٧٦٥م أبدي "ستيفن ريو" في كتابه "جريسيان آوردرس أركيتكشر" أن الشيء الذي يقال له اليوم القوطي يجب أن يكون اسمها الصحيح "ساركينوس" أو "موريسك" (أي الإسلامي) الذي اشتهر في أوروبا عن طريق أسبانيا وأبدي مثل هذا الرأي أيضا "هنري هالام" في كتابه "نظرة الدولة الأوروبية خلال العصور الوسطي" وحسب هنري هذا فإن حيثية كاتدرائية "أنجلو-نورمان" ليست أكثر من تقليد للمباني الإسلامية. وفي متن الكتاب عرضت صورا للمباني الإسلامية في مقابل بعض المباني التاريخية بأوروبا لكي تتضح الحقيقة أكثر من دراسة مقارنة. للمزيد راجع:

Christopher Wren, Parentalia, or Memoirs of the family of the Wrens, p.297.

(64) Anderson, William. The Rise of the Gothic, London, 1985, p.39.

(٦٥) لاحظ أن أهم اثنتين من الكاتدرائيات ذات القباب الحادة والأسقف المحرابية القوسية والسواري ذات الدوائر الأربعة في الغرب جاءت إلي حيز الوجود وبهذا الجمال بسبب اتباع نمط بناء الطراز المسلم.

(٦٦) علي سبيل المثال فإن القباب الحادة التي استُعملت في "قصر دوج" و"فونداكو دي تورتشي" لو قارنتهما بمسجد الجامع الأزهر أو مبني وكالة الغوري بالقاهرة التي ترجع إلي عهد المماليك أو بمدرسة قديمة بمشهد فلن تكون هناك أية صعوبة في فهم العلاقة الحضارية البينية في هذه المباني.

(٦٧) استعمال القباب المضلعة "ريبد دومس" كان سائدا أيضا في القرن العاشر الميلادي في أسبانيا المسلمة بالإضافة إلي شمال أفريقيا وفي مناطق فارس. التقنية الأساسية هو إن كانت القباب المضلعة تتغير حسب الضرورة. انظر لمزيد من التفصيل:

Mamoun Sakkal, (Computational) Geometry in Islamic Architecture at: http://www.sakkal.com/Islamic_geometry/rib_domes.html.



مسجد نائين بإيران.

(٦٨) العلوم الاستكشافية التي يسميها "أديلارد" ب"دراسات عربية" ومن أجل الحصول عليها تجول أديلارد لنحو سبع سنوات في مختلف البلدان وخلال هذه المدة تمكن من اللغة العربية بل أجادها. لقد ذكر في مقدمة كتابه المسمي "مسائل طبيعية" عن هذه الرحلة الدراسية. يقول أنه توجه أولا إلي فرنسا حيث تعلم في "تولوز" و"ليون" وللدراسات العليا ذهب إلي "ساليرنو" و"صقلية" وبلاد الشام والأناضول ثم ذهب إلي أسبانيا. وبعد العودة من أسبانيا قضي حياته في مدينته المحلية "باث" في التعليم والتعلم والترجمة والتأليف ومسودات تراجمه مازالت موجودة في مختلف دور الكتب وبعدما شاعت المطبعة في أوروبا فالكتب التي تم طبعها في المرحلة الأولي منها كتاب أديلارد "مسائل طبيعية" أيضا.

(69) Lynn Thorndike, History of Magic and Experimental Science. 1923-1958 in 8 volumes II, p.30.

(70) Questiones Naturales, p.20.

(71) Questiones Naturales, VI, p.11.

(72) يقول أديلارد:

I do not detract from God. Everything that is, is from him and because of him. But (nature) is not confused and without system and so far as human knowledge has progressed it should be given a hearing. Only when it fails utterly should there be a recourse to God.

Louis Cochrane, Adelard of Bath: First English Scientist, London, 1994, p.45.



Binding Side

(٧٣) مثل أديلارد كانت هناك ترجمة عن اسطرلاب لجربرت (٩٤٥م-١١٠٣م) الذي اشتهر فيما بعد بالبابا (سيلفستر الثاني) وعلاوة عليه يُذكر في هذا الشأن اسم (والتشر) أيضا وإن لم يكن قد عُرف اسمه علي المستوي الشعبي بسبب تجاربه الأولي وإلي حد ما كانت غير ناجحة والذي كان قد حصل عليه القبول العام أديلارد بسبب تصنيعه وترتيبه للزيج المحلي والتراجم اللاتينية لإقليدس وكان هناك سبب آخر وهو أنه أثناء نصف قرن من الزمان كان قد أصبح الحصول علي الاسطرلاب سهلا مقارنة بالسابق وحتي أواخر القرن الثاني عشر كان قد جاءت إلي حيز الوجود كتب للمؤلفين الآخرين وعند بلوغ القرن الرابع عشر لم يكن يُعتد بعلم أحد بدونه كما ذكر الشاعر الإنجليزي في كتابه عن الاسطرلاب. انظر لمزيد من التفصيل إلي:



قبة وكالة الغوري بالقاهرة.

Paul kunitzsch, “Al-Khwarizmi as a Source for the Sententie astrolabii”, in From Deferent to Equant, eds. David A. King and George Saliba, New York, 1987, pp.227-36.

(٧٤) قال أديلارد مخاطبا معاصره الأمير هنري الذي أصبح فيما بعد الملك هنري الثاني بكل ثقة:

Concerning the universe… and its different parts I will write in Latin what I have learned from the Arabs. You can take it for granted that the universe is not square, or rectangular, but a sphere. What is said of the sphere can be said of the universe.

(٧٥) في الثامن عشر من أكتوبر لعام ١٠٩٢م حينما أراد "والتشر" عرض تجربته هذه التي كان قد أجراها البيروني قبل مائة عام منه يرجع هذا الأمر إلي الواحد والعشرين من مايو لعام ٩٩٧م عندما كان أبو الوفا في بغداد وهنا في (كات) علي ساحل آمودرايا وكانا ينتظران خسوف القمر وذلك لقياس طول المسافة بين هذين البلدين وبعد نجاح التجربة المشتركة للبيروني وأبي الوفا مر العالم الإسلامي بفرحة كبيرة وفي نفس الوقت كانت تجربة والتشر وصديقه "ألفونسي بيترس" تسببت باليأس والإحباط. وحسب قول والتشر:



Binding Side

I still had no certainty about the time of the eclipse and I was distressed about this, because I was planning to draw up a lunar table and had no starting point.

وفي نهاية الأمر علي أساس زيج الخوارزمي حاول الاثنان إعداد زيج محلي لكن لم يكتب لهما النجاح في مشروعهما هذا. راجع:

Walcher of Malvern, Oxford, Bodleian Library MS Auct. F.1.9, f.90, quoted in R. W. Southern, Medieval Humanism and other Studies, p.167.

(٧٦) أديلارد هو أول شخص ينجح في ترتيب زيج لانجلترا خاصة معتمدا علي زيج الخوارزمي مع إضافات البطروجي. زيج الخوارزمي كان قد أعد لبغداد وكان البطروجي قد صاغه حسب قرطبة والآن بعدما درس أديلارد هذه الكتب بالتفصيل نجح في ترتيب الزيج المحلي في ضوء مشاهداته وتجاربه وهكذا كانت لانجلترا بل العالم المسيحي أول فرصة للتعرف علي الجانب التطبيقي لعلم الفلك وزيج أديلارد هذا كان ممتلئا بالمعلومات الأخري المتعلقة بالفلك أيضا. يُقال أن هذا الزيج كان يشتمل علي ٣٧ بابا و١١٦ كشفا للحسابات والإحصاءات وأهم من كل هذا أنه قد سلم الغرب زيجا كان قد أعده لمدينته (باث).

(٧٧) John of Worcester, Chronicon Iobannis Wigornensis, trans. and ed. Patrick McGurk (Oxford: Clarendon Press, 1998), 3:259-60.

(78) Haskins, Charles Homer. Studies in the History of Medieval Science, Cmabridge, Mass, 1924, p.135.

(79) Oliverus Brito, Philospophia, quoted in McCluskey, Astronomies and Cultures, p. 191.

(80) Charles King, “Leonardo Fibonacci”, in Five Fingers to Infinity. A Journey through the History of Mathematics. Open Court, Chicago, 1994, pp.252-54.

(٨١) إن روبرت جروسيتيست حينما كان مشغولا في القرن الثالث عشر بدراسة البصريات لم تكن قد شاعت ترجمة كتاب ابن الهيثم "كتاب المناظر" والكتب التي كانت قد وصلت إليه لإقليدس وبطليموس عبر الترجمة من اللغة العربية فحسب هذه الدراسة قيل أن سبب رؤية شيء هو الأشعة الخارجة منه وكتابات حنين ابن اسحق والكندي كانت تختار وجهة النظر البينية بين العين والشيء وروبرت ظل بيكون مقتنعا بهذه النظرية العلمية ومطبقا لها حتي جاء من نصيب روجر بيكون ومعاصريه وزمن كتاباتهم والنصف الأخير من القرن الثالث عشر لكي يوحدوا مشعلا بضوء كتاب المناظر غير قابل للنسخ أو الإلغاء وأصبح هذا المشعل ينور الغرب بل الدنيا كلها. انظر:

A.C. Crombie, Robert Grosseteste and the Origins of Experimental Science, 1100-1700

(Oxford: Clarendon Press, 1953, pp.116-117)



حـــينما غلب الأســـلوب الفكري المبـــني علي الأســـاطير.
الجدول التنجيمي وخريطة الرمل للحاكم التيموري اسكندر سلطان.



(٨٢) انظر كيف يستعين بيكون لتقوية وجهة نظره بابن الهيثم وحسبه أن لصحة وجهة نظره بشأن البصريات أي دليل يكون أقوي من أن يكون موقف ابن الهيثم مؤيدا لها:

It is… evident that the eyes are not alone in rendering judgment concerning visible things; but judgment begins in the eyes and is completed by the ultimate sentient power, the source of the visual faculty, (located) in the common nerve. It is equally clear that the eyes do perceive, and not only the common nerve. But since the eyes are connected to the source of the (visual) power, and powers flow from it to the eyes, so that the sensitive power is extended through the whole (optic) nerve from the common nerve to the eyes, as Alhacen says, therefore the visual act is one Roger Bacon and the origins of (Muhawwala) undivided, carried out by the eyes and the common nerve.

"Perspectiva" in the Middle Ages: a critical... by Roger Bacon, David Charles Lindberg, P. IXXV.

(٨٣) وكذلك بيكم أيضا يقدم ابن الهيثم تأييدا لموقفه كمرجع أخير. انظر:

Since vision is of the same kind in all animals, and certain animals are able to bestow the multiplicative power on colors by the light of their eyes so as to see them at night, is follows that the light of the eye has some effect on (external) light. Whether it goes beyond this, I do not determine, save only by following in the foot-steps of the Author (i.e., Alhazen), as I have said before. (David, C. Lindgberg, op cit)

(84) Edward Grant, A Source Book in Medieval Science, Harvard University Press, 1974, p.406.

(٨٥) وعن تأثير كتاب المناظر في أوروبا انظر لمزيد من التفصيل:

John Pecham and the Science of Optics: Perspectiva Communis David C. Lindberg edition, University of Wisconsin Press, 1970, n.44.

(86) Roger Bacon in Opus tertium quoted by by John Maxson. The Story of Alchemy and Early Chemistry, Dover, 1960, pp.262-3.

(87) Thorndike, Lynn. A History of Magic and Experimental Science (8 vols.) New York, 1923-58, vol.2, p.141.

(88) Marie Therese d'Alverny, "Translations and Translators", in Renaissance and Renewal in the Twelfth Century, ed. Robert L. Benson and Giles Constable (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1982), 440.

(89) H. Schipperges

قد كتب مقالا مفصلا عن هذا الموضوع بعنوان: Ideologie and Mistoriographie des Arabismus.

انظر لرسالة: Sudhoff's Archive، سنة ١٩٦١(الملحق)، ص١٥،١١

(90) Omar A. Farrukh, The Arab Genius in Science and Philosophy (translated from the Arabic by John B. Hardie) Washignton D.C., 1954, p.66.



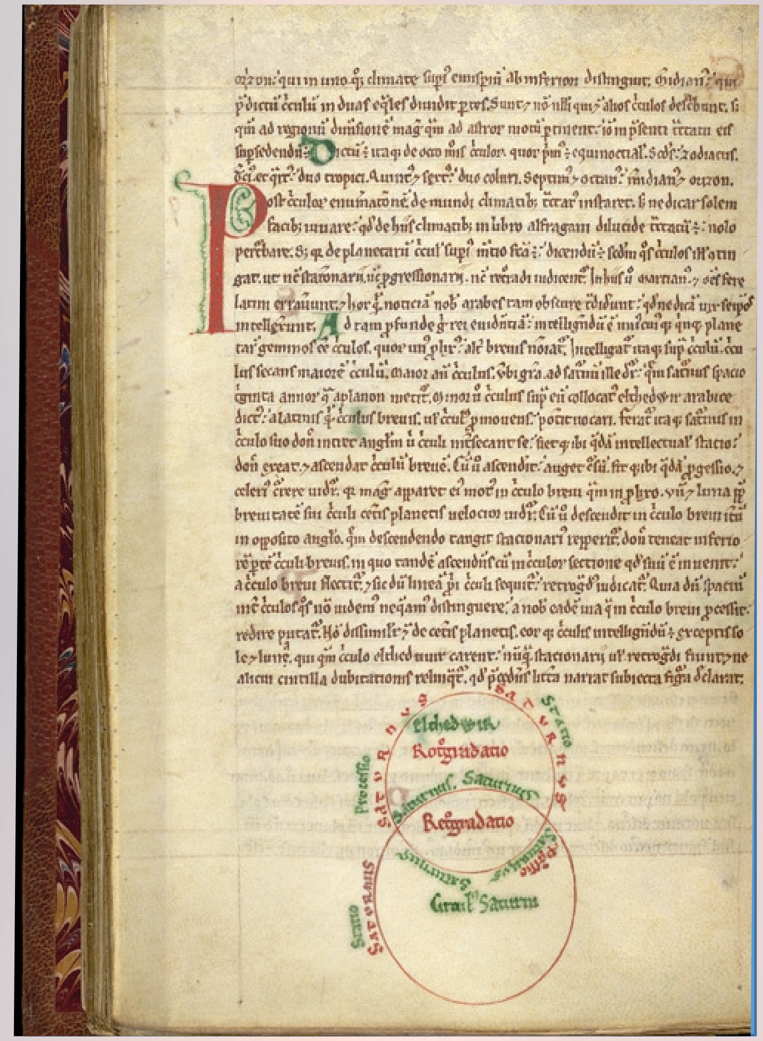
(٩١) المرجع السابق، فؤاد سزكين، ص٥٤

(٩٢) المرجع السابق، فؤاد سزكين، ص١٦٤-٥

(٩٣) Islam and Science, Ehsan Masood, London, 2009, p.4,5.

(٩٤) وأثبت جورج صليبا بناء علي شواهد ودلائل لا يمكن ردها أن "حول دوران الأجرام السماوية" الخاص بكوبرنيكوس هو نتيجة استفادته واقتباسه من كتاب ابن شاطر حتي أنه قام باقتباس الرسم البياني الخاص بالصغيرة والكبيرة (مزدوجة الطوسي) دون أي تعديل أو إضافات من ابن شاطر. والباحثون وفروا دليلا علي هذا الأمر وهو أنه ثابت تماما ذهاب كوبرنيكوس إلي مكتبة الفاتيكان وهناك دليل بين أن كتاب ابن شاطر كان موجودا في المكتبة. انظر لمزيد من التفصيل إلي:

George Saliba, Islamic Science and making of the European Renaissance, London, 2007.

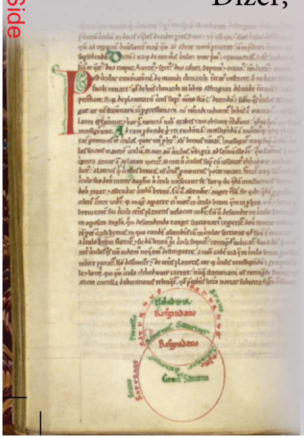


صفحة من كتاب "فلسفة" لباحث في العلوم العربية وهو "دانيال أوف مورلي" الذي عرف أوروبا علوم الرياضيات والفلك.

(٩٥) John Freely, Aladdin's Lamp: How Greek Science came to Europe through the Islamic World, New York, 2010,p.103.

(٩٦) أيضا

(٩٧) Muammar. "Observations and Astronomical Instruments." In A. Y. Al-Hassan, ed., The Dizer, Technology in Islam. Part 1: The Exact Different Aspects of Islamic Culture. Vol4: Science and Sciences. Paris: UNESCO Publishing, 2001, pp. 235-265.





**المسجد الجامع بقرطبة.**
**تزيين الجدران العلوية ونقوش وزخرفة المحاريب والشبابيك التي تأثرت بها مباني أوكسفورد وكامبريدج ثم بُنيت جامعة عليكرة الإسلامية علي نفس نسق الجامعات الغربية.**

(٩٨) المرجع السابق، فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ص١٣٦

(٩٩) المرجع السابق، فؤاد سزكين، ص١٢٥.

(١٠٠) المرجع السابق، فؤاد سزكين، ص٧٨.

(١٠١) Houbert T Houben, Roger II of Sicily, Cambridge Univ. Press, New York, 2002, p.179.

(١٠٢) المرجع السابق، فؤاد سزكين، ص٢٧-١٢٦

(١٠٣) لقد قدم جورج مقدسي دلائل قوية علي أن فكرة إقامة مؤسسة خيرية في فرنسا أو وقفية في انجلترا مأخوذة أصلا من المسلمين. أما فكرة (بيا كاوسا) في الحكومات الرومانية أو البيزنطية فهي مختلفة عن الأوقاف لأن من يقوم بالوقف ليس له حق التدخل في أهداف الوقفية. إن أصحاب الخير هنا يقومون بتقديم المعونات إلي الكنيسة إيمانا منهم أن الكنيسة ستقوم بتوزيعها حسب رؤيتها السديدة غير أن الأمر لدي المسلمين علي عكس ذلك وهو أن أملاك الوقف يتم استخدامها لأهداف معينة ومن يقوم بالوقف له



Binding Side



مبني جامعة أوكسفورد الذي تم بناؤه علي الطراز الإسلامي في
انعكاس واضح بمدي التأثر بالمباني الإسلامية مثل جامع قرطبة.

الاختيار كل الاختيار في تحديد الأهداف وكلية طلاب الفقراء هي أول مؤسسة خيرية أقيمت في أوروبا وحسبما يحكي التاريخ أنها كانت قد أقيمت حسب قواعد الوقفية الإسلامية. انظر لمزيد من التفصيل إلي: George Makdisi, The Rise of Colleges: Institutions of Learning in Islam and the West, Edinburgh Univ Press, 1981, p.228.

(١٠٤) إن فكرة إقامة جامعة في أوروبا جاءت من العالم الإسلامي وتسمية "كلية" وكذلك كل ما يتعلق بشئون الجامعة ومصطلحاتها بكل تفاصيلها مأخوذة من مختلف مناطق العالم الإسلامي الحدودية ثم أصبحت جزءا من الحياة العلمية داخل أوروبا. وفي هذا الشأن قدم جورج مقديسي دراسة واعية تفتح الأعين. راجع: George Makdisi, The Rise of Colleges: Institutions of Learning in Islam and the West (Edinburgh University Press, 1981) and The Rise of Humanism in Classical Islam and the Christian West (Edinburgh University Press, 1990).

(١٠٥) Helene. Wieruszowski, The Medieval University: Masters, Students, Learning, Princeton, 1966, pp.173-4

(١٠٦) Robert Stephen Briffault, The Making of Humanity, London, 1919, p.199.

(١٠٧) علي سبيل المثال لو قام أي صاحب حس في البناء بإلقاء النظر علي المبني القديم لجامعة أوكسفورد الذي بُني عام ١١٦٧م فلن يواجه أي صعوبة في معرفة أن يرجع المبني هذا إلي القرن الثاني عشر وطراز المباني الموجودة في صقلية وقرطبة واضحة عليها وهي المباني التي كان يُنظر إليها كعلامة للحضارة الإسلامية الغالبة وهنا أقدم صورتين هامتين للمباني الأولي هي لمسجد الجامع بقرطبة الذي تم بناؤه في القرن الثامن



Binding Side

الميلادي والصورة الثانية لجامعة أوكسفورد التي بُنيت في القرن الثاني عشر الميلادي ومن خلال هاتين الصورتين يمكن الاستنتاج بأن هذه السطوة والعظمة في البناء مأخوذة من الحضارة الإسلامية.

(١٠٨) George Makdisi, Rise of Colleges: Institutions of Learning in Islam and the West, Edinburgh Univ Press, 1981, pp.272-76

(١٠٩) المؤرخون الغربيون يتحاشون الرد علي أن تقليد روب التخرج في حفل توزيع الشهادات والقبعة ما مصدرها. هؤلاء يقولون بكل تأكيد أن كل هذا يعود إلي القرون الوسطي والمقدسي قدم دلائل قوية عن ١٨ مصطلحا سائدا في الجامعة الجديدة قائلا أن كلها في حقيقة الأمر ترجمة لاتينية لمصطلحات عربية الأصل. علي سبيل المثال ف"كالج" مأخوذة من "الكلية" فالأستاذية (الكرسي) المستخدمة في الجامعات تشير إلي هذه الخلفية التاريخية حينما كان يجلس العالم المسلم علي الكرسي والطلبة كانوا يجلسون حول الأستاذ علي الفرش ومن هنا تولد تصور (الدائرة الأكاديمية) ومن هذا المكان أيضا نشأت فكرة أن يُعين بعض الطلاب المتازين ويصبحوا زملاء بطاقم التدريس بالجامعة. راجع:

Makdisi, George (April-June 1989), “Scholasticism and Humanism in Classical Islam and the Christian West”, Journal of the American Oriental Society (Journal of the American Oriental Society, Vol. 109, No.2) 109 (2).

راجع للمزيد: Goddard, Hugh (2002), A History of Christian-Muslim Relations, Edinburgh University Press, p.100.

(١١٠) Norman Smith, A History of Dams, London, 1971, p.16.

(١١١) Hill, D.R., Islamic Science and Engineering, p.178.

(١١٢) Glick Thomas, Irrigation and Society in Medieval Valencia pp. 169-170, 186, 214, 230, 264-265.

(١١٣) ماكينة الساقية في ظاهرها بسيطة لكنها معقدة أيضا لأنها تشتمل علي أجزاء كثيرة فقد كان يعلق علي جنزيرة البئر عدد كبير من الجرار المصنوع من الطين أو المعدن وهذه الجنزيرة كانت ترتبط بالجنزيرة الأخري صانعة الزاوية القائمة وكان يتم اتصالها بالتروس وحينها كان يقام هذا الجنزير المسطح من عمود خشبي إذ أن الحيوانات حينما كانت تحرك الجنزير المسطح لدورانه المحوري فعن طريق التروس كان يتحرك جنزير البئر وعقد من الدلو المتصل ببعضه كان يأتي إلي الأعلي ممتلئا بالماء وبهذه الطريقة أصبح ممكنا استخراج المياه من الآبار العميقة وتوصيلها إلي الأماكن المرتفعة في وقت قصير وذلك في الوقت الذي

لم تكن الدنيا قد عرفت فيه الموتور الكهربائي فبهذه الطريقة كان قد أصبح الحصول علي الماء بالاستعانة بالحيوانات أمرا سهلا.

(١١٤) الناعور كانت ماكينة مائية تعمل بنفسها علي أمواج النهر. كان هناك جنزير كبير وعلي أطرافه صناديق خشبية مربوطة ببعضها كان يتجمع فيها الماء وعند دوران الجنزير كان يصل الماء إلي الأعلي وكانت هناك الجداول التي كان من الممكن تحويلها إلي الجهات المختلفة وبمصب النهر كان الجنزير يتحرك معه وهكذا يستمر تدفق المياه من النهر إلي سطح الأرض بشكل تلقائي. في العالم الإسلامي كان استخدام الناعورية شائعا في القرون الوسطي وإلي يومنا هذا في مدينة حماة ببلاد الشام يوجد هذا الأثر القديم للناعورية وهو يذكرنا بالأسلوب الفكري الاستكشافي للمسلمين.



المخطوط اللاتيني الذي يرجع إلي القرن الثالث عشر يوجد فيه ذكر لعلوم الفلك والرياضيات التي جاءت عن طريق العرب.

(١١٥) ظل تكريم العلماء الاستكشافيين وأهل الفن المسلمين في صقلية وطليطلة والمدن الأخري من الأندلس مستمرا والحكام المسيحيون الجدد كانوا مرعوبين من عظمة وهيبة المحكومين المسلمين. ففي هذه البيئة انتقال الوحدات الصناعية المتحركة إلي أيدي المسيحيين ليس بغريب وذلك لأن سلوك المسلمين في حال الهزيمة لم يكن تخريب المدن وتدمير الحضارة فكم من الوحدات الصناعية انتقلت إلي الحكام المسيحيين الجدد بجميع تكنولوجياتها وفي المصادر التاريخية جاء ذكر صناعة الأوراق في مدينة شاطبة كمهد لصناعة الورق في أوروبا.

Xativa

(١١٦) في الصفحات الماضية سبق لنا ذكر أنه لم يكن قد مرت عشر سنوات علي قدوم المسلمين إذ أصبحت اللغة العربية بسرعة شديدة لغة رسمية في الأندلس. والمسلمون علي أساس أنهم لم يكونوا غزاة بل كانوا نقباء لحضارة غالبة وأصحاب فكر استكشافي فبقدر ما بدأ انتقال رؤوس مالهم العلمي بدأ يتعمق تأثير جلالهم العلمي في كل مكان، ولم يكن قد مر عليه إلي الآن قرن واحد من الزمن إذ كانت الحالة مثلما جاء ذكرها في بيان راهب قرطبة "ألفارو":

“'My fellow Christians, delight in the poems and romances of the Arabs; they study the works of Mohammedan theologians and philosophers, not in order to refute them, but to acquire a correct and elegant Arabic style. Where today can a layman be found who reads the Latin Commentaries on Holy Scriptures? Who is there that studies the Gospels, the Prophets, the Apostles? Alas! The young Christians who are most conspicuous for their talents have no knowledge of any literature or language save the Arabic; they read and study with avidity Arabian books; they amass whole libraries of them at a vast cost, and they everywhere sing the praises of Arabian lore. On the other hand, at the mention of Christian books they disdainfully protest that such works are unworthy of their notice. The pity of it! Christians have forgotten their own tongue, and scarce one in a thousand can be found able to compose in fair Latin a letter to a friend! But when it comes to writing Arabic, how many there are who can express themselves in that language with the greatest elegance, and even compose verses which surpass in formal correctness those of the Arabs themselves!”

(Spanish Islam - English translation by F.G. Stokes p.268, London, 1913)

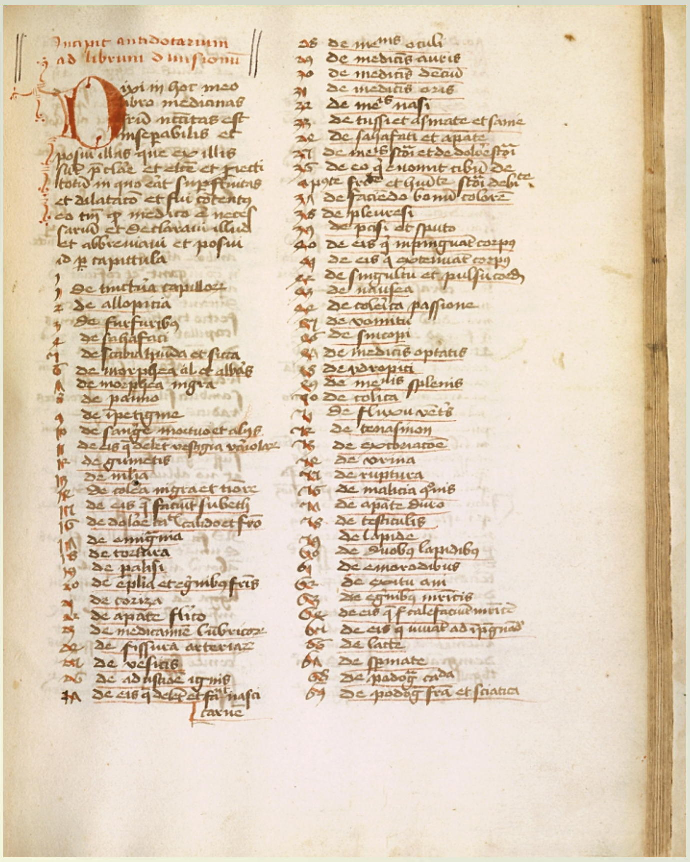
من أسباب هذا القبول للغة العربية وتعظيمها أنها كانت علامة للثقافة المنتصرة وثانيا أن جميع رأسمالها العملي وإنجازات شعوب الدنيا العلمية كانت موجودة بها ولذلك فبدون التمكن منها وإجادتها لم يكن ممكنا الحصول علي الثقة، معتمدا علي التراجم اللاتينية الناقصة ولذا كان معروفا في ذلك الوقت أن كل من يريد أن يتميز في أي علم وفن فعليه الإتقان التام للغة العربية حتي يتمكن من الاستفادة من المراجع العربية مباشرة وكذلك للشعوب المتخلفة كان مبعث فخر واعتزاز أن تتلمذ علي أيدي الأساتذة العرب وتحضر في مدارسهم بالإضافة إلي إجادة اللغة العربية والاستفادة من الكتب العربية. حينما وصل "دانيال

أوف مورلي" إلي باريس لطلب العلم عام ١١٧٥م رأي علي كراسي الأساتذة وحوشا وعندما علم أن نظريات العرب في هذه الأيام موضة طليطلة توجه إلي هناك كي يتعلم من أحسن عقول الدنيا.

(Daniel de Morley, Philosophia)

(١١٧) Muzaffar Iqbal, Science and Islam, Greenwood Press, CT, 2007 p.115.

(١١٨) Saliba, George. "Mediterranean Crossings: Islamic Science in Renaissance Europe", visit:



صفحة من كتاب قراباذين للرازي باللغة اللاتينية.

(١١٩) إن صنعة الورق في الواقع من اكتشاف أهل الصين وظلت هذه الصنعة حكرا عليهم لقرون. يقول القزويني أن هذه الصنعة انتقلت إلي أهل الإسلام عن طريق السجناء الصينيين في غزوة نهر "طلاس" عام ٧٥١م ولأول مرة أُقيمت وحدات منتظمة في سمرقند وفي أواخر القرن الثامن تقدمت هذه الصنعة في بغداد إلي أن وصل الأمر إلي ظهور سوق الوراقين لمختلف أنواع الأوراق والورق الصيني كان يعتبر مناسبا للفرشة بسبب خشونته والمسلمون قاموا بتطويره لغرض الخطاطين وجعلوه مصقولا ونفيسا. انظر لمزيد من التفصيل:

Al-Qazwini cited in Al-Hassan and Hill, Islamic Technology, p.191.

(١٢٠) راجع:

David S. Landes, The Wealth and Poverty of Nations (London: Little Brown, 1998), p.49.

(١٢١) من خلال كتاب الحيل لبني موسي يمكن التقدير بأن المسلمين كانوا قد وصلوا في عهد العباسيين إلي مقدرة كبيرة في صنع الآلات المتحركة حتي بدأوا بصناعة الأشياء أو اللعب التي كانت تعمل تلقائيا. كتب الجاحظ في كتاب الحيوان أن ملوكنا وأهل العلم يعرفون الوقت عن طريق اسطرلاب وفي الليل يستخدمون الساعات لهذا الغرض وإن أول ساعة علي الأرجح نُصبت في مكان عام في العالم الإسلامي كانت في مدينة "ميافارقين" عام ١٠١٢م والتي كان قد نصبها ناصر الدين من سكان ديار بكر وفي عام ١٠٥٠م وحفاظا علي هذا التقليد كان قد نصب الزرقاني ساعة مائية في طليطلة علي ساحل نهر تاجة (تاخو) وقد سبق وأن ذكرنا آنفا كيف انتقلت هذه الساعة إلي أيدي المحتلين المسيحيين وهناك ساعة دمشق العملاقة التي نجد ذكرها في المصادر التاريخية وكان قد نصبها محمد الخراساني الساعاتي في عام ١١٦٠م وجاء ذكرها في ذكريات رحلة ابن بطوطة وبالإضافة إلي ذلك هناك كتاب يسمي (الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل) (المطبوع في عام ١٢٠٦م) يشير إلي التعميم التكنولوجي الميكني في العالم الإسلامي. انظر:

Al-Jahiz, Kitab al-Hayawan, edited by A.S. Harun, vol. II, Beirut, 1992, p.294.

(١٢٢) كتاب معرفة الحيل الهندسية للجزري وهو أيضا مثل كتاب بني موسي الحيل ففيه أيضا توجد دنيا للماكينات. في كتاب الجزري هذا توجد تفاصيل طريقة صنع الطلمبات والمضخات وكذلك سباكة وصوغ الحديد. وباختصار يوجد في هذا الكتاب كل شيء مع رسم توضيحي. هذه الكتب أدت دورا رئيسا في مجال تعميم الماكينة التقنية وبصفة خاصة صناعة الساعة في أوروبا اللاتينية وكان هذا طبيعيا لأن أسبانيا المسيحية لم تحصل علي الكتب الاستكشافية بل الساعة المائية المتحركة كانت قد أصبحت جزءا لمشاهداتهم واكتشافاتهم بعد سقوط طليطلة. وتحت تأثير فن التاريخ الأوروبي يعتبر بصفة عامة أن الدنيا تعرفت بتكنولوجيا (مضخات الشفط) لأول مرة أثناء القرن الخامس عشر. غير أن كتاب الجزري هذا الذي تم تأليفه في ديار بكر عام ١٢٠٦م ليطلعنا علي جميع تفاصيل التقنيات ويخبرنا أيضا عن طريقة تشغيل (مضخات الشفط) مصحوبا برسم توضيحي.

(١٢٣) يوجد ذكر استخدام الطاقة المائية في الوحدات الصناعية في كتاب السبعين (في الرسالة الثامنة عشر). قيل في هذه الرسالة أن يتم إشعال موقد شديد الحرارة تحت إناء متحرك لإذابة الحديد وكذلك هناك اقتراح لعملية الدوران بالطاقة المائية باستخدام جنزيرة البئر أو بكرة الحبل وهناك تراكيب مختلفة توجد في كتاب السبعين لتشغيل الوحدات الصناعية باستخدام الطاقة المائية عن طريق جنزيرة البئر حيث تحتاج هذه العمليات إلي دوران مستمر. انظر إلي:

Jabir ibn Hayyan, Kitab al-sab' in published in facsimile by Fuat Sezgin, Frankfurt, 1986, pp.124-125.

(124) McLean, Adam. The Book of the Composition of Alchemy, Glasgo, 2002. P.2

(١٢٥) انظر كتاب المخزون لأرباب الفنون، باريس، المخطوط العربي، رقم التسجيل ٢٨٢٤.

(126) Joinville, The life of Saint Louis, in Joinville and Villehardouin, Chronicle of the Crusades, Penguin, 1963, Joinville p.216, see also Mercier, pp.77-78.

(١٢٧) بشير آغا، المخطوط رقم ٤٤١، اسطنبول، رسالة في جار الأثقل وغيرها من العجائب، مؤلف مجهول.

(١٢٨) الرحالة الفرنسي "برتراندون" الذي كان مقيما في بيروت في عام ١٤٣٢م وكان وجوده هنا في مناسبة عيد الفطر. يكتب الرحالة عن هذه المناسبة ما يلي: "أقام المسلمون بمناسبة العيد احتفالا كبيرا كما كانت العادة هنا. بدأ هذا الاحتفال وقت حلول المساء وكان هناك جمع غفير مشغولا بالغناء والموسيقي ومسئولو القلعة أطلقوا بهذه المناسبة عددا من دانة المدفعية وعامة الشعب أطلقوا الألعاب النارية التي كانت تصل إلي السماء والفوانيس التي كنت قد شاهدتها إلي الآن في حياتي كانت أحجامها هنا أكبر بكثير والناس هنا يقولون أن الألعاب النارية هذه تستخدم أحيانا لحرق السفن الشراعية للعدو وفي اعتقادي أن هذه الألعاب النارية لها قابلية لحرق البيوت الكبيرة وبصفة خاصة البيوت التي صُنعت أسقفها من الخشب وفي الحروب تستطيع هذه الألعاب أن تؤدي دورا في إخافة الأحصنة وتراجعها إلي الخلف وصناعتها ليست غالية لمن يريد




كتاب ابن الليون مع ترجمته اللاتينية.

أن يصنعها". وحاول برتراندون تقديم رشوة لأحد السكان المحليين كي يخبره عن طريقة صنعها وفعلا نجح في معرفة وصفتها ولم لا فقد كان قد جاء هنا أساسا لعملية التجسس من جانب "دوق بورجوندي" كما ذكر مترجم وقائع رحلته الإنجليزي Galene R. Kline

Galen R. Kline, Voyage, New York, 1988, p.56.

(١٢٩) ربما كان أول كتاب في الغرب عن البارود هو "كتاب الحرائق" ل"ماركوس جريكوس". إن هذا الكتاب هو عبارة عن ترجمة لاتينية مأخوذة عن بعض الكتيبات العربية.

(130) Watson, R., Chemical Essays, vol.1, London, 1787, 1999.

(١٣١) المسلمون كانوا قد تعرفوا علي كلمة البارود أو نترات البوتاسيوم في العهد الأموي وجاء ذكره بكثرة في كتابات جابر ابن حيان وأبي بكر الرازي ولكن في المصادر العربية ليس له اسم مخصوص فهناك من يسميه بملح الحجر والثاني يطلق عليه ملح الدباغين والثالث يذكره باسم "نترون" أو "الأشوش" أو "شب يمني". وفي كتاب الفروسية والمناصب الحربية لحسن الرماح يوجد وصفة تفصيلية للحصول علي نترات البوتاسيوم وفي بعض الكتب المقبولة علي المستوي العام لبعض المؤلفين المجهولين ومنها علي الأخص كتاب المخزون لأرباب الفنون. هذا الكتاب يتعلق باستخدام البارود بطريقة فنية في الصواريخ والمدافع. وفي كتيبات عسكرية ترجع إلي القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ذكر مفصل عن الصواريخ والمدافع التي تستطيع أن تحدث انفجارا كبيرا لو كانت وصفة الخليط علي النحو التالي وهي أن تكون نسبة النترات ٧٥% والفضة ١٠% والكربون ١٥%. وبنفس النسب مع تغيير بسيط يمكن الحصول علي نتائج مختلفة. بالإضافة إلي ذلك لا بد من معرفة نوعية ماسورة المدفعية وكيف يكون عنقها وإلي أي قدر تكون خالية وكذلك إلي أي حد تكون ممتلئة وعند إطلاقها لا بد من وضع جميع التفاصيل الدقيقة نصب العين. وهناك عشرات من المخطوطات العسكرية منتشرة في مختلف المكتبات ودور الكتب العالمية التي تشهد أن مسلمي القرون الوسطي لم يكونوا علي دراية بأهمية البارود فحسب بل كانت لديهم عملية البحث والفحص جارية باستمرار في الشئون العسكرية. وقد سبق لنا الذكر بأن البارود قد تم استخدامه من قبل المسلمين ضد الغزاة المغول والصليبيين وذكر لسان الدين ابن الخطيب في كتابه الإحاطة في أخبار غرناطة (ج١، ص٢٣١، المطبوع عام ١٣٢٤م) أن المسلمين في غرناطة كانوا قد استخدموه وذكر القلقشندي في صبح الأعشي (١٣٦٥م) معجزة مدفعية استخدمت في الإسكندرية تحت قيادة الأمير صلاح الدين بالنص التالي: إني رأيت مدفعية مصنوعة من النحاس وكانت حوافها من الحديد وكرة حديدية كبيرة الحجم كانت شدة الاحمرار من النار قد أطلقت المدفعية من تلك الكرة النارية وذهبت إلي مسافة كبيرة عابرة باب البحر حتي وقعت

في البحر نفسه. وكتب المقريزي في كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (ج١، ص٣٣٩، ١١٦٨م) عن استخدام "كرزشامي" أي "السيراميك" من قبل المسلمين وذلك خلال محاصرة الفسطاط من قبل الصليبيين. وكتب ابن خلدون في ذكر السلطان أبي يوسف يعقوب أنه في عام ١٢٧٤م قد استُعمل هذا المدفع في مدينة "سجلماسة" فكأن الكتب التاريخية والعلوم التقنية تقدم دلائل وبراهين لا يمكن رفضها عن أن المسلمين كانوا علي معرفة بفن استخدام البارود بنسب كيميائية ولكن حينما انتقل هذا الفن إلي أوروبا فالغرب قام بتطويره تطويرا غير عادي ثم استخدمه ليس ضد المسلمين فحسب بل لكبح جماح الشعوب الأخري وإلي يومنا هذا يستخدمه بل يستغله لإبادة الشعوب.

كتاب حسن الرماح (المتوفي ١٢٩٥م) وهو كتاب الفروسية والمناصب الحربية ربما هو أول كتاب مفصل قام بجمع عصارة دراسات وتحقيقات هذا الفن ومن غلاف هذا الكتاب يُعرف أن علم حسن الرماح هذا كان وراثيا حيث وصل إليه من الأجداد ولا يمكن صرف النظر عن أن هذا الكتاب كان يحتمل النقص والزيادة باستمرار وفيه وصفات كثيرة لاستخدام البارود في أمور حربية وغير حربية. هناك ٢٢ وصفة تتعلق بالطائرات الصاروخية. والشيء المدهش في هذه الوصفات هو استخدام ٧٥% من نترات البوتاسيوم وهذه النسبة ظلت إلي الآن لدي أهل الخبرة مطابقة لأجود المعايير. من خلال هذا الكتاب يجد الرأي التاريخي الموثق تدعيما بأن المسلمين بالسلاح الناري حولوا نتيجة الهجمات المغولية في عين جالوت. كان هذا هو استخدام البارود في هذه المعركة وكذلك كان استخدام المدافع في الحروب واستعمال القذائف النارية في الحفلات شيئا عاديا. راجع لمزيد من التفصيل:

Hall, Bert S., Weapons, Warfare in Renaissance Europe, John Hopkins University Press, 1997, p.67.

لسان الدين الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، القاهرة، ١٩٠١م، ج١، ص٢٣١.

شهاب الدين أحمد بن علي القلشقندي، صبح الأعشي، ج٢، القاهرة، ١٩٦٣، ص ص ١٤٤-١٤٥.

ابن خلدون، كتاب العبار، ج٧، بيروت، ١٩٧١م، ص١٨٨.

(١٣٢) David L. Lewis, God's Crucible: Islam and the Making of Europe, 570-1215, New York, 2008, p.329.

(١٣٣) كان روبرت بريفالت موفقا للغاية عندما كتب عن نهضة القرن الثاني عشر:

It was under the influence of the Arabs and Moorish revival of culture and not in the 15th century, that a real renaissance took place... After steadily sinking lower and lower



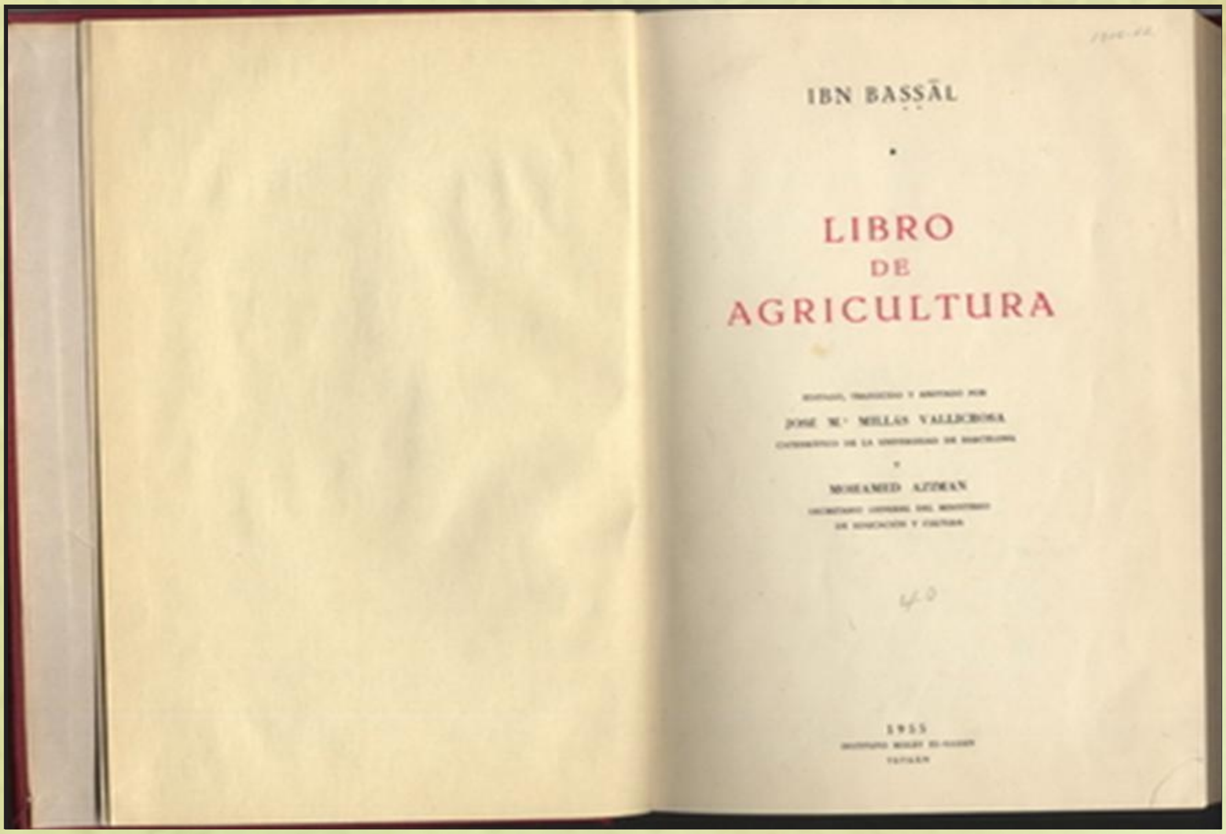
Binding Side

into barbarism, it [Europe] had reached the darkest depths of ignorance and degradation when cities of the Saracenic world, Baghdad, Cairo, Cordova, and Toledo, were growing centers of civilization and intellectual activity. It was there that the new life arose which was to grow into new phase of human evolution. From the time when the influence of their culture made itself felt, began the stirring of new life. Robert Briffault, The Making of Humanity, London: 1938.

(١٣٤) في أوروبا القرون الوسطي حيث كانت الثقافة المسلمة متغلغلة وكانت موضة تزيين المباني والملابس والنماذج الأخري المختلفة للفن شائعة، أن تتشابه كل هذه الأمور بالخط العربي وعامة الناس لم يكونوا علي معرفة باللغة العربية لكن كانت لديهم هواية أن تكون مجالسهم وبيوتهم مرصعة ومزينة بالفن والموضة القادمة من دمشق وبغداد والقاهرة والأندلس وفنانو الغرب في ذاك العصر لبوا احتياجاتهم هذه باختراع خط كان يسمي (سودو-أرابيك) أو (سودو-كوفيك). ومن القرن الثالث عشر إلي أواخر القرن السادس عشر ظل تفوق المسلمين علي المستويين الثقافي والسياسي قابلا للحسد وكذلك للتقليد ورسامو أوروبا ظلوا متبعين لهذه الموضة ولكن بعد القرن السادس عشر حينما بدأت أساسيات العلوم الاستكشافية في الغرب تستحكم وأحس الغرب بضرورة بناء أسطورة جديدة وربطها بيونان الماضي السحيق بدلا من الإسلام والمسلمين بدأت تضمحل هذه الموضة والتقليد بقدر من التدريج.

(١٣٥) في عام ١٣٤١م أي بعد ألف ومائتين سنة أقام بترارك احتفالا علي جبل (كابيتولين) لمنح الشعراء أوسمة تكريم وذلك لإحياء الاحتفال الإيطالي القديم. وبناء علي المصادر التاريخية ادعي بترارك أن آخر مرة كان قد منح "ستاتيوس" هذا التكريم عام ٨٠م، والآن كان قد عاد بترارك بهذا الوسام. إن بترارك أو الشعراء والمؤلفين الآخرين من أمثاله مثل "دانتي أليفييري" و"ألبرينتو" و"موساتو" و"جيري دي أريزو" و"بيكاسو" وغيرهم من الذين كانوا يبحثون عن أسطورة جديدة بسبب التعصب الأعمي ضد المسلمين لكي يتم ربط الأخذ والاقتباس لقرون طويلة من المسلمين في العلوم الاستكشافية والأدب والثقافة إلي اليونان القديمة بدلا من المسلمين. ففي هذا الوقت لم تنل هذه التعصبات القبول لأسطورة تاريخية لكن في القرن السادس عشر وبمساعي "ميشليه" و"بوركهارت" تم نفخ الروح في هذه الأسطورة الناقصة المندثرة من جديد.

(١٣٦) أي نهضة كان يمثلها شكسبير لا يمكن تقديرها الصحيح بدون الرجوع إلي التاريخ ففي عام ١٥٧٠م كانت قد تعرضت الملكة إليزابيث لمقاطعة سياسية من البابا. وفي عام ١٥٧٨م أرسلت الملكة الوفد الدبلوماسي إلي السلطان التركي مراد الثالث طالبة الحماية من البابا ولم يكتب لها النجاح في هذه الزيارة الدبلوماسية إلا




القالب اللاتيني لكتاب الفلاحة.



جزئيا لكن في هذه الأثناء ظلت العلاقات بين انجلترا والخلافة العثمانية جيدة وهذا هو السبب في أن بعض مسرحيات شكسبير مثل "تمبورلين العظيم" و"يهودي مالطا" و"تاجر فينيسيا" حافلة بمشاعر تعظيم المسلمين.

(١٣٧) في اعتقادي أن فضل اختراع النهضة علي أساس أسطورة عملية يرجع إلي "جاك بوركهارت" (١٨١٩م-١٨٩٧م). لقد حاول في كتابه "حضارة عصر النهضة في إيطاليا" في مقابل ميشليه وهيجن أن يقدم النهضة بكل قوة كحادث تاريخي. وكان من أسباب قبول هذه الأسطورة التاريخية التي شكلها بوركهارت لأن الغرب كان في حاجة ماسة لأسطورة جذابة بدلا من العزائم العريضة غير العملية من الفرضية التاريخية.

(١٣٨) الرحلة البحرية لكولومبوس كانت امتدادا للحرب الصليبية في الأساس فبعدما انطفأ مصباح الإمارة الإسلامية في أسبانيا خرج البحارة إلي مناطق مختلفة باحثين عن الذهب بكمية كبيرة لتشتد المعركة ضد اليهود والمسلمين التي بدأها فرناندو وإيزابيلا ولكي تتوسع هذه المهمة كتب كولومبوس في مذكرة سفرياته البحرية مخاطبا أسياده السياسيين بصريح العبارة:

Having expelled all the Jews from your domains in that same month of January, your Highness commanded me to go with an adequate fleet to these parts of India [the Americas]... I departed from the city of Grenada on Saturday 12 May and went to the port of Palos, where I prepared three ships.

(Quoted in Jerry Brotton, The Renaissance Bazaar, Oxford: New York, 2002, p.32)

إن الناس الذين هم علي معرفة بالخلفية السياسية لكولومبوس ومشرفيه وأوليائه فبالنسبة لهم قبول هذا الأمر صعب جدا لأنهم خططوا لرحلة بحرية بغرض مشاهدة الكون شوقا لإبداع الدنيا الجديدة.

(١٣٩) مصطلح العهد المظلم كان سعيا لرؤية التاريخ بانطباع المسيحي القومي الخالص فحسب هذا التصور أن الدنيا استنارت بعد مجيء السيد المسيح لكن السلطنة الرومانية تعرضت للانهيار وغلبت الشعوب الأخري وبصفة خاصة المسلمون. فحسب هذه النظرية كانت هذه الفترة في واقع الأمر بداية للعهد المظلم وبترارك الذي عاش في هذا العهد المظلم حسب تعبيره بشر أهل قومه أن الأجيال القادمة ستستمتع بالفجر الجديد:

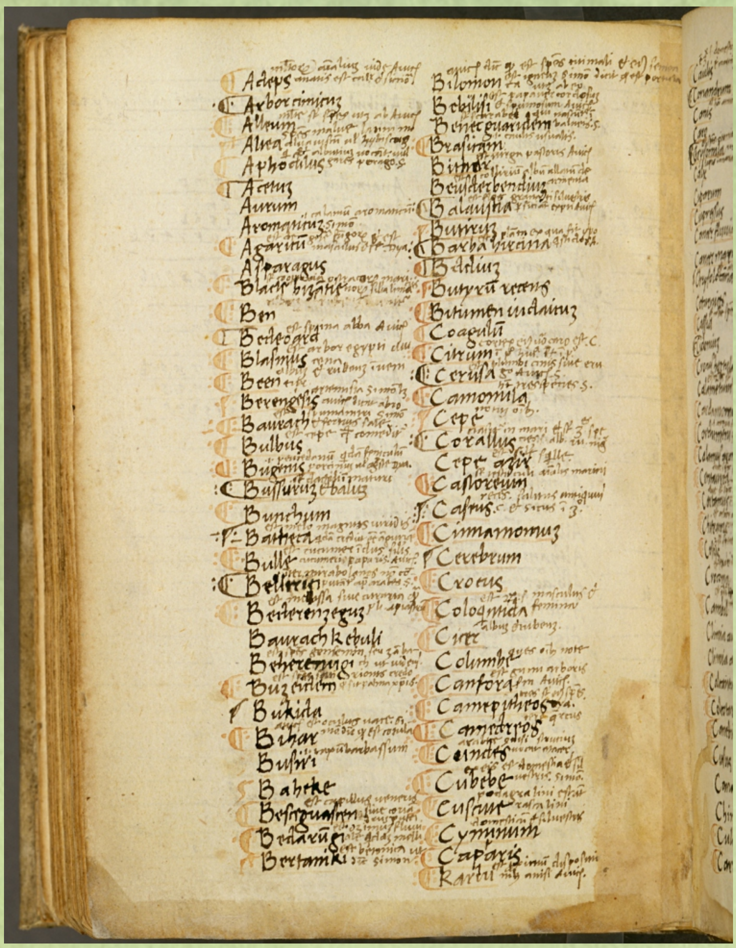
My fate is to live amid varied and confusing storms. But for you perhaps, if as I hope and wish you will live long after me, there will follow a better age. This sleep of forgetfulness will not last for ever. When the darkness has been dispersed, our descendants can come again in the former pure radiance. (Africa, IX. 451-7; tr. T. E. Mommsen (tr. and ed.), p.127)

(١٤٠) بعد سقوط القسطنطينية جاء عدد كبير من علماء اللغة اليونانية المسيحيين الخبراء وكانوا قد استوطنوا في مختلف المدن الإيطالية. نجد فيهم راهبا بيزنطيا ذُكر اسمه في المصادر التاريخية بكل تقدير واحترام وهو الذي كان قد ترجم كتاب أرسطو "ما بعد الطبيعة" من اللغة اليونانية مباشرة. يُقال عنه أنه كان قد جاء ومعه ذخيرة كبيرة من الكتب اليونانية وكانت هذه الكتب تقدر بحوالي خمسمائة كتاب يوناني فقط بخلاف الكتب الأخري وقد تبرع هذا الراهب بكل هذه الكتب للمكتبة المركزية لمدينة فينيسيا وكان قد سكن مع الراهب مجموعة من الحواريين والتلاميذ أيضا وكان من هؤلاء من الجدير ذكرهم "ثيودوروس جازا" و "بوجيو آند فالا" و"جورج طرابيزونتيوس".

(١٤١) إن كتاب التحرير المجسطي لنصر الدين الطوسي "المطبوع عام ١٢٤١م" يحتل حجر أساس في التشكيل الجديد للكون العلمي وسلسلة الدراسات المشروحة والمشكوكة بشأن العلوم الاستكشافية التي أحصاها

المسلمون فبعملهم هذا وضع المسلمون الأساس الصحيح لأسلوب فكري استكشافي جديد. وحتي الآن كان يعتبر أن الكواكب السماوية متحركة كل في مدارها بسرعة واحدة ويقع في مركزها كوكب الأرض.

غير أن الشاهد عليها لا يكون بالإحصاءات ولذلك اخترع البطليموس هذه النظرية وهي أن مركز هذا المدار خارج الأرض وفي هذه الحالة يمكنك أن تقول أن المدار يقع خارج الكون لكن المسلمين المتخصصين في علم الفلك لم يبطلوا هذا الرأي فحسب بل قدم الطوسي في كتابه التذكرة في علم الهيئة كلية جديدة علي الرغم من نظرية بطليموس والتي تسمي الصغيرة والكبيرة "مزدوجة الطوسي" وفيما بعد استخدم ابن شاطر هذه القاعدة الكلية في دوران القمر ووصل ابن شاطر إلي النتيجة أن دوران جميع الكواكب يحدث حول نقطة واحدة وعندما ذهب اعتبار النظام الكوني لبطليموس بلا عودة واتضح أن جميع الكواكب تدور في مدارها حول مركز واحد أصبح ممكنا لكوبرنيكوس تقرير أن الشمس هي المحور بدلا من الأرض وأعلن عن كون جديد وقد وجد كوبرنيكوس عونا كبيرا من الدراسات والتحليلات المسلمة الممتدة لقرون حتي أنه لم يتردد للحظة واحدة في شرح هذه الكونيات الجديدة باستعمال رسم "مزدوجة الطوسي" البياني.



حينما كانت معرفة اللغة العربية ضرورية لطبيب أوروبي.
كتاب لاتيني يرجع إلي القرن الخامس عشر
الميلادي في علم الطب والذي يشرح المصطلحات العربية الشائعة آنذاك.

Marshall Hodgson, Rethinking World History, Cambridge University Press, 1993, p.97. (142)



Binding Side

(١٤٣) بعد سقوط القسطنطينية كم كان العالم المسيحي مرتعشا ويمكن تقدير هذا الارتعاش برسالة مفكر مسيحي من تلك الفترة (أينيس سيلفيوس بيكولوميني) اشتُهر فيما بعد بالبابا بيوس الثاني. هذه الرسالة كان قد كتبها هذا المفكر للبابا نيكولاس الخامس:

But what is that terrible news recently reported about Constantinople? ... Who can doubt that the Turks will vent their wrath upon the churches of God? I grieve that the world's most famous temple, Hagia Sophia, will be destroyed or defiled. I grieve that countless basilicas of the saints, marvels of architecture, will fall in ruins or be subjected to the defilements of Mohammed. What can I say about the books without number there which are not yet known in Italy? Alas, how many names of great men will now perish? This will be a second death to Homer and a second destruction of Plato.

Jerry Brotton, The Renaissance Bazar, Oxford; New York, 2002, p.49.

(١٤٤) "لورينزو فالا" كان قد وجه بعض الشبهات علي وثيقة "هدية قسطنطين" الشهيرة في ضوء تحليلها من ناحية المتن واللغة لكن حينذاك كان هذا الاعتراض محض مناقشة علمية لا أكثر وبعد لوثر بدأ توجيه الاعتراضات علي السلطة العليا للكنيسة علنا وصدق هذا الرأي أصبح مشكوكا أن قسطنطين كان قد فوض الكنيسة جميع سلطاته ففي عام ١٥٢٠م إذ بدأ ترسيخ وتوثيق "هدية قسطنطين" علي يد "إيفل" غضب لوثر غضبا شديدا وكتب ما يلي:

I have at hand Lorenzo Valla's proof that the Donation of Constantine is a forgery. Good heavens, what darkness and wickedness is at Rome. You wonder at the judment of God that such unauthentic, erass, impudent lies not only lived but prevailed for so many centuries.

(١٤٥) إن الكتاب الشهير "حياة الفنانين" المطبوع ١٥٥٠م والذي يُنظر إليه كأحد كتب فن النهضة فإن الشيء الذي حدث بعد طباعة هذا الكتاب أن الرسامين والمصورين الذين لم يكن لهم تقدير اجتماعي في مقابل الرهبان والقسيسين أصبحوا بعد ذلك جديرين بالتوقير والاحترام. لكن بعد إلقاء نظرة علي هذا الكتاب تنكشف هذه الحقيقة وهي أن هؤلاء الرسامين والفنانين لم يكونوا أبدا ممثلين لنهضة تلك الأسطورة الرومانية التي كان يقال عنها أنها نقيب لفجر جديد وحرية الفكر والمشاهدات في الأنفس والآفاق

والحقيقة المحضة هي أن هؤلاء كانوا مشغولين في شرح ضيق النظر للكنيسة الكاثوليكية والمعارضون سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين بروتستانت فلم يكن لهم أي مكان هنا.

(١٤٦) يُقال أن فكرة إعداد أول تقويم مسيحي بدأت تتشكل بإشارة من شارلمان قام "فينيرابل بيدا" علي إثرها بتقديم أول تقويم في أواخر القرن الثامن الميلادي وذلك لأنه لم يكن هناك من قبل أي تقويم مسيحي خاص بهم. راجع في هذا الشأن الكتاب الشهير ل"بيدا":

Ecclesiastical History of the English Nation.




عندما لم يكن لجاليليو أي اعتبار بدون ابن الهيثم. كتاب "هيويليس" المسمي "سيلينوجرابيا" المطبوع عام ١٦٧٤
. وعلي غلافه صورة ابن الهيثم مع جاليليو.

(١٤٧) التقويم السائد الذي صدر بعد التجديد والإصلاح عام ١٥٨٢م ظل لدي المسيحيين البروتستانت لفترة مصدر نزاع. يُقال أن أهل أوروبا قد أخذوا فترة مائة عام للاتفاق علي هذا التقويم. راجع:

The Renaissance Bazaar: From the Silk Road to Michelangelo, Oxford University Press, New York, 2002, p.194.

(١٤٨) إن قصة أبناء نوح عليه السلام كما جاء في كتاب الولادة (الباب التاسع الآية رقم ٢٧) استُخدمت في بناء أسطورة جديدة بشكل جاء في نصيب "يافث" أوروبا وفي نصيب "سام" آسيا المشتملة علي اللادينيين وأوروبا لم تصبح مسكنا للمسيحيين فحسب بل احتلت مكانة القداسة وأصبح أهل أوروبا مؤهلين لأداء الواجب الديني وهو أن يجعلوا شعوب آسيا البعيدة عن الدين والحضارة في دائرة معرفة الله ولا يقصروا

في أداء هذه الفريضة الدينية أي دقيقة ففي القرن الثامن عشر أدت هذه الأسطورة دورا كبيرا في منح الإذن النظري والأخلاقي لتقوم شعوب أوروبا في تنفيذ عزائمها الاستعمارية.

(١٤٩) راجع: Georges Duby, The Three Orders: Feudal Society Imagined (Chicago University Press, 1980)

(١٥٠) Gerd Tellenbach, Church, State and Christian Society at the Time of the Investiture Conflict (Oxford: Blackwell, 1959), p.39.

(١٥١) راجع: Michael Mann, The Sources of Social Power, vol.I Cambridge University Press, 1986, p.381.

(١٥٢) إن السيطرة العامة للعلوم العربية والحضارة الإسلامية كانت تقوم بتغيير الغرب باستمرار وذلك لأن ورود الثقافة والأوساط الفكرية كان طبيعيا مع وصول العلم، وفي العلوم الاستكشافية للمسلمين كان للغرب شغف لكن من ناحية دين المسلمين ظلت قلوبهم مغلقة. علي سبيل المثال خذ روجر بيكون الذي ظل يستخدم ابن الهيثم طوال حياته كمرجع أخير في أبحاثه أما عن اختيار أسلوب الحياة الإسلامية فرفضها بالمرة قائلا أن أهل العرب يظلون غارقين في الشهوات الجنسية بسبب كثرة الزواج. أما "بترارك" فوصل إلي حد كبير من التجاوز إذ قال أنه لأمر صعب الإيمان بأن هناك شيء جيد يمكن أن يأتي من العالم العربي. و"الكوميديا الإلهية" لدانتي توثق هذا الرأي وهو أن علم وفلسفة المسلمين صالحة للقبول من جهة الغرب لكن البعد عن الدين وصل بهم إلي حد الانقباض وحسب "دانتي" (نعوذ بالله من ذلك) فإن مكان رسول الله (ص) وسيدنا علي (رضي الله عنه) هو جهنم، لكن صلاح الدين وابن رشد وابن سيناء فهم علي الأعراف في انتظار النجاة. سايغر برابانت الذي اشتهر بسبب فلسفة ابن رشد شاهد دانتي أنه في الجنة وتصنيف دانتي هذا في الواقع مرآة للحسية الاجتماعية عند شعوب أوروبا حيث لم ينته عنادها للإسلام والمسلمين حتي بعد الاكتساب العلمي منهم زهاء سبعة قرون. راجع:

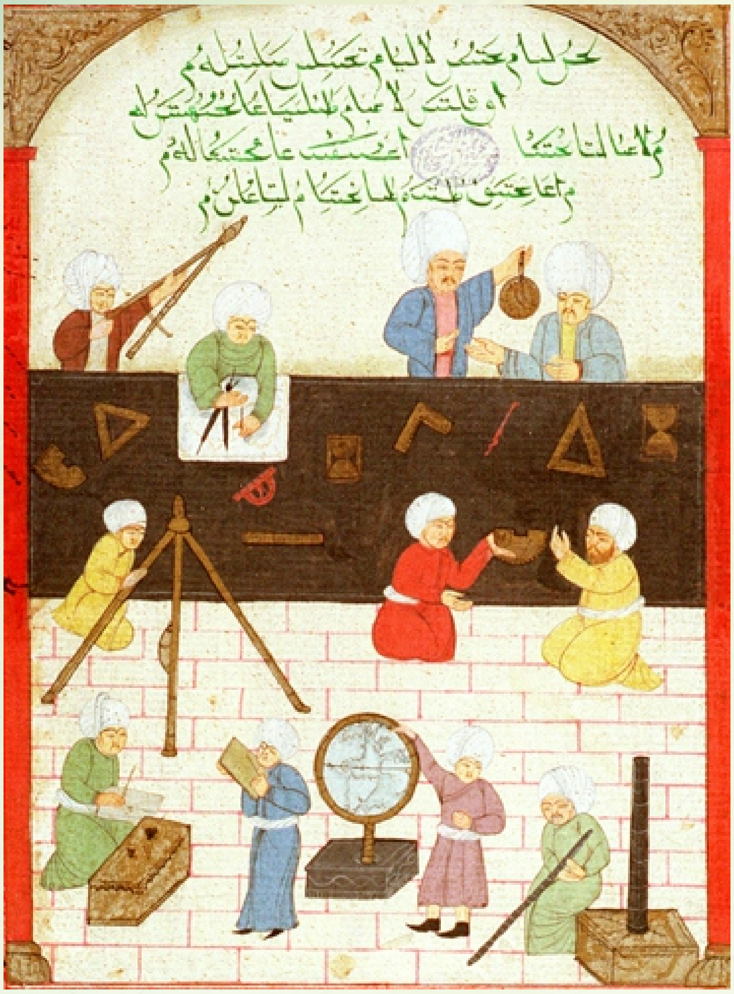
Roger Bacon, Opus Majus, trans, Robert Belle Burke (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1927), p.815. Francesco Petrarch, Letters of Old Age, trans. Aldo S. Bernard, Saul Levin, and Reta A. Bernard, John Hopkins University Press, 1992, 2:472.

لمزيد من التفصيل راجع:

Denys Hay, Europe: the Emergence of an Idea, Edinburgh University Press, 1957, p.1.

(١٥٤) كانت هناك هتافات تتعالي طلبا للمدد الغيبي لالقديس جيمس في اللحظات الحاسمة وذلك أثناء نشوب الحرب لإجلاء المسلمين من أسبانيا. وكما تعتبر فينيسيا مدينة القديس مرقص كذلك يحتل القديس سانتياجو رسميا لأسبانيا وهو الذي أدي دورا رئيسا في إنقاذ أهل أسبانيا من سيطرة المسلمين كما هو معروف لدي الشعب. والقديس جيمس هذا ليس شخصا عاديا بل يعتبر من حواريي عيسي عليه السلام الاثني عشر الذين قتلوا في عام في عام ٤٤ علي يد الملك هيرودس أغريباس الأول وكان المفروض أن يكون مرقده في القدس لكن العقيدة الشعبية المتفائلة والزائدة عن الحدود قامت بكشف مرقده في أسبانيا. يُقال أنه جاء في منام الملك راميرو الأول وظهر هو في الوقت الذي كانت المواجهة حامية مع جيش عبد الرحمن الثاني. القديس جيمس أكد لراميرو الأول علي النصرة والتأييد بل في عام ٨٤٤م قام بقيادة الجيش في ساحة المعركة بكلافيجو ورأي أهل الإيمان بأعينهم القديس جيمس وهو يرتدي الدرع الواقي يدخل في ساحة المعركة والجو يدوي فيه هتافات ونعرات القديسياجو القديسياجو. ويُروي أيضا بأن أهل الإيمان قد شاهدوه في مختلف المواقع الفاصلة بأعينهم المجردة وقيل عن وجوده أنه فضل ونعمة خاصة لأهل أسبانيا من عند الله. ويراه أصحاب العقيدة المسيحية المتفائلة القديسياجو ماتاموروس أي الالقديس القاتل للمسلمين. انظر لمزيد من التفصيل:

Rafael Altamira, A History of Spain, New York, 1949, p.103.



عندما كانت قيادة وريادة العلوم العربية في أيدي المسلمين وظلت هذه الريادة زهاء ألف سنة، فكانت اللغة الدولية لدراسة العلوم هي اللغة العربية.

(١٥٥) علي سبيل المثال ذكر "تريفور روبر" في كتابه "صعود أوروبا المسيحية" بكل وقاحة أن أوروبا قد بدأ تقدمها منذ خمسمائة عام. يقول:

The new rulers of the world, whoever they may be, will inherit a position that has been built up by Europe, and by Europe alone. It is European techniques, European examples, European ideas which have shaken the non-European world out of its past – out of barbarism in Africa, out of a far older, slower, more majestic civilisation in Asia; and the history of the world, for the last five centuries, in so far as it has significance, has been European history. I do not think that we need to make any apology if our study of history is European-centric. (Trevor-Roper 1965:11)

في رأيي أن قصة هيمنة أوروبا خلال خمسمائة عام هي مغالطة كبيرة وهي من إنتاج أولئك المطبلين لأوروبا الذين أرادوا من خلال كتبهم هذه تقديم هذا الانطباع المبني علي تصورات خاطئة. ولقرابة عشر أو خمس عشرة سنة ظهرت كتب موثقة علي بطلان هذا الرأي وهي تثبت بالأدلة أن سيادة وهيمنة العالم الغربي هو أمر حديث بدأ في أواخر القرن التاسع عشر. راجع:

The Wealth and Poverty of Nations by David S. Landes, Triumph of the West by John M. Roberts (1985)

Samir Amin, Eurocentrism, London, 1989; Janet L. Abu-Lughod, Before European Hegemony, Oxford, 1989; James M. Blaut, The Colonizer's Model of the World, London, 1993; Bryan S. Turner, Orientalism, Postmodernism and Globalism, London, 1993; Jack Goody, The East in the West, Cambridge,1996; Andre Gunder Frank, R e O r i e n t, Berkeley, 1998; Clive Ponting, World History, London, 2000.

وفي نفس الشأن كتاب "مارشال هودجسون" المسمي The Venture of Islam, 3 vols. المطبوع ١٩٧٤م وكتاب "إيريك وولف" المسمي

Europe and the People without History (1982)

أيضا ذا أهمية كبري ولا يستطيع الباحثون عن الحق والعدل الاستغناء عنه.

(١٥٦) عند إلقاء النظر علي رحلة فاسكو دي جاما وكولومبوس البحرية في ضوء التاريخ يتضح لنا جليا أن الملاح فاسكو دي جاما حينما انطلق إلي رحلته بسفينة لا يزيد طولها عن خمسة وثمانين قدما ففي نفس الوقت



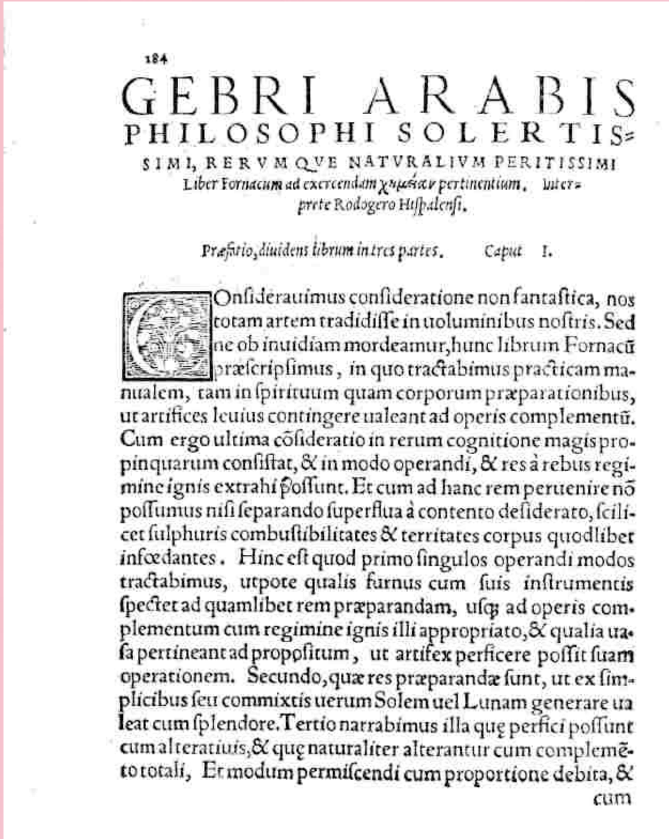
أبو الكيمياء جابر ابن حيان.

كانت تبحر سفن الصين البحار والمحيطات البالغ طولها خمسمائة قدم وعرضها مائة وثمانين قدما. يُقال أن ارتفاع باخرة كولومبوس لم يكن يصل إلي نصف ارتفاع سفينة الملاح الصيني شينج وباخرة كولومبوس "نينا" التي ارتبطت بها المهمة الأولي للبحث عن دنيا جديدة كانت تسع مائة طن من الوزن علي أقصي تقدير أما باخرة شينغ في نفس الوقت كانت تسع حمولة ثلاثة آلاف ومائة طن من الوزن وعلي هذا يمكن التقدير بأن البحارة العرب الذين كانوا يحتلون مكانة أمير البحر. راجع:

Jack Goody, The East in the West (Cambridge: Cambridge University Press, 1996), p.92.

(١٥٧) هناك شواهد كثيرة تاريخية تثبت أن فاسكو دي جاما برفقته ملاح مسلم غوجراتي (هندي) خلال رحلته البحرية إلي الهند وكان قد أقنعه بمصاحبته في هذه الرحلة علي ساحل أفريقيا وبعض المؤرخين ذكروا أن البحار هو البحار المسلم الشهير بابن ماجد ولا يمكن الوثوق به لا رواية ولا دراية وأن هذا الكلام غير موثوق به من الناحيتين. وفي الوقت الذي بدأ فيه فاسكو دي جاما رحلته عبر المحيط الهندي كان يُنظر في ذاك الوقت إلي شهاب الدين أحمد بن ماجد كشخص ذي ثقة وأستاذ كبير في فن الملاحة وله كتاب مهم في هذا المجال وهو كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد ونظرا لتجاربه البحرية واسعة النطاق كان يلقب بأسد البحر. وليس هناك متسع من الوقت لأن يقال لمثل هذا الشخص العظيم أنه يقدم خدماته للبرتغاليين قليلي الخبرة وخصوصا في الوقت الذي كان معروفا فيه عداوة البرتغاليين للمسلمين ففي هذه

الظروف غير لائق بالمرة لأي مسلم أن يقوم بإفشاء الأسرار الفنية، وابن ماجد كان مسلما راسخ العقيدة يخاف الله تعالي وكان لديه هذا الإيمان يحتل مكانا أساسيا وكان يؤمن بأن البحار المسلم لا بد وأن يكون تقيا مع تبحره في فنه. (وينبغي للمعلم - يقصد ربان السفينة أو قائدها - أن يكون عادلا تقيا لا يظلم أحدا مقيما علي طاعة الله، متقيا الله حق اتقائه تعالي)


184

GEBRI ARABIS PHILOSOPHI SOLERTISSIMI, RERVMQVE NATVRALIVM PERITISSIMI Liber Fornacum ad excrcendam χημείαν pertinentium, interprete Rodogero Hispalensi.

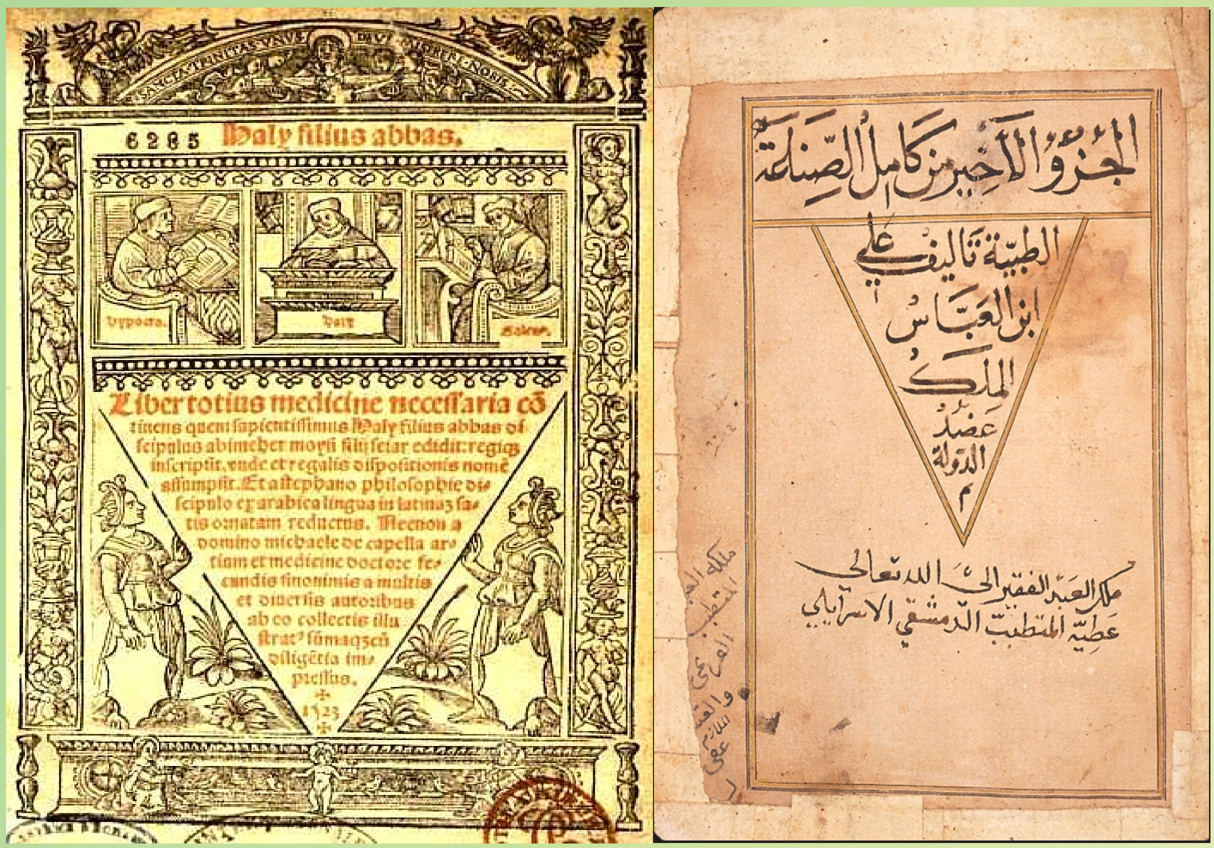
Præfatio, diuidens librum in tres partes. Caput I.

Considerauimus consideratione non fantastica, nos totam artem tradidisse in uoluminibus nostris. Sed ne ob inuidiam mordeamur, hunc librum Fornacũ præscripsimus, in quo tractabimus practicam manualem, tam in spirituum quam corporum præparationibus, ut artifices leuius contingere ualeant ad operis complementũ. Cum ergo ultima cõsideratio in rerum cognitione magis propinquarum consistat, & in modo operandi, & res à rebus regimine ignis extrahi possunt. Et cum ad hanc rem peruenire nõ possumus nisi separando superflua à contento desiderato, scilicet sulphuris combustibilitates & terrestates corpus quodlibet inficientes. Hinc est quod primo singulos operandi modos tractabimus, utpote qualis furnus cum suis instrumentis spectet ad quamlibet rem præparandam, usq; ad operis complementum cum regimine ignis illi appropriato, & qualia uasa pertineant ad propositum, ut artifex perficere possit suam operationem. Secundo, quæ res præparandæ sunt, ut ex simplicibus seu commixtis uerum Solem uel Lunam generare ualeat cum splendore. Tertio narrabimus illa quę perfici possunt cum alteratiuis, & quę naturaliter alterantur cum complemẽto totali, Et modum permiscendi cum proportione debita, & cum

وثيقـــة تاريخية تثبـــت كون جابـــر مســـلم الأصل.
المخطوط الموجود في جامعة بولونيا يحمل رقم (٧٥٦٤٤٨).

إن كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد الذي تم طبعه في عام ١٤٩٠م علي وجه التقريب يعتبر للرحلات البحرية كنزا ثمينا ففيه بيان للأمور التي لا بد من معرفتها لأي ربان سفينة وكذلك فيه معلومات عن كيفية السيطرة علي المسائل والمشكلات المحتملة خلال الرحلات البحرية. والرحلة للمناطق الساحلية كم تكون مختلفة عن الرحلة البحرية في السماء المفتوحة وكذلك لا بد من معرفة أن الرحلات من شمال أفريقيا إلي اندونيسيا حيث تكون الرياح الموسمية مختلفة وينبغي الخوف باستمرار من العواصف والأعاصير البحرية متي وأين وكيف تأتي فجأة ومن ثم كيف يواجهها ربان السفينة. إن كتاب الفوائد ليس بتجربة شخص واحد بل جُمعت فيه عصارة تجارب أجيال وراء أجيال وابن ماجد هذا كان قد احترف فن الملاحة كإرث إذ كان أبوه قد ترك له في هذا المجال الكتب الكثيرة الشائعة في زمنه بالإضافة إلي تجاربه الخاصة عن الملاحة. والآن بعدما توفر لشاعر وكاتب كل هذا الميراث بالإضافة إلي التجارب البحرية جاء في حيز الوجود كتاب الفوائد، وكل من يتصفح هذا الكتاب يزداد اندهاشا بأن العهد الذي كانت فيه مصنفات موسوعية موجودة ووقتما كان التجار المسلمون مشغولين في شئون التجارة مع سفنهم من اندونيسيا إلي سواحل أفريقيا وكان هذا العمل للبحارة المسلمين شيئا عاديا ففي ذاك الوقت خرج فاسكو دي جاما لاكتشاف أي طريق بحري؟ هذا الاكتشاف كان مهما بكل تأكيد للبرتغاليين قليلي الخبرة لكن لا مجال لرؤيته كحدث






صورة الغلاف لكتاب الصناعة الطبية في نسخته اللاتينية.



عالمي. راجع: شهاب الدين أحمد بن ماجد، الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، مخطوط رقم ٦٩٢٥٥٨٤٥١، مكتبة كانجريس.

(158) J. M. Roberts, The Triumph of the West, London, 1985, pp.175-194.

(١٥٩) في أواخر القرن الخامس عشر صدر من البابا ثلاثة مراسيم وكان تأثيرها بعيد الأثر كما كانت مروعى فالمرسوم الأول الذي صدر عام ١٤٥٢م الذي يسمي "دم ديفرساس" فتطبيقا لهذا المرسوم عُين ملك البرتغال ألفونسو الخامس من البابا نقولا الخامس أن يقوم بالتشديد علي ساراسان (المسلمين) واللادينيين ويسلط عليهم نوعا من العبودية الأبدية والمرسوم الثاني قام بدور كبير في إباحة تجارة الرق الشنيعة في غرب أفريقيا علي أيدي البيض وحسب المرسوم الثالث للبابا نقولا الخامس الذي صدر في عام ١٤٥٥م تم منح إذن عام علي أن يتم استعباد الناس غير المسيحيين جهارا نهارا في مناطق أفريقيا وأمريكا وكذلك يتم احتلال مناطقهم. وفي عام ١٤٩٣م أقنع ورغَب البابا ألكسندر السادس أسبانيا كلها أن تقوم بنشر الإيمان والثقافة بين السكان المحليين في الدنيا الجديدة وهي أمريكا، فهذه القرارات الصادرة واحدة تلو الأخري

مهدت الطريق فيما بعد للاستعمار الغربي ثم بدأ اضطهاد الناس بأيدي الناس بشكل لا يمكن تخيله لأي شخص متحضر. وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر أصبحت تجارة الرقيق تجارة عالمية وتم جلاء البلاد من سكانها الأصليين.

وانظر لمزيد من التفصيل في هذا الشأن إلي: نص Dum Diversas: European Treaties bearing on the History of the United States and its Dependencies to 1648, Frances Gardiner Davenport, editor, Carnegie Institution of Washington, 1917, Washigton, D.C., pp. 20-26.



النسخة اللاتينية من كتاب الرازي.
(والمترجم: جيرارد أوف كريمونا، القرن الثالث عشر الميلادي).

(١٦٠) Charles R. Boxer, The Portoguese Seaborne Empire, 1415-1825, London, 1969, pp.22-3.

(١٦١) للمزيد من التفصيل راجع:

Janet L. Abu-Lughod, Before European Hegemony, Oxford, 1989, pp.19, 209, 258, 363.

التصور الأسطوري لفاسكو دي جاما كمؤسس للحضارة الجديدة هو من إنتاج انطباعات العالم الغربي المقبولة شعبيا وفي كتب أهل أوروبا نفسها شهادات ودلائل علي أن فاسكو دي جاما حينما انطلق نحو رحلته البحرية فهو كان يبحر علي الطرق المألوفة حيثما كان البحارة العرب يقطعون رحلاتهم البحرية ذهابا وإيابا وفاسكو دي جاما عندما وصل إلي الهند في عام ١٤٩٨م واجه حضارة كان مقارنة بالبرتغاليين أسبق بكثير وفي النهاية كيف نستطيع صرف النظر عن هذه الحقيقي وهي أن ملك البرتغال جواو الثاني كان قد أرسل "بيرو داكوفيلا" إلي رحلة للهند فبعد العودة من رحلته اندهش من أن كل ما شاهده في المرافيء الهندية جعل عقله يطير وفقد صوابه لأن صوامع التجار العرب كانت ممتلئة بالأمتعة المختلفة. راجع:

Joseph Desomogyi, A Short History of Oriental Trade (Hildeshei: George Olms Verlagsbuchhandlung, 1968) p.83.



حينما كان المسلمون علي معرفة بأهمية الآية الكريمة "وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد".
في فتح القسطنطينية كان قد أُطلق مثل هذا الصاروخ علي مسافة كيلومترين وهو يزن ستة أطنان من السلاح الثقيل البارودي.
بسبب هيبة الأتراك العسكرية كان يسمي هذا النوع من السلاح بقاذفة القنابل التركية.

بل أن فاسكو دي جاما حينما وصل إلي مدينة كاليكوت الهندية في عام ١٤٩٨م مع أمتعة من السكر والزيت والأقمشة فبعدما ألقي النظر عليها الملك المحلي بدأ يضحك وأخبر التجار العرب الموجودين هناك أنه لم يكن لدي هؤلاء البرتغاليين شيء جديد تحتاجه الهند أو يُحسب هؤلاء تجارا بالنظر إلي هذه الأمتعة العادية. وما العجب أن يكون هؤلاء لصوصا جاءوا في زي التجار. انظر لمزيد من التفصيل إلي:

Joseph Needham in Mansel Davies, A Selection from Writings of Joseph Needham (Lewes, Sussex: The Book Guild, 1990), p.176.

(١٦٢) راجع:

Fuat Sezgin, Jabir ibn Hayyan, Texts and Studies, Vo. I, (Natural Sciences in Islam, 690, Frankfurt, 2002.

(١٦٣) راجع:

McLean, Adam, The Book of the Composition of Alchemy. Glasgow, 2002, p.3; Ruska, Julius, Arabische Alchemisten, reprint, 1967, p.48.

(١٦٤) كلمات فرانسيس بيكون الأصلية هي:

The sciences which we possess have been principally derived from the Greeks, for the additions of the Roman, Arabic or more modern writers, are but few and of small importance, and such as they are, are founded on the basis of Greek inventions. (Novum Organum, p.332)

(١٦٥) الشخص الذي عرفت الغرب منه منهج المشاهدات والملاحظات والتجارب هو روجر بيكون وليس فرانسيس بيكون (١٢٩٢م-١٢١٤م) وعصره يرجع قبل ثلاثمائة وخمسين سنة وقد تحدث في كتبه الثلاثة

Opus Majus, Opus Minus,

عن هذا المنهج بقدر كبير من التفصيل. وكان منهج روجر العلمي هذا نتيجة للكتب العربية المترجمة إلي اللاتينية وظل منهمكا في هذه الكتب طوال عمره وقد ذكر في كتاب أنه صرف علي هذه الكتب اللاتينية أموالا كثيرة:

Opus Tertium

I sought the friendship of all wise men among the Latins; and I caused young men to be trained in languages, in geometrical figures, in numbers, in the construction of tables, in the use of instruments, and in many other necessary things... During this time I spent more than two thousand pounds in those things, and in the purchase of books and instruments.

ومثل أساتذته العرب (المسلمين) كان روجر متواضعا في موضوع العلم وحسب فكره فإن الوصول إلي آخر محطة للعلم والمعرفة بعيدة المنال لأن العلم الحقيقي عند الله وحده:

It is certain that never, before God is seen face to face, shall a man know anything with final certainty. It is impossible therefore for a man to attain perfect knowledge in this life, and it is exceedingly difficult for him to attain imperfect truth, and he is very prone and disposed toward whatever is false and empty; wherefore man ought not to boast of his knowledge, nor ought anyone to magnify and extol what he knows. For his knowledge is small and of little value in comparison with what he does not understand, but believes, and still smaller in comparison with what that of which he is ignorant and does not know either by faith or knowledge.

لكن ليس معني ذلك أن يبتعد الإنسان عن عملية البحث والاستكشاف ويصبح تابعا مهملا للقدماء فحسب فليس هناك شيء أسوء من أن يظل الإنسان متشبثا بالاكتشافات القديمة ولا يبحث عن الطرق الحديثة فعلي الإنسان أن يتحاشي أربعة أشياء لأنها تكون عموما عائقا في البحث عن الحق. أولا تقليد الأسلاف أي النظر إلي الشيوخ أو الأساتذة كآخر سند وثانيا آثار العادات والتقاليد وثالثا التعصبات العمياء ورابعا عدم الاعتراف بجهله وقلة معرفته ومن أجل ذلك يستعيبون كثير من الناس بإبداء الرأي عن العلم اللاضروري. وفي "أوبس مجوس" ذكر روجر بالتفصيل فائدة هذا المنهج للوصول إلي حقيقة الأمر. يقول:

For there are two modes of acquiring knowledge, namely, by reasoning and by experience. Reasoning draws a conclusion, and makes us grant the conclusion, but does not make the conclusion certain, nor does it remove doubt so that the mind may rest on the ituition of truth, unless the mind discovers it by the path of experience… Aristotle's statement, then that proof is reasoning that causes us to know is to be understood with the proviso that the proof is accompanied by its appropriate experience, and is not to be understood as the bare proof. Reasoning does not suffice, but experience does… He therefore who wishes to rejoice without doubt in regard to the truth's underlying phenomena must know how to devote himself to experiment.

ونتيجة لهذا الفكر العلمي والاستنباطي لبيكون ولد في الغرب جيل من أهل الحكمة الذين كانوا يحسبون لزاما عليهم أن يضعوا العلم علي ميزان التحليل والتمحيص وأن يتم قياسه باستمرار علي المشاهدات والتجارب علي عكس معتقدات الكنيسة مسلمة الثبوت. وروجر بيكون نفسه تعرض للسجن والقيود لمدة



أول مستشفي في الغالب والذي أقيم في إيطاليا
بعدما جاءت تحت سيطرة الحضارة الإسلامية.

سبعة عشر عاما وعندما أطلق سراحه قبل موته بقليل وهو في سن السابعة والسبعين فذلك لأن منهجه المبني علي المشاهدات والملاحظات كان قد انتشر، والابتعاد عن هذا الأسلوب في البلاد كان قد أصبح مستحيلا ونجاح وتقدم العلوم الاستكشافية يرجع إلي هذا الطراز الفكري. علي سبيل المثال ليوناردو دافينشي الذي ينادي باتباع هذا المنهج:

In undertaking scientific investigation I first plan a few experiments, because it is my design to base the problem on experience, and then to determine why the bodies in question are considered to act in a given manner. This is to method that one must adopt in all researches.

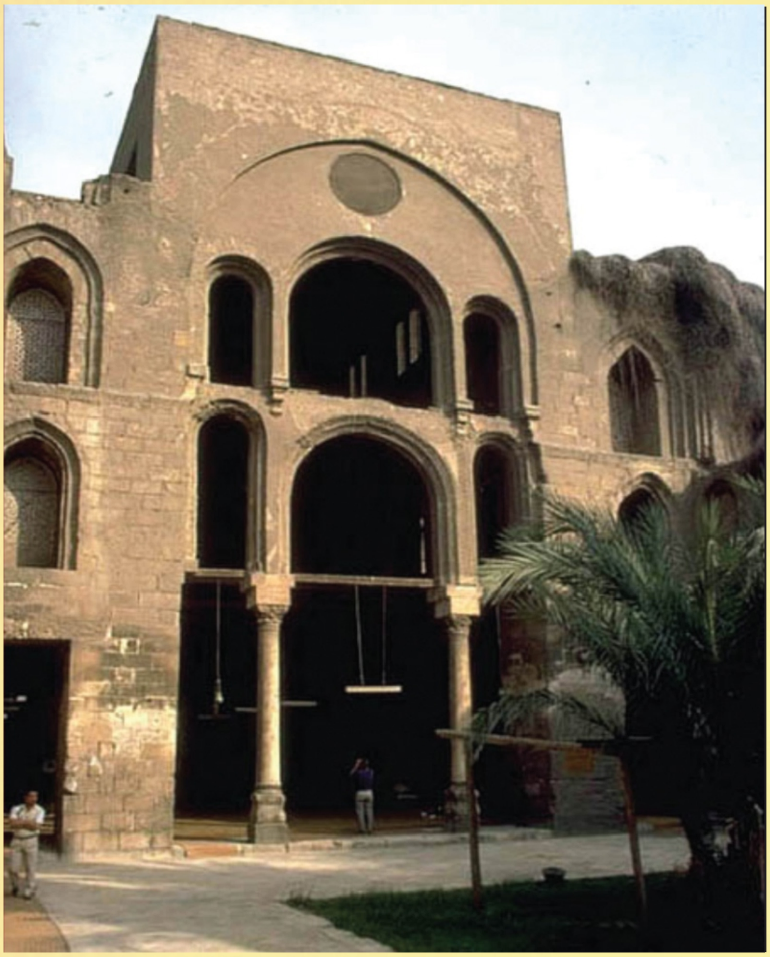
(١٦٦) ومن هو أكبر مغن للملحمة الغربية بنفس القوة والصراخ يغني لقداسة فرانسيس بيكون. علي سبيل المثال كتب "ميكالي" في مقالاته:

No book ever made such a revolution in the mode of thinking, overthrew so many prejudices, introduced so many new opinions… the glance with which he surveyed the intellectual universe reassembled that with which the archangel, from the golden threshold of heaven, darted down into new creation.

(١٦٧) لاحظ كلمات "إدموند" الآتية:

Who is there that upon hearing the name of Lord Bacon does not instantly recognize everything of genius the most profound, everything of literature the most extensive, everything of discovery the most penetrating, everything of observation of human life

Binding Side



: صورة للمستشفي الذي أقامه السلطان قلاوون في القاهرة في القرن الثالث عشر الميلادي.

the most distinguished and refined. (The Works of the Right Honorable Edmund Burke, vol.11, London, MDCCCLXXXVII)

(١٦٨) David C. Lindberg S. Westman, Reappraisals of the Scientific Revolution pages XVII

(١٦٩) المرجع السابق

(١٧٠) المرجع السابق

(١٧١) علي سبيل المثال فإن "توماس سبرات" في تاريخ المجتمع الملكي في عام ١٦٦٧م ذكر هذا الرأي وهو أن مؤسسي العهد الجديد لم يكتفوا بالخلاف مع القدماء بل حددوا لأنفسهم منهجا سديدا حيث يأتي الشعور باليقين عن طريق التجربة. راجع: “Latitudinarianism and the ‘Ideology’ of the Early Royal Society: Thomas Spratt’s History of the Royal Society (1667) Reconsidered.”in Michael Hunter, Establishing the New Science: The Experience of the Early Royal Society, Woodbridge, 1989.

(١٧٢) Joseph M. Levine, “Ancients, Moderns and History: The continuity of English Historical writing in the later seventeenth century”, in Studies in Change and Revolution: Aspects of English Intellectual History, 1640-1800, ed. Paul J. Korshin, Menston, 1972, pp.43-75.

(١٧٣) مؤرخو الغرب والمحللون ظلوا مخدوعين منذ البداية في التحليل الصحيح لمعرفة أسباب تقدم الغرب الفجائي في القرن التاسع عشر. السبب الأول كان هو المصطلحات المضللة التي كان المؤرخون قد أسموها

لفهم مختلف العصور بالنهضة والحركة الإصلاحية وعهد التجليات والثورة العلمية وكانت تُحسب إنتاجا غربيا خالصا وكان يقال أنها بدأت عام ١٤٩٢م أي من الرحلة البحرية لكولومبوس وكان الهدف بهذا الشكل المبهم الإشارة إلي سقوط غرناطة أيضا ونال هذا الفن التاريخي بالتدريج اعتبارا حتي المستشرقة "كارن آرمسترونج" عندما بدأت تأليف كتابها الشهير "الحرب من أجل الله" بدا لها عام ١٤٩٢م نقطة تاريخية وطبيعية غير أن أي شخص له إلمام بسيط بالتاريخ يعرف جيدا أن وهم تشكيل أوروبا الجديدة في الأيام الأخيرة للقرن الخامس عشر لم يخطر ببال أحد حتي في ثنيا خيال شخص عاقل بالغ لسن الرشد. ثم قول "ماكس فيبر" أن الذهن الغربي بسبب حبه للعقل الطبيعي وعاطفة الاكتشاف تسبب في قيام حضارة جديدة. في الواقع هذا بيان لعين مجبرة مثل الحصان المروض الذي لا يستطيع إدراك الحقيقة مباشرة وذلك بسبب وضع عصابة علي العينين بل يحمل إدراكا ساذجا. "إيريك جونز" ألف لمثل هؤلاء الساذجين كتابا مهما ومثيرا باسم

The European Miracle (1981)

(١٧٤) Molefi Kete Asante, The Afrocentric Idea, Philadelphia, 1987, p.4.

(١٧٥) راجع كتاب

W.W. Rostow: How it all Began (1975) and Stages of Economic Growth (1962)

(١٧٦) راجع:

Carlo M. Cipolla, Public Health and the Medical Profession in the Renaissance, 1976, p.276.

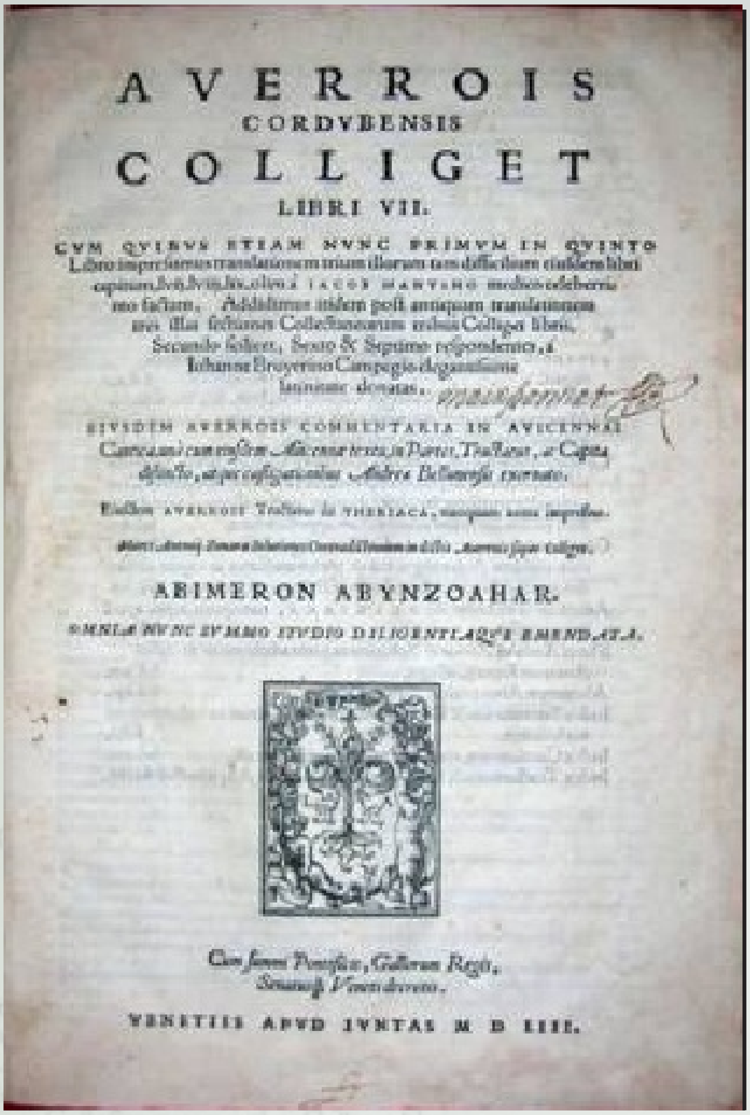
(١٧٧) إن فن وضع الخريطة الجغرافية لميركاتور (٩٤-١٥١٢) قد أدي دورا رئيسا لوضع الغرب في مكان بارز علي المنصة المركزية للعالم. وفي القرن السادس عشر حينما انتشرت المطابع وزاد اهتمام الغرب بالرحلات البحرية اقتضت الضرورة علي نطاق واسع بطباعة الخرائط المفصلة وكان طبع الخرائط يقتضي أن يتم رسم الكرة الأرضية البيضاوية علي الصفحات المسطحة من الأوراق. ففي نقل الحقائق البيضاوي علي الأوراق المسطحة لم يراع "ميركاتور" الحقائق الجغرافية الحقيقية. ربما يكون قد واجه أن مكان البلد تتعين بخط الاستواء لكن ليس هناك أصول ومباديء حتمية لتعيين بداية طول البلد ثم أن هذه الخرائط كان قد رسمها لتوفير التيسيرات لأهل الغرب البحرية ولذلك كان طبيعيا أن يبدأ هذا الترسيم من أوروبا نفسها. لكن وراء هذه المحاولة تم مسخ الحقائق الجغرافية بطريقة بشعة لأن الحقائق الجغرافية تقول أن المناطق اليابسة في جنوب الكرة الأرضية ضعفين في مقابل الكرة الأرضية الشمالية لكن ما نراه في خريطة



منظر بهيج لفن التصوير لدومينيكو دي بارتولو (١٤٤١م-١٤٤٢م) ويُري الحماس الزائد في مستشفي القديسا ماريا.



"ميركاتور" أن النصف الشمالي بات ضعفين في مقابل الجنوبي فكانت النتيجة أن اسكندنافيا التي هي في الواقع تحمل ثلث مساحة الهند بدت في خريطة ميركاتور ضعفي مساحة الصين وكذلك جرينلاند التي تقدر مساحتها بأقل ١٤ ضعفا من قارة أفريقيا نراها في خريطة ميركاتور أن مساحتهما متساويتان تقريبا. وعندما يصبح تحطيم الحقائق العلمية ممكنا بهذا الشكل فمن ذا الذي يستطيع منع تقرير أوروبا قارة وجعل الهند شبه قارة. والطامة الكبري أن هذه الخريطة اللاعلمية هي التي تحكم العالم منذ فترة طويلة من المؤسسات التعليمية إلي المراكز البحثية تحتكم إلي هذه الخريطة الافتراضية. في عام ١٩٧٤م حاول "آرنو بيترز" كشف النقاب عن هذه الخدعة وتمزيقها بشكل منظم وقام بترسيخ خريطة جديدة وضعت فيها كل دولة حسب مساحتها الجغرافية الحقيقية فكانت النتيجة أن أصبح الشمال قزما في مقابل الجنوب وتحطم تسلط الغرب ومركزيته الجغرافية وطلاسمه للأبهة تحطيما لكن آرثر روبنسون الذي كان له أثر ورسوخ في ترسيم الخرائط رفضها قائلا بأن خريطة بيترز هذه لا تعطي انطباعا حسنا وحسب قول آرثر فإن هذه الخريطة تبدو مثل الملابس الداخلية المبتلة بالماء وقبيحة المنظر. قد علقها في خارج المنزل للتجفيف


AVERROIS
CORDVBENSIS
COLLIGET
LIBRI VII.
ABIMERON ABYNZOAHAR.
VENETIIS APVD IVNTAS M D LXII.

غلاف الكتاب الطبي الدراسي المعتمد علي تراجم ابن رشد اللاتينية في القرن السادس عشر الميلادي.

ومن الطبيعي كيف يتناول أي شيء يسبب اقتلاع جذور الأسطورة التي لها انتشار واسع في الغرب قبولا. فبم يمكن أن نسمي ذلك غير العناد والغش إذ تتمثل خريطة ميركاتور هذه للدنيا الجديدة كمرجع أخير في عصر إدراك الحقائق العلمية.

(١٧٨) الإشارة هنا إلي كتاب
Keren Wigen / Martin Lewis, The Myth of Continents (1997)

(١٧٩) Andre Gunder Frank, ReORIENT: Global Economy in the Asian Age, Berkeley: University of California p.11, Press, 1998.

(١٨٠) K. N. Chaudhuri, "Reflections on the Organizing Principle of Premodern Trade" in The Political Economy of Merchant Empires, James D. Tracy (ed.), p.430.

(١٨١) راجع:
Paul Bairoch, Victoires et deboires: Historie economique et sociale du monde de XVIe siècle a nos jours. 3 vols. Paris, 1997: vol.2, pp.517-37.

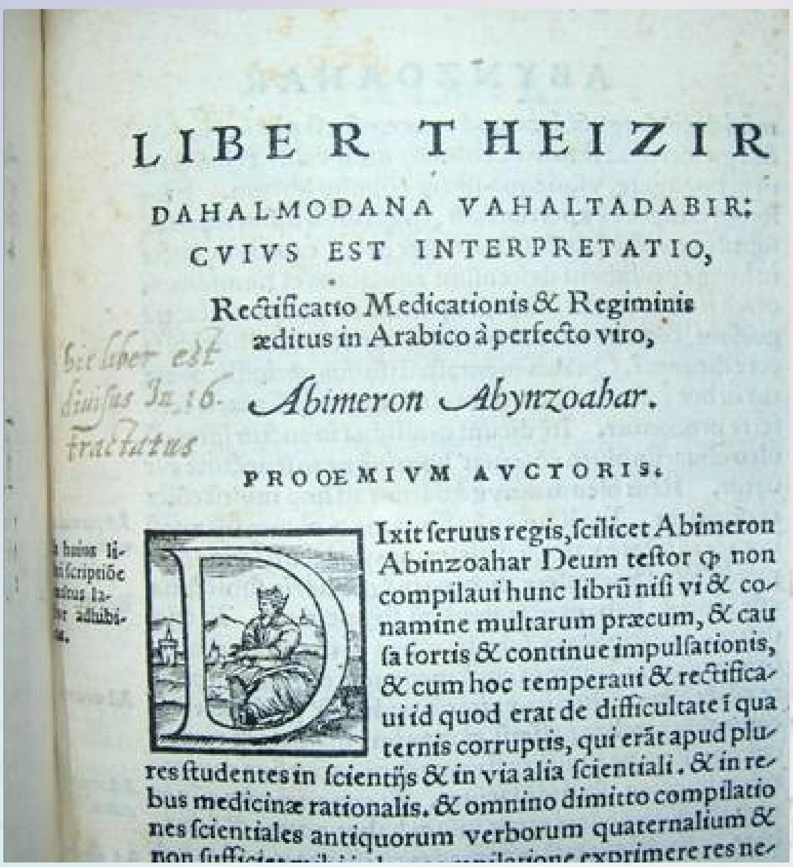
(١٨٢) قام "فيليب كورتن" باقتباس هذا الكلام ل"ويليام فوكنر" في كتابه. راجع:
Philip D.Curtim, The Image of Africa (Madison: University of Wisconsin Press, 1964), pp.65-6.

(١٨٣) راجع:

Ronald Hyam, Britain's Imperial Century, 1815-1914: a Study of Empire and Expansion, London, 1976, p.81.

(١٨٤) Raghavan Iyer, The Glass Gurtain between Asia and Europe (London: Oxford University Press, 1965), p.20.

(١٨٥) إن الغرب وضع تصورا للشرق بحيث يسمح هذا الفكر للغرب بالسيطرة عليه وتصوير النوايا الاستعمارية بأنها علي حق وحسب هذا الفكر أصبح الغرب ضد الشرق وكل خير أصبح لصيقا بالغرب وكل شر أصبح جزءا لا يتجزأ من الشرق وفيما بعد أصبح الإنسان الغربي الأبيض متفوقا علي الإنسان الشرقي وأقيمت دعاية كبيرة لصالحه إذ قيل عنه أنه محب للعقلانية وهو متصف بصفات أخري مثل التحمل والتدبر والتنوير الفكري والأمانة والحرية الفكرية والتنبؤ بالمستقبل حتي أن أهل الشرق آمنوا بمواهبه الإبداعية ورسخ هذا الفكر في قلوبهم وعقولهم وعاطفتهم اللاشعورية إلي أنهم بدأوا يحسبون أنفسهم أقل من الشعوب الأوروبية وألسنة حكمائهم تكون رطبة اللسان بمدحهم وتوصيفهم وتلقي اللعنات والطعنات في حق بني وطنهم غير أن قبل نصف قرن من الزمان أثبت أبناء الشرق في مدارس الغرب جدارتهم وكفاءتهم بل ساهموا في لمعان حضارتهم.


LIBER THEIZIR
DAHALMODANA VAHALTADABIR:
CVIVS EST INTERPRETATIO,
Rectificatio Medicationis & Regiminis
æditus in Arabico à perfecto viro,
Abimeron Abynzoahar.
PROOEMIVM AVCTORIS.
Ixit seruus regis, scilicet Abimeron Abinzoahar Deum testor ꝙ non compilaui hunc librũ nisi vi & coactione multarum præcum, & causa fortis & continue impulsationis, & cum hoc temperaui & rectificaui id quod erat de difficultate ĩ quaternis corruptis, qui erãt apud plures studentes in scientijs & in via alia scientiali. & in rebus medicinæ rationalis. & omnino dimitto compilationes scientiales antiquorum verborum quaternalium &

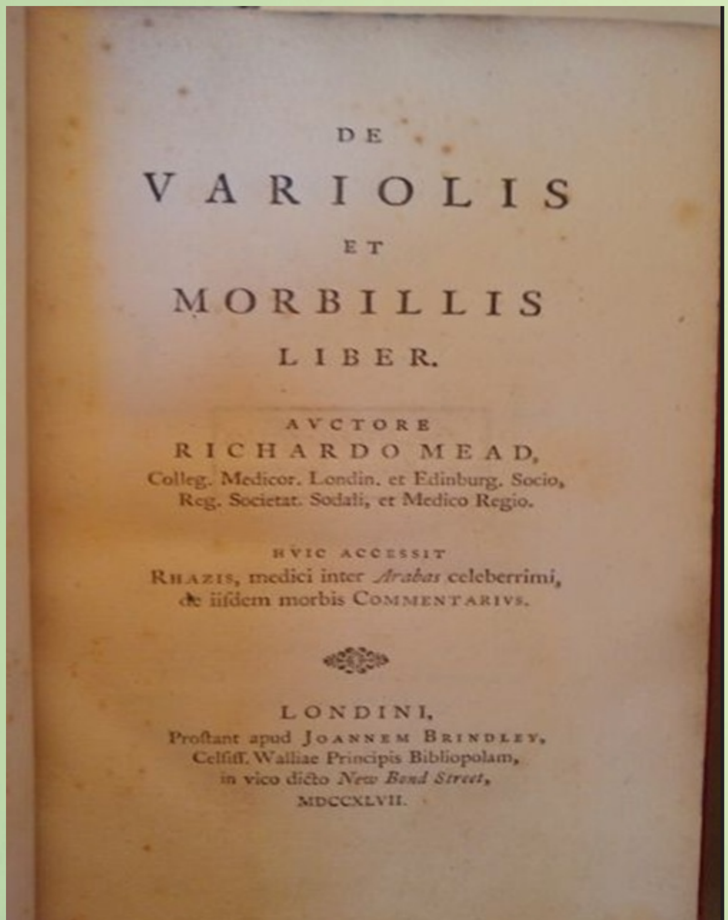
الصفحة الأولي لكتاب عام ومقبول مشتمل علي التراجم اللاتينية لابن زهر في أوروبا القرن السادس عشر الميلادي.

(١٨٦) لا يمكن وصفه بالمصادفة أن القرن التاسع عشر الذي هو عصر تشكل نهضة الغرب

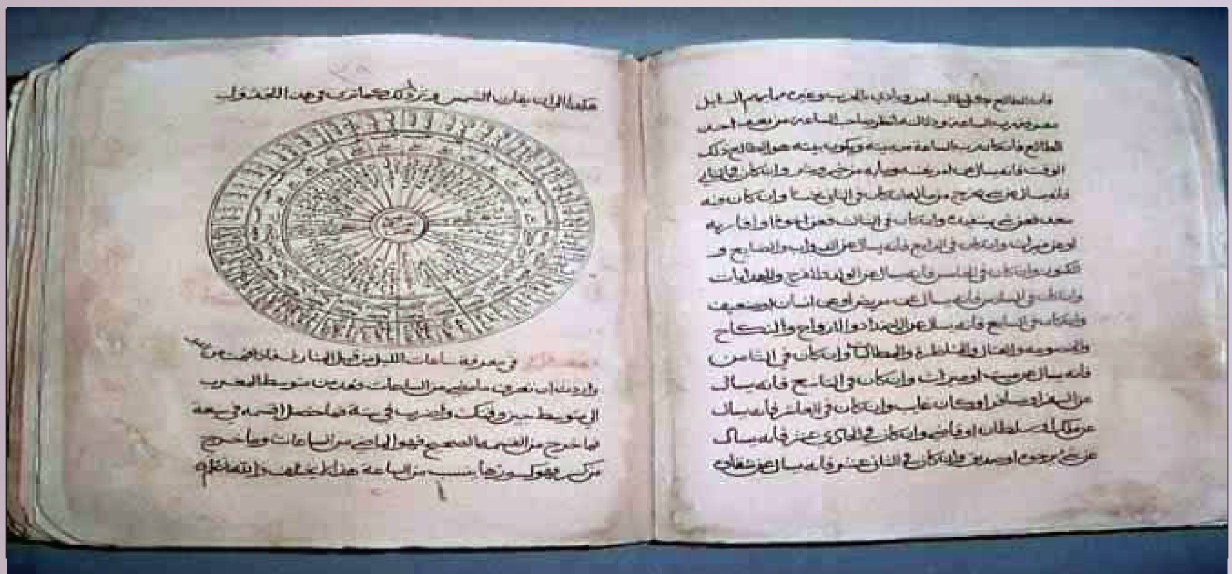


بدأت في هذا العصر نفسه العلوم الاجتماعية بصورة منتظمة وإلي الآن كان الشرق يوجه إليه بشكل احتجاجي الغيظ والغضب والعناد والحسد والنفور والآن بدأت تتوفر لديه أساسيات العلم والتعليم. سواء كانت القضية متعلقة بعنصرية داروين أو نحت وقطع علم الأنثروبولسوجيا فكل هذه الخدمات كانت في الواقع من أجل إثبات التفوق الطبيعي للجيل الأبيض. وفيما بعد جاءت الكتب من أمثال صعود الغرب المسيحي لإثبات هذه الفكرة وإقامة الأدلة عليها وبدأ الناس يظنون أن هذه الدعاية المضللة حاصلة علي نوع من التحليل والتمحيص العلمي.

(١٨٧) خبير علم الاجتماع الألماني وكذلك "ماكس فيبر" يُنظر إلي كل منهما في الأوساط العلمية نظرة احترام وتقدير بسبب تحليلاتهما وتمحيصاتهما الافتراضية لكن لو استعرضنا وتفحصنا القضية بشيء من العمق فسنري هنا أيضا أنهما في حلل العلم والتحقيق في الظاهر لكن العقل الغربي المادح للغرب دائما هو المسيطر عليهما أيضا. وحاول فيبر البحث عن رد لهذا السؤال وهو ما السبب الحقيقي في أن الرأسمالية الحقيقية أصبح ظهورها ممكنا في الغرب لكن الشرق حسب قوله ظل معرضا للفقر والإفلاس. أولا هذه الفرضية خاطئة تماما وتدل علي عدم معرفة فيبر بالمرة عن التاريخ العالمي وقد سبق لنا أن ذكرنا عن المصادر الغربية نفسها أن أواخر القرن الثامن عشر أو قل علي سبيل الاحتياط حتي ١٧٧٦م وذلك حينما ألف "آدم سميث" كتابه "ثروة الأمم" فكان الشعور برخاء الشرق واضحا كل الوضوح في أذهان المفكرين الغرب ودول مثل الهند والصين ومدن ألف ليلة وليلة مثل القاهرة وبغداد كانت مشهورة


DE
VARIOLIS
ET
MORBILLIS
LIBER.
AVCTORE
RICHARDO MEAD,
Colleg. Medicor. Londin. et Edinburg. Socio,
Reg. Societat. Sodali, et Medico Regio.
HVIC ACCESSIT
RHAZIS, medici inter *Arabas* celeberrimi,
de iisdem morbis COMMENTARIVS.
LONDINI,
Prostant apud JOANNEM BRINDLEY,
Celsiss. Walliae Principis Bibliopolam,
in vico dicto *New Bond Street*,
MDCCXLVII.

غلاف كتاب "ريتشارد ميد" الذي يحمل ذكرا للرازي في الاقتباس والاستفادة.



**كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد لأسد البحر ابن ماجد المطبوع عام ١٤٩٠م.**



ومعروفة في الغرب بهيبتها وجلالتها، ثم أن هذا السؤال لا محل له من الإعراب أن الغرب كيف وصل إلي محطة الرأسمالية عابرا باليونان أو الروم والسؤال الذي يفترض أن يثار هو كيف أصيبت أسطورة الشرق بالانحطاط فجأة في القرن التاسع عشر ولماذا فشل في مواجهة اعتداءات الغرب وكذلك في إفشال عزائمه الاستعمارية البغيضة ثم كيف أصبح ممكنا للشرق الإسلامي الذي كان متمركزا علي منصة السيادة العالمية بعد ظهوره باستمرار وتراجم كتبه هي التي علمت وعرفت العالم بالسلوك الاستكشافي المبني علي العقل والقلب معا وكانت أوروبا القرن السادس عشر والسابع عشر مرتعشة بقوته العسكرية وكان أهل الغرب يسمونه "التهديد التركي" وجيوشه كانت تطرق أبواب فيينا وظلت هذه الحالة حتي الربع الأخير من القرن السابع عشر فهذا الشرق نفسه كيف أصبح عاجزا فجأة في القرن التاسع عشر وأصبح الأمر سهلا أن تقتلع حفنة من الجيش من الجذر وتحتل هذه الشعوب. لو كان قد وُضع السؤال بهذه الطريقة لما كان فيبر في حاجة للدخول في التفاصيل المملة وهي كيف بإقامة المؤسسات العامة والخاصة وكل علي حدة يصبح الطريق ممهدا لقيام النظام الاقتصادي الجديد وكيف أن وجود المؤسسات العقلانية يكون سببا في توفير فرص العمل المناسبة للانتعاش الاقتصادي.

في كتبه The Protestant Ethic and Spirit of Capitalism و The Religion of China ذكر فيبر عقلانية الإنسان الغربي متخذا أسلوب الحب والهيام وأسلوب الوعظ والنصح لكنه لا يقدم الرد علي هذا السؤال وهو ما هي علة عقلانيتهم؟ ولا يوفر دليلا تاريخيا لهذه الفرضية وهي أن الإنسان الغربي بسبب عقلانيته الإبداعية كان مؤهلا للحصول علي مكانة خاصة ولو قبلنا صحة هذه الفرضية ففي هذه الحالة

أيضا لن تنحل هذه العقدة وهي أنه مادام الأمر كذلك فأين كان هذا التميز الطبيعي لإنسان الغرب طوال ألف سنة من الظلام الدامس وكيف ظل قاصرا عن إظهار معجزاته وكراماته.

انظر لمزيد من المعلومات عن أسلوب تحليل فيبر إلي:

Randall Collins, Weberian Sociological Theory, Cambridge, 1986, p.23.

وللمزيد يمكن الاطلاع علي كتبه الأخري أيضا:

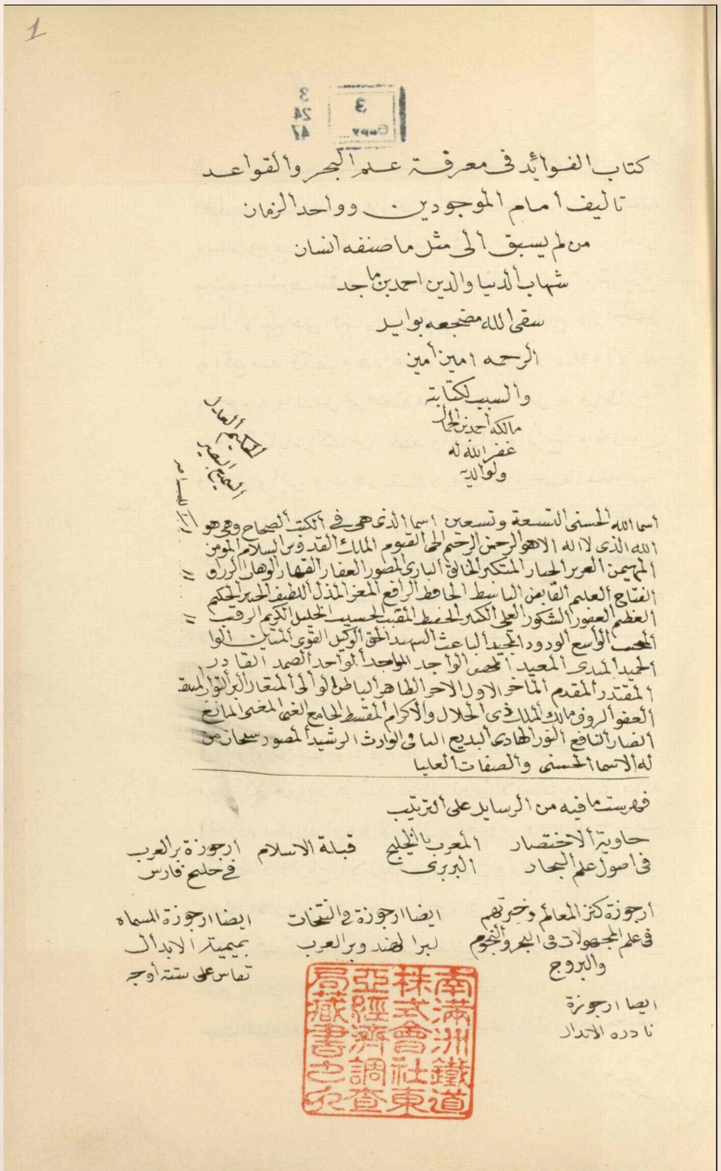
The Religion of China, New York, 1951.

The Religion of India, New York, 1958.

(١٨٨) Karl Marx and Friedrich Engels, The Communist Manifesto, Harmondsworth, 1985, p.84.

(١٨٩) Karl Marx and Friedrich Engels, The German Ideology

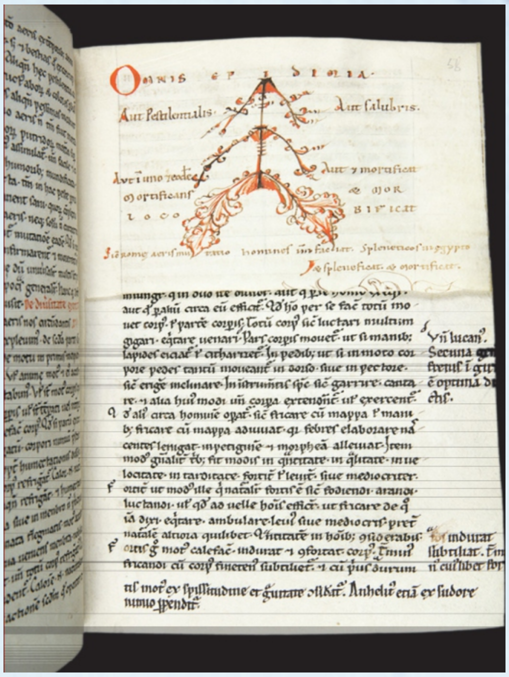
(١٩٠) Jerry Brotton, The Renaissance Bazaar: From the Silk Road to Michelangelo, Oxford University Press, New York, 2002, p.185.


كتاب الفوائد في معرفة علم البحر والقواعد
تاليف امام الموجودين وواحد الزمان
من لم يسبق الى مثل ما صنفه انسان
شهاب الدنيا والدين احمد بن ماجد
سقى الله مضجعه بوابل
الرحمة امين امين

كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد. تأليف ابن ماجد.

(١٩١) علي سبيل المثال "'إيريك جونز" في كتابه الشهير "المعجزة الأوروبية" المطبوع عام ١٩٨١م قام بالدفاع بكل قوة عن هذا الرأي وهو أن السر وراء تقدم أوروبا في الدنيا الجديدة هو أسلوبها الفكري والعقلي وعندهم البيئة مهيأة في مقابل آسيا وأفريقيا ويقدم إيريك عدد السكان القليلة أيضا كشيء إيجابي ولهذا السبب حسب قوله وجد لديهم رخاء ورفاهية ومازالت إلي الآن تعيش في رفاهية. في السنين الماضية ظلت الاعتراضات العلمية ذات الوزن الكبير علي وجهة نظر إيريك قائمة بل يمكنك أن تقول أن عددا جديرا بالذكر ظل يعتبر هذه الدعاية المتعصبة مغايرة للبحث العلمي.

علي سبيل المثال راجع:



الترجمة اللاتينية القديمة ذات الألف سنة للكتاب الشهير الكتاب الملكي في علم الطب لعلي بن عباس. وكان قد قام بترجمته قسطنطين الأفريقي. ولقد قامت المكتبة الوطنية لفنلندا في العام الماضي بطبعها بكل اهتمام. هذه الترجمة اللاتينية الجديدة لـ"أوتي كاليتو" قامت بتعريف الدنيا لأول مرة بكنز علمي قديم. وهناك أكثر من سبعين نسخة لاتينية لهذا الكتاب في مختلف المكتبات الأوروبية وكذلك يوجد هناك أكثر من سبعمائة مسودة للعلوم العربية أو الاستكشافية في مختلف مكتبات تمبكتو وحدها وهي في انتظار الطبع وما يوجد من مئات الآلاف من المسودات في مختلف أجزاء العالم الإسلامي لو جاء في حيز الوجود عشرها لكان كافيا لطرد الهواء من البالون الافتراضي الزاعم بأن العالم الجديد هو من بناء الغرب. بل الحق سيتغير في هذه الحالة رجحان تفكيرنا أيضا.

Abu-Lughod, J. Before European Hegemon: The world system A.D. 1250-1350, New York, 1989. Blaut J., “Colonialism and the Rise of Capitalism”. Science and Society vol.53, 260-296, 1492, New Jersy, 1992; Brading, D., and Cross, H., “Colonial Silver Mining: Mexico and Peru”, Hispanic – American Historical Review vol.52, 545-70; Frank, A.G., Capitalism and Underdevelopment in Latin America, New York, 1968.

(١٩٢) راجع:

Jerry Brotton, The Renaissance Bazaar, Oxford, 2002, p.180.

(١٩٣) ذكر الدكتور عبد القادر الجيلاني بشأن الهنود الحمر قصة طريفة. يقول: إن موسوليني (١٩٤٥-١٨٨٣م) وهو عضو في مجلس الشيوخ الإيطالي أخذه رئيس جامعة انجلترا الجديدة لزيارة المكتبة وكانت هناك النسخة النادرة للإنجيل التي كانت قد تُرجمت إلي لغة الهنود الحمر وطُبعت في القرن السابع عشر وذلك للذين كانوا في وقت ما سكان انجلترا الجديدة فموسوليني بعدما شاهد هذه النسخة النادرة فرح فرحا

شديدا وسأل رئيس الجامعة هل هذه النسخة نادرة الوجود حقا؟ قال رئيس الجامعة بكل فخر: الآن لا يمكن العثور منها في الكرة الأرضية علي أكثر من ست نسخ. بعدما سمع السيناتور الإيطالي هذا الكلام قال: إذن فكيف سيتمكن الهنود الحمر من قرائتها؟ رد رئيس الجامعة بسرعة: وأين هؤلاء الهنود الحمر؟ لم يبق منهم أحد فما فائدة هذا السؤال؟ قال الضيف الإيطالي: لماذا؟ أين ذهبوا؟ أصيب رئيس الجامعة بالفزع ثم توقف وقال: انقرضوا.

دكتور عبد القادر الجيلاني، الإسلام ورسول الإسلام والأسلوب الفكري للمستشرقين، لاهور، ٢٠٠٥م، ص٧٣.

(١٩٤) راجع: Jerry Brotton, The Renaissance Bazaar, Oxford, 2002, p.181.

(١٩٥) نفس المرجع ص١٨٢

(١٩٦) راجع:

Radell, D.R. (1976), "The Indian slave trade of Nicaragua during the 16th century". In The Native Population of the Americas in 1492 (W. Denevan, ed.)

(١٩٧) وقعت آثار فورية علي اقتصاد أوروبا بعد فتح أمريكا وحسب تقرير سري كان قد وصل إلي أوروبا في وسط القرن السابع عشر ١٨٠ طنا من الذهب وسبعة عشر ألف طن من الفضة ومن المحتمل أن تكون هذه الكمية أضعاف هذا الوزن. راجع:

Blaut, J.M., New Jersey, 1992, pp.38,39.



Binding Side

إن الذين يقومون اليوم بتأسيس جامعة حديثة عليهم الالتزام بأن يكون أساس الجامعة قائما علي الأيديولوجية الحياتية التي تدور حول دعوة القرآن للتسخير والاكتشاف؛ لأن أي جامعة مهما كانت شامخة في مظهرها وفي وفرة خدماتها إن لم تكن تحمل تصور الحياة الآفاقية القرآنية فهي لا تزيد عن كونها بمثابة مصنع للمنتجات المعرفية الخالية من الروح الأصيلة.



# مشروع تأسيس جامعة حديثة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن العقل المسلم اليوم أصبح مشوشا حيث سيطرت عليه الثنائية الفكرية ومر عليه ما يقرب من ألف عام ومن ذلك اليوم فكل الجهود التي بذلت لاستدراك وتقييم هذه الثنائية لم تفلح لعدة وجوه فهذا التقسيم الظاهري بين الدين والدنيا فرق الحياة الفردية والاجتماعية للمسلمين بحيث لا أحد يفكر حتي الكبار منهم بجمع هذا الشتات. عليك أن تتخيل هذه الحالة المأسوية. فالمجتمع الإسلامي منذ عدة قرون ينمو فيه الفكر الجديد والفكر القديم فأحدهما متخصص في العلوم الشرعية والثاني خبير بالعلوم الدنيوية ولا ارتباط بينهما بل كل واحد منهما يعد الآخر عبئا عليه فالأول إن كان قد احتكر الآخرة عن طريق علومه الشرعية فالآخر يظن نفسه سيدا في العلوم الدنيوية بسبب مهاراته وخبرته. هذان الجانبان المتخاصمان لا يعيشان في الدنيا منفصلين بسبب اختلافهما الفكري والأيديولوجي فحسب بل أن اللغة والثقافة والمجتمع والزي الخاص بكل هذه الأمور توضح حال الأمة التي وصفت بالبنيان المرصوص كيف تشرذمت وانقسمت إلي جزأين ففئة المحدثين تتهم العلماء التقليديين أن هؤلاء هم سبب انحطاط وزوال الأمة لأنهم حسب قولهم يولون الدبرعن كل جديد في هذه الدنيا المتغيرة دائما. أما أهل العباءة والجلباب فيشتكون من الطبقة الحديثة قائلين أن هؤلاء انحرفوا عن جادة الطريق وانحرافهم هذا نال قبولا واسعا من العامة ولهذا ابتعد المسلمون عن الطريق الصحيح المحدد من الله سبحانه وتعالي. وتبادل هذه الاتهامات بين الفئتين إن كان مستمرا منذ قرون فهو الآن علي أشده ولم يطرأ عليه أي تغيير كأنهما يقولان بلسان حالهما ما داموا لا يغيرون أنفسهم فكيف نغير وضعنا.

إن الأمة التي تواجه باستمرار أزمة فكرية داخلية وانفصل كل من وجودها الفكري والنظري وليس هذا فحسب فلقد تناحر أصحابها أنفسهم بين الحين والآخر فكيف يمكن أن يتوقع من هؤلاء إجراء عمل مؤثر ومتحد وحاسم ضد الجبهة الخارجية (عدوهم). إن تاريخ الأمم يشهد أن أول تحرك أساسي للتقدم أو الانحطاط ينبع من فكر الأمة الداخلي فإن لم يكن في بناء الأمة أي شرخ أو تصدع فلن يتسني للعدو أن يفرض نفوذه وسيطرته.

كل الجهود التي بذلت في الماضي لإحياء الأمة لم تكن مركزة علي سد فجوة الفرقة الداخلية وسببه أن تكوين جبهة ضد الفريق المخالف سهل ولن يكون الحصول علي الحماية صعبا في هذه الظروف الطارئة لكن علي العكس من ذلك إن الانتصار علي النفس ليس سهلا. فعلي الرغم من مرور مئات السنين علي انحرافاتنا الفكرية وتشرذمنا الداخلي يبدو لنا الآن كل هذا أمرا عاديا ولربما كبار المصلحين يعتقدون أن السلامة في السكوت وقبول الحالة كما هي. غير أن تقسيم المسلمين بين الشيعة والسنة وتعارك المذاهب الفقهية والنزاع المستمر بين العلوم الشرعية والعلوم الحديثة كلها تصيب الأمة في مقتل. ففي الواقع أنه ما لم تجر عملية جراحية لبتر أسس الاختلاف والانشقاق لا يمكن بأي حال من الأحوال أن ننهض من جديد بل نظل نبحث عن سراب وكل بشارة ببزوغ فجر جديد تكون بمثابة وهم ببداية صباح جديد.

في القرون الثلاثة الأولي للإسلام حينما لم تكن آذاننا مألوفة بسماع مصطلح العلوم الشرعية كانت الحركة العلمية الشاملة قد انتشرت في العالم الإسلامي ودروس حلقات المساجد والروايات اللطيفة للقصاصين ومناقشة الفقهاء والنكت الفكاهية للنحاة ومؤسسات الكتاب وحلقات المحدثين والخطوات الأولي للعلوم الاكتشافية والتي تحولت فيما بعد إلي مراصد كانت تعد جميع هذه الأنشطة فروعا طبيعية منبثقة من دائرة الفكر القرآني. الكل كان يكمل الآخر ولم يكن أحد يرفض الآخر وإن كانت الأصوات بدأت تتعالي بنشوب  أزمة جديدة بسبب انتشارالروايات غير الدقيقة للرواة القصاصين والروايات الموضوعة لنيل الشهرة. فلمواجهة هذه الحالة الناشئة وضع أهل العلم حسب إمكانياتهم أسسا ومقاييس لنقد الروايات والأثر لكن لم يخطر ببال أحد أن تسمي بعض العلوم علوما شرعية وتنال هذه العلوم قبولا تاما وتسمي بعض العلوم الأخري بغير الشرعية وينفر الناس منها لأن في ذلك الوقت كان العلم مصطلحا شاملا وكانت الحكمة ضالة المؤمن والمسلمون بسبب تفوقهم كانوا يعتقدون أن الحضارة الإنسانية والعلوم الأخري إرثهم بالكامل وبهذا المنظور الصحيح للأخذ والكسب أصبحوا سادة العالم في فترة قصيرة.

إن تقسيم العقل المسلم الذي نراه ونلمسه اليوم بين علوم شرعية وعلوم حديثة ظهر بشكل جلي وبصورة منظمة عن طريق مدارس بغداد النظامية وإن كان قد بدأ هذا التقسيم في مصر أيام الفاطميين عندما استشعر راغبو الخلافة من الفاطميين ضرورة إعداد جماعة تمهيدية  تقوم بدور الدعاية لهم من الناحية النظرية والسياسية وإقامة الأدلة والبراهين بلسان الدين لإثبات أن الفاطميين أحق بالخلافة. فهذه السياسة الاستحقاقية علي لسان الدين بعدما أصبحت مؤثرة اضطرت العاصمة العباسية ببغداد إلي إقامة مؤسسات لأصحاب الشرع في شكل مدارس نظامية. ومدعو الخلافة من العباسيين لم يبدأوا الدعاية الباطلة ضد الفاطميين وإصدار سلسلة من الفتاوي المضللة بل كلفوا علماء زمانهم بشكل منظم علي إنجاز أمر آخر ألا وهو أن يبدأوا بإدخال الشكوك

والشبهات والملابسات علي حسب ونسب الفاطميين وألا يتركوا أي ثغرة لإبطالهم إلا وأن يستغلوها ضد الفاطميين وفضائح الباطنية للإمام الغزالي خير دليل علي هذا الأمر. والدعاية السياسية حينما ارتدت ثوب الدين فكان من أضرارها أن المواهب الكبيرة وأصحاب العلم والعقل انشغلوا بالنزاع الطاريء ومدارس أهل الشرع وزوايا وتكايا المتصوفين استحقت العطايا والمنح الحكومية وفي هذا المضمار تم وقف أملاك وأراض كبيرة بل أن حتي قري بأسرها تم وقفها لهذه المؤسسات المتنازعة حتي وصل الأمر إلي أن عالما كبيرا مثل الإمام الغزالي الذي كان يقوم بدور أساسي في هذا النزاع وكان يتمتع بهذه المنح لم يستطع السكوت علي هذه الحالة المزرية وكان يشكو ويقول أن الذي يريد الجاه والمنصب فعليه أن يتوجه إلي مدارس العلوم الشرعية لأن المناصب الاجتماعية والسياسية والتصرف في الأوقاف لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال هذا الطريق أما الطب والعلوم الطبيعية الأخري فلا يوجد أحد يود التوجه إليها لأن من يتصل ويرتبط بهذه العلوم فلا مكان له لنيل الاحترام والتوقير السياسي والاجتماعي ولا يستطيع التصرف في الأراضي والعقارات الخاصة بالأوقاف. سواء كانت مصر للفاطميين أو بغداد لنظام الملك فالاثنتان كانتا في حاجة ماسة إلي علماء الشرع كي يقوموا لهما بالدعاية السياسية المؤثرة بلغة الدين مع تقديم الأدلة والبراهين من الشريعة والإثبات أن هؤلاء الحكام هم أحق بالملك والسياسة.

إن استغلال الروايات والأثر والفقه والتأويل للأغراض السياسية ترتب عليه أضرار خطيرة بعيدة المدي فبعدما زالت الخلافة لهاتين القوتين المتنازعتين وأصبحتا في طي كتب التاريخ لم نستطع أن نتخلص من الأدلة العقيمة المثبطة للاستحقاق السياسي سواء للعباسيين أو للفاطميين لأن هذه الدعاية السياسية العارضة كانت قد سجلت ودونت في كتب العلوم الشرعية وأهم من هذا أن المدارس الشرعية التي كانت قد أقيمت وفقا للظروف السياسية حصلت للأبد علي اسم الوثائق المستندة وتم تعميم هذا الرأي أن العلوم تنقسم إلي قسمين الأول هو قسم العلوم الشرعية الذي كان قد نال بسبب الدين علي مرتبة التقديس والثاني هو علوم العجم أو العلوم الحديثة وعدم احترامها أصبح واضحا من أعجميته الأصلية. غير أن هذا التقسيم الذي عرفه لأول مرة (أبو عبد الله) الكاتب الخوارزمي (المتوفي387هـ) في كتابه (مفاتيح العلوم) لم يكن مصطلحا مخططا بل كان نوعا من التقسيم للتيسير والتسهيل من صاحب واضع الفهارس ولم يخطر قط بباله علي أنه سيأتي يوم يصبح هذا المصطلح للعلوم الشرعية الذي وضعه سببا لملابسات مضللة ويتعرض المسلمون لمشاكل عديدة بسبب هذا الالتباس وهو أن بعض العلوم توصف بالشرعية وحاملوها يستحقون كل التقديس والاحترام علي أساس أنهم حاملو إرث العلوم النبوية وأما العلوم الأخري فهي من صنيع وتفعيل العجم وبناء علي هذا فهؤلاء لا يستحقون التقدير اللائق مثل الفريق الأول الذي ذكر آنفا.



Binding Side

إن هذه الأجهزة والمؤسسات الداعمة للعلوم الشرعية التي كانت من نتاج المصالح السياسية الطارئة تحولت بقدرة قادر إلي صنم للبابوية الجديدة وانتشر هذا الرأي أن شرح وتفسير الدين وتأويله هو من حق علماء الشرع لأنهم ورثة علوم النبوة غير أن علماء الشرع هؤلاء كانوا ينتمون في البداية لأسلوب الفكر المذهبي والطائفي وكانت الحكومات ترعاهم وتعتني بهم علي أساس أنهم كتيبة الطلائع لنظريات الأنظمة السياسية القائمة. فعلماء الأزهر القديم إن كانوا مكلفين بإثبات أحقية الخلافة للفاطميين فأجهزة بغداد النظامية كانت طليعة للفكر السني وكان عليها أن تثبت أن آل العباس أحق بالحكم السياسي وحينما ظن الناس أن هذه المؤسسات والأجهزة المتنازعة فيما بينها حصون للعلوم الشرعية وأصبح الخلاف والجدال شيئا طبيعيا ومتلازما للعقل المسلم. ولا يتصور الآن أنه من الممكن أن يكون للإسلام نهج نبوي واحد ويصبح مبرأ من أثر الروايات المتعارضة والمناقشات السياسية والمجادلات الفقهية العقيمة لأن الفكر الإسلامي أصبح يدور حول محاور الشيعة والسنة وأصبح حتي التصورلتشكيل وترتيب قالب إسلامي متحد أمرا من سابع المستحيلات ويسيطر علي الإحساس دائما بأن أي مبادرة لهذا الهدف يكون سببا في الانهيارالكامل لكيان الإسلام السائد الآن.

إن مصطلح العلوم الشرعية كان سببا في خلق التباس كبير آخر ألا وهو أن هل حق الشرح والتفسير والتأويل في الإسلام لفئة خاصة مع أن الإسلام منبع للحرية الفكرية وفي القرآن الكريم قيل عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه جاء كي يخلص الناس من الإصر والأغلال. هل يكون من سخرية التاريخ أكثر من هذا أنه تشكل لدينا دون أن نشعر بابوية جديدة عن طريق العلماء وقساوة قلوب هؤلاء الأحبار المسلمين الذين يصدرون الفتاوي بشكل منظم ويدعون بلسان حالهم أنهم وسطاء بين الله وعباده بسبب الشرح والتفسير والتأويل غير أن هذه الفتاوي الصادرة منهم تنقدها الفتاوي الأخري الصادرة من علماء آخرين لأن أي فتوي من الفتاوي الصادرة من عالم تتعارض بفتوي عالم آخر ثم الفكر الفقهي وبعد النظر لواحد من العلماء يرفضه فتوي الآخر ويحكم القرآن نفسه علي بطلان هذا العمل "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا". بسبب العلوم الشرعية حصل العلماء علي القداسة ووظيفة الأحبار كانت لا تتسع للحياة الإنسانية الشاملة بسبب ضيق حيزها لأن محور مناقشة علماء الشرح هؤلاء كانت آيات الأحكام فقط والتي تصل حسب التوقيف من 150 إلي 500 آية أما آيات القرآن كلها ما عدا هذه الآيات فإما كانت مخصصة للتلاوة فقط أو كانت ملغاة ومنسوخة لأن آيات الاكتشاف كانت تحسب خارج دائرة علماء الشرق وبسبب احتكار علماء الشرع القرآن الكريم بدأت علاقة أصحاب العلوم الاكتشافية والطبيعية تضعف بكتاب الهداية غير أن المجتمع الإسلامي كان في طليعة في حرية الفكر في يوم من الأيام حيث كانت امرأة بدوية تعترض في الاجتماع العام علي فهم خليفة المؤمنين عمر رضي الله عنه للقرآن الكريم والخليفة عمر يجد نفسه مضطرا ليرجع عن موقفه ولكن بعد وصول علماء الشرع إلي القمة لم يبق مكان لمثل هذه المناقشة الصحية والآن لا يقطع الفتوي إلا الفتوي لأن الشرح والتأويل والتفسير أصبحت وظيفة داخلية

لطبقة العلماء ولم يكن للناس الذين هم في نظرهم كالأنعام إلا أن يختاروا لأنفسهم فتوي من هذه الفتاوي المتنازعة وكان هذا الرأي المثير للسخرية سائدا أن أئمة الفقه الأربعة هم الأحق حتي وإن كانوا متصادمين فيما بينهم في الظاهر، وبسبب تمحيص وتنقيح العلوم الشرعية من الإسلام أصبح الإسلام نفسه معكوسا وخرج جوهر السنة المحمدية من بين أيدينا والمنازعة السياسية الوقتية بعدما وجدت دعما من تقديس العلوم الشرعية أنتجت مذاهب شيعية وسنية وغيرها من المذاهب وأتباع محمد صلي الله عليه وسلم المنتسبين لهذه المذاهب أنفسهم انقسموا بسبب العلوم الشرعية والعلوم الحديثة.

واليوم وبعد أن مر علي مصطلح العلوم الشرعية ما يقرب من ألف عام وحصلت مؤسسة علوم الشرع بسبب كونها ميراث النبوة ومكانتها التي تصل إلي درجة القداسة في الدين الحنيف فليس من السهل أن يقتنع عامة المسلمين أن الصورة الرائجة للعلوم الشرعية، والمكانة التي يحتلها علماء الشرع ما هي إلا نتاج حدوث أزمة في تاريخنا وأي بابوية في الإسلام سواء قامت عن طريق السياسة أو الجنس كما كانت مواقف مدعي الخلافة من الفاطميين والعباسيين، أو جاءت عن طريق الشرح والتأويل كما ادعي أحبار الإسلام كل هذا وذاك في الواقع مخالفة تماما عن روح وتعليمات وتوجيهات أسس الدين الحنيف. إن كتاب الله منحة أبدية للإنسانية وكل إنسان له حق الاكتساب منه حسب قدرته وتوفيقه من الله سبحانه وتعالي ولا عصمة لأحد بسبب مكانته السياسية أو تخصصه العلمي فالكل يخطيء و يصيب.

إن المجتمع الإسلامي يتغذي بصفة أساسية علي تصور علاقة العبد بربه مباشرة. امرأة بدوية غير معروفة تعترض وتبدي شكوكها علي فهم الصحابي الجليل عمر رضي الله عنه للقرآن وبشأن أسري حرب الردة يواجه موقف الخليفة أبي بكر رضي الله عنه العنيف للنقد من عمر وأصحاب النبي صلي الله عليه وسلم الآخرين ويحسبون أن هذا الموقف غير جدير بالثقة والخليفة الحالي مع قوته السياسية الكاملة يتجنب العمل بموجب قراراته فعندما يمكن أن يواجه فهم أبي بكر وعمر للقرآن الكريم للتحدي وهما يضطران لإعادة النظر في مواقفهما ويتجنبان العمل بقراراتهما فمن أين يتأتي الجواز لقدسية فتاوي بكر وزيد؟ ظل كبار الفقهاء الكرام الذين كانوا سببا في تشكيل أربعة مذاهب مختلفة للإسلام السني أو المؤسسون الكبار للشيعة الذين شكلوا مذهب الإسلام الشيعي عن طريق كتبهم الأربعة فالحق أحق أن يقال أن هؤلاء لم يكلفوا من عند الله، ولم يحظوا بصحبة رسول الله صلي الله عليه وسلم ولا صحبة أصحابه الكرام فلا ضير من أن نتصور الإسلام بدونهم. الحقيقة المرة أن كل الجهود التي بذلت في الأمة للتجديد والإصلاح بذلت دون النظر إلي هذه القضية بقصد أو دون قصد. وما لم نحسن شخصيتنا من جديد وما لم ننجح في السيطرة علي هذا التشتت الفكري والنظري الذي تقوقع داخلنا والذي يمزقنا كل آن تمزيقا لا يخيل ولا يتصور لأي بداية جديدة ما دمنا



Binding Side

ندور حول هذه الحلقات والدوائر القديمة المفرغة. فلن ينتج من هذا اللف والدوران أي شيء مفيد. ولكي نبدأ بداية جديدة لا بد علي الأقل من بناء شخصية تتغذي عن طريق الوحي الرباني مباشرة بدلا من التاريخ وتكون ملمة برأس مال العلوم جميعا بل تكون هذه الشخصية مبرأة من ذنب تقسيم العلوم إلي شرعية وغير شرعية وألا يكون حجرها ملوثا بخطيئة تقسيم العلوم والإحساس بأن العلوم الأخري أقل شأنا وكذلك معرفتها بالرسالة المحمدية علي صاحبها أفضل الصلاة والسلام وألا تكون معلقة ببيوت الأئمة الأربعة والأئمة الإثنا عشر والتشبث بالإسلام التاريخي ولكن علي هذه الشخصية أن تعثر علي الجوهر الحقيقي للدين المتحد أو بعبارة أخري يمكنك أن تقول أنه لوصول الأمة إلي السيادة والقيادة يلزمنا أن نجد في أنفسنا الجرأة والشجاعة لطي بساط الملابسات التي جاءت في مختلف أصول التاريخ خلسة ومن سوء حظنا نحسبها الجوهر الحقيقي للدين الإسلامي وسوء الفهم هذا مازال مسيطرا علينا.

من يستطيع منا أن ينكر هذه الحقيقة وهي أن العامل الأساسي لانحطاطنا والالتباسات النظرية والانحرافات الفكرية هو ارتداء النزاع السياسي لغة الدين والذي تحول فيما بعد إلي حرب أهلية بين الشيعة والسنة بشكل منظم. هذا النزاع كيف مزقنا وفرقنا وصار تاريخنا ملطخا بالدم والعار بسبب المعارك البينية.

من ذا الذي لا يحس ولا يشعر بآلامها؟ وقتئذ كانت خلافة الفاطميين أو كانت إمارة آل بويه كل منهما كان يتمني أن ينمو الاتجاه الطائفي والمذهبي. وعلي الجانب الآخر كان تشكيل الإسلام السني ضرورة سياسية لخلفاء العباسيين لأنه بدونه لم يكن ممكنا أن يرتفع ويعلو هذا الدعاء من منابر المساجد "اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنبا". والآن وبعد أن ذهب هذا النزاع السياسي مع الريح أصبح أصحابه في طي التاريخ فليس هناك سبب في أن يكونوا عائقا في مسيرتنا كأمة بأفكارهم البالية. كذلك نحن اليوم معرضون في موضوع العلوم للملابسات بدأنا بسببها نفقد سيطرتنا علي العلوم الاكتشافية فلا بد من تداركها لأن كل مبادراتنا العلمية بدونها تشهد علي رجعيتنا وعقولنا المستنيرة تظل منشغلة في البحث عن أبحاث العلوم الشرعية الجزئية والتي لا طائل من ورائها وظلها المقدس يزيد من التباساتنا في أمور الحياة وخاصة في العلم وهكذا يظل ينتج نوعان متناقضان من الفكر يكونان شخصيتين متضادتين ومادامت ثنائية الدين والدنيا قائمة عندنا فكيف يمكن لأحد أن يوظف نفسه في علوم أقل شأنا من العلوم الشرعية لأنه بممارسته هذه لن ينال الفوز في الآخرة ولن ينال التوقير اللائق في هذه الدنيا لأن علومه لا تدخل في دائرة علوم النبوة وهي ليست من العلوم التي لها القداسة.

ومن أجل بداية جديدة ليس كافيا أن نطوي صفحات تاريخ الطائفية والمذهبية فحسب بل يجب إزاحة الستار الأساسي لهذا الالتباس الذي حرمنا من نور العلم وبسببه يفشل كل ساع للتحليل والاختبار قبل أن يؤتي أكله.

مازلنا نغض الطرف عن تقسيم العلوم إلي شرعية وغير شرعية مع أن هذا التقسيم غير قرآني ومضلل وإن كان بعض علمائنا الكبار في الماضي احتجوا علي هذه الحالة المأسوية ولكن بأسلوب غامض منهم الإمام الغزالي الذي لا يعد الفقه من العلوم الشرعية لأنه في نظره يتصف بأمور دنيوية والآن حان الوقت ليتحول هذا الاحتجاج الصامت إلي محاكمة علمية جريئة ويعلن علي الملأ من غير مخافة لومة لائم أن تقسيم العلوم إلي شرعية وغير شرعية في الواقع تقسيم غير شرعي ولقد كان هذا التقسيم نتاج تاريخ مر بأزمة طارئة ولا يمكن بأي حال من الأحوال تقديم الأدلة والبراهين من الكتاب والسنة علي جوازه فإن قضايا النكاح والطلاق والفقه والأثر من العلوم الشرعية مثلها تماما التفكير والتدبر في الأنفس والآفاق وتلبية الدعوة الربانية للسير في الأرض (سيروا في الأرض) والنظر إلي السماء من مطالب الشريعة أيضا.

إن مدارسنا وجامعاتنا لم تصل إلي الآن لنتيجة مثمرة في مجال العلوم العصرية فسببها لم نتمكن بعد من قطع وتمزيق ستار الانحرافات والالتباسات التي كانت من نتاج أزمة العباسيين ببغداد. وعلي الجانب الآخر لم تظهر أي نتيجة ملموسة من الجامعات والمدارس العصرية بعد ترقيعها ببعض العلوم الإسلامية وذلك أيضا بسبب نفس الالتباس الفكري المتعلق بالعلوم الشرعية. والمصيبة الكبري أن الشيء الذي نحسبه علما شرعيا هو نفسه مغاير ومخالف للتصور القرآني عن العلم بل أن المنهج العلمي الناقص له دخل في هذا الأمر منذ وضعه وتشكيله. عليك أن تفكر وتتمعن أيها القارئ الكريم أن الأصول الأربعة للفقه وهي القرآن الكريم والسنة النبوية والإجماع والقياس سواء بسواء. كيف يتأتي لهذه المصادر الثلاثة الأخيرة أن تكون ندا ومساويا للقرآن الكريم لأنها مصادر اجتهادية لكن العلماء الشرعيين جعلوها متساوية في التأويل والشرح والتفسير مثل كتاب الله الخالد. كيف لا ينتج حول هذا المنهج الاختلاف، والواقع أن هذه المصادر الاجتهادية قد وضعت في طريق تجليات كتاب الهداية ركاما من الالتباسات المغلوطة وبسبب هذا الخطأ الفادح أصبح القرآن الكريم الذي يعتبر وثيقة ثابتة وغير محرفة للوحي الرباني في مواضع كثيرة تابعا للتاريخ والأثر والإجماع والقياس. وما لم يغير ويستبدل هذا المنهج غير العلمي بل ما لم تتم مواجهته وإعادة المكانة الحقيقية لكتاب الهداية بدون شرط أو قيد لا يمكن التخطيط لبداية جديدة بل سنظل ندور حول المحاور الخاطئة بدون فائدة تذكر.

إن السياسة البينية قد وصلت إلي مداها و لا يستقيم الأمر بأي حال من الأحوال أن جميع هؤلاء الأئمة و الفقهاء علي حق. في واقع الأمر أن سعة الصدر المفرطة هذه هي التي وضعت السدود

و العوائق في طريق مصائرنا الفكرية فلا نجد في داخلنا الجرأة المطلوبة للتحليل و الإختبار الصحيحين ولا نشعر شعورا حقيقيا لمأساة إنحرافنا الفكري. إن المصالح السياسية للعصر العباسي كانت تقضي وجود تجمع ديني يقوم بالتصالح معه وبناء علي المصالح السياسية قدم الإسلام السني الخلفاء الأربعة بإعتبارهم عقيدة السواد الأعظم وذكر في الخطبة العباسية المخصصة لصلاة الجمعة تفضيل سيدنا علي رضي الله عنه مع بقاء تفضيل آل العباس وشملت الخطبة ايضا ذكر الشخصيات الخمسة . كانت هذه المصالحة السياسية المؤقتة من جانب الساسة حيث سعوا لقراءة التاريخ من منظار العقيدة و التاريخ يشهد أن هذه الحيل والتدابير المؤقتة لم تغير من الأمر شيئا فلم ينته الخلاف ولم يتم رجوعنا إلي العقيدة الإسلامية الموحدة التي جاء بها الرسول الكريم محمد صلي الله عليه و سلم بل كلما تقدمنا بدأ إنشقاقنا يزداد و تشرزمنا إلي الطوائف والفرق . و ما دام قد غاب عنا نور العلم و أصبح المنهج العلمي هو ما وضعه واصل بن عطا والذي كان مبنيا عليه تفقهنا و تدبرنا فلم يكن هناك بصيص من الأمل للعودة إلي دائرة القرآن الفكرية من غير إجتيازه .

ولكي نبدأ من جديد لا بد من رفض هذا التقسيم غير الشرعي للعلوم من علوم شرعية وغير شرعية بل للخروج من هذا الإلتباس الفكري يتطلب منا أن نحاكم من جديد في ضوء القرآن الكريم أصول الدين و الفقه محاكمة جريئة ففي هذه الحالة فقط نستطيع أن نتجنب إلي حد ما كتب في التراث الذي جاء نتيجة أخطاء المنهج العلمي والذي استمر في تاريخنا لقرون عديدة .فبدون التشكيل و الإعداد الجيد لوضع تصور للحياة القرآنية و بدون العودة إليه لن تنتهي ثنائية الشخصية ولن يتحقق حلم تكوين الذهن المسلم النشط لأن إدخال وإضافة بعض العلوم العصرية في المدارس الدينية لا يكون إلا عبئا عليها.

أما الجامعات العصرية فحدث عنها ولا حرج لأن المدارس الدينية إن كان يدوي فيها باستمرار هذه المقولة (إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ) فجامعاتنا العصرية كذلك تتسابق في تقليد الغرب الأعمي حيث جميع القوي و الإمكانيات متاحة لإستيراد الأفكار بدلا من الإبداع و كل أحلامنا تتركز علي التنسيق التام والإنسجام الكامل مع المؤسسات العلمية الغربية و منذ البداية هذه الجامعات متلهفة لتتلقي ما يأتي من الخارج وتدل هذه اللهفة علي أن أصحابها بدلا من أن يدوروا حول دائرة الفكر القرآني و يشربوا من منهلها الصافي جرعة الحياة فيتدفق داخلهم شلالا من العلوم هؤلاء يكتفون فقط بالإستفادة من الضوء القادم من الخارج .ذلك لأنهم ليسوا علي معرفة جيدة بماضيهم المجيد ولا دراية لهم مطلقا بالإكتشافات العلمية التي قام بها آباؤهم وأجدادهم والتي إمتدت لقرون ولا يعرفون أن نور هذه العلوم قد تلقفها الغرب وأدخلها في محراب علمه وبسببه يري الغرب اليوم بقعة من النور. والسبب الثاني هو أن ترقيع بعض العلوم الإسلامية في الجامعات الحديثة لم تأت إلي يومنا هذا بأي نتيجة مرجوة بل بالعكس فشل هذا الترقيع فشلا ذريعا ولربما لهذا السبب

منذ قيام جامعة (علي جره) الإسلامية وما أقيمت من جامعات إسلامية عن طريق (او أئي سي ) تم الإكتفاء بإدخال بعض العلوم الإسلامية إلي شعبة الدين أو إلي كلية العلوم الإسلامية واللاهوتية. فأينما يكون التصور الخاطئ عن العلوم الإسلامية و يراد منها العلوم الشرعية يكون بكل تأكيد مبنيا علي التصور الناقص و من أني لهذا التفكير عن الدين أن يهدي إلي الطريق القويم و يمنح حياة كلها أمل وحماس ما دام مأخوذا عن الإسلام التاريخي الذي وصل إلينا من خلال تاريخنا والمنهج الفقهي السائد لدينا.

إن المصلح (سير سيد احمد خان) الذي كان له السبق في الترغيب إلي العلوم العصرية كان مدركا إلي حد ما بأن الفهم السائد للدين والمنهج القائم للدراسة الإسلامية مخالف ومتناقض عن منهج الرسالة المحمدية علي صاحبها أفضل الصلاة والسلام و لذلك إختار سر سيد في ضوء ميراثها الحضاري الطريقة الصحية للتحليل والنقد والإعتراف بالحقائق وهنا بدأ نوع من الأمل نتيجة لعلم الكلام الجديد والتفكير السديد لكن مسلكه بشأن الغرب كان معقدا ومقلدا ولذلك فشل في إرساء تقليد علمي جديد. فلقد انبهر بمشاهدة المباني التاريخية القديمة لجامعات كيمبردج وآكسفورد والتي كانت قد بنيت علي الطراز المعماري الإسلامي فجعلها سير سيد نموذجا له لكنه قد نسي تحت ضغط الدعاية الغربية أن يدرس هنا أن إرسائها ورقيها وانتشارها كان بسبب امتزاجها واصطباغها بلوننا نحن المسلمين.

إن مصطلح العلوم العربية كان مستخدما في القرون الوسطي للعلوم الإكتشافية ولم يكن قد انتقلت هذه العلوم إلي أوروبا علي أيدي المسلمين ولو لم يكن قد تم تدريس وتثقيف علماء أوروبا في جامعات ومدارس صقلية والأندلس في القرون الوسطي ولو لم تكن ترجمت الكتب العربية الخاصة بالعلوم والتكنولوجية إلي اللغة اللاتينية ولغات أوروبية أخري ابتداء من القرن الحادي عشر ووصولا إلي القرن السادس عشر الميلادي فالحضارة العلمية المذهلة التي أدهشت سيرسيد لما كان لها وجود، ومن سوء الحظ آمن سير سيد مثل علماء عصره بتفوق الإنجليزي الأبيض تفوقا عرقيا وسياسيا وحضاريا فماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة أن جامعة (علي كره) قبلت تقاليد الغرب العلمية كما هي بدون تمحيص وتفحيص ليس هذا فقط بل كلف بعض الإنجليز ليكونوا أمناء علي خدمة وتحسين الجيل الجديد للمسلمين لكن في كل هذه المساعي لم ينتبه سيرسيد أن سعيه المستمر أن تكون جامعة (علي كره) مثل جامعة أكسفورد وكيمبردج لابد أن يوجد سعيه هذا قلوبا وعقولا تابعة ومطيعة للجامعات الغربية ولم يتصور أن تأتي القلوب والعقول المبدعة والخلاقة في ظل التقليد الأعمي فالذي يكون متلهفا بالاستمرار علي التلقي والأخذ من الغير بسرعة شديدة لكن بسبب وصول علماء الشرع إلي القمة لم يبق مكان لمثل هذه المناقشة الصحية وأصبحت لغة الفتوي هي التي تقارع الفتوي الأخري

بشكل حاسم. أصبح الشرح والتفسير والتأويل وظيفة خاصة بطبقة العلماء ولم يكن لعامة الناس الذين هم في نظرهم كالأنعام إلا أن ينتقوا فتوي من هذه الفتاوى المتناحرة بين الناس حيث كان هذا الرأي سائدا أن الأئمة الأربعة جميعهم علي حق. إن التقاليد العلمية العريقة و المقالات التي تشجع علي الإتحاد والإصلاح أصبحت جزءا مهملا في أقسام العلوم حتي فهم و بصيرة سيرسيد نفسه و منهجه العلمي العظيم للتفسير والتأويل ضاع في البيئة المقلدة لجامعة (علي جره) .والحق أيضا أن (علي جره) ظلت مزاحمة للحرية الفكرية و التفكير الاجتهادي لمؤسسها . إن خدمات (علي جره) لا غبار عليها لكن كل هذا في مقابل الثمن الغالي الذي دفعه مؤسسها في شكل تنازل عن عزائمه من أجل المصالحة.

سواء كان كالشيخ محمد عبده أزهريا أو كشبلي النعماني ندويا أو أصحاب المساعي الأخري من هذا القبيل لتجديد ووضع منهج جديد للتعليم، مما لا شك فيه أن هؤلاء كانوا معتمدين علي اساس تقليد جار هش لكن هذا التقليد كان تقليدا منحرفا وكان نتيجة مجادلات و نقاشات اليونانيين القدماء أكثر من أن يكون نابعا من منهل الوحي الرباني . ثم كيف يمكن أن يكون أي سعي لجمع القديم و الجديد ضامنا لبزوغ فجر إسلامي جديد لأنه سواء كانت جامعة الأزهر أو معهد ندوة العلماء لم يكن أي منهما مختلفا عن نظيرهما مدرسة ديوبند منهجيا. بل أنه فيما بعد عندما وجه السيد أبو الأعلي المودودي رحمه الله لجامعة (علي جره) النقد اللاذع شديد اللهجة و قدم مشروعا جديدا لنظام التعليم وقع أيضا فريسة للعلوم الشرعية السائدة ولم تتركز توجهاته علي العلوم الاكتشافية. ربما كان وراء هذا الإخفاق أنه و غيره من السادة رغم إستشعارهم لدواعي الإصلاح و التجديد أقروا أن الفهم المتوارث للإسلام هو الأصل و علي الرغم من دعواهم المتتالية أن مرجع إكتسابهم المباشر هو القرآن الكريم لكنهم كانوا يعلمون جيدا أن علاقتهم بمدارس الأئمة الأربعة علي الرغم من نقدهم الشديد لأضرار منهج علم الكلام كانوا يحسبون وضع المنهج التعليمي الجديد أمرا مستحيلا لأنه يزلزل الأساس التاريخي للإسلام الموروث. فمن هؤلاء السادة من كان سنيا حنفيا ومنهم من كان شافعيا أو حنبليا و الدراسات التي قاموا بها طوال حياتهم لم تستطع أن تحررهم من هذه المراجع والمصادر التي وضعها الإنسان مثلهم فكيف كان في الإمكان أن يرفع هؤلاء أيديهم عن الأئمة الأربعة و عن الطائفية للشيعة و السنة و أن يضعوا حجر أساس لبناء تقليد علمي جديد للإسلام الموحد وغير المحرف والذي يأتي نتيجة دراسة كتاب الكون بكل حب وشغف علي أيدي حاملي الكتاب.

إن البداية الجديدة الخالصة تقتضي إلي مبادرات ثورية ومالم تنكسر القوالب القديمة للتفكير فلن يتأتي تشكيل قالب جديد ويمكنك أن تشير إليها بعبارة أخري أن ألف عام من الزمن قدمرعلي التباساتنا العلمية وانحرافاتنا المنهجية.وهناك علي الأقل شرط واحد لإعداد ذهن جديد الذي لايمكن

إعداده بكل تاكيدعن طريق مطالعة ودراسة الكتب القديمة.إن هذا الذهن الجديد بدلا من أن يسلك الطرق البالية للشرح والتفسير عليه أن يتأهل للتعامل مع علم الهداية القرآن الكريم حتي يتلألا ويستنير طريق حياته الفردية والاجتماعية بتجليات الوحي الربانية ومع آيات الأحكام تكون بكل تأكيد آيات الاكتشاف محور تركيزه وتوجهاته أي يبدأ طريق التعامل مع كتاب الهداية كوحدة واحدة للرسالة. وهكذا تنتهي الصورة الحالية ل( وجعلوا القرآن عضين).

علينا أن ندرك أولا هذه الحقيقة وهي أننا كأتباع خاتم الأنبياء والمرسلين آلت إلينا قيادة وسيادة التاريخ إلي أن تقوم الساعة. وبعد لحاق الرسول صلي الله عليه وسلم بالرفيق الأعلي أصبح القرآن في مقام الحجة بعدالرسل وهو كذلك بمثابة مرسوم إلهي ودستور للحياة. وإبعاده عن حياة الانسان سواء كان بسبب الالتباس الفكري والنظري أو بسبب الشرح والتفسير والتاريخ والأثر أو وضع حراس علي مطالبه ومقتضياته عن طريق الحيل الفكرية والكلامية فبهذا لن يتضرر المسلمون علي مستوي الأمة فقط بل يكون سببا في تضليل طريق المسيرة الإنسانية.

ثانيا: علينا ألا نتردد في قبول هذه الحقيقة أن الصدي والصوت لمنهج علم الكلام الصادران من المدارس اليونانية كانا يترددان في القرون الأولي للإسلام، وهذا هوالمنهج الذي في الآخر ساد كمنهج علمي معتبر بعد أن نال دعما من الأصول الأربعة للوصول والسعي للخروج من الطريقة الكلامية المبنية علي النقد والتصويب بدلا من انكماشها بدأت تتسع أكثر فأكثر. وكانت النتيجة أن إمكانيات تشكيل منهج حر للفقه والتأويل أصبحت معدومة وفيما بعد استخدمت الفرق والطوائف المسلمة هذا المنهج لأهداف طائفية فالذين كانوا ضدالفلسفة اضطروا للرد علي معارضيهم بالإستعانة بعلم الكلام لمنهج غربي وهكذا أصبح شرح وتفسير الدين تابعا لمنهج أجنبي للأبد. في هذه الحالة لابد للذهن الجديد أن يكون علي معرفة جيدة بأضرار هذا المنهج العلمي السائد بل عليه أن يجد في نفسه حماسا لبناء منهج علمى في ضوء الكتاب والحكمة.

ثالثا: إن المدرسة اليونانية لم تقاوم الرسالة المحمدية في منهج تفسيرها وتفقهها فقط بل أرادت أن تضع عوائق في طريق الحركة الاكتشافية والطبيعية وهكذا ضاعت عدة قرون ثمينة في ترجمة الكتب العلمية الاكتشافية واصلاحها وتصفحها وذلك في العصر العباسي. وحينما قاس المسلمون الالتباسات اليونانية للاكتشافات العلمية بميزان المشاهدة والتجربة رفضوها ووضعوا بدلا منها أسلوبا كلاميا في الفقه والتفسير لأن كل بداية جديدة بدونها تكون توسيعا للعمل القديم البالي.

رابعا: لابد للفكر الجديد أن يستفيد من التاريخ والأثر بكل تأكيد خلال اكتساب العمل من كتاب الهداية لكن لا يعدها أساسا لفهم المتن فليس بشأن الوحي أن يكون تابعا للتاريخ والأثرفالوثيقة الأبدية التي كل كلمة من كلماتها فوق الشبهات لايمكن تحويلها إلي المصادر والمراجع الظنية لأن معناها إلغاءها وتعطيلها.

التاريخ هوالتاريخ لايمكن أن يكون مفتاحا للمتن ولايجوز اعتبار التاريخ كالدين والعقيدة كما حدث عندما اعتبرناالشيعة والسنةوالحنفية والشافعية والزيدية والجعفرية قالبامستندا معترفا به للدين وعلي هذا فالعقل الجديد الذي يجب عليه أن يقوم بإعمال عمل الرسالة في عصره وزمانه لا يمكن أن يكون هذا الفكر شيعيا ولا سنيا ولا يعتمد علي أي من هذه المصادر مثل اعتماده علي القرآن الكريم.

خامسا: ضرورة بداية جديدة تحمل في داخلها اعترافا حقيقيا وهو أن النتائج المطلوبة العلمية والاكتشافية التي أشار إليها القرآن الكريم لم تظهر بعد وذلك لتسرب المنهج العلمي الأجنبي، ونتيجة لهذا بدأ أسلوب التفكير الأسطوري ينال قبولا بدلا من الأسلوب العلمي والاكتشافي وأصبح هذا الأسلوب عائقا في طريقنا. ودعاة التسخير والاكتشاف في عا م١٥٨٠م هدموا بأيديهم ومعاولهم أكبر مرصد في العالم الواقع في استنبول. وهذا هو الزمن الذي كان" تائيكو براهيي" يسعي في الغرب لإقامة أول مرصد في أوروبا. وفيما بعد وبالتحديد بعد مرور ٧٥ عاما من الزمن أقيم في جبل (جرين ووتش) بانجلترا مرصدا بريطانيا وقيام هذا المرصد كان بمثابة إعلان عن انتقال السيادة إليهم وأصبح توقيت (جرين ووتش) مقياسا ومعيارا.

يجب علي الذهن والعقل المسلم الجديد أن يودع أسلوب التفكير الأسطوري ويمسك بيده مرة أخري زمام سيادة وقيادة العالم والتاريخ، ويحدث هذا حينما يدرك المسلم جيدا أنه من أمة أخرجت للناس وبدون مسايرة هذه الأمة سفرالتاريخ لامعني ولاقيمة له.

ولإعداد العقل الجديد ولبناء الشخصية الاسلامية الجديدة الموحدة لابد من إقامة جامعة يمكنها أن تكون مبعث نتائج ثورية كبيرة حيث يوجد عزم وتصميم علي أن يقوم كل شئ من جديد وينشأ هناك فكرمختلف، فكر يقرأ ويدرس التاريخ الماضي لأخذ العظة والعبرة ويضع الحال علي ميزان التحليل والاختبار ويكون مؤهلا لرؤية المستقبل بعين البصيرة، فكل الجامعات التي توجد في وقتنا الحالي سواء في الشرق أو في الغرب هي سبب لمعان ورونق الحضارة العصرية فخلال الاستفادة من هذه الجامعات علينا أن نكون علي حذر تام. ففي الشرق إن كانت هذه الجامعات معرضة للثنائية ففي الغرب أيضا وبالذات بعد قيام المجمع الصناعي العسكري يوجد بين الأدب والفلسفة من ناحية وبين العلوم والتكنولوجيا من ناحية أخري خليج وبدأ يتعمق هذا الخليج فطالب الأدب والفلسفة أصبح غريبا في حضارة التكنولوجيا الغربية وأصبح نشازا ومعني هذا أن الجامعات الغربية ليست بمنأي عن الثنائية والازدواجية العلمية وانقسمت إلي قسمين بل الحقيقة المرة التي لابد من التسليم والاعتراف بها أن التخصص الكبير قد دمر وجزأ روح البحث حيث أصبح الجهل العام مكتوبا علينا. ففي هذه الحالة استيراد ونقل الجامعات الغربية كماهي ليس حلا وعلاجا ناجحا لقضايانا ومشاكلنا لأن الجامعات لاتقوم بتوزيع العلوم فقط ولاهي عبارة عن وجود علم مجرد بل هذه

الجامعات تبني شخصية حضارية والتي تكون ممتنة وشاكرة لتصور الحياة الذي يشكلها ويهيئها التقاليد التاريخية والدينية والحضارية وإن كان يتصور أحد منا أنه بنقل الجامعات الغربية أو بإقامة مجمعاتها في العالم الاسلامي يستطيع أن يقضي علي فقره العلمي في غمضة عين فهو واه وواقع في مغالطة كبيرة ؛ لأن الجامعات الغربية مع كل جلالها العلمي ومستواها البحثي الفائق هي ربيبة وأمينة تصور وحياة الغرب فمن أين يتأتي من خلالها العقل المسلم حتي وضع أسلوب فكري مخلص بعيد المنال عنها بل أن علماء الغرب أنفسهم يعترفون بسقوطها في أيدي أصحاب رؤوس الأموال.

ولتدارك هذه الحالة المؤلمة يلزمنا أن نقوم بتحديد وتشخيص الأمراض التي أصابت الجامعات العريقة في عصرنا الحالي.

يلزمنا أن نقوم بتحديد وتشخيص الأمراض التي أصابت الجامعات العريقة في عصرنا الحالي وعلينا أن نتخذ تدابير ممكنة للابتعاد عما أصاب الجامعات الغربية ونتجنب عنها بقدر الامكان.

مما لا شك فيه أن قيام الجامعات الغربية وتاريخ تقدمها وتطورها راجع إلي آثار وخيرات الشرق الإسلامي. وكتابة وتدوين التاريخ الجديد الذي بدأ قبل بضع سنوات قد وفرالدلائل والبراهين الكثيرة علي ما أقول فجامعات باليرمو وبولونيا وباريس وآكسفورد كانت نتيجة التأثيرات الاسلامية واستمرت دراسة العلوم العربية أي العلوم الاكتشافية التي ترجمت إلي اللغات اللاتينية والمحلية زهاء خمسة وستة قرون في هذه الجامعات كمناهج دراسية بل لتدريس علم الهندسة وعلم الفلكيات كان واجبا علي الأساتذه في جامعة آكسفورد أن يكونوا علي معرفة جيدة باللغة العربية. والكل سواء من الخواص أو العوام يعرفون جيدا كيف كان كتاب ابن سينا القانون في الطب متداولا في الجامعات الغربية. ولسنا في جهالة أن كلمة كالج في حقيقة الأمر مغربة من الكلمة العربية الكلية بل تسمية الشهادات البكالوريوس والماجستير والدكتوراة كلها مأخوذة من الشرق الاسلامي وكذلك عند منح وتوزيع الشهادات ارتداء الطلبة والأساتذة الملابس الفاخرة مثل الروب والقبعة يشهد هذا التقليد علي كونه تقليدا اسلاميا . بناء علي هذا نستطيع أن نقول أن الجامعات والمدارس الغربية جاءت نتيجة لرسالتنا الاكتشافية والاختراعية. فلا سبب ولا حاجة لأن نشعر في داخلنا بأي نوع من الحرج والضيق في التقليد العلمي العظيم الذي هو في الأصل من انتاجنا نحن فلولم يكن قد حدث في القرن التاسع عشر الميلادي تغيير وانقلاب فكري في الجامعات الأوروبية ولولم يكن الغرب قدنشر الأوهام والدعايات الباطلة عن منصب العلم والمعرفة تحت ضغط من بعض الدوافع السياسية وبالتحديد بعد إقامة مجمع صناعي عسكري أمريكي لولم يكن قد جعلها أصحاب رؤوس الأموال ملاذا ومرتعا مذموما لأنفسهم لم نكن لنصرف النظر أو نعترض علي استيراد هذا التقليد العلمي في شكله المتطور.



Binding Side

لكن مع الأسف الشديد فإن العقول الاستعمارية الغربية في القرن التاسع عشر لم تضع القصص والحكايات الأسطورية فقط لإثبات تفوقها وجعلها تاريخا موثقا بل اخترعت هذه القوي الاستعمارية علوما هدفها الأساسي إيجاد أدلة وبراهين لاثبات تفوق الجنس الأبيض تفوقا عرقيا وسياسيا وتاريخيا وعقليا. من هذه العلوم سواء التاريخ أو الجغرافية أو العلوم الاجتماعية أو المشاهدات الافتراضية المليئة بالسبق العلمي الذي كان نفوذه مستمرا حتي أواخر القرن التاسع عشر. خلاصة القول أن علماء الغرب في القرن التاسع عشر قد دمروا كل فروع العلم بسبب تعصباتهم وأوهامهم. ففي عصور القرون الاستعمارية حيث كان الشرق الإسلامي مشغولا في حرب بقاءه فمن كان يستطيع أن يتحدي النظريات غير العلمية؟ فكانت النتيجة أن الغرب أصبح نفسه سجينا لتعصباته الوليدة وأصبحت العلوم الغربية والجامعات الناشئة في ضوءها سجونا علمية للأجيال القادمة. علي سبيل المثال خذ "سايكوانالسي بفرايد" الذي كان نفوذه مستمرا حتي أواخر القرن العشرين إلي أن جاءت الدراسة الجديدة ل" نيورو ساينس" والآلات والأجهزة الحديثة ل" برينمبينج" فأخبرت وأطلعت عن قلب ومخ الانسان أشياء مختلفة تماما عما كانت معروفة لدي الناس وحسب هذه الدراسة تغير أحاسيس ومشاعر كثير من الناس بدءا من كبار المتصوفين إلي المرضي النفسيين وذلك يرجع إلي تغيير مستوي " سيرو تونين" وكذلك نظرية إرتقاء داروين التي أنتجت في القرن العشرين نوعا من ساينتولوجي بدأت تفقد اعتبارها بسبب دراسات جديدة متعلقة ب (دي اين ايه).

كذلك جميع تكهنات انثروبيولوجي التي تعتبر أهل الشرق غيرعاقلين ووجدانيين وعلي العكس يعتبر هذا العلم الإنسان الغربي صاحب سلوك عقلاني أو الذي يخبر أن عقل الانسان ذات اللون الأبيض يكون أكبر نسبيا مقارنة بالشعوب الأخري. بدأ هذا العلم يفقد اعتباره. لكن هناك التباسات وشبهات أخري لم تنقشع بعد. إن ماركس وويبر المحللان المختلفان الذين أدا بمداخلتهما الفكرية دورا مهما في تزيين العقل الغربي فلم يرفع الستار بعد عن بصيرتهما التاريخية المضللة. عندما يكون الواقع هذا وهو أن جميع المدارس التابعة للغرب في الدنيا تستخدم خريطة العالم المرسومة من " مركيتير" وهي تصور العالم علي غير حقيقتها سبب تحقير الشرق وتعظيم الغرب حيث يتم ترسيم دولة الجزائر امتدادا صغيرا لقارة أوروبا علي سبيل الدعاية وكذلك رسموا شبه القارة الهندية والباكستانية مع رقعتها الشاسعة مثل " سب كانتيننت" وجرين لاند مع مساحتها الصغيرة رسموها كأنها ضعف دولة الصين وفي نفس الخريطة رسموا الدول الاسكندناوية التي لاتزيد عن ثلث مساحة الهند يتم رسمها مثل الهند

وبعد ذلك يتم رفض السعي العلمي لإصلاح هذه الخريطة المضللة علي أساس ترتيب الخرائط علي المسطرة الأصلية ضد الذوق اللطيف الجديد. هذه الخريطة تبدو بأي حال خريطة للعالم بل تبدو كأن شخصاما علق ملابسه الداخلية المبلولة سيئة الشكل.

في ضوء هذه الأمثلة تستطيع أن تقدر كيف يمكن أن تكون هذه الجامعات الغربية الحديثة معنية في التفكير الحر والنقد البناء والتحليل الجرئ. هذا جانب فقط لهذه السجون العلمية التي تسمي في لغة العوام اليوم بالجامعة وإلا فالحقيقة أشد إيلاما من هذا. من أين يأتي الطريق الحر للعلم والدراسة مادامت الأساطير والأوهام الكامنة جاثمة علي القلوب والعقول. وإن كنا نسمع من وقت لآخر النوح والبكاء من هذه الجامعات نفسها فهذا النوح خارج من عدد من النفوس السعيدة المتمردة الثائرة ضد الصورة المزرية في هذه الجامعات والعقول الساهرة الواعية التي تصر حتي في الظروف الحالكة علي أن تفكر وتنقد وتحاكم والحق أن الجامعات الغربية في عالم الاحتضار وهي ليست الآن كمنارة للعلم لتهدي من أنوارها البشرية بل تحولت هذه الجامعات الآن إلي مراكز للخدمة الصناعية للمؤسسات التجارية. والآن ماعليها إلا أن تقدم القوي البشرية لشركات (ديزني) و(إنتل) و(مايكروسوفت) وغيرها من أمثال هذه الشركات كي تلبي حاجياتها واحتياجاتها حسب الطلب. إذن أصبحت عملية التحقيق والدراسة والاختراعات تابعة لرغبات أصحاب رؤوس الأموال وذلك لأن المشاريع الدراسية والحقيقية بدأت تزداد خضوعا لايماءات أصحاب الأموال لأنهم هم الذين يتولون تمويل هذه المشاريع وهكذا أصبحت غايات وأهداف الجامعة خاضعة لرغبات أصحاب رؤوس الأموال الذين لا يرحمون.

والذين يريدون الآن من الجامعة أن تعود إلي سابق عهدها وتبدأ من جديد في أداء واجبها الأساسي وتخرج من الأوهام والأساطير الغربية للقرن التاسع عشر وتعيد سنة التفكير والتدبر الحر العادل مرة أخري يجب علي هؤلاء أن يحاكموا العلوم التي أتت إليهم خلال القرنين والنصف من الزمن وتجري المحاكمة بكل دقة مع استخدام الحيطة والحزروبذل الجهد الشاق فهذا هو الزمن الذي تم إبعادنا عن منصب السيادة والقيادة والغرب الذي كان تابعا أو ندا لنا استغل تقهقرنا وهزيمتنا وانحطاطنا وأراد أن يدون التاريخ من جديد بعيدا عنا وقد حرمنا متعمدا بدافع من الخبث والمكر والخسة.

إن التاريخ الذي كان عليه أن يطلعنا ويخبرناعن مكانتنا الأصلية ويجعلنا واثقين بأننا لن ننهزم أبدا ؛ لأننا أمة آخر الرسل والأنبياء وعلينا أن نؤدي دورا أساسيا وتاريخيا. أماالصناعات العلمية التي أقامها الغرب هي لصراع الاستعمار كي ينفذ مايريد ويسمح للجنس الأبيض أن يعربد ويسيطر علي حقول العالم. مر علي هذه العربدة قرنان ونصف قرن من الزمان وهو سجين الآن في جامعاته ومدارسه التي أقامها بنفسه. أما صوت الاحتجاج الذي كان يسمع من وقت لآخر بدأ يضمحل وجاء دورنا أهل الشرق كي نبدأ أداء واجبنا من جديد علي أساس أننا أمناء التقاليد العلمية والتاريخية والطبيعية وسبب آخر أكبر وأهم من هذا هو أننا مكلفون بقيادة شعوب العالم إلي أن تقوم الساعة علي طريق الرشد والهداية. وبناء علي هذا يجب علينا أن نقوم بعملية تطهير بأيدينا

للتقاليد العلمية في هذا الظرف الدقيق من التاريخ. علينا أن نعرف جيدا أن آلة " بيرادايم" الفكرية التي خلقت كل هذه المشاكل لا قدرة لها أن تحل هذه المشاكل. إن النوايا الاستعمارية والرأسمالية التي لا مكان للرحمة والشفقة فيها استخدمت العلوم والتكنولوجيا لأهدافها الخبيثة إلي أن انهار وتنجس القالب الغربي للتفكر والتأمل والبحث والتمحيص واستحكمت القبضة الاستعمارية المذمومة علي العالم كله. ففي النظام الاجباري سلبت الحرية الفردية وبسبب خراب ودمار البيئة وبسبب الطمع بدأ تغيير ومسخ منتجات الأكل والشرب وأصبح الحصول علي غذاء صحي ومفيد صعب المنال. وإذاكان أحد منا يتوقع من هذه الأجهزة العلمية المشوهة أنها تساعدنا علي الوصول إلي حلول فهذه سذاجة ما بعدها سذاجة بل الحلول المقترحة منها ستخلق مزيدا من المسائل بل أن كل حل في الواقع هو بداية لمشكلة جديدة ؛ لأن هذه الجامعات والمدارس محرومة في الواقع من التفكير السليم بعد الخروج من قوالبها القديمة.

إن اتهام المدارس والمؤسسات الدينية بالجهل تهمة عادية لكن الفكر المحيط بالجامعات الجديدة وخراب ودمار البيئة من جانبها والأزمة الاقتصادية والظلم السياسي فقليلا ما تتوجه أنظارنا إليها وإن كانت المدارس يغشاها التقليد اليوناني وتقليد الآباء والأجداد فجامعات الشرق مصابة بخطأ فادح وهو أن كل ماهو قادم من الغرب فهو بمثابة الوحي المنزل من عندالله فالأولي علاقتها مقطوعة بالدنيا الجديدة وأصبحت عضوا معطلا ولاغيا. أما الثانية فبهاؤها قائم علي الخدمات التي تقدمها لأصحاب رؤوس الأموال وللشركات العملاقة مقابل الأجر.

ولبزوغ الفجر الجديد علينا أن نضع حجر الأساس لجامعة حديثة بعيدا عن القديم والجديد ومتجنبا عن تعصب الشرق والغرب ورافضا للقالب الفكري السائد الآن حيث تكون الموانع السياسية والنفسية والجغرافية والعرقية والقومية معدومة بقدر الامكان.

أمعن النظر قليلا أيها القاريء إن لم يكن قد مر علي سحب بساط المسلمين من السيادة والقيادة العالمية قرنان ونصف قرن من الزمن ولم يكن قد اكتمل قرن علي اختفاء الخلافة العثمانية الرمزية لم يكن قد أصيبت البشرية بكل هذه الكوارث والأهوال فمن يوم ماجاءت الشعوب الأوروبية علي منصة السيادة المركزية لتؤدي دور الزعيم بدأت تترسخ ظلال الظلم والاستبداد في أنحاء العالم. علي سبيل المثال خذ البحارة كولمبس كريستوفر الذي نسمع قصة يومياته الرومانسية بكل شوق لم تكن حقيقتها سوي أن الصليبيين الباحثين عن المادة ووسائلها قتلوا وأبادوا سبعين مليونا من البشر في الدنيا الجديدة أمريكا من ثمانين مليون من السكان وكذلك يقال أن المكسيك كان عدد سكانها في القرن السادس عشر خمسة وعشرين مليون نسمة لم يبق في نهاية القرن إلا مليون نسمة.

وكان يستخدم المواطنون للعمل الاجباري في هذه المستعمرات كما كان يأتي المستعمرون الأفارقة السمر كعبيد ليخدموهم. في كل بقاع الأرض نهبت الشعوب الأوروبية بإسم نشرالحضارة



Binding Side

والثقافة وكانوا هؤلاء يتلفون الحضارات والمجتمعات الأخري بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية .

والطامة الكبري أنها لم تسلم أية بقعة من بقاع الأرض المتحضرة من اعتداءاتهم الوحشية وكلما وفرت الحضارة الانسانية من وسائل ليعيش الانسان حياة سيعيدة وحياة رغدة كان الاستعمار يدمرها من جاوة وسومطرة إلي سواحل مراكش ومن ضفتي البحر الأبيض المتوسط إلي جزر أوروبا نفسها قد انهار كل شئ بسبب الأطماع الاستعمارية وكل ذلك للحصول علي الحقول المتحضرة والمناطق الشاسعة والأراضي الخصبة فقد أباد الاستعمار بني جنسه بشكل منظم وتخطيط محكم حتي أبيدت أجيال وأجيال من علي صفحة الأرض. كان من المأمول والمتوقع أن يرفع أصحاب الضمائر الحية أصوات الاحتجاج علي هذا المستوي الكبير من الخراب والدمار لكن مع الأسف الشديد لم يقم في أوروبا أي تمرد ضد هذه الإبادة. لكن المصيبة أن الذين جعلوا الحرب والنهب والسلب تجارة مستديمة هؤلاء أنفسهم كانوا قد قاموا بتغيير الفكر العلمي والدراسي بشكل جذري ومؤثر مستخدمين دهاءهم ومكرهم كما أشرنا آنفا. والآن كان الواجب الأساسي لجامعات الغرب تشكيل هذه الملحمة والتغني بقدسيتها وهي تزعم أن الشعوب الأوروبية هي الأحق بسيادة العالم وهذا حقها الطبيعي. هذا الانقلاب الفكري للجامعة في الغرب لم يكن سببا للقضاء علي منارة النور التي كانت في إمكانها أن تعالج أقوام الغرب في اللحظات الحرجة بل بسبب غياب المسلمين من الأفق العالمي ابتليت الدنيا كلها بالغرق في عصر من الظلام الحالك.

ولكي نبدأ من جديد لا بد من أن نكون علي معرفة جيدة بهذه النقطة وهي أن واجب الجامعة لا ينحصر فقط في التعليم والتعلم أو التحقيق والدراسة والاختراع والاكتشاف بل عليها أن تجعل التصور للحياة حيا وقائما لأن فيه إمكانيات الخير والفلاح لأقوام وشعوب العالم كلها علي السواء. إن الجامعة هي بمثابة معالم الطريق وهي التي تطلعنا باستمرار عن الجهات القادمة التي علينا أن نتوجه إليها في سفرنا للتاريخ.

ليس من الضروري بالمرة أن تكون الجامعات التي تحمل الفكر القرآني أن تتواجد في المجتمعات الإسلامية فقط تماما كما أمكن للجامعات الغربية التي تحمل تصور حياة الرأسمالية أن تتحرك في المجتمعات الإسلامية ولا يستغرب أحد بنظريتها الأجنبية ففي أوروبا القرون الوسطي حيث أدي نظام التعليم والتعلم والسنة القرآنية للتفكير والتأمل علي كتاب الكون دورا أساسيا في قيام الجامعات وتدعيمها لم يخطر ببال أحد هناك أن كل هذه المثل والتقاليد في الدراسة والاختراع والبحث والتحقيق في حقيقة الأمر امتداد للثقافة العلمية الخاصة بالمسلمين وجذورها تمتد وتوجد في صفحات الوحي الرباني والذين يدلون اليوم دلوا لإرساء الجامعة الجديدة عليهم أن يكونوا ملتزمين بوضع حجر أساسها علي تصور الحياة المبني علي دعوة القرآن من التسخير والاكتشاف فالجامعة التي

تكون خالية من الآفاقية والإلهامية وتصور للحياة السعيدة فمهما كانت فيها من المظاهر البراقة ومهما كانت هي مزودة بالوسائل المتعددة فلا تزيد هذه الجامعة إلا أن تكون مصنعا للعلوم خالية من الروح. لأن معظم الجامعات التي أقيمت في الشرق الأوسط علي أمل موهوم وبريء لعل وعسي أن يخضر بها حقل العلوم في غمضة عين ويعود العالم الإسلامي مرة أخري إلي سابق عهده في التفوق العلمي والحال أن هذه الجامعات مصابة بالشيخوخة وسببها أن التصور الغربي للحياة أيضا تم استيراده مع جميع مستلزمات الجامعة فسواء كان هذا الاستيراد بعمد أو غير عمد ولربما في حماس الرغبة في السيادة أو بسبب الحماس الزائد للإصلاح فقد تم غض النظر عن هذه النقطة الفاصلة وهي أن لكل شخص بشكل أساسي شخصية تاريخية وثقافية أيضا، ومع تغيير التصور للحياة يتغير حلمنا أيضا. إن الطبيعة الثانية للشخص المتحضر تتشكل بالحضارة والثقافة التي تربي فيها وكأن حلم الشخص له علاقة عميقة بالجامعة ولا بأس بها أن يكون حلم المفكر الأمريكي الذي تربي في بيئة الثقافة الأمريكية الطاعة للنظام الرأسمالي الجائر مختلفا عن المفكر الإسلامي بكل تأكيد.

علينا أن نفهم هذا الأمر جيدا أيضا أن المنهج العلمي لا يباع ولا يشتري ولا يستطيع السادة المستشارون الأجراء أن يعدوا شعبا لمنصب عظيم الشأن كالسيادة والقيادة بل الخوف كل الخوف أن استيراد الجامعات الغربية كما هي قد تتسبب في تغيير حلمنا.

ثم إن حلقة التفكير والتأمل لو كانت محفوظة ومأمونة وأهداف الحياة واضحة فإنشاء عالم جديد للتحقيق والدراسة لا يأخذ منا وقتا طويلا لأن مدارسنا في الماضي علي الرغم من جميع التباسات الفكر والنظر أدت دورا كبيرا في التقدم إلي الأمام في أثناء رحلة الحضارة الإنسانية فكان سببه الرئيسي هو أننا كنا علي معرفة جيدة برفعة وعظمة واجبنا الديني والنظري ولو عاد إلينا اليوم حلمنا فمدارسنا وجامعاتنا تستطيع أن تصبح معقلا جديدا للبحث والدراسة المحببة والمشوقة ثم لن نكون في حاجة لاستيراد نظام التعليم السائد في الغرب كما هو وتقسيم العلوم والفنون إلي أقسام وشعب وملء أذهان الطلاب بالقيم الغربية وإخضاعها للهيبة العلمية الغربية ومن الخير لنا أن ندرك هذه الحقيقة بأسرع ما يمكن بأن النظام الحالي للجامعة حيث يتم تقسيم العلوم ثم يتخرج العلماء علي نمط واحد وتوجه واحد وفي نفس الوقت يكون نظام الالتحاق والامتحانات نظاما ميكانيكيا فكل هذه الأمور أدت لفقدان تنمية ورعاية المواهب العبقرية وغير العادية.

هذه الأنظمة في حقيقة الأمر تم تشكيلها كي تكون آلات ميكانيكية أكثر من أن تكون وسائل للعلم والمعرفة فكيف تتسع هذه الأماكن لأولئك الذين ينوون طي بساطها مع بيان نقائصها وأضرارها.

للجامعة المقترحة يجب أن يوضع نظام دراسي بحيث يستطيع الطلبة العباقرة الذين يحبون البحث والدراسة استخدام الإمكانيات المتوفرة للوصول إلي غاياتهم وأهدافهم.

والحفاظ علي حقيقة الفكر والتأمل ليس معناه أن يكون خريجو هذه الجامعات ذات أيديولوجية عقائدية لعلماء الدين كما تهدف المدارس المذهبية من أساتذتها وطلابها أو كما يعتقد مؤسس الجامعة الكاثوليكية أن هذا واجبهم العقدي الديني لكن الهدف من وراء إقامة هذه الجامعة توفير بيئة صحية حيث يكون الطالب حرا طليقا في تجديد غايات وأهداف حياته. أي دور يجب أن يؤديه في كون الله سبحانه وتعالي كمستخلف في الأرض بأمر الله الذي ورد في القرآن الكريم أي كأن محاكمة التأويلات والمناظرات عمل متوافر ومتواصل.

هذه هي الطريقة المثلي للحفاظ علي الحلقة الفكرية وتحسين وتزيين الحياة بالرفعة الجديدة تباعا.

إن العلم لحد ما كان مصونا من تدخل المدارس الميكانيكية والصناعية حيث كان العمل متواصلا من المسجد الجامع إلي المرصد ومن الكتاب إلي مدارس الفقهاء والمحدثين والقصاصين لتحسين جوانب مختلفة لشخصية واحدة.

إن الأطباء والأدباء والفقهاء والعلماء وعلماء الفلكيات كل هؤلاء كانوا علي علم بالمطالب الأساسية للقرآن الكريم وأهداف وغايات المجتمع والآيات الكونية في ضوء جميع هذه العلوم المطروحة علي مائدة المطالعة وحينئذ كان الحصول علي العلم مبعثا علي الطمأنينة القلبية. إن البيئة العامة ل"إنما يخشي الله من عباده العلماء" كانت من نتاج وحدة العلوم. والقول بأن الزمن كان زمن الشخصيات العبقرية عندما يكون شخص واحد طبيبا وفيلسوفا وفقيها وكيميائيا ومحددا لمواقيت الصلاة وخبيرا في علم الفلكيات أيضا فإن هذا القول في الواقع إهانة لإنسان وتقليل لمواهب إنسان اليوم وإصابته حسب المصطلح المستعار ل"كانت" بعدم النضج المفروض ذاتيا. وربما هذا كله لكي يستمر الإنسان كأداة وقطع غيار للنظام الرأسمالي متجاهلا مكانته ومواهبه.

للجامعة المقترحة يترتب عليها أن يتم تخطيط محكم للقضاء علي البيئة اللامعرفية المتواجدة في الجامعات ففي هذه الحالة فقط يمكننا أن نتوقع تخرج جيل العباقرة من الجامعات بدلا من الأفواج التي تتخرج وهي لم تبلغ فكريا مرحلة النضج. نريد من هذه الجامعات أن تخرج عباقرة يكونوا مزودين بثروة الفكر والفن ويكونوا أصحاب ثقة سيادية وليس لديهم حماس لتغيير الدنيا. إن الخريجين من الدراسات الحرفية والذين لا يدركون الغايات والأهداف العليا للحياة بسبب الجهل وعدم الوصول إلي النضوج عقليا والذين هم علي أهبة الاستعداد كل آن لبيع حياتهم مقابل المنفعة الحقيرة الزائلة للشركات الدولية وفي مقابل هؤلاء أولئك الذين يعرفون جيدا عن دسائس هذا النظام البغيض المكروه ويعرفون ثمنهم الأصلي وقدراتهم وإمكانياتهم الهائلة فهم لا يقبلون هذا الوضع بأي حال من الأحوال بدم بارد.

يجب علي الجامعة الجديدة أن تعد عالما شاملا أي أن يكون شيخا كاملا وعليها أن تضع منهجا تعليميا لا يجعل المتخرجين فيها قطع غيار للنظام الرأسمالي المنهار بل يجعلهم مؤهلين لإدخال التغييرات الجديدة.

علي الجامعة المقترحة أن تكون علي معرفة بالمستقبل والحياة وتكون حيثيتها كمئذنة للنور أو كالبوصلة لكن ليس معناها أن يحصر خريجوها أنفسهم للعظات والنصائح الأخلاقية أو الزعم بالمعرفة في إطار الدين.

نحن لم نقم لبناء عالم خيالي وليس عملنا تشكيل وبناء مدينة فاضلة. نحن نسعي فقط لتشكيل الحلقة الفكرية التي كانت قد ولدت حركة اكتشافية علمية بعد نزول القرآن الكريم وبسببه هذا كان قد سلم زمام التاريخ إلي أتباع محمد صلي الله عليه وسلم.

إن قيام جامعة جديدة في ضوء الحلقة الفكرية القرآنية ليس الهدف منها تخيل وتصور بيئة القرون الوسطي بل هدفها تعريف شعوب العالم بالحياة المتجددة وهذا يتحقق عندما يكون في إمكانها إشعار الناس بكونها شمولية وعملية. علي سبيل المثال خذ الاحتياجات الأساسية من الطعام واللباس والدار "المأكل والمشرب والملبس والمسكن" فالغذاء الجيد الذي يسمي الآن الغذاء العضوي والذي ليس في وسع عامة الناس، يجب علي هذه الجامعة أن تجعل توفيره موضوعا دراسيا لها حتي يتوفر هذا الغذاء العضوي لعامة الناس ويصبح الحصول عليه في إمكانهم. كذلك مهندسو العمارة التابعون للحضارة الرأسمالية القديمة البالية التي توشك علي السقوط كانوا يحسبون قمة فنهم بناء أبراج وناطحات للسحاب وهؤلاء ليس لديهم أدني علم أنه حينما يصبح الحصول علي الطاقة أمرا صعبا وكذلك استخدام الطاقة بشكل متزايد يتسبب في تخريب ودمار البيئة. ونجد الآن أنفسنا مضطرين لمنع استخدام الطاقة بلا ضوابط ففي وقت ندرة الطاقة تتحول هذه الأبراج وناطحات السحاب من الآثار القديمة يشاهدها الناس من بعيد والذين منهمكون إلي يومنا هذا في الدرس والتدريس لمثل هذا الطراز من البناء فهم بكل تأكيد طلائع الطراز الفكري القديم وعلي العكس من هذا يجب علي المخططين القارئين للمستقبل أن يكون جل تركيزهم علي ترشيد الطاقة ونظافة البيئة كي يخططوا للمساكن التي تكونت متسقة مع الطبيعة كي تصبح جنة الله علي الأرض ولا يمكن رسم مثل هذه الخريطة الحياتية السعيدة ما لم يشارك في هذا المشروع خبراء البيئة والهندسة والجيولوجيا والعمارة والإلكترونيات والزراعة وعلماء الاجتماع وشخصيات علي دراية واسعة بجوانب فكرية متعددة. منذ زمن ونحن نستخدم الوسائل المختلفة للطاقة الطبيعية والمياه الجوفية علي الرغم من التنسيق مع البيئة ليس في وسعها أن تلبي احتياجاتنا أو أن تكون كفيلة لتلبية حاجياتنا فبعد الحصول علي الطاقة النووية بدأت الجهود للحصول علي الطاقة الانصهارية.

هذا والأمر معترف به أن الذي يستطيع السيطرة علي مصادر الطاقة في المستقبل هو الذي يكون مخولا أن يحدد ترجيحات شعوب العالم.

يجب علي الجامعة المقترحة المشروعة أن تقبل مثل هذه التحديات العلمية كي تحقق وتدرس مختلف الدراسات المطروحة في الدنيا الجديدة وتحلل ما لها وما عليها وتخطو في ضوئها خطوات إلي الأمام. نحن لم نقم لتقديم مجمع عسكري متبادل لكن في نفس الوقت لا نغفل عن هذه النقطة وهي أن في كل عصر من عصور التاريخ كان الذين قادوا أقوام وشعوب العالم علي معرفة جيدة بمعني ومفهوم الآية القرآنية "وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد" ونحن ما لم نعد ونجهز دفاعا قويا ومؤثرا للقاذفات والطائرات بدون طيار ومثل ذلك من التكنولوجيا الحربية وما لم نتمكن من اختراع الأسلحة البديلة لهذه الأسلحة سيكون مكتوبا علينا العبودية السياسية الحاكمة والعبودية العقلية فالمستشارون العلميون المرتزقة والذين يتقاضون المرتبات كثر مما يجعل اللحاق بهم صعبا.

والقضية هنا ليست الوصول إلي ما هم فيه بل السبق عليهم هي القضية وهم لا يمكن في أي حال من الأحوال أن يكونوا مساعدين لنا للوصول إلي هذا الهدف. علينا أن نبادر ونخطو خطوات سباقة للأمام.